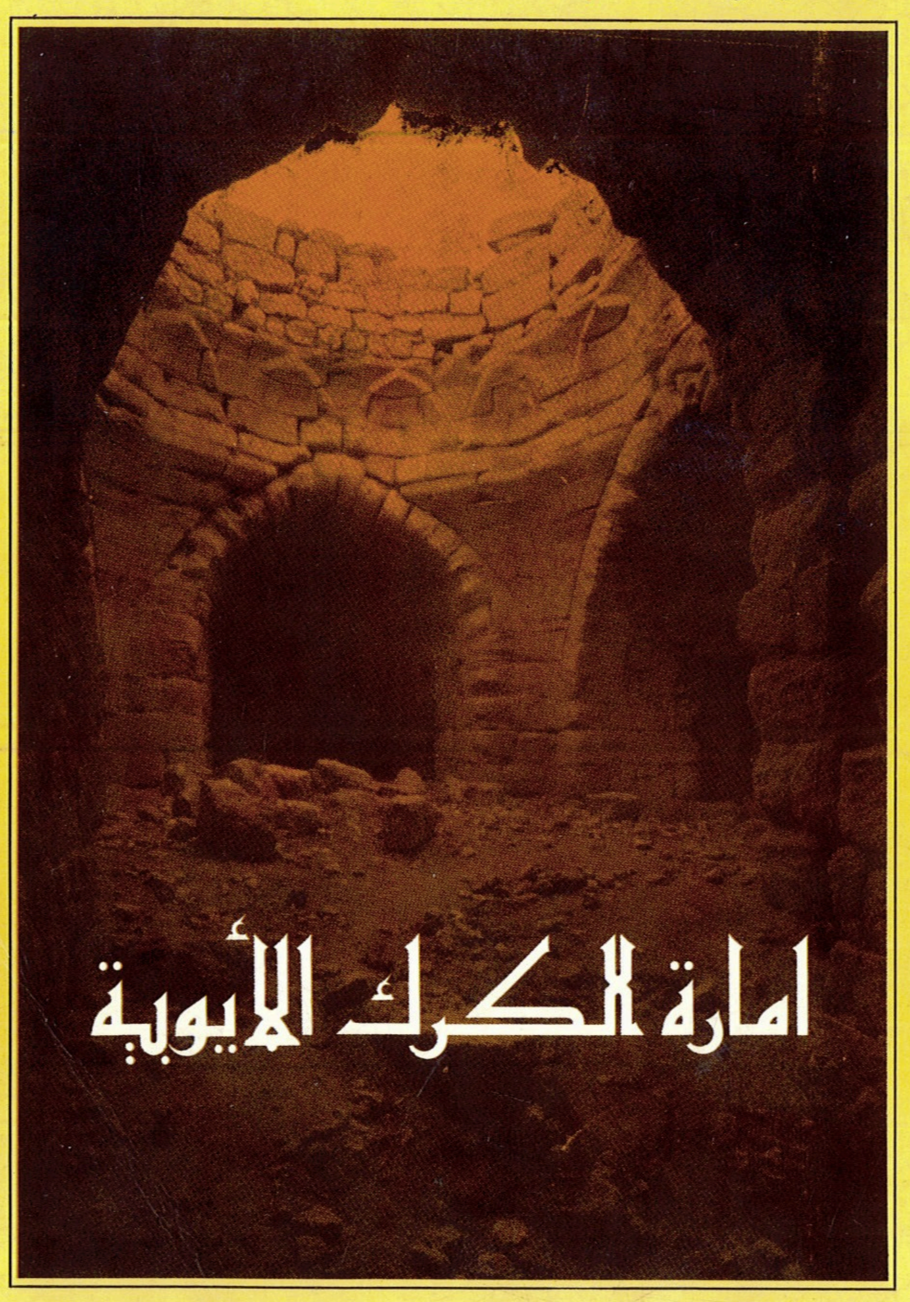
الدكتور يوسف حسن درويش غوانمة



الناشر

دار الفكر - عمان

إمارة الكرك الأيوبية

إمارة الكرك الأيوبية

بحث في العلاقات بين صلاح الدين وأرناط ودور الكرك
في الصراع الصليبي في الأراضي المقدسة

تأليف
الدكتور يوسف حسن درويش غوانمة

دائرة العلوم الانسانية والاجتماعية
جامعة اليرموك

الناشر
دار الفكر ـ عمان

صدرت الطبعة الأولى عن جمعية عمال
المطابع التعاونية عام ١٩٨٠ م ـ عمان
الاردن . والناشر بلدية الكرك

الطبعة الثانية
١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م

الاهــــداء

الى مدينة الكرك التي نالت شرف تحرير بيت المقدس من الصليبيين ، وسجلت صفحات ناصعة في تاريخنا الاسلامي الوسيط ٠

والى أهلها الذين عرفوا بالوفاء لوطنهم وأمتهم وقادتهم على مر العصور ٠

أهدي هــذا الكتاب مع اطلالة القرن الخامس عشر الهجري ٠

المؤلف

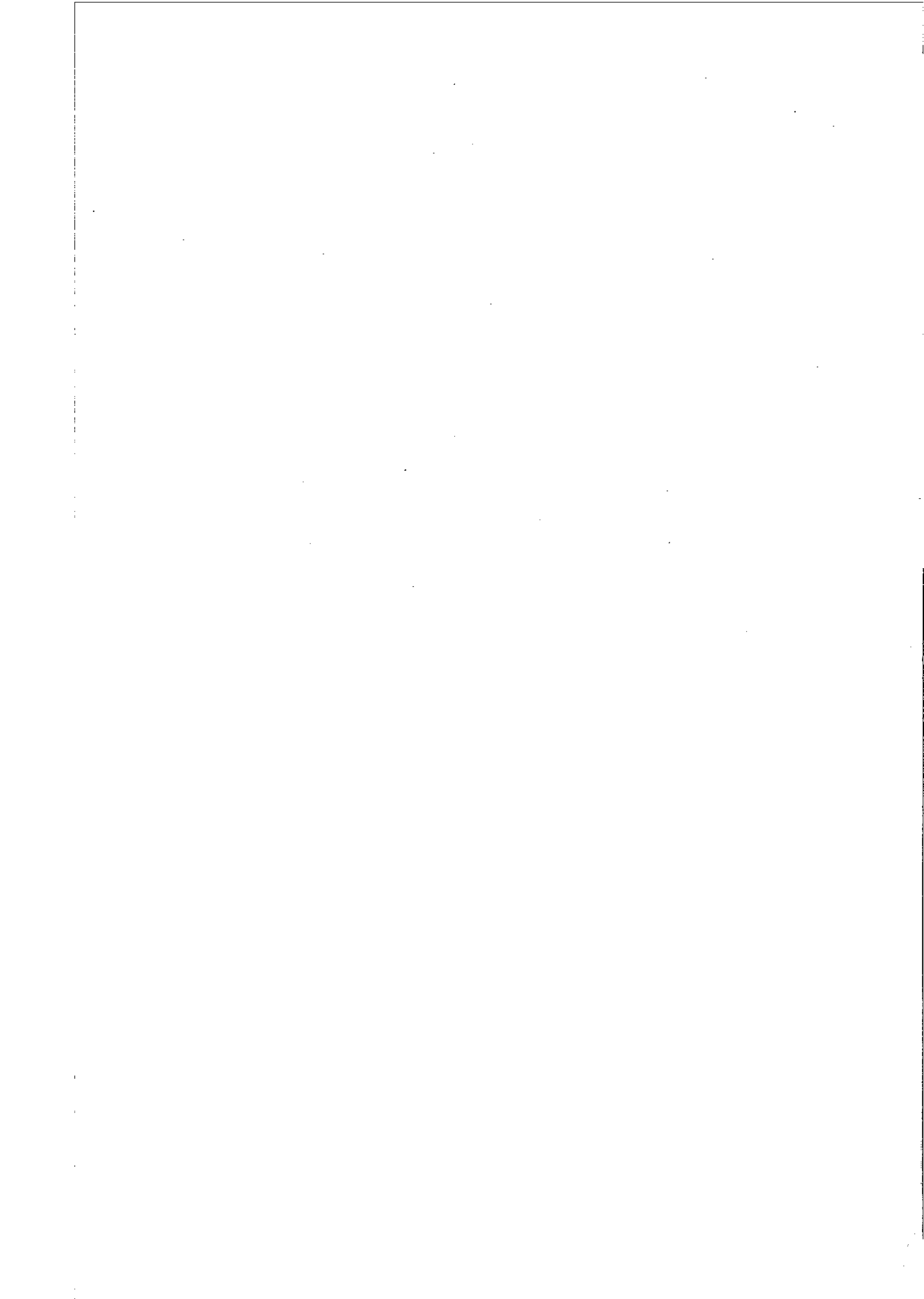
كلمة شكر ووفاء

أخيرا صدر هذا الكتاب واصبح في متناول من يود الاطلاع على صفحات ماجدة من تاريخنا الاسلامي الوسيط ، لعبت فيه امارة الكرك الأيوبية دورا له أهميته وخطورته في رحلة نضالنا ضد الفرنج المستعمرين ٠

ورغم العقبات التي اعترضتني ، والموانع التي وقفت في سبيل صدور هذا الكتاب ، بل وتحدت طباعته ، رغم كل ذلك ، فها هو كتاب (امارة الكرك الأيوبية) بين يدي القارىء الكريم ، سيجد فيه أحداثا مشابهة لما تمر به أمتنا العربية والاسلامية ، علنا نجد العبرة من دراسة تلك الأحداث ، فالتاريخ عظة وعبرة ٠

وكلمة وفاء أسجلها لاستاذي الجليل الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم استاذ التاريخ الاسلامي والحضارة بجامعة الاسكندرية ومدير مركز الدراسات الاسلامية بمدريد ، الذي تتلمذت عليه ، وكان لتوجيهاته أثر كبير في أخراج هـذا الكتاب ٠

المؤلف



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

١ ـ موضوع البحث ومنهج الدراسة .

٢ ـ عرض وتحليل لبعض مصادر البحث .

(١)

موضوع البحث ومنهج الدراسة

لعبت امارة الكرك في العصر الأيوبي ، وهو العصر الذي حددناه للدراسة دورا سياسيا واقتصاديا هاما في تاريخ الشرق الأدنى الاسلامي بوجه خاص والتاريخ العام العالمي بصفة عامة ، فقد كانت المحور الرئيسي للصراع بين القوة الأيوبية في مصر والشام والقوة الصليبية في بيت المقدس والساحل الفلسطيني في المرحلة من الحركة الصليبية ، وبمعنى آخر منذ أن تعرض العالم الاسلامي للهجمة الصليبية التي لا تعدو أن تكون غزوة استعمارية اقتصادية استترت وراء قناع ديني زائف[١] ، وتمركزت في منطقة حساسة من الشرق الأدنى الاسلامي في غفلة من الحكام المسلمين آنذاك ، مستغلة تدهور القوة السلجوقية ، وعجز الخلافة العباسية ، وانحلال وتفكك الخلافة الفاطمية في مصر والشام ، وتمخضت هذه الغزوة عن قيام امارات صليبية أربع أهمها : « مملكة بيت المقدس اللاتينية » ٠ وكان طبيعيا أن يستشعر المسلمون في مصر والشام بما حل بهم من محن وكوارث بعد أن ثاب رشدهم من هول الصدمة وحاولوا تسوية خلافاتهم فيما بينهم والصمود في وجه الخطر الداهم ، ولكنهم كانوا كمن ضل سبيله وأضحى يتخبط في مفاوز ومتاهات ، وكانت هناك محاولات صغيرة ولكنها لم تثمر ٠

ومنذ اللحظة الأولى أدرك الصليبيون في بيت المقدس مدى أهمية منطقة شرقي الأردن بالنسبة لهم استراتيجيا واقتصاديا ، فسيطروا عليها ،

---

(١) فيما يتعلق بالاهداف الاستعمارية للحركة الصليبية راجع :
عمر كمال ، مملكة بيت المقدس الصليبية ، مطبعة رويال بالاسكندرية ، ١٩٥٨م ، ص ٨ — ٣٤ ، سعيد عاشور ، تاريخ الحركة الصليبية ، القاهرة ، ١٩٦٣م ، الجزء الاول ، ص ٢٧ — ٤٣ ، جوزيف نسيم ، الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد السادس عشر (١٩٦٢ — ١٩٦٣) صفحة ١٨٣ — ٢١١ ٠ جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى ، اسكندرية ١٩٦٧م ، ص ٣٧ — ١١٠ ٠

وأسسوا فيها سنة ٥٠٩هـ (١١١٥م) قلعتي الشوبك فالعقبة ، وعلى هذا النحو أطل الصليبيون على البحر الأحمر وهو الشريان البحري الرئيسي للتجارة العالمية منذ أقدم العصور · كذلك كان لا بد لهم لاحكام السيطرة على كل تحرك اسلامي بين دمشق والقاهرة والعراق من السيطرة الكاملة على منطقة نهر الاردن فجددوا بناء حصن الكرك وكبروه وذلك في سنة ٥٣٧هـ (١١٤٢م) ، وبذلك أصبحت كل قوافل المسلمين وتجارتهم تحت رحمة الصليبيين الذين كانوا لا يترددون في التعرض لها عندما تعبر من جانبهم ، وكان ذلك يشكل موردا اقتصاديا هاما لهم ، بالاضافة الى ما كانت تتميز به هذه المنطقة بمزارعها الواسعة التي كانت تمدهم بما يحتاجون اليه من غلال ·

وبمضي السنين ، ولكثرة ما تعرضت له قوافل المسلمين من عدوان في هذه المنطقة ، أدرك المسلمون أهمية هذا الموقع استراتيجيا باعتباره المنفذ الوحيد بين مصر والشام من جهة وبين الحجاز والشام من جهة ثانية ، فكانت محاولات السلاجقة في دمشق والفاطميين في القاهرة لاسترداده ، ولكنها لم تسفر الا عن فشل ذريع واضطروا الى المهادنة ودفعوا للفرنج الرسوم على قوافلهم المارة عبر حصونهم · ثم كانت اليقظة الاسلامية العملاقة التي حمل لواءها عماد الدين زنكي فولده نور الدين محمود ، ثم تسلم صلاح الدين يوسف اللواء بعدهما ، وعلى يديه تم تحرير جانب كبير من مملكة بيت المقدس وفي مقدمته بيت المقدس نفسه والكرك والشوبك · وبتحرير هذه المواقع من السيطرة الصليبية دخلت منطقة الأردن في فلك الدولة الأيوبية وتشكلت فيها امارة أيوبية استمرت فترة ثمانين عاما تقريبا ، لعبت خلالها دورا بارزا وهاما في مرحلة تاريخية من أخطر مراحل التاريخ الاسلامي الوسيط عندما تعرض العالم الاسلامي لهجمة أشد نكالا وخطرا وأعني بها الغزوة المغولية المدمرة العاتية التي اجتاحت العراق ودمرت في بغداد حضارة قرون عديدة · ثم اجتاحت

بلاد الشام ، ولكن قيض الله للعالم الاسلامي النصر في عين جالوت ، فانحسر المد ، وزال الخطر المغولي عن الشام ، ومصر نهائيا ٠

وموضوع هذا الكتاب رغم أهميته لم يحظ بعناية المؤرخين المحدثين ، فلم أعثر على كتاب متكامل مستقل بحث في تاريخ امارة الكرك الأيوبية التي تتفق في حدودها مع حدود المملكة الأردنية الهاشمية حاليا ٠ وعلى هذا النحو يمكن القول بأن هذا الموضوع لا يزال بكرا لم يدرس بعد الدراسة الوافية ، وكل ما هنالك نتف أو شذرات مبعثرة في بطون المصادر العربية تستلزم البحث العلمي القائم على المقارنة والاستنباط والتحليل لتخرج منها مادة تفي بالغرض ، وهكذا كانت مهمتي شاقـــة مضنية وفي نفس الوقت شيقة ٠ شاقة لأنني اضطررت الى جمع هذه المادة المبعثرة من كل ما وقع بين يدي من مصادر عربية وما تردد ذكره في الكتابات العربية والأوروبية الحديثة وقد بذلت كل ما في وسعي للافادة من هذه المصادر وأسخرها لخدمة هذا البحث ، مصطنعا الأسلوب العلمي في صياغته خصوصا اذا أخذنا بعين الاعتبار تعدد المشاكل والأحداث وتشعبها وتشابكها ٠ وكنت أحس وأنا أجمع مادة هذه الدراسة بسعادة لا حد لها ، اذ أتاحت لي أن أعيش بين صفحات مشرقة من تاريخنا الاسلامي المجيد ، فتعرفت على علمائنا ومؤرخينا ، وعشت بين هذه المصنفات فترة زاخرة باحداث أقرب ما تكون الى ما نعانيه اليوم ، ولكن أجدادنا تغلبوا عـلى ذلك بالايمان العميق والتعاون الوثيق والوحدة الشاملة ٠ ثم انني عندما بدأت أفكر في اختيار موضوع هذا البحث كنت أستهدف أن يكون تاريخا لبلد أنتمي اليه وأحبه ، وله علي دين وواجب ٠ حاولت أن يكون تاريخا لبلد تشدني اليه محبة ووفاء ، وتاريخا يقرؤه أبناؤه فيعرفوا ما ضيهم وتاريخ أجدادهم ويكون منه الدرس والعبرة التي تفيد في جمع الصفوف ولـم الشمل وتقوية النفوس وشحذ الهمم والتأليف بين القلوب ، حتى ينطلق العرب والمسلمون نحو غد مشرق يستطيعون به تحرير الأرض ،

أرض المقدسات والتي كانت وما زالت مطمع الغزاة والمستعمرين . لقد حاولت أن أضع أمامهم الظروف وأشرحها وكم تتشابه الأحداث وان اختلفت الشخصيات .

ولقد قسمت البحث الى قسمين رئيسين ، فالباب الاول : خصصته لدراسة الأحداث السياسية ، ويتضمن هذا القسم ستة فصول ، أفردت الأول منها لتفسير اسم الكرك ومدلوله من خلال النصوص التاريخية المتوافرة وأصل هذه الكلمة واشتقاقها ومعناها . ثم قدمت دراسة لموقع امارة الكرك الذي يتفق مع حدود الأردن بوجه عام وعرض لأهميته الجغرافية والاستراتيجية .

أما الفصل الثاني فقد بحثت فيه تاريخ شرقي الأردن في أخريات العصر الفاطمي ، ثم عرضت لبوادر اليقظة الاسلامية في القرن السادس الهجري ، ومن ثم جهود كل من عماد الدين زنكي ثم نور الدين وبعده صلاح الدين في هذا المجال ، كما عرضت لسياسة كل من دمشق والقاهرة تجاه هذه المنطقة باعتبارها همزة الوصل بينهما . وانتقلت الى الحديث عن المد النوري الى مصر وقيام صلاح الدين بتمكين سلطانه فيها ، كما تحدثت عن جهود نور الدين محمود زنكي الحربية بالنسبة لكل من الكرك والشوبك .

وقد تحدثت في الفصل الثالث عن نشاط صلاح الدين الحربي ضد امارة الكرك الصليبية ، فكان نشاطه الأول موجها اليها من القاهرة ، وفي غضون ذلك تولى أرناط امارة الكرك . وكان لتولي أرناط الصليبي لكرك نقطة تحول في دورها السياسي والاقتصادي ، فعرضت لمحاولات هذا الأمير الصليبي غزو الديار المقدسة بالحجاز ، وللمحاولات التي قام بها صلاح الدين لفتح الكرك وكيف كللت بالنجاح وانتهيت بالحديث عن معركة

حطين وفتح القدس واستسلام الكرك والشوبك واقطاعهما للملك العادل أخي السلطان صلاح الدين ·

أما الفصل الرابع فقد تناولت فيه تاريخ امارة الكرك بعد صلاح الدين الأيوبي أي في عهد كل من الملك العادل وابنه المعظم عيسى ، وقد أوضحت الأهمية الخاصة التي أولاها كل من العادل والمعظم عيسى لامارة الكرك وطبعها بالطابع الاسلامي · ثم أبرزت العناية الخاصة التي أولاها الملك المعظم عيسى لهذه الامارة وتشييده للقلاع والحصون ونشر الأمن والاطمئنان في ربوع الأردن من الشمال الى الجنوب · ثم أبرزت بوجه خاص الصراع الذي قام حول منطقة الكرك والشوبك بين المسلمين والفرنجة بدمياط في الحملة الصليبية الخامسة ، ثم عن الخلاف الذي نشب بين الكامل محمد والناصر داود بسبب الشوبك ·

وقد جعلت الفصل الخامس للتحدث عن امارة الكرك زمن الملك الناصر داود الذي اعتبره بحق المؤسس الحقيقي لامارة الكرك الأيوبية ، التي تمثل في الواقع الكيان الأردني الحالي · فقد شملت امارته منذ سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) كل حدود الأردن الحالية ، وبذلك يكون كيان الأردن قائما بالفعل منذ سبعة قرون ونصف تقريبا · كما عرضت للصراع الذي قام بين الناصر داود وملوك الأيوبيين في الشام ومصر وتحريره لبيت المقدس سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م) بقوته المنطلقة من الكرك ·

أما الفصل السادس فقد خصصته للتحدث عن امارة الكرك في عصر الملك المغيث عمر ، وموقفه من دولة المماليك في مصر ومحاولته استعادة ملك الأيوبيين في القاهرة · واختتمت هذا الفصل بتوضيح مظاهر اهتمام الملك الظاهر بيبرس بالأردن ومحاولاته القضاء على حكم الأيوبيين ، الى أن تمكن من ذلك في سنة ٦٦١هـ (١٢٦٣م) وبانتهاء حكم الملك المغيث عمر بالكرك ينتهي الحكم الأيوبي في الشام تقريبا ·

اما الفصل السابع فقد خصصته للبحث في طرق التجارة والحياة العملية ، حيث ناقشت اهمية امارة الكرك الايوبية كمعبر للجيوش وطريق للقوافل التجارية مبرزا دور الاردن كحلقة ربط ووصل بين انحاء العالم الاسلامي طوال العصر الايوبي حتى بعد حطين ، واظهرت في بحثي عن الحياة العلمية في الامارة دور الأيوبيين في بناء المدارس وتشجيع العلم، والعلماء واستعرضت بعض اسماء المشاهير منهم ممن اثروا المكتبة العربية بالكثير من المؤلفات ، منهيا هذا الفصل بالتنويه بدور الاردن على المستوى العلمي ·

(٢)

عرض وتحليل لبعض مصادر البحث

اعتمدت في بحثي هذا على عدد من المصادر العربية تاريخية وأدبية وجغرافية معاصرة للاحداث ، تعرض مصنفوها من قريب أو بعيد لذكر موضوع البحث ، كما اعتمدت على مصنفات المتأخرين من كتاب العرب الذين ضمنوا كتاباتهم نقولا من مصادر لم تصل الينا تتعلق بموضوع البحث وترقى الى عداد المصادر الاصلية ولهذا السبب كانت مكتبتي التي اعتمدت عليها في اعداد هذا الكتاب غنية ومتنوعة ، فبعض المصادر تم طبعه وتحقيقه والبعض الاخر ما زال مخطوطا لم ينشر بعد ، وفيما يلي عرض تحليلي لاهم هذه المصادر .

أولا : المصادر العربية :

أ ـ المصادر التاريخية المعاصرة لأحداث الموضوع :

١ ـ ذيل تاريخ دمشق ، لابي يعلى حمزة بن اسد التميمي المعروف بابن القلانسي « المتوفى سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) » ،ومن المعروف ان ابن القلانسي ـ وهو دمشقي[٣] الاصل ـ من اقدم من كتب في التاريخ المحلي في بلاد الشام[٤] ، فقد خصص حولياته او تاريخه الموسوم بذيل تاريخ دمشق لتأريخ احداث دمشق واستكمل به كتابا لهلال الصابيء تنتهي احداثه عند عام ٤٤٨ هـ (١٠٥٦م)[٥] ، اتمه ابن القلانسي الى عام ٥٥٥هـ (١١٦٠م) التي تسجل سنة وفاته ، ويعتبر هذا الكتاب أهم المصادر التاريخية لبلاد الشام في العصر الفاطمي ،وعليه اعتمد عدد كبير من المؤرخين العرب المتأخرين ، لدقته وأمانته في سرد الاحداث المضطربة التي نجح في عرضها على الرغم من انها وقعت

---

(٣) محمد بن شنب : مادة : ابن القلانسي ، دائرة المعارف الاسلامية .

(٤) عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ١٩٦٧م ، ص ١١٠ .

(٥) محمد بن شنب : مادة : ابن القلانسي ، دائرة المعارف الاسلامية .

في فترة تعج بالفتن والاضطرابات التي واكبت الحملة الصليبية الاولى ٠قد اعتمدت على القلانسي اعتمادا خاصا لتأريخ الاحداث التي عاشتها منطقة الكرك في اعقاب الغزوة الصليبية للبلاد الشامية عندما حاول اتابك طغتكين حماية المنفذ الجنوبي الذي يصل بين مصر والحجاز والشام من خطر الاحتلال الصليبي ، واعني به المنطقة الجنوبية من المملكة الاردنية الحالية ، فتراه يقطع الامير الاصفهيد التركماني وادي موسى ومؤاب والجبال والبلقاء[٦] بهدف وضع قواته من التركمان سدا أمام أطماع الفرنج التوسعية ، وكتاب ذيل تاريخ دمشق بالاضافة الى ذلك يعتبر مصدرا يكاد يكون فريدا في رواية أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين في منتصف القرن السادس الهجري ٠ فهو يمدنا بمعلومات قيمة عن محاولات عماد الدين زنكي توحيد الجبهة الاسلامية ونجاحه في افتتاح الرهـــا ومحاولاته فتح دمشق ، وعن وقوع دمشق في يد ولده نور الدين محمود كما يعلل استيلاءه على دمشق باستيلاء الفرنجة عـــلى عسقلان[٧] ٠ وابن القلانسي في رواياته يعاصر احداث الصراع بين نور الدين ومملكة بيت المقدس ويعرض لنشاط المسلمين في المنطقة الواقعة شمالي الاردن ، كذلك يعلل ابن القلانسي توقف حركة التجارة بين مصر والشام باستيلاء الفرنج على فلسطين وساحل الشام وعلى المنطقة الواقعة جنوبي الاردن واعتراض الفرنج للتجار القادمين من الديار المصرية بحرا[٨] ، واستيلائهم على قافلة شامية غامرت بالخروج من دمشق والمرور بطريق بصرى والاردن رغـــم صعوبة الطريق وخطورته ٠ وهكذا نشهد أن ابن القلانسي في رواياته التي يسوقها ثقة يتحرى الامانــة في عــرض التفصيلات التاريخية ، دقيقا يتحدث بلغة الخبير بشؤونها باعتباره دمشقي النشأة ، بالاضافة الى ممارسته ادارة ديوانها[٩] وهو عمل اداري هيأ له أن يسبر غور بواطنها ويلم بجميع تفاصيلها ٠

---

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨م ، ص ١٥٨ ٠

(٧) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٣٥ ٠

(٨) ابن القلانسي : المصدر نفسه ، ص ١٧١ ٠

(٩) Ziaden - Nicola, Life in Syria, Beirut, 1935, P. XII.

٢ ـ رسائل القاضي الفاضل أبي محمد عبد الرحيم بن علي البيساني « ت ٥٩٦هـ (١١٩٩م) » وهو مصدر هام عاصر فترة الانتقال التي مرت بها مصر من الفاطميين الى الايوبيين ، وكان احد الرجـــال الرسميين في حكومة مصر آنذاك الفاطمية والايوبية ، وقد تمكن بحكم منصبه الرسمي مـن الوقـوف على أدق التفاصيل واهمها كما ألم بجميع الاحداث التي مرت على مصر منذ نهايـة الدولـة الفاطمية وبداية عهد صلاح الدين ، وشارك صلاح الدين في اكثر غزواته · وكان كاتب الانشاء في ديوانه وعليه اعتمد السلطان في أمور عديدة وكان عونا له في سائر أموره · وكان القاضي الفاضل كاتبا بارعا واديبا اريبا ، وكانت لديه خزانة كتب تحتوي على ثلاثين الف مجلد(١٠) وقيل مائة الف مجلد ، وتعتبر رسائل القاضي الفاضل من أهم وأصدق المصادر المتعلقة بأحداث الشام ومصر في عصر صلاح الدين لكونه معاصرا للاحداث مطلعا عليها مشاركا فيها في احيان عديدة ، وقد حفظ لنا المؤرخون امثال ابو شامة والقلقشندي أمثلة من هذه الرسائل الهامة اعتمدت على بعضها في تتبع نشاط الصليبيين في البحر الاحمر ومهاجمتهم للديار المقدسة(١١) مما أكد لي وجود أسطول ذاتي لامارة الكرك الصليبية في البحر الاحمر ، كما تضمنت رسالة أخرى تفصيلات هامة وفريدة عن غزوة ارناط لمكة والمدينة وعدن(١٢) · وفي رسائل أخرى يصف الكرك وصفا يشهد بحصانته ومنعته ، ولأهمية ما اورده من أخبار وتفصيلات فريدة معاصرة للاحداث نقل عنه عدد من المؤرخين نقولا كثيرة ·

٣ ـ كتابا الفتح القسي في الفتح القدسي · والبرق الشامي للعماد الاصفهاني عماد الدين ابو عبد الله محمد بن صفي الدين ابي الفرج

---

(١٠) أبو شامه : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٦١م ج ٢ ص ٢٤٤ ـ ابن الساعي : الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير جزء ٩ ، بغداد ١٩٣٤م ص ٢٨ ·

(١١) القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ١٩٦٣م ج ١٣ ص ٨١ ـ ٩٠ ·

(١٢) أبو شامه : الروضتين ج ٢ ص ٣٧ · ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، القاهرة ١٩٦٠ ، ج ٣ ص ٣١٧ ·

محمد بن نفيس الكاتب الاصفهاني « ت ٥٩٧هـ (١٢٠٠م) » مؤلف هذين الكتابين أصفهاني النشأة ، ولد باصفهان في سنة ٥١٩هـ (١١٢٥م)(١٣) ، وأمضى أيام طفولته فيها حيث تعلم القرآن والادب ، وفي سنة ٥٣٤هـ (١١٤٠م) رحل الى بغداد ليأخذ على علماء عصره وشيوخ زمانه بالنظامية وغيرها ، كما طاف بعدد من حواضر العراق وخراسان يأخذ عن علمائها ويجمع مادة مصنفاته · ثم رحل الى الشام في سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م) ودرّس بالمدرسة النورية بدمشق وهناك اتصل بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فرتبه كاتبا في ديوان الانشاء وادناه منه واختاره رسولا الى شاه ارمن صاحب اخلاط في سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) ، كما جعله رسوله الى الخليفة في بغداد سنة ٥٦٦ هـ (١١٧١م) · وفي سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٣م) ولاه الاشراف على ديوان الانشاء مضافا الى الكتابة وصار من اكثر من يعتمد عليهم نور الدين وبقي كذلك حتى توفي نور الدين ، فترك دمشق الى العراق ولكنه عدل عن رحلته في منتصف الطريق عندما علم بوصول صلاح الدين الى دمشق ، فعاد اليها حيث دخل في خدمته بشفاعة القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني فاشترك معه في كتابة الانشاء في سنة ٥٧٠هـ (١١٧٥م) ·

وقد اعتمد العماد الكاتب في كتاباته على المشاهدة والمعاينة الشخصية بالاضافة الى ما اطلع عليه من وثائق رسمية ، كما شارك هو شخصيا في أكثر حروب صلاح الدين ، ويعتبر كتاباه « البرق الشامي » و « الفتح القسي في الفتح القدسي » من أوثق ما كتب عن تاريخ بلاد الشام منذ اواخر عصر الدولة الفاطمية وحتى سنة وفاة صلاح الدين في ٥٨٩هـ (١١٩٣م) · أما الفتح القسي فهو يغطي فترة استعداد صلاح الدين لمعركة حطين حتى وفاته ويشتمل على احداث السنوات من ٥٨٣هـ الى اواسط سنة ٥٨٩هـ ، وقد الفه قبل البرق الشامي(١٤) ، والفتح القسي زاخر بالمعلومات القيمة

---

(١٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، مخطوطة مصورة بمكتبة بلدية الاسكندرية رقم ١٨٧٨ ب · الجزء الثامن ، صفحة ٣٢٧ ·

(١٤) البنداري ، سنا البرق الشامي ، بيروت ١٩٧٠م — الجزء الاول ، ص ٢٠ ·

وقد اعتمدت عليه في أحداث هذه الفترة سيما فترة تسليم الكرك ومحاولة زوجة أرناط صاحب الكرك انقاذ ابنها من الاسر وموافقة صلاح الدين على ذلك بشرط ان يعلن من في الكرك والشوبك من الصليبيين الاستسلام للمسلمين ، ويصف العماد الكاتب بعبارات مسجوعة كيف مضت ارملة ارناط مع ابنها وبصحبة بعض الجند لاستلام الكرك والشوبك وكيف رفضت حاميتها ذلك « خرجت صاحبه الكرك متعرضة للخضوع ، متعرضة بالخشوع ، وبرزت مسكينة مستكينة ، مستعطفة مراحم السلطان مستلينة ، رافعة عقيرتها بالابتهال ، شافعة في فك ولدها من الاعتقال[15] • واكثر ما يعيب هذا الكتاب هو تميزه بالزخرفة اللفظية والسجع البلاغي ، علما بان التاريخ لم يكن قط فرعا من الاداب التي تشجع على استخدام هذا الاسلوب[16] ، ومع ذلك وعلى الرغم من وعورة هذا الاسلوب وطغيانه على المعنى فقد أمدنا الفتح القسي بمعلومات هامة لا غنى عنها للباحث في تاريخ صلاح الدين • أما الكتاب الثاني واعني به « البرق الشامي » فشمل فترة خدمة العماد لنور الدين ، وقد سجل فيه الاحداث التي مرت به أو شاهدها وشارك فيها من سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م) الى سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م)[17] ، ولسوء الحظ فقدت معظم اجزاء هذا الكتاب باستثناء نتف متناثرة هنا وهناك[18] •

وقد عوضنا البنداري عن فقدان هذا الكتاب اذ تولى تلخيصه في الكتاب المرسوم بسنا البرق الشامي •

٤ ـ كتاب سنا البرق الشامي للبنداري ، قوام الدين الفتح بن علي ابن محمد البنداري « ت ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) » ، وقد تم تأليفه وتقديمه للسلطان الملك المعظم عيسى في سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) [19] •

---

(١٥) العماد الكاتب ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، القاهرة ١٩٦٥م ، ص ٢٠٥ •
(١٦) عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، ص ٧٧ •
(١٧) البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ص ٢٣ •
(١٨) هاملتون جب ، صلاح الدين الايوبي ، بيروت ١٩٧٣م ، ص ٧٣ •
(١٩) البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ص ٤١ •

ويعتبر هذا الكتاب من المصادر الأساسية التي اعتمدت عليها في اعداد هذا الكتاب ، فقد أفدت كثيرا منه على الرغم من ورود معظم أحداثه مختصرة في الروضتين [٢٠] ، وسنا البرق الشامي سجل كامل للأحداث الهامة التي وقعت في عهد صلاح الدين ، فالعماد كان يلازم السلطان بدون انقطاع تقريبا حتى وفاته ، كما أنه شارك فيها بنفسه ، ومن الجدير بالذكر أن العماد ينفرد عن غيره من المؤرخين بأنه زودنا بجملة غزوات صلاح الدين للكرك وخط سيره داخل الأردن خطوة خطوة ، وقيامه بحصار هذا الحصن ، ومحاولته ردم الخندق الفاصل بين القلعة وبين قواته . كما أنه أورد أسماء مواضع أردنية لم يسبق لمؤرخ أن أوردها قبله أو بعده ، ثم انه تتبع مسيرة صلاح الدين وتحركاته الى مصر عبر الأردن وهو أمر تابعه فيه أبو شامة في الروضتين [٢١] ، وعلى هذا النحو يمكن القول بأن العماد وان لم يكن هو المؤلف لسنا البرق الشامي فقد أرخ لكل أحداث تلك الفترة فيما يشبه التقارير التي يدونها بأمانة تامة موظف حي الضمير من موظفي سلك الخدمة المدنية [٢٢] .

٥ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لبهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم بن شداد « ت ٦٣٢هـ (١٢٣٤م) » ومؤلف الكتاب التحق بخدمة صلاح الدين بعد عودته من الحج عام ٥٨٤هـ (١١٨٨م) ، وأصبح من أخص أصحابه وأقربهم منزلة اليه حتى عينه قاضيا للجيش[٢٣] ، ويعتبر كتابه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية « من أهم مصادر سيرة صلاح الدين بشهادة جميع المؤرخين وقد اعتمد في تاريخ الفترة السابقة لعام ٥٨٣هـ (١١٨٧م) على معلوماته التي تلقاها شفاها » [٢٤] وعلى بعض الوثائق ، أما

---

(٢٠) هاملتون جب : صلاح الدين الايوبي ، ص ٧٤ .

(٢١) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٦٧٩ ـ ٦٨٠ .

(٢٢) هاملتون جب : صلاح الدين الايوبي ، ص ٧٤ .

(٢٣) هاملتون جب : صلاح الدين الايوبي ، ص ٧٠ .

(٢٤) البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ص ٣٣ .

الفترة التي عاصرها وخدم فيها صلاح الدين فقد سجل احداثها بأمانة تامة لا كما رآها فحسب بل انه يضمنها تبصرا ثاقبا في الدوافع التي كانت تحرك صلاح الدين عند اتخاذه القرارات الحاسمة ، باعتباره المؤتمن على أسراره والصديق الحميم له ٠ والواقع أنني اعتمدت على هذا الكتاب اعتمادا خاصا عند تعرضي لبعض الأحداث التي أذكر منها ، حادثة انتهاب القافلة التجارية الضخمة القادمة من مصر من قبل ريتشارد قلب الأسد وذلك عند الحسا جنوبي الكرك (٢٥) ، ومدى الغضب الذي انتاب صلاح الدين وهو في القدس عندما بلغه ذلك ٠ لقد سجل ابن شداد هذه الأحداث دون أي انفعال وعبر عن الحقائق دون تحيز شخصي ، وكتابته تتميز على هذا النحو بخلوها من الغلو (٢٦) ٠

٦ ـ كتابا الباهر في الدولة الأتابكية ، والكامل في التاريخ ، لعز الدين أبي الحسن على ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ، المتوفي سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) الملقب بابن الأثير ، وابن الأثير ينتمي الى اسرة كانت على اتصال وثيق بأتابكة الموصل وأسندت اليهم بعض المناصب الرسمية في الموصل وأعمالها ٠ ويعتبر كتابه الباهر خير ما كتب عن دولة الأتابكة في الموصل ، وهو سجل حافل لا غنى عنه للباحث في تاريخ دولة الأتابكة في الموصل في عهد كل من عماد الدين زنكي ونور الدين محمود بمحاولتهما توحيد الصفوف للوقوف في وجه الصليبيين ٠ وقد وفق ابن الأثير في تصوير حالة بلاد الشام قبيل وفي اعقاب الحملة الصليبية الأولى وما كانت عليه ، من التمزق والضياع ، وتصوير روح البغضاء التي كانت تسيطر على قادتها ٠ أما كتابه الكامل فهو تاريخ عام بدأ به من الخليقة الى سنة ٦٢٨هـ (١٢٣١م) ، « وهو أحسن ما صنف من كتب التاريخ العالمي الاسلامي على نسق الحوليات » (٢٧) ، وقد

---

(٢٥) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، القاهرة ١٩٠٣م ، ص ١٧٠ ـ ١٧٢ ٠

(٢٦) هاملتون جب : صلاح الدين الايوبي ، ص ٦٩ ٠

(٢٧) عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، ص ١٠٣ ٠

اعتمدت على الأجزاء الأخيرة من هذا السفر العظيم ، وتمتاز كتابة ابن الأثير بالتفصيل دون أن يخل بنسبة المادة التي يوردهـا ويعرضها [٢٨] • ومما لا شك فيه أن ابن الأثير عاش فترة من عمره معاصرا لصلاح الدين [٢٩] دون أن يتصل به اتصالا شخصيا ، وقد اتهمه الكثيرون بالتحامل على صلاح الدين ، ولكن ذلك لـم ينقص من أهميته التاريخية فهو بحق من عمالقة مؤرخينا ، وكتابه من أوثق المصادر لدينا ، وفي هذا يقول هاملتون جب « أن تحامله على صلاح الدين ذائع الشهرة ، لكن رواياته للأخبار قـد حظيت بالقبول عموما ، مع التماس الأعذار لواقعـة التحامـل ، فجرى اعتبارها صادرة مـن مؤرخ معاصـر للأحـداث وحسن الاطـلاع عليها » [٣٠] •

٧ ـ كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، لجمال الدين أبي عبد الله ابن محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل « ت ٦٩٧هـ (١٢٩٨م) ، وهو أهم مصدر اسلامي أرخ للدولة الأيوبية كلها من نشأتها حتى سقوطها سواء في مصر أو في الشام • فمن المعروف أن ابن واصل تنقل بين أنحاء العالم الاسلامي آنذاك فزار كلا من دمشق وبيت المقدس وحلب والكرك وبغداد ومكة المكرمة والمدينة المنورة والقاهرة • وأقام في الكرك فترة من الوقت خدم خلالها الملك الناصر داود الذي استدعاه مع والده للاقامة في كنفه بعد ما أخرج من دمشق وتولى امارة الكرك ، ويشير ابن واصل نفسه الى ذلك بقوله : « ووصلنا الى خدمته في أوائل سنة تسع وعشرين وستمائة فوجدنا منه احسانا كثيرا ، وتفضلا زائدا ، وشاهدنا ملكا ذا فضل باهر وعلم زاخر [٣١] » وقد عاصر ابن واصـل احتضار الدولـة

---

(٢٨) عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ١٠٣ •
(٢٩) هاملتون جب : صلاح الدين الايوبي ، ص ٧٠ •
(٣٠) هاملتون جب : المرجع السابق ، ص ٧٠ •
(٣١) ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ، الجزء الرابع ـ القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٣٣٠ •

الأيوبية وقيام دولة المماليك ، واتصل بالسلطان الظاهر ركن الدين بيبرس الذي أرسله في سفارة الى منفرد بن فردريك الثاني ملك الصقليتين وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة • ويعتبر كتاب ابن واصل أكثر المصادر المعاصرة لاحداث النصف الثاني من عهد الدولة الأيوبية أهمية حتى قيام دولة المماليك ، ولم يعاصر ابن واصل الأحداث فحسب بل عاينها بنفسه ، وانفرد دون غيره بذكر كثير من أخبارها مما أغفله غيره بحكم اتصاله الوثيق بأولي الأمر آنذاك وتقلبه في الوظائف الكبرى في الدولة •

والكتاب — بالاضافة الى ما سبق أن ذكرناه — عمدة مصادري في الفترة موضوع الدراسة ، فصاحبه كان مقيما بالكرك ودمشق ، وهو حجة في تاريخ الدولة الأيوبية المتأخرة • فهو يذكر أنه كان بدمشق عندما دخلها الملك الأشرف موسى على أثر استدعاء الملك الناصر داود له بهدف الاستعانة به على عمه الملك الكامل وهو دقيق في ملاحظاته عنه فنراه يصف حتى الملابس التي كان يرتديها الأشرف (٣٢) • ومن الجدير بالذكر أن ابن واصل بالاضافة الى ميزاته في روايته للأحداث السياسية يسجل انطباعات الجماهير وانفعالاتهم وتجاوبهم مع الأحداث ، فهو ينقل لنا صورة صادقة عن أحوال أهل دمشق عندما خرج الناصر داود منها (٣٣) وكيف ودعوه بالبكاء والدموع • وهو قدير في تعبيره عن مقدار تعلقهم به ، وعن أحوال أهل الكرك وتعلقهم بالملك المغيث عمر الى حد أن الظاهر بيبرس كافأهم على وفائهم واخلاصهم لملكهم (٣٤) • كذلك يذكر ابن واصل انه كان مقيما بالكرك عندما قدم الملك الكامل اليها في طريقه لفتح آمد سنة ٦٢٩هـ (١٢٣٢م) ، وقد أورد ابن واصل وصفا نادرا للاحتفال الذي أقامه الملك الناصر داود في الكرك احتفاء بعمه ،

(٣٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ص ٢٢٨ •

(٣٣) ابن واصل : المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ٢٥٧ •

(٣٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، « تاريخ الواصلين » ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٥٣١٩ تاريخ ، لوحة ٤٢٠ •

ووصف السماط وأبراج الحلوى وعادتهم في ترك العامة ينتهبون السماط ويعبر عن ذلك بقولـه : « وكنـت أنا ووالدي بالكرك وخرجت أنا ووالدي في خدمته للقاء السلطان الملك الكامل[٣٥] » كذلك كان مقيما بالكرك عندما اعتقل الملك الصالح نجم الدين بهذا الحصن ، وكان يزور الامير حسام الدين بن أبي علي في حبس الخيالة بالكرك ويذكر ابن واصل ذلك فيقول : « وكنت أصعد الى القلعة وأجتمع به في الحبس في أكثر الأوقات [٣٦] » ، ومن المعروف أن حسام الدين كان صديقا حميما له وأصبح فيمـا بعـد نائب السلطنة بالقاهرة وذهب اليه ابن واصل وأقام عنده فيما بعد ٠

٨ ـ كتاب مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط بن الجوزي ، « سبط شمس الدين أبو المظفر يوسف بن غزا أوغلي بن عبد الله يوسف المتوفى سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) » وهو تاريخ عام يبدأ من بدء الخليقة وينتهي بسنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) أي في نفس السنـة التـي توفي فيها [٣٧] المؤلف ٠ والكتاب بأجزائه ما زال مخطوطا ، أما الجزء الذي اعتمدت عليه في بحثي هذا فهو الثامن [٣٨] ، ويبدأ بأحداث سنة ٤٩٥هـ وينتهي بسنة ٦٥٤هـ ، أي أنه يغطي فترة بحثي تقريبا ٠ ومرآة الزمان عمل قيم جليل ولكنه يفتقر الى التنظيم والترتيب [٣٩] ، ومع هذا فهو مصدر غني بمادته القيمة عن الدولة الأيوبية ٠ ومن المعروف أن المؤلف كان صديقا حميما للملك المعظم عيسى صاحب دمشق والكرك ، وقد سجل لنا أحداثا فريدة أذكر منها على سبيل المثال قضية القاء القبض على عز الدين أسامة صاحب عجلون بأمر الملك المعظم ومصادرة أمواله ، فقد كان سبط بن

---

(٣٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، « تاريخ الواصلين » ، لوحة ٢٧٨ ٠ « مخطوطة » ٠

(٣٦) ابن واصل : المصدر السابق ، لوحة ٣٣٢ ٠ « مخطوطة » ٠

(٣٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٥٢٨ ٠

(٣٨) وهو نسخة مصورة بالتصوير الفوتوغرافي دونما تحقيق ، طبعت في امريكا باشراف الدكور جيمس ريتشرد . مخطوطة بمكتبة بلدية الاسكندرية تحت رقم ١٨٧٨ ب ، وعدد صفحاتها ٥٢٩ صفحة من الحجم الكبير ٠

(٣٩) Ziabeh, Urban, P. Xiii.

الجوزي يرافق المعظم في مصر وخرجا معا وراء عز الدين · ثم أقام بالكرك زمن الملك المعظم عيسى حيث خرج لاستقباله عند قدومه من الحج ويذكر سبط بن الجوزي ذلك فيقول : « ولما عاد كنت مقيما بالكرك فخرجت الى لقائه مع جماعة من الأعيان والأمراء والفقهاء (٤٠) » · ولشدة اتصاله بالملك المعظم عيسى نقل أحداثا انفرد بذكرها ، نذكر منها : اتصال المعظم عيسى بجلال الدين خوارزم شاه وقيامه بارسال الصدر البكري محتسب دمشق رسولا اليه مدعيا أنه راحل الى عين في بلاد العجم ليأخذ منها ماء فيحمله على رؤوس الرماح فيتبعه طائر يدعى السمرمر يأكل الجراد الذي انتشر بالشام في تلك السنة ٦١٩هـ (١٢٢٢م) · وبعد موت المعظم بقي سبط بن الجوزي في خدمة ابنه الملك الناصر داود · ونراه يستعظم تسليم القدس للامبراطور فردريك الثاني ، فيقوم باشارة من الناصر داود بمهاجمة الملك الكامل في المسجد الأموي في دمشق· وهو يروي ذلك فيقول : « وأشار الملك الناصر داود بأن أجلس بجامع دمشق وأذكر ما جرى في البيت المقدس ، فما أمكنني مخالفته ، ورأيت من جملة الديانة الحمية للاسلام موافقته » (٤١) وأقام سبط بن الجوزي بالكرك مدة في صحبة الملك الناصر داود · ويؤكد سبط بن الجوزي ذلك بقوله : « ولما فارقت دمشق بسبب ما جرى من حديث بيت المقدس طلعت الى الكرك وأقمت عند الملك الناصر (٤٢) » وهناك شجع الملك الناصر داود على اطلاق سراح الملك الصالح نجم الدين من سجن الكرك ، وقد عاقبه الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق باخراجه منها الى حماه ، « فأخرجونا في حر شديد الى حماة » (٤٣) ·

وهكذا نجد أن سبط بن الجوزي يتصل بأمراء البيت الأيوبي ومنهم الملك المعظم عيسى ، ثم الناصر داود ثم الملك الأشرف ،

(٤٠) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ص ٣٧٣ ·
(٤١) المصدر نفسه ، جـ ٨ ص ٤٣٢ ·
(٤٢) المصدر نفسه ، جـ ٨ ص ٤٧٢ ·
(٤٣) المصدر نفسه ، جـ ٨ ص ٤٨٦ ·

ثم الملك الصالح نجم الدين أيوب والملك الناصر يوسف ٠ ولهذا السبب كان ملما بالأحداث مطلعا على أعمق الأسرار ٠ وقد أمدنا بكثير من تفاصيلها وانفرد بسرد الكثير منها ، فهو معاصر وشاهد عيان وثقة لا غنى عنه ، وبالاضافة الى ذلك يصور لنا سبط بن الجوزي الصراع بين الأيوبيين والصليبين في الشام تصويرا واقعيا ، وقد شاهد بنفسه آثار معركة غزة وعدد القتلى فيها ٠ فمرآة الزمان يعتبر تاريخا ممتازا لبلاد الشام والدولة الأيوبية ، وقد أمدني في بحثي هذا بمادة خصبة ، ويعتبر المصدر الثاني المعتمد عليه بعد ابن واصل في تاريخ الدولة الأيوبية وخصوصا في الفترة التي عاصرها وقد اعتمد عليه كثير من المؤرخين من بعده ٠

٩ ـ كتابا الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، والذيل على الروضتين لمؤلفهما أبي شامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان بن محمد المقدسي المتوفى سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٧م) ٠ كان أبو شامة رجلا عالما واسع الاطلاع على صداقة كبيرة بالعلماء المعاصرين له ٠ وقد عكف على الدرس والبحث وألف كتابه هذا الذي يعتبر سجلا حافلا للدولة النورية ، وقد استند في كتابة تاريخه هذا على الوثائق الرسمية والمستندات الموثوق بها ، كما أنه اعتمد الى حد بعيد في تاريخه لفترة نور الدين وصلاح الدين على العماد الكاتب في كتابه البرق الشامي ويكاد تكون أحداثه تلخيصا ممتازا له (٤٤). أما كتابه « الذيل على الروضتين » فقد استعرض فيه الأحداث التي عاصرها وعايشها ٠ فأبو شامة يعتبر ثقة لاعتماده في تاريخ أحداث الفترة التي لم يعاصرها على وثائق ومصادر معاصرة للأحداث ، أما الفترة التي عاصرها فهو يسجل أحداثها بقلم الخبير المدقق المطلع ونلاحظ فيها قلة اعتماده على الآخرين ، فهو يمدنا بمعلوماته الشخصية وآرائه في أسلوب واضح بسيط ٠ فكتاب الروضتين وذيله مصدران هامان للدولة الأيوبية ، وقد أفدت منهما في بحثي

---

(٤٤) هاملتون جب : صلاح الدين الايوبي ، ص ٩٧ ٠

فائدة جمة خاصة فيما يتعلق بفترة الصراع بين صلاح الدين وأرناط صاحب الكرك الصليبي والصراع بين أمراء البيت الأيوبي ·

١٠ـ التاريخ المظفري ، للمؤرخ شهاب الدين ابراهيم بن عبد الله بن أبي الدم الحموي « ت ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) » ، وابن أبي الدم من المؤرخين المعاصرين المعدودين للفترة موضوع الدراسة ، فقد ألف كتابه « التاريخ المظفري » وقدمه للملك المظفر تقي الدين صاحب حماة ، وبدأه من النبي صلى الله عليه وسلم وختمه بذكر ولاية الملك المظفر على حماة · وقد وصل بـه الى أحداث سنـة ٦٢٧هـ (١٢٢٩م) ، والكتاب ما زال مخطوطة يشتمل على ٢٤٣ لوحة ، عاصر فيه المؤلف المرحلة الأخيرة من الصراع بين الكامل والأشرف والملك الناصر داود وينتهي عنـد قيام الملـك الكامـل محمد باعـادة الملك المظفر الى حماة (٤٥) ، وذلك بعدما انتزع دمشق من الناصر داود وسلمها للملك الأشرف موسى · وقد لاحظت أن ابن أبي الدم قد برر قيام الملك الكامل بتسليم بيت المقدس للامبراطور فردريك الثاني بخوف الملك الكامل على بقية ثغور المسلمين من الخطر الصليبي · فتسليم بيت المقدس لهم تم في نظره لمصلحة المسلمين فهو يقول : « لا مصلحة للمسلمين أيمن من هذه المصلحة ، ولا غبطة لهم أعظم من هـذه الغبطة » (٤٦) · ويذكر أن الكامل متى اتفقت كلمة المسلمين عـلى طاعته واستتبت له الأمور ففي مقدوره أن يعيد البيت المقدس في يوم واحد · ومع ذلك فان الكامل لم يفعل ذلك بعد أن استتبت لـه الأمور وعظم ملكه وأصبح يشتمل على مصر وأجزاء من الشام والبلاد الشرقية واليمن · ولا شك أن ابن أبي الدم في هذا كان منحازا للكامل لسابق موقفه من الملك المظفر ومساندته له في اعادته الى عرشه على حماة ، وهو بهذا قد شذ عن جميع المؤرخين المعاصرين الذين انتقدوا الكامل لتفريطه في بيت المقدس ·

---

(٤٥) ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، مخطوطة بمكتبة بلدية الاسكندرية تحت رقم ١٢٩٢ ب ، لوحة ٢٣٧ ـ ٢٣٨ ·

(٤٦) ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢٣٦ ، « مخطوطة » ·

ب ـ المصادر التاريخية المتأخرة :

والى جانب المصادر سالفة الذكر هناك عدد من المصادر لم تعاصر أحداث العصر ولكنها نقلت الينا نتفا منها وقعت في العصر الأيوبي ومرحلة الانتقال الى العصر المملوكي · وبعض هذه المصادر المتأخرة نقل أخبارا ووثائق يرجع تاريخها الى أواخر الدولة الفاطمية وأوائل الدولة الأيوبية ، وهي أخبار كانت تعاصر الأحداث ضاعت مصادرها ولم تصل الينا · ولهذا السبب فان هذه المصادر رغم حداثتها لا تقل أهمية عن المصادر المعاصرة ومن أمثلتها كتاب كنز الدرر للدواداري والمصنفات العديدة للمقريزي :

١ ـ كتاب كنز الدرر وجامع الغرر لأبي بكر بـن عبد الله بـن آيبك الدواداري « ت ٧٣٦هـ (١٣٣٥م) » وهو من المؤرخين الذين كتبوا عن الدولة الأيوبية ، وقد أفرد لهم في هذا الكتاب الجامع جزءا خاصا هو الجزء السابـع عنوانـه : « الـدر المطلـوب في أخبـار بنـي أيوب[٤٧] » · ومما يزيد في أهمية أبن ايبك أنه لم يقتصر في كتابه على الجمع والتلخيص والنقل عمن سبقه من المؤرخين ، وانما كان بحكم انتمائه الى اسرة شاركت في الأحداث المعاصرة لموضوع البحث من أكثر المؤرخين ثقة · فجده عز الدين أيبك المتوفي سنة ٦٤٥هـ (١٢٤٧م)-كان صاحب صرخد.واستادار للملك الناصر داود تشهد الصراع الذي دار بينه وبين الكامل والأشرف ، وشارك في أحداث هذه الفترة · بالاضافة الى أنه اعتمد في مؤلفه عـلى بعض الوثائق والمستندات الرسمية المفقودة ، أذكر منها الكتاب الذي أرسلـه العاضد لنور الدين يستنجد به من شاور والفرنج ويقول عنه ابن أيبك : أنه اطلع شخصيا على نصه ، كذلك يعرض ابن أيبك سياسة صلاح الدين تجاه أرناط صاحب الكرك ويذكر أنه كان يدفع اليه شيئا كثيرا لا يعلم له قيمة وكان يكتم ذلك على اتباعه كي تبقى الطريق مفتوحة بين مصر والشام والحجاز · ثم تأكيده وجود قلعة

---

(٤٧) وقد نشر هذا الجزء وحققه الدكتور سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٢م ·

الكرك في العصر الفاطمي (٤٨) • فهو بذلك يدلل على أن القلعة هي قلعة اسلامية وليست صليبية (٤٩) • وعلى هذا النحو يتبين لنا أن ابن أيبك أورد أخبارا فريدة وآراء جديدة لم يسبقه اليها مصدر آخر من المصادر التي تعرضت لتلك الفترة ، فلا شك اذن في أن المصادر التي أخذ منها ابن أيبك واستقى منها مادة كتابه ضاعت أو ندر وجودها في زمنه بحيث لم تصل اليها أيدي غيره من المؤرخين الذين عالجوا نفس الفترة الزمنية • ولذلك فان ابن أيبك من أهم مصادر العصر موضوع هذا البحث وقد زودني بمادة هامة ومفيدة تكاد تكون نادرة •

٢ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، واتعاظ الحنفا ، والمواعظ والاعتبار لتقي الدين المقريزي « ت ٨٤٥هـ (١٤٤١م) » • تقي الدين أحمد ابن علي المقريزي هو شيخ المؤرخين المصريين وصاحب مدرسة تاريخية ، سمتها تنوع مادة الكتابة وتعددها ، فكتب في التاريخ السياسي كماكتبفي العمران والخطط ، وعالج المشكلات الاقتصادية والأزمات التي مرت بتاريخ مصر ، ويعتبر كتابه التاريخي « السلوك لمعرفة دول الملوك » من أهم ما كتب في عصر الدولة الأيوبية • فان ما ورد في هذا الكتاب عن الأيوبيين على قصره واختصاره أحيانا وعدم معاصرة مؤلفه للفترة الزمنية التي يكتب عنها ، جاء أوفى من كثير من معاصري الأيوبيين • ولعل سبب ذلك يرجع الى أنه أفاد من جميع مصنفات المؤرخين المعاصرين وزاد عليهم أحيانا من مصادر أخرى مفقودة ووثائق ديوانية لم يصل الينا منها الا ما حفظه المقريزي لنا في كتابه • وقد أشاد المستشرقون الغربيون بالمقريزي واعتبروه ثقة واختاروا الأجزاء الأولى من السلوك وترجموها الى لغاتهم ، يقول عنها وليم موير : « وكتاباته الكثيرة لها مكانتها العظيمة من التقدير ، وتمتاز سجلات حوادث الأزمنة السابقة بأنها

---

(٤٨) ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٦ ص ٢٠٦ •

(٤٩) يوسف غوانمة : تاريخ شرقي الاردن في عصر دولة المماليك الاولى ، القسم الحضاري ، عمان ، ١٩٧٩م ، ص ٢١٢ •

نتيجة بحث مجتهد وتدقيق تاريخي ، أما حوادث زمنه فكان فيها شاهد عدل فذكرها غير متحيز [٥٠] » • ويعتبره المؤرخ المعاصر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة أستاذه [٥١] • والحق أن كتاب السلوك يضم أخبارا هامة عن الأيوبيين قل أن أوردها مؤرخ معاصر لهذه الأسرة •

جـ ـ الموسوعات :

ويجدر بي ما دمت أعرض لتحليل المصادر التي اعتمدت عليها أن أسوق نوعا من المصادر وأعني بها الموسوعات الاسلامية ، وأخص بالذكر ثلاثة مصادر امتاز مؤلفوها بتنوع ثقافتهم ووفرتها وهم :

١ ـ شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) مؤلف موسوعة « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » ، وهي ذات فائدة عظيمة تناول فيها الدراسات الجغرافية والتاريخية والأدبية • وقد أفدت من القسم الخاص بالتاريخ والجغرافيا ، وما زالت هذه الموسوعة مخطوطة حتى اليوم وتقع في عشرين مجلدا ولم ينشر منها الا الجزء الأول نشره الأستاذ أحمد زكي باشا سنة ١٩٢٤م •

٢ ـ أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله بن أبي اليمن القلقشندي ، المتوفى سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م) ، مصنف الموسوعة الكبرى ، صبح الأعشى في صناعة الانشا « وتقع في أربعة عشر جزءا ، طبعت ونشرت كلها • فهي سجل عظيم لمختلف أنواع المعرفة ، وقد حفظ لنا القلقشندي في موسوعته الكثير من الوثائق الرسمية ، والمراسلات السياسية والتقاليد والمناشير والتواقيع • ويمتاز القلقشندي بأنه لم يورد في كتابه الا الوثائق التي يعتقد

(٥٠) وليم موير : تاريخ دولة المماليك في مصر ، القاهرة ١٩٢٤م ، ص ٧ •

(٥١) محمد مصطفى زيادة السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٥٨م ، جـ ٣ قسم ٣ ، التصدير •

بصحتها (٥٢) ، والتي نقلها من المحفوظات التي كانت تقع تحت يده بحكم وظيفته كاتبا للانشاء ، فقد كانت تلك الوثائق والمراسلات متيسرة له نقل منها ما استوثق من صحته وبذلك ترك لنا ثروة تاريخية هامة لعصور سبقته٠فموسوعته تعتبر سجلا ضخما للحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية في مصر طوال العصور الوسطى (٥٣) ٠ وقد استفدت من العديد من رسائل القاضي الفاضل التي أوردها القلقشندي وتتعلق مباشرة بموضوع كتابي ، بالاضافة الى تحقيق الكثير من الأماكن وتفسير العديد من الاصطلاحات والمسميات التي كانت تستخدم آنذاك ٠

٣ ــ أما الموسوعة الثالثة فهي « نهاية الارب في فنون الأدب » لمؤلفها أحمد ابن عبد الوهاب النويري المتوفى سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٣م) ، وتشتمل على احدى وثلاثين جزءا طبع منها ثمانية عشر جزءا ، أما الأجزاء الباقية من ١٩ ــ ٣١ وهي القسم التاريخي من الموسوعة فما زالت مخطوطة ٠ وقد اعتنى النويري في موسوعته بالوثائق الرسمية ، ويمكنني القول بأن النويري هو أقرب ما يكون الى المؤرخ المعاصر لأحداث الفترة الأخيرة من البحث اذ استقى بعض معلوماته ممن شاركوا في هذه الأحداث ، فسمع منهم ونقلها في موسوعته ٠ وقد استعنت كثيرا في كتابي بمادة الأجزاء من ٢٧ ــ ٢٩ ، ففيها أخبار انفرد بها النويري عن غيره من المؤرخين ، مثل تسليم الكرك للظاهر بيبرس ، والقسم الذي حلفه بيبرس للمغيث عمر أمير الكرك ثم نكثه باليمين واصداره الأمر بقتله ٠ يقول النويري الذي شاهد نص اليمين : « وحلف السلطان الملك الظاهر له يمينا مستوفاة وأشهد عليه بما يضمنه مكتوب الحلف ، وقد شاهدت المكتوب وهو بخط القاضي فخر الدين ابراهيم بن لقمان صاحب ديوان الانشاء وما فيه من اسم السلطان بخط السلطان ومثاله بيبرس (٥٤) ٠ وقد نقلت

---

(٥٢) الباز العريني : المماليك ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٤ ٠

(٥٣) احمد عزت عبد الكريم : أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الاعشى ، القاهرة ١٩٧٣م ، ص ٩ ٠

(٥٤) النويري : نهاية الارب في فنون الادب ، مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة ، جزء ٢٧ ، لوحة ١٠٥ ٠

نص هذه اليمين في الملاحق كوثيقة هامة. وهكذا يتبين لنا أن النويري يعتبر مصدرا موثوقا لأواخر عصر الدولة الأيوبية ونهاية امارة الكرك ، فأحداث موسوعته تنتهي عند أحداث سنة ٧٣٠ هجرية .

د ـ المصادر الجغرافية :

١ ـ وفي مقدمة هذه الكتب : كتاب الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، لمؤلفه عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم المعروف بابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) . وهذا الكتاب يعتبر مصدرا هاما في طبوغرافية الشام التاريخية ، فهو يصف مدنها وقراها وكورها وجبالها ، بالاضافة الى أحداثها التاريخية بأسلوب شيق وبتفصيلات دقيقة وواضحة ، ولم يغفل موضعا من المواضع مع تعددها ، كما اهتم بذكر المدارس والحمامات والمعابد والآثار والمزارات . وقد نهج ابن شداد في اعلاقه اسلوبا مبتكرا ، فكتب في قطر معين وفي اقليم محدود ، فهو أقرب ما في العربية والفرنجية الى تصوير بلاد الشام كلها [55] ، فكأنه شبيه بالمعاصرين في أسلوبهم وتبويبهم وطريقة معالجتهم ، حيث يرسمون المنهج ويعلنون عن الهدف . وقد اعتمد ابن شداد على ما وقع في يده من مصادر ، كما اعتمد روايات الثقات ممن كان يسألهم ويسترشد بآرائهم . ولا شك أن وفرة المصادر التي أخذ منها ابن شداد كانت من العوامل التي رفعت قيمة كتابه علميا فأصبح مصدرا هاما تجمعت فيه كل المعلومات التي يحتاج اليها الباحث في الآثار والعمران ، ولا يستغني عنه المؤرخ بما احتوى عليه من أحداث هامة نقلها عن مصادر مفقودة . بالاضافة الى معاصرته لبعض الأحداث التي وقعت في أواخر عصر الدولة الأيوبية ، ذلك أن ابن شداد كان معاصرا للهجمة المغولية المدمرة التي اجتاحت ديار الاسلام ، كما عاصر نهاية الدولة الأيوبية في بلاد الشام وقيام دولة المماليك ، وشهد

---

(٥٥) سامي الدهان : الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، بيروت ١٩٥٣ ـ ١٩٦٣م ، المقدمة ص ١١ .

نهاية امارة الكرك الأيوبية على يد الظاهر بيبرس بحكم كونه وزيرا للظاهر ٠ وكان الظاهر قد شمله بعطفه بعد أن هرب من دمشق الى مصر على أثر اضطراب الأحوال في بلاد الشام في أعقاب الغزوة المغولية ، وهذا يفسر اهداءه هذا الكتاب الى السلطان الظاهر بيبرس (٥٦) ٠ وكان ابن شداد بحكم صلته بالمسؤولين على اتصال وثيق بالأحداث ، فهو يشهدها ويطلع عليها ، بل ويشارك فيها ٠ فابن شداد ينفرد بدوره بذكر أحداث هامة منها : فتح القدس على يد الملك الناصر داود أمير الكرك سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م) الذي استردها من أيدي الصليبيين الذين تملكوها منذ أن سلمها لهم الملك الكامل محمد سلطان مصر ٠ وقد سجل ابن شداد وثيقة هامة عن هذا الفتح ضمنها هذا الكتاب ، وهي رسالة موجهة من الناصر داود الى الخليفة العباسي في بغداد يبشره بهذا الفتح العظيم ويصف له فيه هذا الهجوم ويطلب رأيه فيما يفعله بها (٥٧) ، وقد أثبتت هذه الوثيقة الهامة في جملة الملاحق ٠ والى جانب ما سبق ذكره عن أهمية هذا المصدر تاريخيا فاننا نسجل هنا أهميته الجغرافية فهو مصدر أكثر فائدة وأهمية من ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) وغيره من الجغرافيين فيما يتعلق بجغرافية الشام والجزيرة (٥٨) ٠

وما دمنا بصدد الحديث عن الجغرافيين العرب فاننا نجد لزاما علينا التحدث عن الرحالة العرب الذين لا تقل أهمية رحلاتهم عن المؤرخين والجغرافيين ٠ ويوضع في مقدمة هؤلاء الرحالة رجلان زارا هذه المناطق موضوع البحث وشاهداها وسجلا ملاحظاتهما عنها ٠

٢ ـ الأول الرحالة الأندلسي أبو الحسن محمد بن أحمد البلنسي المعروف بابن جبير المتوفى سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م) ، وقد ترك لنا

---

(٥٦) سامي الدهان ، الاعلاق الخيرة ، المقدمة ص ٢٣ ٠

(٥٧) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، ج ٣ ص ٢٢٦ ـ ٢٣٣ ٠

(٥٨) Ziadeh, Urban, P. xix.

كتابه المشهور ، تذكرة الأخبار عـن اتفاقـات الأسفـار المسمـى بـ « رحلة ابن جبير » ، وهو أشبه بمذكرات يومية سجل فيه ملاحظاته ومشاهداته (٥٩) ، واهتم بالشؤون الاقتصادية والاجتماعية للبلاد التي زارها ٠ ويعد هذا الكتاب مصدرا له أهميته عن أحداث الفترة موضوع بحثي هذا ٠ فقد تعرض لذكر أسرى الصليبيين أتباع أرناط الذين وقعوا في أيدي المسلمين على أثر غزوتهم الفاشلة للديار المقدسة واليمن ومحاولتهم السيطرة على مكة والمدينة وتجارة البحر الأحمر ٠ وقد شاهدهم ابن جبير في الاسكندرية عقب وصوله اليها سنة ٥٧٨هـ (١١٨٣م) متوجها للحج ، وهناك قتلوا جـزاء تجرئهم على غزو الديار المقدسة ٠ كذلك يسجل لنا ابن جبير عرضا رائعا لتجارة البحر الأحمر القادمـة عبـر عيـذاب الى القاهـرة والاسكندرية ، وقوافل التجارة المتصلة بين مكة واليمن وبلاد الشام ومرورها عبر الكرك وما كانت تقدمه من رسـوم الى صاحبهـا أرناط ٠ كما أمدنا بمعلومات قيمة عن حركة التجارة بين المسلمين والصليبيين والطرق التي كانت تسلكها القوافل التجارية ،منها طريق بانياس الذي كانت تسلكه البغال لوعورته ٠ أما الجمال فكانت تسلك الطريق الآخر الواقع شمالي امارة الكرك « محافظـة اربد الحالية » الى طبرية عن طريق الغور ثم الى عكا ٠ وبالاضافة الى ذلك يقوم بوصف الكرك ونواحيها ويذكر لنا خصب تربتها ومناعتها ، فيذكر أن القرى المحيطة بالكرك تبلغ أربعمائة قرية خصبة غنية وافرة العطاء ٠ وقد شهد عند خروجه من دمشق صلاح الدين خارجا لمحاصرة الكرك في محاولة لفتحها واراحة المسلمين وقوافلهم من خطرها ٠ فابن جبير يعتبر لذلك مصدرا موثوقا فيما يتعلق بالعلاقات الاقتصادية والتجارية بين المسلمين والفرنج وبحركة التجارة الى مصر والشام والحجاز وبالعكس عبر الامارة وأهمية الكرك الاقتصادية والاستراتيجية في فتـرة السيطرة الصليبيـة عليها ٠

---

(٥٩) عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، ص ٢٢١ ٠

٣ ـ أما الرحالة الآخر فهو أبو عبد الله بن ابراهيم اللواتي الطنجي المشهور بابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٩هـ (١٣٧٧م) ، وهو مغربي الأصل ، ولد في طنجة سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٣م) ورحل في جميع أنحاء العالم المعروف آنذاك مدة تسعة وعشرين عاما تقريبا (٦٠) ، قطع خلالها ما يقرب من مائة وعشرين ألف كيلو متر (٦١) فهو لذلك يعتبر شيخ الرحالين دون منازع ، وكتابه « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف « برحلة ابن بطوطة » يعد بحق تحفة وأثرا عظيما لثراء مادته ووفرة ملاحظاته عن البلاد التي يمر بها والتي انفرد بسردها وذكرها · فهو يذكر البلد التي يزورها ويشير الى تاريخها وأهم معالمها وأحداثها ، وقد كتب ابن بطوطة عن الكرك ووصف مناعتها ، ونعتها « بعش الغراب » لقوتها وحصانتها · كما ذكر الأماكن التي ينزلها الحجاج في طريقهم من الشام الى الحجاز عبر الكرك·وزار عجلون ووصف قلعتها ومدينتها وبساتينها وزروعها ، وهو بذلك يزودنا بمعلومات غنية عن هذه الامارة ومدنها وأحوالها الاقتصادية ·

هـ ـ الشعر :

هذا وقد اعتمدت على الشعر العربي المعاصر للاحداث ، ولا يخفى أن الشعر يصور الاحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمع المراد دراسته ، وهو مرآة تعكس صورة المجتمع في السلم والحرب · وهذا الشعر الذي اعتمدت عليه فيما يتعلق بكتابي ينسب الى القاضي عز الدين أبي القاسم هبة الله بن جعفر بن محمد المشهور بابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨هـ (١٢١٢م) وهو شاعر عاصر صلاح الدين وسجل في شعره اكثر الوقائع التي خاضها البطل العربي ، ويعتبر كتابه « ديوان ابن سناء/الملك » سجلا لاعمال صلاح الدين وحروبه · ومن العجيب ان ابن سناء وان لم يكن مؤرخا ولا جغرافيا قد سجل بشعره حفل زفاف ابنة

---

(٦٠) Ziadeh. Urban, P. XXiii.

(٦١) نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ١٩٦٢م ، ص ١٨٧ ·

زوجة ارناط في الوقت الذي شرع صلاح الدين في احكام الحصار على الكرك . ومن الغريب ايضا ان المصادر العربية المعاصرة لم تشر الى هذه الحادثة . وابن سناء الملك على هذا النحو ينفرد بذكر هذه الواقعة . فهو مصدر معاصر وشاهد معاين لاحداث الصراع المرير بين صلاح الدين وارناط .

وقبل ان انتهي من عرضي لاهم المصادر العربية لا بد من الاشارة الى مصادر اخرى هامة لا يتسع الوقت لتحليل ما له منها صلة بموضوع دراستي ، ولكنها تدخل في عداد المصادر الثانوية . منها ما يتعلق بالتراجم مثل : وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان للقاضي شمس الدين أبي العباس احمد بن ابراهيم بن ابي بكر المشهور بابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م) . والمؤرخ أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك المعروف بابن سعيد المتوفى سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) صاحب كتاب « النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة » ، وهو القسم الخاص بالقاهرة من كتاب « المغرب في حلى المغرب » . ومنها ما يتعلق بالتاريخ المحلي مثل كتاب « زبدة الحلب في تاريخ حلب » لمؤلفه كمال الدين بن ابي القاسم عمر بن احمد بن هبة الله المعروف بابن العديم المتوفى سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م) . ومنها ما يتعلق بالمختصرات التاريخية مثل كتاب « المختصر من أخبار البشر » لمؤلفه الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل المتوفى سنة ٧٣٢هـ (١٣٣١م) الجغرافي والمؤرخ . ومنها ما يتعلق بالتاريخ العام لمصر الاسلامية مثل : « كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » لمؤلفه جمال الدين ابي المحاسن يوسف بن تغرى بردي المشهور بابي المحاسن المتوفى سنة ٨٧٤هـ (١٤٦٩م) . أو ما يتعلق بتاريخ العرب بوجه عام ككتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » لعبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٦م) . وهناك العديد من المصادر الهامة التي أفدت منها في بحثي هذا بعضها مطبوع والاخر ما زال مخطوطا .

ثانيا : المصادر الاوروبية :

واعتقد انه قد آن الاوان للتحدث عن بعض المصادر الاوروبيه المعاصرة لموضوع البحث ، واول من يوضع في رأس قائمة مؤرخي الحروب الصليبية بالنسبة لموضوع كتابي المؤرخ المشهور وليم الصوري ولد عام ٥٢٤هـ

(١١٣٠م) ، وكان واسع الاطلاع يعرف عدة لغات منها اللاتينية وهي لغة الكنيسة والمدارس في مملكة بيت المقدس ، كما كان يجيد الفرنسية وهي لغة البلاط الصليبي ، والعربية التي كانت تستعمل بكثرة في محيط التبادل التجاري بينهم وبين العرب(٦٢) ٠

بالاضافة الى انه كان على دراية باللغات اليونانية والعبرية والفارسية ٠ وقد هيأ وليم نفسه منذ نعومة اظفاره للعمل في السلك الكنسي ، وكان يطمح في أن يصبح بطريرك بيت المقدس ، الا انه لم يوفق لوجود منافسين له في البلاط الصليبي ٠ وقد شغل وليم منصب رئيس اساقفة كنيسة صور وكانت له مكانة مرموقة بين رجال الدولة المسئولين في مملكة بيت المقدس الصليبية ، وشارك وعايش الكثير من الاحداث الهامة فيها خاصة محاولات عموري Amalric ملك بيت المقدس للاستيلاء على مصر ٠ وكان وليم الصوري يشغل مكانة هامة في دولة عموري لارتباطه بخدمته ، فقد عهد اليه بكتابة تاريخه ، كما انه مثل الملك عموري لدى البلاط البيزنطي للاتفاق على غزو مصر ونجح في مهمته ، كما بعث سفيرا الى رومة لبعض المهام الكنسية ٠ وكان لنجاحه في هذه المهام اعظم الاثر في ان يحوز ثقة الملك ، فيعهد اليه في سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م) بمهمة تربية ابنه بلدوين الرابع ٠ وقد بلغ وليم في عهد بلدوين شأنا كبيرا اذ عينه مستشاره الاول ولكن بعد موت بلدوين الرابع سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م) أقصي وليم عن منصبه ولم تتحقق امنيته في ان يصبح بطريرك بيت المقدس ٠ وقد بدأ في كتابة تاريخه المسمى « تاريخ الاعمال التي تمت في بلاد ما وراء البحر » المعروف باسم تاريخ وليم الصوري سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م) وانتهى منه سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) حيث توفي بعيد هذه السنة(٦٣) ٠ ويمتاز وليم الصوري باعتداله في التعبير عن افكاره حيال خصومه الشخصيين وكان سياسيا من الطراز الاول ، وقد وصفه المؤرخون بالنزاهة والانصاف ، ويؤكد ذلك اننا قلما نجد مؤرخا يعالج عصره بالصورة التي نهجها وليم الصوري

---

(٦٢) Atiya. A.S., The Crusade Historiography and Bibliography, Indiana. 1962, P. 17.

(٦٣) عمر كمال توفيق : وليم الصوري ، فصلة من كلية الاداب جامعة الاسكندرية ، المجلد الحادي والعشرون ، ١٩٦٧م ، ص ٦ ٠

الذي اصطنع النزاهة التامة والبصر النافذ والادراك السليم ، فلم يخضع للتعصب العنصري او الديني او الطبقي على النحو الذي كان عليه غالبية الكتاب الاوروبيين المعاصرين ، فنراه يمتدح نور الدين زنكي ويصفه بانه رجل حكيم وفطن (٦٤) ، كما نراه يصور اسد الدين شيركوه وصلاح الدين تصويرا يستدر الاعجاب · ويعتبر كتاب وليم الصوري المصدر الرئيسي عن العصر الممتد من سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م) حتى سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) أما عن الفترة السابقة فهو مصدر هام ايضا اذ هو ملخص جيد لما سبقه من مصادر ، وهكذا فان وليم الصوري يعتبر من المصادر الهامة في بحثي عن فترة الصراع بين المسلمين ومملكة بيت المقدس والصليبيين في الشام لمدة نصف قرن تقريبا من وجهة النظر الغربية ·

هذا وقد أفدت في المرحلة التاريخية المتأخرة من أحداث الامارة من مصدر صليبي اخر لا يقل اهمية عن وليم الصوري هو جوانفيل المتوفى سنة ٧١٨هـ (١٣١٨م) فكتابه « تاريخ القديس لويس » المشهور « بمذكرات جوانفيل » يعتبر من أمهات المصادر الاوروبية المعاصرة · فهو يعاصر نهاية الدولة الايوبية وقيام الدولة المملوكية ، فقد شارك جوانفيل لويس التاسع في حملته على دمياط سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩م) كما أقام برفقة سيده الذي غادر الديار المصرية الى عكا منهزما مكسورا بعد أن أفرج عنه المصريون · وقد روى لنا جوانفيل مقتل تورانشاه على ايدي المماليك في فارسكور ، اذ شاهد هذا الحادث بنفسه وكان انذاك داخل سفينة راسية قـــرب الشاطىء يرقب ما يحدث ، فهو الوحيد من المؤرخين الذي شاهد ذلك الحادث · كذلك فهو يعتبر شاهد عيان لكثير من احداث هذه الحملـــة الفاشلة والمعارك التي دارت بين المسلمين والصليبيين ، وقد اورد الكثير من ملاحظاته الدقيقة التي قلما عنيت بها المصادر المعاصرة لتلك الفترة سواء العربية او الاجنبية(٦٥) · كما حفلت مذكرات جوانفيل بمادة خصبة تتضمن اخبار العلاقات القائمة بين الصليبيين بالشام وكل من الايوبيين

(٦٤) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ١٠ ·

(٦٥) جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، اسكندرية ١٩٧١م ، ص ٥ ·

هناك والمماليك في مصر ومحاولة لويس الاستفادة من التناقضات والخلافات التي كانت تقع بين امراء البيت الايوبي في الشام وبين المماليك في مصر . وقد اورد جوانفيل كذلك اخبار الهجمة المغولية على بغداد ، وهي اخبار استقاها من افواه التجار القادمين من هناك[٦٦] ، وقد أفادتني هذه المذكرات في كل الاحداث التي ذكرتها سابقا . ويمتاز كتاب جوانفيل بقيمته التاريخية الفائقة بسبب صدق ذاكرته واخلاص خلقه وقوة ملاحظته ، فهو كثيرا ما يمتدح أعداءه المسلمين فيصف جيشهم بالقوة وحسن التدريب وتفوقه في الاساليب الحربية الممتازة كاستعمال المسلمين للقذائف النارية ضد تحصينات الصليبيين ، ويشير الى أنها أصابتهم بالذعر . وقد وصف تلك القذائف وصفا دقيقا شيقا ، وهكذا كان جوانفيل كما وصفه احد الباحثين الغربيين المحدثين ، وهو البارون دي لاباستي بقوله : « ان جوانفيل لم يكن له اي مقصد سوى ان يسجل للاجيال التالية الحقيقة البحتة التي لا يتطرق اليها ادنى شك »[٦٧] . واستطيع القول بأن كلا من كتابي وليم الصوري وجوانفيل يعتبران من أهم المصادر التي أصبح مصيرها الخلود بين وثائق الحروب الصليبية .

هذه لمحة موجزة وعرض لاهم مصادر بحثي ارجو ان اكون قد وفقت في عرضها .

---

(٦٦) جوانفيل : والقديس لويس ، ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٨م ، ص ٢٥٥ .
(٦٧) جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ٩ .

التاريخ السياسي والعلاقات الخارجية

الفصل الاول

التسمية والموقع

١ ــ ظهور الكرك في التاريخ ٠

اسم الكرك ومدلوله ٠

٢ ــ موقع المدينة واهميته جغرافيا واستراتيجيا ٠

(١)

ظهور الكرك في التاريخ

اسم الكرك ومدلوله :

ورد اسم الكرك في بعض المصادر القديمة ومنها التوراة[١] تحت اسماء « قير حارسة » Kir-Hareseth ، « قير حارس » Kir-Haresh « قير حرس » Kir-Heres · والكلمة كما نلاحظ مكونة من مقطعين الاول « قير » والثاني « حارس » ، فالمقطع الاول قير Kir يعني الحصن أو القلعة ·

أما تفسير المقطع الآخر « حارسة » فقد أثار تعليق المفسرين واللغويين حتى سنة ١٨٦٨م حينما تم اكتشاف الحجر المشهور في قرية ذيبان الاردنية « ديبون Dibon القديمة[٢] » وهو الحجر الذي اطلق عليه المؤرخون اسم حجر مؤاب أو المؤابيين ويحتفظ به اليوم متحف اللوفر بباريس ، فقد أماطت ترجمة نصوص هذا الحجر اللثام عن المقصود بكلمة « حارس » العبرية اذا ما قورنت بما يقابلها من اللغة المؤابية ، واتضح ان حارس تعني : « تلا يعلوه بناء » ، وهذا المعنى نفسه يطابق المعنى المقصود باللغة العبرية ·

---

(١) سفر الملوك الثاني الاصحاح ٣ العدد ٢٥ ، اشعيا الاصحاح ١٦ العدد ٧ ، ١١ ، أرميا الاصحاح ٤٨ والعدد ٣١ ، ٣٦ ·

Stanley, "A.P.", Sinai and Palestine, London, 1866, P. 523. - Witson, "Sir Charles, Picturesque Palestine, Sinai and Egypt, Vol. 3, London . 1882, P. 202. - FR. BUHL, Article, "Kerak, Encyclopaedia of Islam. - Edward Robertson, Article, "Karak". Encyclopaedia Britannica.

Emil G. Hirsch. Article, "Kir", Jewish Encyclopaedia.

Louis H. Gray. Ahticle. Moab. Jewish ncyclopaedia.

Witson. op. cit., Page, 202.

(٢) ذيبان : قرية في نواحي الكرك بالاردن ، انظر : فردريك بيك ، تاريخ شرقي الاردن وقبائلها ، ترجمة بهاء الدين طوقان ، القدس ١٩٣٥م ، ص ١٨٠ ـ لانكستر هاردنج ، آثار الاردن ، ترجمة سليمان موسى ، عمان ١٩٧١م ، ص ١٢٢ ·

وعلى هذا الاساس وبعد توضيح وتفسير المعنى لكل من مقطعي الكلمة يتضح انها تعني : « المدينة المحصنة على تل » أو « القلعة المحصنة على تل[٣] » وبمعنى اصح القصبة[٤] .

وعـرفت الكرك القديمـة في بعض المصادر باسم « قير مـؤاب[٥] » Kir-Moab ومن التفسير السابق يمكن ان يصبح معناها « قلعة مؤاب أو حصن المؤابيين » .

الا أن هناك رأياً آخر ذهب اليه بعض المؤرخين ، وعلى اساسه اشتقوا الاسم وفسروه ، فقد قرروا ان الكرك تعود في اصلها الى الاسم الآرامي ، « كرخا[٦] » Karkha وذلك كما وردت في حجر مؤاب[٧] ، ثم حرفت حتى اصبحت الكرك . وهذه الكلمة الآرامية تعني في تفسيرها « مدينة مسورة » . وذهب آخرون الى أنها تصحيف للكلمة الآرامية القديمة كاركو[٨] Karko التي فسروها بمعنى « القلعة » . وذكر بعضهم أنها ترجع في

---

(٣) Witson, op. cit., P. 202.

(٤) القصبة : قصبة البلد والقصر والحصن اي في جوفة . والقصبة تعني القلعة الحصينة القائمة على مرتفع من الارض (تاج العروس : مادة قصب) .

(٥) Stanly, op. cit., P. 523.
Tristram, The Land of Israel, Journal of Travels in Palestine, New York, 1876, P. 249.
Lane Poole, Saladin and the Fall of the kingdom of Jerusalem, Beirut, 1964, P. 123.
Fr. Buhl, Article. Kerak, Encyclo. of Islam.
Edward Robertson, Article, Karak, Encyclo. of Britannica.
Louis H. Gray Article, Moab. Jewish Encyclo.
هاملتون جب : صلاح الدين الايوبي ، ص ١٣٥ .

(٦) أنيس فريحة : معجم اسماء المدن والقرى اللبنانية ، بيروت ١٩٧٢م ، ص ١٤٥ ، — فيليب حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، بيروت ١٩٥٩م ، ترجمة كمال اليازجي ، جزء ٢ هامش ١ صفحة ٢٣١ .
Fr. Buhl Art. Kerak, Encyclo. of Islam.

(٧) لانكستر هاردنج : آثار الاردن ، ص ٤٤ .

(٨) رانسمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العريني ، بيروت ١٩٦٧ — ١٩٦٨م ، الجزء الثاني ، صفحة ٣٧١ ، هامش ١ .
Le strange Palestine under the Moslems, Beirut. 1965, P. 479.

اصلها الى كلمة « راخاث »[٩] Rakath الآرامية ثم حرفت الى الكرك . والملاحظ ان هذه الكلمة الارامية تؤدي هي الاخرى نفس المعنى تقريبا ، بمعنى « مدينة أو قلعة محصنة » .

وعرف الموضع في المصادر اللاتينية بنفس الاسم ، وهو الاسم الآرامي الذي عرفت به فكتب بالفرنسية Le Crach [١٠] أو Crac [١١] أو Krac [١٢] وبالانجليزية Karak أو Kerak [١٣] .

مما تقدم يتضح أن الكرك كلمة آرامية الاصل أو « سريانية »[١٤] صيغت تصحيفا لكلمة « كرخا » أو « كاركو » ، وكلاهما آرامي يؤدي نفس المعنى . وقد قام ببناء هذه المدينة الملك المؤابي ميشع[١٥] ما بين عامي ٨٦٠ ـ ٨٥٠ ق. م. وهذا المعنى يطابق طبيعة هذه المدينة المؤابية ، التي

---

(٩) Smith, The Historical Geography of the Holy Land, London, 1896. P. 454.

(١٠) Guillaume de Tyr, Recueil des Historiens de Croisades, H. Occ. Vol. 1, P. 692.

(١١) Ibid Vol. 1, P. 992.
Gaudefroy, La Syrie A L'epoque des Mamelouks, Paris, 1923, P. 125, - Le Strange, op. cit. P. 279, P. 390 - Lane Poole, Saladin. P. 27.

(١٢) Gaudefroy, Op. Cit., P. 269.

(١٣) Tristram, The Land of Israel, P. 249.
Le Strange, op. cit., P. 479.
Conder, The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1897. P. 158.
Margoliouth, Cairo, Jerusalem, and Damascus, London, 1907, P. 74.
Campbell, The Crusades, London, 1935, P. 168.
Belloc, The Crusade, London, 1937, P. 215.
Stevenson, The crusaders in the East, Beirut, 1968, P. 233.
Fr. Buhl, Art. Kerak, Encyclo. of Islam.
Edward Robertson, Art. Karak, Encyclo. of Britannica.

(١٤) صار الآراميون يفضلون تسمية لغتهم بالسريانية بدل الآرامية بعد تنصرهم واعتناقهم المسيحية (انظر : فيليب حتي ، تاريخ سورية والفلسطين ، ج ٢ ص ١٣٨) .

(١٥) لانكستر هاردنج : آثار الاردن ، ص ٤٤ .
فردريك بيك : تاريخ شرقي الاردن ، ص ١٣ .
Sparrow, Modern Jordan, London, 1960, P. 110.

تقع على تل مرتفع وحصين · وهكذا فان تفسير كلمة « قير حارسة » العبرية وكرخا وكاركو الآراميتين تؤدي كلها نفس المعنى وتفسيرها متشابه ، فالكرك تعني اذن « القلعة أو المدينة المحصنة القائمة بأعلى تل » ·

غير أن بعض الباحثين يرون أن هذه الكلمة الآرامية اطلقت عند مؤرخي الحركة الصليبية اللاتين على كل موضع حصين يقع بأعلى جبل عال يماثل في حصانته وموقعه الكرك ، مثل : الكرك وسموها « كرك مؤاب »(١٦) Krak des Moabites والشوبك « مونتريال » وسموها « كرك مونتريال »(١٧) Krak de Montreal أو « كرك الشوبك » ، وحصن الاكراد فسموه « كرك الفرسان »(١٨) Krak des Chevaliers · وقلعة صهيون فسموها « كرك صهيون »(١٩) Karak Sahyun ·

وهناك نعوت واسماء أخرى اطلقها الفرنج والمؤرخون الغربيون المحدثون على الكرك منها La Pierre du Desert (٢٠) أو Petra

---

(١٦) رانسمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ٣٧١ ·
Marry, Hand Book For Travellers in Syria and Palestine, London, 1868, P. 57.
Belloc, The crusade, The world's debate, London, 1937, P. 84. P. 218.
Setton, A History of the Crusades, pensaylvania, 1958, vol. 1. P. 526.
Fed len, Crusaders Castles, London, 1950, P. 15.

(١٧) Le strange, op. cit., P. 536.
Lane Poole, Saladin. P. 27.
Smith, op. cit. P. 537.
Luke, The hand Book of Palestine and Trans Jordan, London, 1934, P. 462.
Lamb, The Crusades, The flame of Islam, London, 1943, P. 260.
Setton, op. cit. vol. 1, P. 558.
Morrisson, Les Croisades, Paris, 1969, P. 37.

(١٨) سبب نسبته الى الاكراد : « ان شبل الدولة نصر بن مرداس صاحب حمص اسكن فيه قوما من الاكراد في سنة ٤٢٢هـ فنسب اليهم ، وكان من قبل يسمى « حصن السفح » وقد استولى عليه الصليبيون سنة ٥٠٣هـ · انظر : ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ص ١١٥ ·

(١٩) The Cambridge Medieval History, Cambridge. 1926, vol. 5, P. 312.

(٢٠) Guillaume de Tyr, vol. 1, P. 675, P. 692.
Luke, op. cit. P. 462.

Deserti (٢١) ويعني الاخير حجر الصحراء أو كرك الصحراء ، وذلك كي لا يقع لبس مع كرك الفرسان « حصن الاكراد »(٢٢) أولا ، وثانيا ربما حدث ذلك بسبب جهل هؤلاء المؤرخين بطبيعة الارض وامكنتها ، فخلطوا بذلك بين قلعة الكرك واطلال البتراء حاضرة الانباط « بلاد العرب الصخرية » .

---

(٢١) رانسمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ٣٧٠ ، ص ٣٧١

Setton, op. cit. vol. 1, P. 558.
Le Strange, op. cit., P. 479.
Muller, Castles of the Crusaders, London, 1966., P. 47.

(٢٢) رانسمان : ج ٢ ص ٣٧٠ .

Edward Robertson, Art. Karak, Encyclo, Britannica.

ان اطلاق اسم (الكرك) على أماكن عديدة في بلاد الشام قد اوقع البعض في الخلط بين كرك مؤاب ، وحصن الاكراد ، علما بأن الغربيين قد سموا الأخيرة بالفرنسية Krak des chevaliers أما بالانجليزية : Krak of the knights

ومع هذا التمييز الواضح لاحظت ان الباحث محمود رزق محمود قد خلط بين الاسمين فذكر اوصافا لقلعة الكرك في رسالته للحصول على درجة الماجستير بعنوان « العلاقات بين ارناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين » المقدمة في جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٣م ، باشراف الدكتور حسن حبشي والمحفوظة بمكتبة الكلية تحت رقم ١٩٢٠٨ ، ١٩٢٠٩ ، معتمدا في وصفه للحصن على كتاب :

Fedden, (Robin), Crusader Castles, Landon, 1950.

وعلى الصفحات من ٥٠ ــ ٥٣ ، وبعد أن اطلعت على هذه الصفحات تبين لي أنها وصف تفصيلي لقلعة حصن الاكراد السوري ويقع بين حمص وطرابلس . انظر :

Fedden, Crusader Castles, PP. 50-53.

محمود رزق محمود ، العلاقات بين ارناط أمير الكرك وصلاح الدين الايوبي حتى واقعة حطين ، رسالة ماجستير ، جامعة عين شمس ١٩٧٣م . وعن حصن الاكراد ونعته بالكرك انظر :

Conder, The Latin Kingdom, P. 87.
Le strange, op. cit. P. 279.

رانسمان ، ج ٢ ص ٧٦٠ .

Gaudefory, op. cit. P. 269.
Edward robertson, Art. Karak. Encyclo. Britannica.
Belloc, op. cit. P. 160, P. 220.
Fedden, op. cit. P. 17, PP. 50 - 53, PP. 82 - 86.

محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٥ ، ص ٢٩٦ ــ عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٧ ، ص ٨٠ .

وقد اقتبسوا هذه التسمية من التقسيمات الطبيعية التي قسم بها اليونان والرومان بلاد العرب[٢٣] .

اما المصادر العربية فقد ورد بها لفظ الكرك اسما لاكثر من موضع في بلاد الشام ، أولها الكرك موضوع البحث ، ثم كرك آخر ميزوه عنه فاضافوا اليه كلمة نوح « كرك نوح » نسبة الى نوح عليه السلام ، اذ يقال أن به قبره ، وهو موضع كان يقع بين بعلبك ودمشق[٢٤] . وكذلك أورد القلقشندي موضعا اسمه « الكرك » بضم الكاف وسكون الراء المهملة ،

---

(٢٣) قسم اليونان والرومان بلاد العرب الى ثلاثة اقسام طبيعية هي :

أولا : بلاد العرب الصخرية Arabia Petrixor Arabia Petraea وتقع في الشمال من بلاد العرب ، جنوب غربي بادية الشام حيث مملكة الانباط .

ثانيا : بلاد العرب السعيدة Arabia Felix والمقصود بها بلاد اليمن أو الارض الخضراء .

ثالثا : بلاد العرب الصحراوية Arabia Deserta وكانت تطلق على بادية الشام ، ثم شمل المناطق الصحراوية التي كانت تسكنها القبائل العربية المتبدية في شبه جزيرة العرب ، انظر :

(عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ، بيروت ١٩٧١م ، ص ١٠ ، ١١) .

(٢٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، القاهرة ١٩٠٧م ، ج ٤ ص ٣٩٠ – ٣٩١ والمشترك وضعا والمفترق صقعا ، جوتنجن ، المانيا ، ١٨٤٦م ، ص ٣٧١ ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ص ٢٧٠ – الدمشقي ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، بطرسبرج ، ١٨٦٦م ، ص ١٩٩ – أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، القسطنطينية ، ١٢٨٦هـ ، ج ٤ ص ١٠١ – العمري ، مسالك الابصار في ممالك الامصار ، الجزء الاول ، حققه احمد زكي باشا ، القاهرة ١٩٢٤م ، ص ٢١٥ – ابن شاهين ، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، باريس ١٨٩٤م ، ص ٤٧ – ابن اياس ، نشق الازهار في عجيب الاقطار ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٣٩ جغرافيا ، لوحة ٤٢ – القرماني ، اخبار الدول وآثار الاول في التاريخ ، بغداد ١٢٨٢هـ ، ص ٤٧٤ .

وعن كرك نوح انظر ايضا :

Le strange, op. cit., P. 480.
Gaudefroy, op. cit. P. 74, P. 247.

انيس فريحة ، المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

وفسره بأنه « بلدة بساحل بلاد المسلمين هي الآن بيد صاحب قبرس[٢٥] .
ويصف ياقوت صاحب معجم البلدان الكرك موضوع البحث بالعجمة[٢٦] ،
بدليل أنه كان على معرفة باصولها الآرامية .

من كل ما تقدم يتضح لنا أن الكرك كلمة آرامية عربت وادخلت الى
اللغة العربية ، وعن الآراميين أخذها اللاتين .

(٢٥) القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ١٩٦٣م ، ج ٣ ص ٢٣٢ .
(٢٦) يذكر ياقوت ان الكرك وهي كلمة عجمية اسم لقلعة حصينة جدا في طرف الشام من
نواحي البلقاء ، (انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٣٩١) .

(٢)

موقع المدينة واهميته جغرافيا واستراتيجيا

تتوقف اهمية الموقع الجغرافي والاستراتيجي لاي تجمع عمراني على طبيعة البؤرة التي اقيم فيها ، وعلى مركزه بالنسبة للمراكز العمرانية المحيطة به · وللمكان عامل ثابت ومتغير ، فالثابت هو موقعه بالنسبة لخطوط الطول والعرض ، وبالنسبة للاقليم المناخي أو النباتي الذي ينتمي اليه ، بالاضافة الى تضاريس الاقليم وموقعه من السهل والجبل ، ومن البحر واليابس ، ومن الصحراء والريف ·

أما العامل المتغير فهو موقع الاقليم نفسه بالنسبة لمراكز الثقل الحضارية والعسكرية ، واهميته الاستراتيجية بالنسبة للسياسة الدفاعية أو الهجومية لهذه المراكز نفسها ·

ومنطقة جنوبي الاردن هي حلقة الوصل بين مصر والشام والحجاز وفلسطين والمعبر الذي يتحتم على المسافرين أو المتسللين أو البدو المتنقلين أو الغزاة أن يسلكوه من الجنوب الى الشمال أو من الشرق الى الغرب والعكس بالعكس · والواقع أن هذه المنطقة بامتدادها الى جنوب فلسطين تكمل بعضها بعضا وتسمى الباب الشرقي لمصر(٢٧) · وهذا الموقع الذي تميزت به المنطقة الجنوبية من الاردن هو الذي دفع شعوب العالم القديم الى التسابق الى السيطرة عليه وادى ذلك بطبيعة الحال الى تضافر الظروف لاعدادها بوتقة تنصهر فيها حضارات متعددة محلية واجنبية ومصرية واشورية وبابلية ، وفارسية واغريقية ورومانية وعربية واسلامية ، تركت بصماتها واضحة فيما تبقى بالمنطقة من آثار(٢٨) · والاردن في الوقت

---

(٢٧) محمد السيد غلاب : موسوعة سيناء ، نشرها المجلس الاعلى للعلوم في الجمهورية العربية المتحدة ، القاهرة ١٩٦٠م ، ص ٢٨ ·

(٢٨) Sparrow, Modern Jordan, PP. 104 - 105.

الحاضر هو نتاج تلك الحضارات العظيمة ، وأن بقايا تلك الآثار لدليل كاف على ما كانت عليه هذه البلاد من رقي واستقرار وتقدم ٠ ويكفي أن يذكر المرء آثار الانباط في البتراء والرومان في عمان وجرش ، والآثار العربية والاسلامية في البادية وتتمثل في عدد من القصور الخلوية والقلاع المنتشرة في جبلها وباديتها ، تلك المناطق التي تؤكد بأن هذه البوادي كانت في العصور القديمة اكثر امطارا ، وأنها تهيأت لنوع من الحياة الاستقرارية(٢٩) ٠

وكان من الطبيعي أن يسفر هذا الرخاء عن قيام حرفة الزراعة خاصة في الاجزاء الشمالية من البلاد « الكفارات » حيث وجد شعب زراعي ماهر ، ويتمثل ذلك بوضوح في ثروتها في اشجار الزيتون وفي كثرة ما تبقى بها من آثار الامر الذي دعا الرومان الى أن يطلقوا عليها اسم « فلسطين الصحية »(٣٠) Pelestine Salutaries وفي الامكان مشاهدة خرائب القرى امثال بيت رأس ، وحبراص وسحم(٣١) حيث لا يزال في وسط القرية الاخيرة ماثلا للعيان حتى الوقت الحاضر ما يدعى بالحصن ، كل هذا يشهد بتحضر وتقدم السكان الذين كانوا يعيشون في الاجزاء الشمالية والجنوبية من الاردن ٠

وبغض النظر عن اهمية المنطقة من الناحية الروحية اذ تكثر فيها اسماء مواضع ورد ذكرها في التوراة(٣٢) ونشأ بها بعض الانبياء الاولين ، ويكفي ان نتذكر انها البلاد الوحيدة التي وطئتها اقدام النبي العربي محمد

---

(٢٩) أحمد فخري : بين آثار العالم العربي ، ص ٧٢ ـ نقولا زيادة ، لمحات من تاريخ العرب ، ص ٣٥ ٠

(٣٠) Smith. op. cit. P. 535.

ـ فردريك بيك : تاريخ شرقي الاردن ، ص ٨١ ٠

(٣١) بيت رأس : قرية في ناحية الاردن ينسب اليها الخمر قال حسان :

كان سبيئة من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء

(ياقوت ، المشترك وضعا ، ص ٧٥) ٠

حبراص : قرية في الاردن تبعد عن بيت رأس بمسافة ٨ أميال شمالا ٠

سحم : قرية في الاردن الى الشمال من بيت رأس بمسافة ١١ ميلا قرب نهر اليرموك ٠

(٣٢) أحمد فخري : بين الآثار العربية ، ص ٧٦ ٠

صلى الله عليه وسلم في طريقه الى بصرى[٣٣] عندما صحبه عمه أبو طالب ، وعندما اشتغل لحساب السيدة خديجة ، كما أنها المنطقة التي عبرتها جيوش المسلمين زمن الفتوح الشامية ٠

اما من الناحية الاستراتيجية فتمتاز امارة الكرك بموقعها الفريد في قلب العالم العربي ، فدروبها شهدت قوافل التجار عبر حقب التاريخ ، وبعض مدنها القديمة مثل « مادبا وجرش » تحكمت في تجارة هذا الجزء من العالم لفترات طويلة ٠ والانباط الذين سادوا هذه المنطقة في العصر البطلمي سيطروا على طرق التجارة بين غزة وبين عاصمتهم البتراء ، ثم بين عاصمتهم وبين اليمن فالهند ، ونشطت التجارة وازدهرت على أيديهم بفضل مهارتهم في تصريف المنتجات الشرقية الى العالم الروماني ، وظل الانباط يسيطرون على هذه الطرق التجارية عبر بادية الاردن من القرن السادس الى القرن الرابع قبل الميلاد (٣٤) ٠

ولقد فطن الرومان الى اهمية هذا الموقع الاستراتيجي الفريد لمنطقة الكرك ، فتطلعوا الى السيطرة عليه وتسخيره لتيسير صلاتهم ببلاد الشرق ، فمدوا طريقا معبدا يصل بصرى بأيلة « العقبة » تيسيرا لنقل السلع الشرقية والافريقية اليهم[٣٥] ٠

كذلك تنبه الفرس الى الاهمية الاستراتيجية لمنطقة الكرك ، ولم يرفعوا عنها اعينهم ابان الصراع القائم بينهم وبين البيزنطيين حتى تمكنوا من

---

(٣٣) بصرى : مدينة في الشام وهي التي قصدها رسول الله صلى الله عليه وسلم للتجارة قبل البعثة النبوية ، وبصرى قصبة كورة حوران ، محكمة البنيان ، وهي مدينة ازلية مبنية بالحجارة السود ، لها قلعة وبناء قلعتها يشبه نظيره بقلعة دمشق (أبو الفداء ، سيرة السلطان الناصر صلاح الدين ، ترجمة البرتوس سيكو لتنس ليدن ١٧٣٢م ــ ص ٢٢) ٠

(٣٤) محمد السيد غلاب : موسوعة سيناء ، ص ٣١ ــ وراجع ايضا : عبد العزيز سالم ، الدولة العربية ، ص ١٠٦ ٠

(٣٥) عبد العزيز سالم : الدولة العربية ــ ص ١١١ ــ نقولا زيادة ، لمحات من تاريخ العرب ، ص ١٢٩ ٠

احتلالها وسيطروا على اقليم الشراة والبلقاء ووادي موسى · ثم وصلت عساكرهم الى خرائب حصن قديم يعرف بالشوبك فعمروه ورتبوه ونظموه وشحنوه بالرجال حتى يقطعوا الاتصال البري بين مصر والشام(٣٦) ·

هذه المنطقة التي تحيط بالكرك وتمتد من البحر الميت حتى البحر المتوسط مشتملة على الجزء الجنوبي من الاردن وفلسطين ، تعتبر من الوجهة الاستراتيجية اخطر مناطق الشرق الادنى ، لا سيما في فترات الازمات التي كان يمر بها هذا الجزء من العالم(٣٧) واهمها فترة الحركة الصليبية في العصر الوسيط · فالصليبيون عند تقييمهم لاهمية هذه المنطقة ادركوا ماكان يتمتع به موقعها الاستراتيجي الرائع الذي يتحكم في طرق الاتصال بين مصر والشام والعراق والحجاز ، وبالتالي لم يترددوا في بسط نفوذهم عليها ، واقاموا فيها القلاع والحصون المنيعة ليحكموا السيطرة عليها ويتحكموا فيها ·

وتحيط الاودية بقلعة الكرك من ثلاث جهات ، وهذه الاودية تشبه حذوة الفرس ، أو السوار الذي يدور حول المعصم · اما المدينة فمسورة حصينة ، تنهض اسوارها عند اقدام الحصن الشامخ تحرسه وتذود عنه · ويفصل بين المدينة والحصن اخدود عميق شق في الصخر الصلد ، ويتصل رأسا باسوار القلعة ، هذا الخندق الصخري المنحوت يعكس لنا التقاليد البيزنطية (٣٨) في فن بناء التحصينات ، ولقد لعب دورا بارزا في قلعة الكرك وفي غيرها من القلاع مثل بانياس وقلعة الشقيف وصهيون(٣٩) وحصن الاكراد ، ويبلغ عمق هذا الشق الصخري ستين ذراعا ، وكان يعلوه

---

(٣٦) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٣٣٢ ·

(٣٧) محمد السيد غلاب : موسوعة سيناء ، ص ٢٨ ـ ٢٩ ·

(٣٨) Fedden, op. cit. P. 24.

(٣٩) صهيون : بلدة من اعمال طرابلس الشام ، بها قلعة حصينة ، تقع على طرف جبل وتحتها أودية هائلة واسعة عميقة · وكانت المدينة مزودة بثلاثة اسور منيعة · (القرماني : أخبار الدول وآثار الاول ، ص ٤٦١) ·

بانياس : قلعة ومدينة تقع قرب بحيرة الحولة تحت جبل حرمون « الشيخ » وكانت مخزن غلال دمشق ، استردها نور الدين من الفرنج في سنة ٥٦٠هـ (١١٦٥م) ، (راجع : ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٩٠ ـ Le strange, P. 418.

الشقيف : قلعة حصينة جدا على قمة جبل قريب من بانياس على حدود دمشق ، والشقيف كلمة سريانية بمعنى الصخرة Le Strange, P. 534.

في العصر الاسلامي جسر خشبي ييسر سبيل الدخول الى القلعة(٤٠) ، ولكنه يرفع في حالة اذا ما اعتدى عليها معتد • والقلعة على هذا النحو اشبه بجزيرة عائمة في وسط محيط من الاودية العميقة شديدة الانحدار التي يستعصي على المرء الوصول اليها وهذا يفسر السبب في تسميتها بـ « حصن الغراب » •

أما المدينة فكان يحيط بها سور منيع ، وكانت مدينة عامرة يمكن أن تعتمد على ذاتها ، وقد اهتم بها الملك المعظم عيسى بعد أن اسند أبوه العادل ولايتها اليه اهتماما خاصا ، فتحولت في عهده الى مدينة عامرة تزخر بالاسواق والمرافق والدور • الا انها كانت تستقي من مياه الامطار كقلعتها ، فقد كانت بها صهاريج تتجمع فيها مياه الامطار(٤١) لسقاية أهلها • أما المنطقة التي تقع خارج المدينة وتسمى « الثنية »(٤٢) فكانت مكانا يقيم به الحجاج قبيل رحيلهم الى الحجاز ومجلسا ينتظر فيه الجند والراغبون في الدخول الى المدينة والقلعة الاذن لهم بذلك ، وتمتاز الاودية التي تكتنفها بخصبها وكثرة غراسها وثمارها • ومن شرفات ابراجها الشاهقة يمكن رؤية البحر الميت وجبال القدس ، وكثيرا ما كانت تتصل في الازمات واوقات الحصار ببرج داود ببيت المقدس(٤٣) لطلب النجدات ويتم ذلك عن طريق اشارات ضوئية تنتج من ايقاد النار ليلا في مناور الحصن • والجدير بالذكر أن المنطقة التي تحيط بها غنية آهلة بالسكان. اشتهرت حقولها بوفرة القمح(٤٤) الذي كانت تعتمد عليه مملكة بيت المقدس ونواحيها •

---

(٤٠) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة ، تحت رقم ٢٤٠٢٨ ، الجزء التاسع ، لوحة ٤٦٧ ــ النويري نهاية الارب في فنون الادب ، جزء ٣٠ ، لوحة ٤٨ « مخطوطة » ــ العمري : مسالك الابصار ، جزء ١٣ قسم ٣ ، لوحة ٦٧٩ « مخطوطة » ــ ابن دقماق : الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٢٢ تاريخ ، لوحة ١٤٤ ــ العيني : عقد الجمان ، جزء ٢٢ قسم ١ ، لوحة ٤٩ « مخطوطة » ــ أبو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣٥٥ تاريخ ، مجلد ٣ ، لوحة ٢٤٧ •

(٤١) ابن واصل : مفرج الكروب « نسخة مصطفى فاضل » لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » • بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جزء ٩ ، لوحة ٧١ « مخطوطة » العيني : عقد الجمان ، جزء ٢٠ قسم ٣ ، لوحة ٤٩٣ « مخطوطة » •

(٤٢) ابن بطوطة : الرحلة ج ١ ص ٦٧ ــ العمري : مسالك الابصار ، جزء ٢ قسم ١ ، لوحة ١٧١ « مخطوطة » ــ أبو المحاسن : المنهل الصافي ج ١ ، لوحة ٣٢٤ « مخطوطة » •

(٤٣) Stanly, Sinai and Palestine, London, 1866, P. 167.
Fedden, op. cit., P. 31.

(٤٤) رانسمان : ج ٢ ص ٣٧١ •

الفصل الثاني

الكرك في مرحلة الجهاد الاعظم

١ ـ الكرك في أخريات العصر الفاطمي ودورها السياسي والاقتصادي والعسكري وقتذاك .

٢ ـ سياسة القوى الاسلامية في مصر والشام نحو المنطقة في اعقاب الحملة الصليبية الاولى :

أ ـ سياسة مصر .

ب ـ سياسة دمشق .

٣ ـ بوادر اليقظة الاسلامية في القرن السادس الهجري .

٤ ـ النشاط الحربي لنور الدين زنكي ضد امارة الكرك .

(١)

الكرك في أخريات العصر الفاطمي ودورها السياسي والاقتصادي والعسكري وقتذاك

تعرضت بلاد الشام في أواخـر القرن الخامس الهجري (الحـادي عشر الميلادي) الى غزوة صليبية شرسة وعلى الرغم مما قيل عن دوافع هذه الحركة الصليبية القادمة من اوروبا وجذورها البعيدة في أعماق التاريخ كنتيجة طبيعية للصراع بين الشرق والغرب ، فانه مما لا شك فيه أنه كانت لها عدة دوافع مجتمعة : سياسية واقتصادية وشخصية ودينية[١] (وان كانت قد اتخذت من المظهر الديني ستارا لحقيقة اهدافها) ادت الى هذه الحروب المتصلة طيلة قرنين من الزمن ٠ ولقد أحسن الصليبيون استغلال الفرصة المواتية لغزوتهم في وقت تمزق فيه الصف العربي أشلاء وأصاب الاعياء دولة الفواطم في مصر ، وأمكنهم أن يحتلوا سواحل الشام من انطاكية الى عسقلان ٠ كما أمكنهم أن يتوجوا هذه الفتوحات باحتلال القدس يوم الجمعة ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢هـ (١٥ يوليو (تموز) ١٠٩٩م)[٢] ٠

والحق أنهم وجدوا الطريق أمامهم ممهدا الا من مقاومة فردية لبعض المدن والحصون تغلبوا عليها بعد أن حاصروها حصارا محكما ٠ صحيح أنه كان في المنطقة خلافتان : خلافة شيعية في القاهرة ، وخلافة سنية في بغداد ،

---

(١) عن دوافع الحركة الصليبية راجع : عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس الصليبية ، ص ٨ ـ ٣٤ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٢٧ ـ ٤٣ ـ جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى ، ص ٣٧ ـ ١١٠ ٠

(٢) Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem 1095 - 1127, U.S.A. 1973, P. 121.

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٤٩ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٤٣ ٠

الاولى في دور الاحتضار منذ أن سيطر الوزراء على أزمة الحكم ، والثانية فقدت هيبتها وقوتها ولم يعد للخليفة من السلطان سوى الاسم ، وكلتاهما دخلتا في صراع سياسي ومذهبي مع بعضهما البعض • والشام قد سيطر عليها أمراء السلاجقة يطحن بعضهم بعضا ، حاولوا أن يصدقوا النية في الوقوف في وجه الغزاة ، ولكنهم تفرقوا واختلفوا[3] اذ لم يجدوا من يشد على أيديهم ويؤازرهم من أكبر قوتين اسلاميتين آنذاك ، القاهرة ، وبغداد • فالخليفة العباسي عندما طلبوا مساعدته ، أرسل الى بركياروق السلجوقي يأمره بتقديم ما يلزم نحوهم[4] • أما موقف القاهرة الفاطمية فقد أثار تساؤل الكثيرين فأبو المحاسن يتساءل : « ما أدري ما كان السبب في عدم اخراجه لعساكره مع قدرته على المال والرجال ؟؟ »[5] ، ويقصد بذلك الوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه • ثم تطور الامر في الشام حتى أن بعض أمراء السلاجقة أخذوا يستنجدون بالفرنج الواحد ضد الآخر[6] • وهكذا تفتتت وحدة العالم الاسلامي وتمزقت ، وأوجد ذلك مناخا مناسبا لنجاح الغزو الصليبي لبلاد الشام والتمكين له في سهولة ويسر •

وبتأسيس مملكة بيت المقدس حل جسم غريب في قلب العالم العربي واحتفظ الصليبيون بالساحل بهدف الاتصال المباشر بالغرب الاوربي المورد الرئيس لهم من الرجال والسلاح • كانت خطة مملكة الصليبيين في بيت المقدس اقامة خطوط دفاعية حولها تعترض المسلمين[7] الذين ثابوا الى رشدهم بعد صدمة الاحتلال الصليبي ، وفطنوا الى حقيقة ما حدث وأدركوا أن فقدان فلسطين أدى الى قطع الاتصال بين مصر والشام والحجاز والعراق ولما كانت مصر ما تزال تملك عسقلان « مفتاح مصر الجنوبي » فقد اتخذته

---

(٣) ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر ، القاهرة ١٢٨٥هـ ، ج ٢ ، ص ١١ •

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٨ •

(٥) أبو المحاسن : المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٤٨ •

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٥ •

(٧) فيليب حتى : تاريخ سورية وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ـ عمر كمال ، مملكة بيت المقدس ، ص ١٠٨ •

Fedden, op. cit. P. 11.

مركزا متقدما لمراقبة الفرنج ، وخط دفاع وهجوم أمامي على مملكة بيت المقدس الصليبية ، فمن عسقلان كان يخرج الغزاة الفاطميون برا وبحرا لمنازلة قوى الفرنج ، وهكذا كانت عسقلان شوكة في جانب مملكة بيت المقدس تضايقهم وتسبب لهم المتاعب ٠

وكان لزاما على مملكة بيت المقدس بسبب مضايقات المسلمين أن تهتم بتحصين حدودها الشمالية والجنوبية بسلسلة من التحصينات ، وبدأت بالمنطقة الشمالية مكمن الخطر القادم من دمشق ، فأقيمت ثلاث قلاع هي : الشقيف Beaufort وتبنين[٨] Toron ، وبانياس Subeiba بهدف السيطرة على الطرق المؤدية الى دمشق وصور والساحل ، كذلك أقيمت قلعة صفد[٩] Sophet والحابس جلدك[١٠] El Habis Djaldak وكوكب الهواء[١١] Kaukab وغيرها من القلاع الهامة بهدف مراقبة تحركات دمشق وشل نشاط قواتها واعتراض قوافلها وقطع الطرق والمسالك المؤدية اليها ٠

---

(٨) تبنين : أو شقيف تورون ، قلعة حصينة قرب صور ، تقع على جبل عال تحيط بها السهول ، وتبعد مسافة يوم الى الشمال من صفد
(Le Strange, P. 535).

(٦) صفد ، او صفت ، قلعة بنيت على قمة جبال كنعان على حدود الجرمق كانت قرية عادية ثم بني فيها قلعة سميت صفت ، انها قلعة هامة بناها الفرنج ، وكان يسيطر عليها فرسان الداوية ٠
(Le Strange, P. 524).

(١٠) حابس جلدك : قلعة من اعمال دمشق ، كانت منحوتة في الصخر في مكان حصين يتحكم بوادي اليرموك ، وتبعد ١٦ ميلا عن طبرية وكانت تسبب اضرارا كثيرة للمسلمين (رانسمان ، ج ٢ ، ص ٦٩٨) ٠
(Le Strange, P. 443).

(١١) كوكب الهواء : قلعة تقع على قمة جبل يرتفع شاهقا قرب طبرية ، وتتحكم هذه القلعة الحصينة في كل وادي الاردن وتشرف عليه ، وقد اخذها صلاح الدين بعد معركة حطين ، واخربت زمن الملك العادل بعد ان انتزعها من عز الدين اسامة صاحب كوكب وعجلون ٠
(Le Strange, P. 483).

أما في الجنوب فقد أدرك الفرنج الاهمية الاستراتيجية لهذه المنطقة باعتبارها حلقة الوصل بين الشام ومصر ، وكان اكثر ما يخشاه الفرنج قيام اتحاد سياسي وارتباط في الهدف بين دمشق والقاهرة ٠

والواقع أن ملوك بيت المقدس تنبهوا الى الاهمية الخاصة التي تتمتع بها منطقة ما وراء الاردن (المملكة الاردنية الهاشمية) من النواحي الاقتصادية والاستراتيجية ٠ فالارض التي تنهض عليها مملكة بيت المقدس لا تكفي لسد حاجتهم من المواد الغذائية ، لهذا تطلعوا الى المنطقة الخصبة الواقعة شرقي الاردن وتشتهر بحقول القمح الوافرة والغلال التي يمكن أن تزودهم بما يحتاجون اليه[١٢] ، بالاضافة الى أن هذه المنطقة كانت الطريق الطبيعي لسير القوافل القادمة من الجزيرة العربية الى سواحل الشام الصليبية محملة بأطايب الهند والصين واليمن والحبشة والتي كانت تجد سوقا نافقة لها في الغرب الاوروبي ، مرورا بطريق الحجاج الذي يقع على امتداد الساحل الغربي لبلاد العرب ٠ هذه الطريق كانت تشق منطقة شرقي الاردن ومن هناك اما أن تتفرع الى دمشق او الى بلاد مملكة بيت المقدس اللاتينية حيث تصدر من موانئها ، وكان أشهرها اذ ذاك ميناء عكا ويقدم لنا ابن جبير[١٣] صورة حية عن نشاط هذا الميناء وغناه واكتظاظه بأنواع البضائع الواردة من الجنوب العربي ومن دمشق ٠ وكانت الضرائب التي تفرض على هذه البضائع تشكل دخلا هاما لمملكة اللاتين في القدس[١٤] ، بالاضافة الى سيطرتها على ميناء أيلة « العقبة » الواقع على خليج العقبة في البحر الاحمر وتحكمها في حركة التجارة والمواصلات من خلاله ، وكانت أيلة آنذاك ثغرا كثير الحركة[١٥] على اتصال مستمر ما بين بلاد الشام

---

(١٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٧٦ – أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، القاهرة ١٩٥٦ – ١٩٦٢م ، ج ٢ ، ص ١٩٧ – ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ، ١٩٥٣ – ١٩٧٢م ، القاهرة ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ ٠

(١٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٧٦ – ٢٧٧ ٠

(١٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٧٧ – رانسمان ، ج ٣ ، ص ٦٠١ ٠

(١٥) أبو الفداء : المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٦٨ – المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، القاهرة ١٩٧٣م ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ ٠

Belloc, The Crusade, P. 183.

والسواحل الحجازية واليمن » . ومن المعروف أن أيلة اشتهرت بنشاطها التجاري منذ أقدم العصور ، فكانت ديوانا للمكوس[16] التي تفرض على البضائع القادمة من اليمن والهند والصين . بالاضافة الى ذلك فان هذه المنطقة كانت حلقة الوصل الوحيدة[17] بين بلاد ما بين النهرين والشام والحجاز وبين مصر وبلاد المغرب الاسلامي ، كما انها كانت تتحكم في طريق الحج المصري والشامي . زد على ذلك أن هذه المنطقة كانت تعتبر خط الدفاع الاول لمملكة بيت المقدس ضد غارات القبائل العربية المجاورة أو ضد أي تحرك عسكري اسلامي موجه اليها . ان العوامل الاقتصادية والاستراتيجية هي التي دفعت ملوك اللاتين في القدس الى أن يوجهوا عنايتهم الخاصة نحو هذه المنطقة . ولهذا حرصوا على مهادنة دمشق والتفرغ الى المنطقة الجنوبية ، وبالفعل تمت الموادعة بين بلدوين الاول ملك بيت المقدس وظهير الدين صاحب دمشق في سنة ٥٠٢هـ (١١٠٨م) واستقر الامر بينهما على أن يكون السواد وجبل عوف (عجلون) أثلاثا[18] ثلث للاتراك حكام دمشق ، وثلث للافرنج ، والثلث الاخير للفلاحين أصحاب تلك المناطق الخصبة ، وقد تم هذا وسجل فيما بين الجانبين واستمر الوضع على هذا النحو الى أن غيره انتصار حطين في سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) .

وما أن أمن بلدوين الجناح الشمالي لمملكته حتى تطلع الى الجناح الجنوبي ، وكان على وعي كامل بأهمية هذه المنطقة بالنسبة لمستقبل مملكته

---

(١٦) ابن اياس : نشق الازهار في عجيب الاقطار ، لوحة ٨٧ « مخطوطة » موسيل : مادة أيلة ، دائرة المعارف الاسلامية ـ نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٤١ .

(١٧) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٥٤ .
(Belloc. op. cit. P. 218).
حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، القاهرة ١٩٦٨ ، ج ٤ ص ٤٠٥ .

(١٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٤ ـ رانسمان : ج ٢ ، ص ١٥٧ .

لذلك اندفع بقواته نحوها[١٩] في سنة ٥٠٩هـ (١١١٥م) ، واستقر به المقام في الشوبك حيث وجد آثار وبقايا قلعة قديمة تتميز بموقع استراتيجي ممتاز ، اذ تتسنم جبلا سامق الارتفاع ولا يمكن الوصول اليها الا من طريق واحد[٢٠] . وبادر بلدوين باعادة بنائها ، فأصبحت قلعة لا ترام ذات أبراج عالية ضخمة البنيان ، وما يزال أكثرها ماثلا للعيان حتى الوقت الحاضر ، خاصة من جهتها الشمالية والجنوبية . على الرغم من تعرضها للتدمير زمن المماليك وما طرأ عليها من تعمير وترميم بعد ذلك ويمكن أن نشاهد اليوم بين انقاضها الجنوبية بئرا يمكن الوصول اليها عن طريق سرداب له درج يلتوي بطريقة هندسية الى أن يتصل بقاع البئر[٢١] ، يسهل عبوره الا أنه مظلم ولا منفذ له غير مدخله . وفي القاع بركتان مساحتهما أربعة أمتار مربعة ينصب فيهما الماء من ينبوع يتفجر من اعلاها ثم يتسرب داخل الارض . وبعد أن أتم بلدوين بناءها شحنها بالرجال والمقاتلة خصصهم لمراقبة مفرق الطرق الموصلة بين القاهرة ودمشق والديار المقدسة ، وللتحكم في سير القوافل التجارية القادمة من الجنوب ، من اليمن

---

(١٩) Guillaume De Tyr, vol. 1, P. 713.

رانسمان : ج ٢ ، ص ١٦٠ . عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٣٢٧ .

Conder, The Latin Kingdom, P. 78.

Conder, The Monumental History, P. 389.

Belloc, The Crusade, P. 168.

Gaudefroy, La syrie A L'epoque P. 125.

Stevenson, The Crusaders, P. 65.

(٢٠) الشوبك : تقع الشوبك على يمين وادي عربة بين الطفيلة ومعان والى الشمال الشرقي من البتراء (فيليب حتى : تاريخ سورية وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ، عبد الرحمن زكي : الجيش المصري في العصر الاسلامي ، القاهرة ١٩٧٠م ، ج ١ ، ص ١٢٣) ويصف أبو الفداء الشوبك فيذكر أنها كثيرة البساتين أغلب أهلها من النصارى وأن بالشوبك واد تتفجر منه عينان احداهما على يمين القلعة والأخرى على يسارها (أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٤٧) وأما قلعة الشوبك فيصفها ياقوت فيذكر أنها من بناء الفرس إسسوها سنة ٥٠٩م على انقاض حصن قديم ورتبوا بها رجالا بقصد التحكم في الطريق البري الذي يصل مصر بالشام (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٣٢) .

(٢١) لانكستر هاردنج : آثار الاردن ، ص ١٣١ ، يوسف غوانمة ، تاريخ شرقي الاردن في عصر دولة المماليك الاولى ، القسم الحضاري ، ص ٢١٠ .

والبحر الاحمر ، وعرفت هذه القلعة عند اللاتين باسم « مونتريال »(٢٢) Montroal تكريما لذكرى الملك بلدوين بانيها · كان هذا الحصن محاطا بأسوار مزدوجة قوية وابراج عالية شامخة · ثم أقام الصليبيون بوادي موسى جنوب الاردن عدة حصون وقلاع مثل : سلع ، هرمز ، الطفيلة وغيرها وذلك تمكينا لسيطرتهم على هذا الشريان الحيوي الاقتصادي والعسكري(٢٣) ·

ولم يكتف بلدوين الاول بالشوبك ، بل اندفع في السنة التالية ٥١٠هـ (١١١٦م) نحو البحر الاحمر حيث أيلة (العقبة)(٢٤) ذلك الثغر التجاري الهام منذ أقدم العصور الذي يقع على طرف اللسان الشرقي للبحر الاحمر ويتحكم في الطرق البرية بين مصر والحجاز ، وهناك أسس قلعة أيلة وحصنها وجعل فيها قوة عسكرية تتولى حراسة هذا المنفذ الحيوي أو بوابة الشام الى اليمن والهند ، بأمل الاستيلاء ولو جزئيا على تجارة البحر الاحمر والمحيط الهندي(٢٥) · ثم بنى كذلك قلعة حصينة في جزيرة

---

(٢٢) Guillaum, De Tyr vol. 1. PP. 712-713.
Fulcher of Chartres, op. cit. P. 215.

(٢٣) وادي موسى : يقع في جنوب القدس بين المدينة المقدسة والحجاز ، وهو وادي جميل مليء باشجار الزيتون .(Le Strange. P. 548) سلع : السلوع شقوق في الجبال وأحدها سلع ، واصل الكلمة عبري بمعنى « الصخر » ، ويطلق عليها « البتراء » وهو لفظ يوناني يعني « الصخر » وسلع قلعة حصينة بوادي موسى عم بقرب البيت المقدس (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١١٧ ـ Le Strange, P. 528 لانكستر هاردنج : آثار الاردن ، ص ١٣٧) ·
هرمز : قلعة بوادي موسى بين القدس والكرك (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٩٦٨) · ·
طفيل : قلعة بوادي موسى قرب البيت المقدس (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٤١) وهي الآن مدينة حسنة تسمى الطفيلة ·

(٢٤) Schlumberger, Renaud De Chatillon, Paris, 1898, P. 159.
Fulcher of Chartres, op. cit. P. 215.
Stevenson, op. cit. P. 65. رانسمان : ج ٢ ، ص ١٦٠ ·

(٢٥) ارنست باركر : الحروب الصليبية ، ص ٥٤ ـ ٥٥ ـ فيليب حتي : تاريخ سورية وفلسطين ، ج ٢ ص ٢٣١ ـ زكي النقاش : العلاقات الاجتماعية والثقافية ، ص ٢٧ ·

فرعون Le Graye التي لا تبعد كثيرا عن الساحل ، وشحن كلا من هاتين القلعتين بالحاميات العسكرية ، فأصبحتا تحكمانالسيطرة على القوافل المارة بهما من مصر الى الشام والحجاز ، كذلك اصبحتا مصدر خطر وازعاج للبحر الاحمر وسواحله والملاحة فيه(٢٦) ، اذ صار للفرنج لاول مرة وجود فيه وأصبحت تجارة البحر الاحمر وسواحل الحجاز تحت رحمتهم .

وهكذا استطاع اللاتين بهذين المعقلين الحصينيين ، الشوبك وأيلة ، أن يحكما السيطرة على طرق المواصلات بين أقطار العالم الاسلامي ويتحكما فيها . ولكن يبدو أن هذه الحلقة من التحصينات لم تكن محكمة تماما للدفاع عن القدس ، فما زالت هناك ثغرة يمكن للمسلمين النفاذ منها وهـــي المنطقة الواقعة شرقي البحر الميت ، وقد فطن الملك فولك (١١٣١ـ١١٤٤م) ملك بيت المقدس أخيرا لذلك ، فاهتم باحكام دائرة التحصينات حول مملكته من الجنوب الغربي والشرق ، فبنى القلاع في كل من تل(٢٧) الصافي ويبنة ، وبيت جبريل كي تحيط بعسقلان(٢٨) آخر معقل لمصر في فلسطين ثم اكمل هذا السوار من القلاع بتجديد بناء قلعة الكرك الحصينة ، قام

---

(٢٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٩٤ .
Gaudefroy, La Syrie, P. Civ.

(٢٧) تل الصافي : تقع الى الجنوب من يبنة ، وهي قلعة في جنوب فلسطين بجوار بيت جبريل في مقاطعة الرملة ، وتحرس الطريق بين عسقلان وبيت المقدس (رانسمان : ج ٢ ، ص ٣٦٩ Le Strange, P. 544. يبنه : تبعد عشرة أميال الى الجنوب الغربي من اللد على انقاض بلدة يمنية Jammia الرومانية القديمة (رانسمان : ج ٢ ، ص ٣٦٩) .

بيت جبريل : حصن يقع على الطريق المتد من عسقلان الى الخليل (حبرون) وتولى أمره الفرسان الاسبتارية (رانسمان : ج ٢ ، ص ٣٦٩) .

(٢٨) Conder, The Latin Kingdom, P. 101.

رانسمان : ج ٢ ، ص ٣٦٩ .

Stevenson, op. cit., P. 146.
Fedden, op.cit. P. 14.

بذلك باين Paiens ساقية ونائبه في الشوبك سنة ٥٣٧هـ (١١٤٢م)(٢٩) في الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر الميت ٠

اذن عوامل هامة كسبتها مملكة بيت المقدس من سيطرتها على شرقي الاردن ، فقد أمدتها حقولها الخصبة بما تحتاج اليه من غلات زراعية وفي مقدمتها القمح ،والرسوم التي كانت تفرض على القوافل المارة عبر أراضيها من مصر الى الشام والعراق شكلت دخلا جيدا لها ٠ كما أنها استطاعت أن تحول القوافل التجارية من الجنوب اليمني الى موانئها حيث كانت هذه القوافل القادمة من جنوب شبه الجزيرة العربية تصل الى دمشق ثم عكا(٣٠) واليها يتجه هؤلاء التجار ومعهم ما يحملونه من بضائع وسلع مختلفة ٠ وقد استفادت من هذه الحركة التجارية كثيرا ، وأصبحت هذه المنطقة نقطة الدفاع الاول عن مملكة بيت المقدس ضد جيرانها المسلمين كما أنها تحكمت بواسطتها في حركة التنقل والمواصلات بين اجزاء العالم العربي والاسلامي وبطريق الحجاج زهاء ثلاثة أرباع القرن (٥٠٩هـ ــ ٥٨٤هـ) بحيث أصبحت على حد قول ابن فضل الله العمري ، « قلعة كانت على الاسلام أية مضرة ، بل كانت لكعبة الاسلام زادها الله شرفا اية ضرة »(٣١) وأهم من ذلك كله منعت أي اتصال عسكري ممكن تحقيقه بين القاهرة ودمشق وشكلت حاجزا منيعا يقف في وجه اي اتصال بين انحاء الامة العربية ٠

---

(٢٩) Guillaume De Tyr, Vol. 1, P. 692.
Schlumberger, Renaud de Chatillon, P. 153.
Conder, The Latin Kingdom P. 101.
Belloc, op. cit., P. 234.
Stevenson, op. cit., P. 146.
Gaudefory, op. cit. P. 125.
آرنست باركر : الحروب الصليبية ، ص ٥٤ ــ عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٠١ ٠

(٣٠) Conder, The Monumental History, P. 451.
زكي النقاش : العلاقات الاجتماعية والثقافية ، ص ١٨٧ ــ عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٨٩ ٠

(٣١) العمري : مسالك الابصار ، جزء ٢ مجلد ٣ لوحة ٤٥٥ « مخطوطة » ٠

(٢)

سياسة القوى الاسلامية في مصر والشام

نحو المنطقة في اعقاب الحملة الصليبية الاولى

أ ـ سياسة مصر :

منذ اللحظة الاولى لاستقرار الصليبيين في قواعدهم بالشام قام الافضل شاهنشاه بمحاولات عديدة ضد الوجود الصليبي في الشام ، ولكنه أخفق في محاولاته واضطر بعد ان اشتد الفرنج في مضايقاتهم لحركة النقل والتجارة والاتصال بين مصر والعراق والشام والحجاز برا الى حد انهم استولوا على قافلة مصرية[٣٢] بسبخة البردويل في سنة ٥٠٩هـ (١١١٦م) اضطر الى مهادنة بلدوين الاول ملك بيت المقدس وتم توقيع معاهدة الصلح بينه وبين بلدوين لعجزه عن محاربته والتغلب عليه ، وبهدف فتح الطريق التجاري والاتصال مع الشام وغيرها ، والتفرغ ايضا لاطماعه الداخلية في الاستبداد بشؤون مصر والسيطرة عليها دون الخليفة ۰ ولا شك أن هذه المعاهدة نصت على حرية التنقل والتجارة عبر الاردن نظير رسوم يدفعها المسلمون للصليبيين عند مرورهم عبرها ، فحققت المعاهدة للصليبيين مكاسب لم تكن في الحسبان[٣٣] ۰

---

(٣٢) يقول أبو المحاسن : « فيها صالح الافضل امير الجيوش مدبر مملكة الآمر بردويل الفرنجي صاحب القدس ۰ وكان بردويل قد أخذ قافلة عظيمة من المسلمين بالسبخة المعروفة الآن بسبخة بردويل ۰ فرأي الافضل مهادنته لعجزه عنه ، وأمر الناس بذلك ، وساروا الى الشام وغيره » ۰ (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٠٩) ۰ سبخة البردويل : ويقال لها بحيرة البردويل ، واقعة على شاطيء البحر الابيض المتوسط شرقي بور سعيد وعلى بعد ٩٠ كم منها ، وهي ما تزال موجودة الى اليوم (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٧١ ، هامش رقم ٤) ۰

(٣٣) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨م ، ص ٢٤٣ ۰

ب ـ سياسة دمشق :

أما من ناحية دمشق فقد أدرك صاحبها ظهير الدين طغتكين[٣٤] خطورة هذه البلاد وأهميتها الاستراتيجية بعدما سيطر الصليبيون على الساحل ولا شك أنه تنبه الى مدى الضرر الذي يمكن أن يسببه الصليبيون لدمشق فيما لو احتلوا جنوب شرقي الاردن وأحكموا السيطرة عليه ، فعندئذ تنقطع المواصلات التجارية ويغلق طريق الحج بين دمشق والجزيرة العربيةويتوقف الاتصال مع الديار المصرية • وقد أدرك المكاسب التي يمكن أن تعود على دمشق لو أنها أحكمت قبضتها على هذه البلاد وانتزعتها من أيدي الفرنج فانتهز وصول أحد الامراء التركمان ويدعى الاصفهيد التركماني الى دمشق في جموع من قواته وأهله[٣٥] ، فأكرمه ظهير الدين غاية الاكرام وقربه اليه وعزم على أن يقطعه اقطاعا جيدا يسكن فيه وقومه ، فلم يجد خيرا من جنوب الاردن ، اذ رأى في ذلك فرصة مواتية للقضاء على السيطرة الصليبية فيها ، فأقطعه وادي موسى ، ومؤاب ، والشراه ومنطقة البلقاء المعروفة بخيراتها العميمة • أراد ظهير الدين بعمله هذا أن يضرب عصفورين بحجر واحد ، فمن ناحية كان سكان هذه المناطق قد قدموا اليه وشكوا اليه أن الفرنج نهضوا اليهم وسبوا وخربوا ونهبوا كل ما وصلت اليه أيديهم ، وانهم أصبحوا في خوف شديد منهم ، وطلبوا منه المساعدة والحماية بحكم أن بلادهم تتبع دمشق ، فوعدهم خيرا رغم عجزه في الحقيقة عن حمايتهم • ولكي يبدي للاصفهيد اكراما ويسبغ على السكان حماية ودرعا أقطعه هذا الاقطاع • فسار الاصفهيد بقواته وقد أسعده هذا العطاء الكبير وعندما وصل الى اقطاعه الجديد وجد الاهالي وقد استبد بهم الخوف من الفرنج، ولكنه خفف عنهم ووعدهم خيرا وأقام بينهم يرتب أموره وأمور تابعيه • وعندئذ أدرك الفرنج خطورة وجود قوة اسلامية تمنعهم من احكام سطوتهم

---

(٣٤) ظهير الدين طغتكين : هو اتابك الملك شمس الملوك دقاق بن تاج الدولة تتش بن السلطان الب ارسلان السلجوقي ، فلما مات دقاق استقل طغتكين بملك دمشق •
(ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٩) •

(٣٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥٨ •

على هذه البلاد وتحتم عليهم القضاء على هذه القوة قبل أن تستفحل وتخلي بينهم وبين سلطانهم عليها ، لذلك جمعوا جموعهم وحشدوا جيوشهم ووقفوا في مواجهة هذا الطارق الجديد ، وبدأوا يرقبون ويترقبون حتى سنحت لهم الفرصة فانقضوا على قوات الاصفهيد ومزقوا جموعه ولم يستطع الوقوف أمامهم فانهزم اكثر جنده واستولى الصليبيون على ما بيده ، فهرب مع ما تبقى من قواته نحو الشمال قاصدا دمشق ، فتلقاه ظهير الدين وأظهر الألم لما أصابه عمافقده .

وهكذا رأى ظهير الدين أن لا حول ولا قوة له لحماية هذا القطاع الهام من بلاد الشام والشريان الحيوي للاتصال مع مصر والحجاز ، فاضطر الى مسالمة الفرنج ، وحذا الافضل حذوه ، فعقدت معاهدة بين دمشق ومملكة بيت المقدس في سنة[٣٦] ٥٠٢هـ (١١٠٨م) ، وبهذه المعاهدة ضمن الاتصال التجاري بين دمشق والقاهرة والبحر الاحمر ، وهكذا تخلت كل من القاهرة ودمشق عن هذه المنطقة الاستراتيجية الحيوية لا بمحض ارادتها ولكن رغما عنها ، ولم تلبث الكرك أن أصبحت احدى بارونيات مملكة بيت المقدس الاربعة[٣٧] وأهمها ، واتخذت الشوبك بادىء ذي بدء مقرا لها ، ثم انتقلت القاعدة الى الكرك نفسها .

---

(٣٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٤ ــ رانسمان : ج ٢ ، ص ١٥٩ .
Conder, The Latin Kingdom, P. 89.
محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .
(٣٧) رانسمان : ج ٢ ، ص ٤٧٦ .
Belloc, op. cit. P. 218.
Campbell, The Crusades, London, 1935, P. 168.
عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(٣)

بوادر اليقظة الاسلامية في القرن السادس الهجري

كان لا بد للشعب العربي الاسلامي في مصر والشام أن يفيق من الصدمة ويثوب الى رشده ، ويتنبه الى الواقع الذي انجلت عنه الغزوة الصليبية ، ويعتمد على مقوماته الذاتية الاصيلة لرد العدوان والاطاحة بالسيطرة الصليبية على أرضه ، وكان من الضروري أن تظهر في هـــذه الظروف شخصية تتمثل فيها هذه المشاعر القومية وتنعقد عليها آمال المسلمين وتجد في نفسها القدرة على تحريك هذه المشاعر وقيادة الامة العربية الاسلامية الى النصر . ولحسن الحظ برزت شخصية الزعيم والقائد الذي يرجع اليه الفضل الاعظم في توحيد الصف العربي الاسلامي . تلك هي شخصية عماد الدين زنكي بن الاتابك آق سنقر . وكان آق سنقر من خواص السلطان جـلال الدين ملكشاه السلجوقي الذي ولاه اتابكيـة حلب(٣٨) . ولكن آق سنقر سقط صريعا على يد تاج الدولة تتش في سنة(٣٩) ٤٨٧هـ (١٠٩٤) ، وتمكن ابنه الاتابك أبو المظفر عماد الدين زنكي بعد جهود مضنية من تثبيت حكمه فاستولى على الموصل وحلب ونصيبين وجزيرة ابن عمر وحران وحماه وغيرها وأصبح سيد الموقف في شمال العراق والشام معا(٤٠) .

قبل ظهور عماد الدين زنكي على مسرح الاحداث في بلاد الشام كانت البلاد في حالة من الوهن(٤١) والضعف لم يعرف لها مثيل ، وبلغ الفرنج من

---

(٣٨) ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٨ . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١١ ، ١٩ ، ٢١ - أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٧٩ - عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٥٦٣ .

(٣٩) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٥ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٦ - رشيد الجميلي : دولة الاتابكة في الموصل ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٣٢ .

(٤٠) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٥ - ١٦ - ابن واصل : مفرج الكروب : ج ١ ، ص ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٤١ .

(٤١) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٣٢ - أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٧٦ .

القوة والمنعة ما جعلهم سادة الموقف والقوة الكبرى التي يجب أن يحسب حسابها في منطقة الشرق الادنى الاسلامي ، فقد بلغ نفوذهم من ماردين شمالا الى عريش مصر جنوبا باستثناء : حلب وحمص وحماه ودمشق . وكان الصليبيون يسيئون الى جيرانهم المسلمين ويفرضون الاتاوات قهرا ، يدفعها المسلمون اليهم كي يأمنوا شرهم . وبلغ ضعف المسلمين ذروته الى حد التعرض للاذلال والمهانة من جانب الفرنج عندما استطاع الفرنج أن يفرضوا سيطرتهم على دمشق وأن يرسلوا من يستعرض الرقيق الذي يرجع الى أصل رومي وأرمني من أسرى بلاد النصرانية ، وخيروهم بين البقاء عند من يملكونهم من المسلمين او العودة الى اوطانهم الاصلية حيث أهلهم وذووهم فمن اختار منهم العودة أعادوه ومن فضل البقاء لدى سيده تركوه . كذلك فرضوا على حلب أن تكون أعمالها مناصفة بينهم حتى في الرحا[٤٢] التي على باب الجنان احدى أبواب مدينة حلب ، والتي كانت لا تبعد عن باب المدينة اكثر من عشرين خطوة وهكذا كانت بقية بلاد الشام يتحكم فيها الفرنج الدخلاء ، كما نجحوا في عزل عواصم الاسلام : دمشق والقاهرة وبغداد بعضها عن بعض فلم يكن من سبيل للاتصال بينها . فامارة الرها الصليبية في الشمال كانت حاجزا منيعا في وجه اي اتصال بين الامارتين الكبيرتين الواقعتين في شمال الشام والعراق : حلب والموصل ، وأصبحت تحول دون تحقيق أي تعاون أو عمل مشترك ضد الصليبيين . أما في الجنوب فقد وقفت امارة الكرك الصليبية بحصونها العديدة في الشراه ووادي موسى والشوبك وأيلة سدا قويا يمنع أي اتصال بين القاهرة ودمشق وبغداد والحجاز ، ولم يكن هناك سبيل آخر للوصول الى دمشق من العراق الا عن طريق الرحبة[٤٣] والبر ، ومن القاهرة الا عن طريق البر على سيف الصحراء عبر امارة الكرك الصليبية مرورا بالجفر وباير

---

(٤٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٩ — ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٣٣ — أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٧٧ — المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ .

(٤٣) ابن الاثير : المصدر السابق ، ص ٣٣ — أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٧٦ .
الرحبة : قرية على طرف اللجاة في الصحراء القريبة من صرخد (Le Strange. P. 521)

والازرق(٤٤) • ولم يكن المرور من هذه المسالك يتم دون أن يتعرض المسافر لاخطار جسيمة حيث كان الفرنج يضعون الكمائن(٤٥) عبر هذه المسالك الصحراوية كي يحكموا سيطرتهم وتحكمهم في كل عابر وليشرفوا على كل حركة ، ويمنعوا أي اتصال • وقد لاقى التجار العرب والمسافرون المشاق الصعبة والمخاوف العديدة في سلوك هذه الطرق النائية القريبة من الصحراء اذ كثيرا ما كانوا يتعرضون لاغارات العربان الذين لا يترددون في نهب ما يحملونه من أموال وبضائع • وهكذا استطاع الصليبيون أن يمنعوا أي اتصال بين المسلمين ، وأيقن الفرنج أن بقاءهم في بلاد الشرق الاسلامي مرهون ببقاء الفرقة والعداوة والبغضاء بين المسلمين ، فعملوا كل ما في وسعهم كي يبقوه منشقا(٤٦) متباعدا لان ذلك فيه حياتهم وبقاؤهم •

بدأت الافاقة الاسلامية بظهور الاتابك(٤٧) عماد الدين زنكي على مسرح الاحداث ، فاستطاع بقوة وبسالة أن يحقق بطولات وانتصارات ضد الفرنج في الشمال توجت بضربة حكيمة سددها الى أمارة هامة من امارات الصليبيين في الشام هي أمارة الرها(٤٨) •

وكانت الرها احدى الامارات الصليبية الهامة ، وهي أول أمارة صليبية أسست في الشرق العربي • وكانت تقف حاجزا يمنع أي اتصال

---

(٤٤) الجفر : واحة داخلة في الصحراء تقع الى الشمال الشرقي من معان وهي ماهولة بالسكان حتى الآن •

باير : واحة في الصحراء الاردنية الى الشمال من الجفر ، كانت احدى محطات القوافل قديما ، ولا تزال موجودة للآن •

الازرق : واحة الى الشمال من باير ، وبها قلعة بناها الملك الناصر داود وهي على طريق القوافل المتجهة الى الحجاز (Le Strange, P. 406) « والازرق الآن منطقة زراعية وسياحية هامة في الاردن » •

(٤٥) اسامة بن منقذ : الاعتبار أو حياة اسامة ، ليدن ، ١٨٨٤م ، ص ٨ •

(٤٦) رانسمان : ج ٢ ، ص ٥١٢ •

(٤٧) الاتابك : وهو اتابك العسكر ، واصله اطابك ومعناه « الوالد الامير ، أو أبو الامراء وأول من لقب بذلك : نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب ارسلان السلجوقي « القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٨) •

(٤٨) الرها مدينة في الجزيرة من ديار مضر في البر الشرقي الشمالي على الفرات (ياقوت ، ج ٢، ص ٨٧٦ ، القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٣٨) •

بين حلب والموصل وتهدد بغداد دار الخلافة · فرأى عماد الدين زنكي أن يسدد أول ضرباته الى الرها ، ولذلك أخذ يراقبها عن كثب ويدرس أحوالها ويبعث من يرقب أميرها حتى اذا ما خرج أميرها جوسلين(٤٩) ومعه رجاله واعيانه وعبر الفرات الى بلاده الغربية حيث تل باشر وغيرها فما كان من عماد الدين زنكي الا أن أعد قواته وزحف بها الى الرها · فوصل اليها في جمادى الاولى من سنة ٥٣٩هـ (نوفمبر (تشرين ثاني) ١١٤٤م) · وأحكم حصاره حولها وحاربها حربا شديدة قاسية ، ونصب عليها المجانيق وتمكنت قواته من دخول المدينة بعدما نقبت أسوارها · ثم حاصر القلعة ودخلها في ٢٦ جمادى الاخرة بعد حصار دام ثمانية وعشرين(٥٠) يوما · وحرر ما يزيد على خمسمائة(٥١) من أسرى المسلمين كانوا بداخلها · ورأى عماد الدين زنكي أن المصلحة في عدم تخريب مثل هذا البلد ، ولذلك أمر العسكر برد ما أخذوه · فرد الرجال والنساء(٥٢) والاطفال الى بيوتهم وكتب لهم أمانا على أموالهم وأرواحهم وأحسن اليهم وخفف عنهم بعد شدة · وبهذا العمل تتجلى لنا فروسية هذا البطل وما تحلى به من أخلاق حميدة وصفات

---

(٤٩) جوسلين : هو جوسلين الثاني ، وصف بانه كان ، منكبا على ملذاته الخاصة ، ترك الرها واقام في تل باشر وجعل على الرها جماعة من الارمن والسريان الذين لم يستطيعوا حمايتها ·

(٥٠) عن تاريخ فتح الرها يذكر ابن القلانسي أنه تم يوم السبت سادس وعشرين من جمادى الآخرة منها ضحوة النهار (ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩) · ويذكر ابن الجوزي : أن الخبر ورد يوم السبت خامس عشر جمادى الآخرة ان زنكي فتح الرها (ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، حيدر اباد ١٣٥٧هـ ــ ١٣٥٩هـ ، ج ١٠ ، ص ١١٢) · أما ابن الاثير فيقول « في جمادى الآخرة فتح الشهيد مدينة الرها » لم يحدد التاريخ (ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٦٦) · وراجع أيضا : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٩٤ ــ أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٩ ــ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٥٧ ــ ابن قاضي شهبة : سيرة الملك العادل نور الدين ، مخطوطة ببلدية الاسكندرية تحت رقم ١٣٣٦ ب ، لوحة ٤٩ ·

(٥١) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١١٢ ·

(٥٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٩٤ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٧٥ ــ ابن قاضي شهبة : سيرة الملك نور الدين ، لوحة ٤٩ « مخطوطة » ·
Stevenson, op. cit., P. 150.

الشهامة والمروءة اذا ما قورن بالخلق الهمجي الارعن الذي كان يتصف به قادة الصليبيين وجنودهم ·

وكان لفتح الرها أصداء هامة في كل من المعسكرين الاسلامي والصليبي ويعبر ابن الاثير عن فرحة المسلمين بفتح الرها فيقول : انها « فتح الفتوح » ، ثم يصفها ويصف أبعادها ونتائجها وما سوف يترتب عليها من نتائج فيقول : « وأشبهها ببدر صدقا من شهده فقد تمسك من الجهاد بأوثق سبب »(٥٣) · وبفتح الرها تغيرت نظرة المسلمين نحو الفرنج(٥٤) · فانحلت عقدة الخوف لديهم ، وانتهت اسطورة القوة التي تشدق بها الفرنج بالاضافة الى أن هذا الانتصار بث فيهم روح الجهاد والتضحية والنضال فانطلق عماد الدين زنكي بعدها يهاجم القلاع والحصون الفرنجية في الشام ثم عمل على توحيد الجبهة الاسلامية لانه لا نصر للمسلمين الا بلم الصفوف والوقوف في جبهة قوية متراصة ثابتة ·

اذن كانت موقعة الرها نقطة تحول في حركة اليقظة الاسلامية أذكت في المسلمين روح القتال والنضال خاصة في الشمال(٥٥) ، وكذلك بدأ تحول المسلمين من حالة الدفاع الى حالة الهجوم مدفوعين الى ذلك بالدعوة الى الجهاد ، وبذا تحول ميزان القوى في بلاد الشام لصالح المسلمين · وكان من نتائجها كذلك ظهور كل من نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين الايوبي ، اللذان حملا لواء الجهاد ضد الصليبيين ·

أما نتائجها على الصعيد اللاتيني فكانت صدمة قوية أصابت الصليبيين في مقتل ، حيث اهتز كيانهم وتزعزع · ولكي تبقى لهم الصورة القديمة في المنطقة ، سارعت أوروبا وقد بلغتها نذر الهزيمة(٥٦) فأرسلت حملة صليبية

---

(٥٣) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٦٧ ·

(٥٤) Stevenson, op. cit., P. 150.

(٥٥) Lamb, The Flame of Islam, P. 268.

(٥٦) Belloc, The Crusade, P. 234.

عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٢٨ ·

جديدة هي الحملة الصليبية الثانية (٥٤٢ ـ ٥٤٤هـ / ١١٤٧ ـ ١١٤٩م) اشترك فيها من ملوك أوروبا كل من لويس السابع ملك فرنسا ، وكونراد الثالث ، امبراطور المانيا ، بهدف استرجاع الرها والقضاء على قوة النوريين[٥٧] المتزايدة • ولكنها غيرت أهدافها فانضمت قواتها الى قوات بيت المقدس وحاولت احتلال دمشق سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨م) ولكنها أخفقت وانسحب الفرنج خاسرين مهزومين[٥٨] • وهكذا فشلت أوروبا في اعادة ميزان القوى لصالح الصليبيين في بلاد الشام • وقد اعتبر بعض الباحثين المحدثين هزيمة الصليبيين هذه نقطة تحول في تاريخ الفرنج في الشرق العربي[٥٩] وكان من نتائج هذه الحملة أيضا أنها رمت الى ساحة الصراع في بلاد الشام بأمير فرنسي مغامر هو البرنس ارناط (رينودي شاتيون) الابن الاصغر لجيوفري كونت جيين وسيد اقطاع شاتيون في وادي اللوار من شمال فرنسا ، الذي قدم مع لويس السابع وبقي في الشام • وسوف يلعب هذا الامير المغامر دورا بارزا في الصراع الدائر بين الفرنج والمسلمين وهو صراع انتهى في حطين بانهيار القوى الصليبية • اذن الحلقة متصلة مترابطة والاحداث متتابعة متوالية ، يأتي بعضها تلو الاخر فمن الرها الى حطين ، الرها كانت البداية وحطين كانت النهاية ، الرها أدت الى ظهور أرناط الذي سيصبح معول هدم لمملكة بيت المقدس ويترتب عليه وقف المد الصليبي •

وقد أدى اخفاق مملكة بيت المقدس اللاتينية في احتلال دمشق الى توجهها نحو الجنوب • فاستغلت الظروف السيئة التي كانت عليها مصر

(٥٧) عاشور : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٢٨ •

(٥٨) عن هذه الحملة ومحاصرتها لدمشق راجع :

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٠ ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٣١ ـ ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٨٨ ـ ٨٩ ـ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٢٠ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٤ ـ ١٣٦ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٥٨ ـ ابن قاضي شهبة : سيرة الملك نور الدين ، لوحة ٥٤ ـ ٥٦ « مخطوطة » •

(٥٩) رانسمان : ج ٢ ، ص ٤٦٧ •

آنذاك وهاجمت عسقلان احدى ثغور فلسطين الحصينة(٦٠) ، واخر معقل للفاطميين في بلاد الشام ، فحاصرتها قوات بلدوين الثالث ، وسقطت المدينة في يده في ١٠ جمادى الاولى سنة(٦١) ٥٤٨هـ (١٩ أغسطس (آب) ١١٥٣م) ، بعد أن صمدت ستا وخمسين سنة ، وتم سقوطها في عهد الخليفة الفاطمي الظافر ووزيره عباس ابن ابي الفتوح ٠

ولم تطل الحياة بعماد الدين زنكي بعد افتتاحه الرها فقد اغتيل بيد بعض مماليكه عندما كان يحاصر قلعة جعبر(٦٢) وخر صريعا في الخامس من ربيع الاخر سنة(٦٣) ٥٤١هـ (١٤ سبتمبر (أيلول) ١١٤٦م) ٠ وخلفه ابنه نور الدين محمود ، فجعل من حلب قاعدة تحركاته ضد الفرنج ونهج نهج أبيه في الجهاد والعمل على تحقيق جبهة اسلامية متحدة ، ونجح في تحقيق هذا الهدف بحيث يمكن القول أنه بظهور نور الدين على مسرح الاحداث تبدأ مرحلة جديدة من مراحل اليقظة الاسلامية وصفحة مشرقة في تاريخ الاسلام ٠

---

(٦٠) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٠٦ ـ رانسمان : ج ٢ ، ص ٥٤٨ ٠
Stevenson, op. cit., P. 172.
Lamb, The flame of Islam, P. 269.

(٦١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٢٦ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٩ ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٦٣ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ ـ ابن قاضي شهبة : سيرة الملك نور الدين ، لوحة ٦٦ « مخطوطة » ٠
Lane Poole, A Hisory of Egypt. P. 173.
عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٥٥ ٠

(٦٢) قلعة جعبر : قلعة من ديار بكر في البر الشرقي الشمالي من الفرات بين بالس والرقة قرب صفين ، وكانت تعرف بالدوسرية نسبة الى دوسر : وهي فرقة عسكرية عربية انشأها المناذرة في الحيرة ، ثم تملكها سابق الدين جعبر القشيري في أيام الملوك السلجوقية فعرفت به ، وكانت مضافة الى دمشق ثم اضيفت الى حلب (ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٧٣ ، ص ١٣٦ ـ القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٣٨) ٠

(٦٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤ ـ ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٧٤ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٧٩ ـ ابن قاضي شهبة : سيرة الملك نور الدين ، لوحة ٥٠ « مخطوطة » ـ رانسمان : ج ٢ ، ص ٣٨٥ ٠
Stevenson, op. cit., P. 151.

واذا انتقلنا الى الجانب الصليبي رأينا انه بعد سقوط عسقلان في أيدي الفرنج انفتحت الطريق أمامهم للتدخل في شئون مصر الداخلية والتي كانت تعاني من صراع الوزراء على الحكم ٠ وكان الفرنج يدركون تماما عظيم الامكانات التي تتمتع بها مصر مادية وبشرية باعتبارها من اكبر وأغنى البلاد الاسلامية ٠ وكان المسلمون في حلب ودمشق يعون حقيقة نوايا الفرنج نحوها وما يترتب على ذلك من نتائج لو احتلوها ٠

فبدأ نور الدين زنكي يراقب الاحداث ويتتبع تطورها بعين يقظة ساهرة ، ولكي يقوي مركزه أخذ يعمل على ضم دمشق الى اتابكيته(٦٤) وانتزاعها من مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين(٦٥) ونفذ خطته في العاشر من صفر سنة ٥٤٩ هـ (٢٥ ابريل (نيسان) ١١٥٤م) على نحو يثير الاعجاب ٠ ورحب أهل دمشق بانضوائهم الى دولته بسبب ما كانوا يعانونه من مظالم مجير الدين ومصادراته بالاضافة الى ما سببه لهم من مهانة بتحالفه مع الفرنج(٦٦) الذين بلغت بهم الغطرسة والتظاهر بالقوة انهم كانوا يستعرضون عبيدهم واماءهم داخل دمشق ويخيرونهم بين العودة

---

(٦٤) كانت هذه الخطوة ــ ضم دمشق ــ هامة استلزمتها الضرورة فقد كانت دمشق بحكم قربها من مملكة بيت المقدس نقطة انطلاق هامة في حركة الجهاد ضد الفرنج ومركزا استراتيجيا هاما يمكن للمسلمين منه الاضرار بمصالح مملكة بيت المقدس ، ثم انها خطوة الى الامام في سبيل توحيد الجبهة والقيادة الاسلامية ، زد على ذلك انها بحكم توسطها بين حلب وعسقلان كانت تقف حجر عثرة أمامة وتعترض طريقة لتحرير عسقلان (ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٠٦ ــ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٣٥ ــ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٢٦ ٠

(٦٥) مجير الدين آبق بن محمد : هو آخر الاسرة البورية التي حكمت دمشق واسسها طغتكين سنة ٤٩٧هـ (١١٠٣م) ٠ وبعد استيلاء نور الدين على (دمشق) أقطع مجير الدين هذا اعمال حمص الا أن نور الدين طرده منها لمراسلته اهل دمشق ، فولاه على بالس ، ولكنه رفض ولايتها وسار الى بغداد وظل مقيما بها الى ان توفى هناك (ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٢٨) ٠

(٦٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٧ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣١٨ ٠

الى ديارهم والبقاء عند أسيادهم(٦٧) ، ويفرضون على أهل دمشق أتاوات كانوا يجبونها بأنفسهم ٠

وبضم دمشق الى الدولة الزنكية أصبحت ممتلكات نور الدين تمتد من الرها والجزيرة شمالا الى شرقي الاردن جنوبا ، وبذلك أصبح جارا عنيدا لمملكة بيت المقدس ، وهو أمر كانت تخشاه وتحسب حسابه وهو وجود قوة اسلامية منظمة تجاورها ، ويعبر ابن الاثير عن مخاوف الفرنج من وقوع دمشق في ايدي النوريين بقوله « وكان ابغض الاشياء الى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق لانه يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له فكيف اذا أخذها وقوي بها »(٦٨) ، ولذا فان استيلاء نور الدين على دمشق كان يفوق في أهميته استيلاء بلدوين على عسقلان ، ورجحت بذلك كفته(٦٩) وبدأ يضغط على مملكة بيت المقدس ، استمرارا لحركة الجهاد التي بدأها والده بعد استيلائه على الرها ٠

وفي خضم هذه الاحداث لا بد من الاشارة الى حدث آخر له أهميته وهو زواج أرناط المغامر الفرنسي من صاحبة انطاكية كونستانس أرملة الامير ريموند Raymond of Pitou الذي قتله نور الدين زنكي في احدى المعارك سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م)(٧٠) ، وترك ريموند وراءه طفلا صغيرا هو بيمند في وصاية والدته وقد تقدم لهذه الارملة الحسناء العديد من الرجال للزواج رفضتهم جميعا ٠ وكان ارناط كما أشرت قد قذفت به الاقدار الى بلاد الشام مع حملة لويس السابع الفاشلة وبقي في فلسطين

---

(٦٧) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٠٦ ــ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان : جـ ٨ ، ص ١٣٥ ــ أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٣٥ ــ أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٣٠ ــ الذهبي : دول الاسلام ، القاهرة ١٩٧٤ ، جـ ٢ ، ص ٦٥ ــ ابن قاضي شهبة : سيرة الملك نور الدين ، لوحة ٦٦ ، « مخطوطة » ٠

(٦٨) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٠٧ ٠

(٦٩) رانسمان : جـ ٢ ، ص ٥٥٠ ٠

(٧٠) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٩٩ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٢٠ ــ أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٥٢ ــ أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٢٣ ٠

ثم دخل في خدمة الملك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس الذي اصطحبه معه الى انطاكية في سنة ٥٤٦هـ (١١٥١م) ، وهناك وقع موقعا طيبا في عين كونستاس فقررت الزواج منه رغم معارضة بطريرك انطاكية في هـذا الزواج · وبعثت تستأذن بلدوين ملك بيت المقدس في ذلك ، وهو قائم على حصار عسقلان(٧١) ، ولم يتردد بلدوين في الموافقة اذ كان على يقين من بسالة هذا الامير الشاب وجرأته بالاضافة الى رغبته في التخلي عن مسئولية أمارة انطاكية البعيدة عن مملكته · وتم تنصيب ارناط اميرا على انطاكيـة بعـد عقد زواجـه مـن الامـير كونستانس في سنـة ٥٤٨هـ (١١٥٣م)(٧٢) ·

ومن خلال مجريات الأحداث وتتبعها في هذين العامين (٥٤٨/٥٤٩هـ) نلاحظ أمورا تستحق الاهتمام ، ففي الشمال نلحظ تنصيب ارناط الفرنسي المغامر أميرا على أنطاكية ، وفي الوسط نجد نور الدين محمود ابن زنكي يستولي على دمشق ويوحد جبهة بلاد الشام ويعلن الجهاد ويهدد مملكة بيت المقدس في عقر دارها ، وفي الجنوب تسقط عسقلان بيد الفرنج وتصبح بوابة مصر الشرقية بدون حراسة ·

ولم تكن مصر آنذاك بمعزل عن سير الأحداث وتطورها ، فما يكاد ينتصف القرن السادس الهجري حتى يبرز على الساحة في القاهرة الوزير الصالح طلائع ابن رزيك ، الذي كان يدرك تمام الادراك أن لا خلاص من الخطر الصليبي الا باتحاد دمشق والقاهرة · ومن هذا المنطلق رتب

---

(٧١) Guillaume De Tyr, Vol. 1, P. 802.

(٧٢) Ibid Vol. 1, P. 802.
Conder, The Latin Kingdom, P. 115.

رانسمان : جـ ٢ ص ٥٥٨ ·

Belloc, The Crusade, P. 281.
Stevenson, op. cit., P. 175.
Setton, op. cit., Vol. 1, P. 603.

عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٤٩ ·

المراسلات الى نور الدين[٧٣] كي يكونا يدا واحدة في الغزو والجهاد ، والظاهر أن الظروف لم تكن مواتية بعد لاتمام هذا التحالف • ومع ذلك فقد بدا واضحا أن الاهتمام بمنطقة شرقي الأردن بدأ مبكرا من دمشق والقاهرة • فقد أدرك الجانبان أن خط المواصلات بينهما محفوف بالمخاطر ما دامت الكرك والشوبك ترقب كل تحرك وتمنع كل نشاط اسلامي من حولهما • وهكذا بدأت مصر توجه جانبا كبيرا من نشاطها الحربي الذي بدا واضحا في عهد ابن رزيك الى الكرك والشوبك • ففي سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) جرد عسكرا الى بلاد الأردن[٧٤] فسارت هذه القوة حتى وصلت الشريعة[٧٥] واصطدمت بقوات الفرنج وأبلت بلاء حسنا ثم عادت الى القاهرة ظافرة • ولم يكتف طلائع ابن رزيك بل سير حملة ثانية في رجب من نفس السنة الى الشوبك ، فأغار الفاطميون على أعمالها وفتكوا بالافرنج في تلك الأصقاع وعادوا الى القاهرة محملين بالغنائم الكثيرة بالاضافة الى عدد كبير من الأسرى[٧٦] •

بقي النشاط الفاطمي موجها الى الفرنج في هذه المنطقة مستهدفا بذلك فك الطوق وتقليل السيطرة التامة لهم على هذا المعبر الحيوي لمصر والشام والحجاز • ففي السنة التالية ٥٥٣هـ (١١٥٨م) أنفذ ابن رزيك حملة الى جنوب الأردن حيث وادي موسى ، وهناك هاجمت القوات الفاطمية حصن

---

(٧٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٠٣ — المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ •

(٧٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ •

(٧٥) الشريعة : هو نهر الاردن ، اطلق هذا الاسم عليه منذ الفترة الصليبية خاصة على الجزء الواقع من جنوب بحيرة طبرية الى مصبة في شمال البحر الميت (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٨١) وما زالت هذه التسمية تطلق عليه حتى الوقت الحاضر •

(٧٦) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ •

الدميرة[٧٧] «الوعيرة» أحد القلاع الصليبية القائمة هناك ، ودام الحصار ثمانية أيام ، والظاهر أنها لم تتمكن من فتحه · فسارت القوات الفاطمية بعد ذلك نحو حصن الشوبك وشددت عليه الحصار · ولما كان هـذا الحصن من المنعة والقوة بحيث لم تتمكن هذه القوات من اقتحامه ، فقد انقسمت القوات الى قسمين الأولى ظلت تحاصر الشوبك وتضيق عليـه الخناق ، أما القسم الثاني فقد عاد الى القاهرة · ولما شعر الفرنج بوطأة هذا النشاط العسكري المؤثر من جانب الفاطميين ، أرسلوا رسلهم في السنة التالية ٥٥٤هـ (١١٥٩م) بالهدايا الى القاهرة طالبـين الهدنـة والموادعة[٧٨] ·

ولا أكون مغاليا في قولي اذا قلت : ان حركة اليقظة العربية الاسلامية قد بدأت في آن واحد في كل من دمشق على يد نور الدين محمود والقاهرة على يد الصالح طلائع بن رزيك الذي عرف بأبي الغارات[٧٩] بسبب كثرة ما شنه من غارات في البر والبحر على الصليبيين ·

غير أن سوء الاحوال بمصر ، واشتداد النزاع بين الوزراء على السلطة شغل أولي الأمر فيها عن متابعة الخطة التي بدأها ابن رزيك ، فخفت حركة الغزو من جانب المصريين في حين قدر لهذه الحركة أن تنشط في بلاد الشام بفضل شجاعة ومثابرة البطل نور الدين محمود الذي وفـق كل التوفيق في توحيد الصفوف وشحذ الهمم والهاب المشاعر القومية والدينية بين أهل الشام ·

وبينما كانت الأوضاع الداخلية تتردى في مصر ، كانت بغداد تتابع الموقف ، ورأت الخلافة العباسية أن الوقت قد حان لفرض سلطانهـا

(٧٧) لم اجد في المصادر الاخرى اسم : « الدميرة » الذي ذكره المقريزي في كتابه اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا صفحة ٢٣٠ ، ولكن هناك حصن « الوعيرة » والذي ذكرته المصادر في وادي موسى الوعيرة تصغير الوعرة · حصن من جبال الشراة قرب وادي موسى (راجع : ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٩٣٤ ــ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، القاهرة ١٩٧٠م ، ص ١٨١ · Le Strange, P. 550.

(٧٨) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ ·

(٧٩) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢١٥ ·

الروحي على مصر واسقاط الحكم الاسماعيلي فيها مستغلة في ذلك ازدياد قوة النوريين في الشام ٠ ولم تكن الخلافة العباسية قد نسيت بعد قيام مصر بدعم حركة البساسيري(٨٠) في سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٨م) رغم فشلها ولعل ذلك كان أحد الاسباب التي دفعت الخلافة العباسية الى تشجيع نور الدين محمود على اسقاط الخلافة الفاطمية في مصر ، فبعد أن استولى نور الدين على دمشق في سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) أرسل اليه الخليفة المقتفي لأمر الله العهد على البلاد الشامية والمصرية(٨١) ودعاه لفتح مصر وانهاء الخلافة الفاطمية الشيعية ٠

عجل مصرع ابن رزيك بنهاية الحكم الفاطمي في مصر ، فمنذ أن أسندت الوزارة الى شاور بن مجير السعدي حتى أخذت البلاد تنحدر سريعا نحو الهاوية ، ويعبر أبو المحاسن عن ذلك بقوله : « أمر مصر في وزارته في ادبار »(٨٢) ٠ ولسوء تصرفه وكثرة مظالمه سهل على الصليبيين المتربصين

---

(٨٠) هو أبو الحارث ارسلان البساسيري : كان من جملة المماليك ، واصبح مقدم الاتراك ببغداد في أيام الخليفة العباسي القائم بأمر الله عبدالله بن أحمد لقادر (٤٢٢ ــ ٤٦٧هـ ، ١٠٣١ ــ ١٠٧٥م) اختلف مع الخليفة فاستنصر عليه بطغرلبك السلجوقي ، عندئذ كتب البساسيري الى الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (٤٢٧ ــ ٤٨٧هـ ، ١٠٣٦ ــ ١٠٩٤م) ، ووعده بالعمل على اقامة الخطبة له في بغداد وازالة دولة بني العباس ، فجهزت له الاموال ٠ ولكنّ الفاطميين تقاعسوا في امداده بالسلاح والمال بعد ذلك ، مما يسر على طغرلبك مهمة القضاء عليه سنة ٤٥١هـ (١٠٥٩م) بعد ما خطب للمستنصر في العراق مدة سنة تقريبا وفتح العديد من مدنها باسمه ٠

انظر : الذهبي : دول الاسلام ، ج ١ ، ص ٢٦٣ ــ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ ٠

(٨١) يقول الذهبي في ذلك : « ووهت دولة المصريين فبعث المقتفي أمير المؤمنين العهد للملك نور الدين محمود بن زنكي : وله أيام وقد تملك دمشق ، ثم ولاه المقتفي مصر وأمره بفتحها » ٠ (الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٥٦) ٠ كذلك يذكر السيوطي : « فكتب الخليفة المقتفي عهدا للملك نور الدين محمود ابن زنكي على البلاد الشامية والمصرية وأرسله اليه ، فسار حتى أتى دمشق فحاصرها وانتزعها من يد ملكها مجير الدين بن طغتكين » (السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٦٨م ، ج ٢ ، ص ٣) ٠

(٨٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٦ ٠

السعوء ، مهمة التدخل وجرأهم على السير الى مصر ، وفي ذلـك يقـول المقريزي : «ثم جاء شاور فأتلف أموال مصر وأطمع الغز في البلاد وجرأ الفرنج عليها حتى كان ما كان »[٨٣] وتشاء الأقدار أن يتغلب ضرغام[٨٤] على شاور وينتزع منه منصبه الوزاري ، فيلوذ شاور بنور الدين محمود ويناشده أن يساعده بعسكره للاطاحة بضرغام واسترجاع منصب الوزارة مقابل أن ينوب عنه في حكمها[٨٥] ، بالاضافة الى أمور أخرى اتفقا عليها ٠ ولم يتردد نور الدين في اغتنام هذه الفرصة ، فطالما هفت نفسه الى ضم مصر في وحدة وثيقة مع الشام ، لأنه بمصر يقوي مركزه ، ويتمكن من مواجهة القوى الصليبية من الشمال ومن الجنوب فيسحقها بكماشة ٠ فبدأ يركز اهتمامه باقليم الكرك ، فلا سبيل الى تحقيق خطته الا بعد تأمين مواصلاته الى مصر عبرها ، فمنطقة الكرك هي المنفذ الوحيد الذي يمكن أن تسلكه قواته ٠ ولم تكن هذه المهمة بالأمر السهل ، فهي مغامرة محفوفة بالاخطار اذ كانت قلاع الصليبيين في الكرك والشوبك وأيلة تترصد المسالك المؤدية الى مصر لتمنع أي اتصال محتمل يمكن أن يتم بين دمشق والقاهرة ٠ ثم ان مملكة بيت المقدس كانت بدورها تتابع باهتمام أحداث مصر منتظرة الوقت المناسب للوثوب عليها ٠

وجاءت اللحظة التي هيأت المجال للفرنج المتدخل السريع لحسم الأمور بمصر وشاور ما زال في دمشق يحث نور الدين على مساعدته ٠ فسير عموري[٨٦] ملك بيت المقدس قواته الى أرض مصر في شوال ٥٥٨هـ

---

(٨٣) المقريزي اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٨ ٠

(٨٤) ضرغام : هو أبو الاشبال ضرغام بن عامر ، احدا امراء مصر ، كان فارسا شجاعا خرج على شاور لما كثر ظلمه ، واخرجه من البلاد وتولى الوزارة مكانه ولكنه قتل سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م) (المقريزي : اتعاظ لحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٦١) ٠

(٨٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٦ ٠

(٨٦) عموري : وتسمية المصادر العربية : أموري أو مرى أيضا وهو Amalric I حكم بيت المقدس فيما بين سنتي ٥٥٧ ـ ٥٦٩هـ/١١٦٢ ـ ١١٧٤م ، وذلك بعد وفاة بلدوين الثالث ، وهو آخر ملك قوي شهدته مملكة بيت المقدس اللاتينية ، فبعد موته انهارت المملكة وضعفت (المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٧٦ هامش ٢) ٠

(سبتمبر أيلول ١١٦٣م) ، ولكن ضرغام تصدى له وكسر سدود النيل فأغرقت الأرض ولم يجد عموري بدا من الرحيل ، فرحل دون أن يحقق هدفه(٨٧) ·

وكان نور الدين قد استجاب لرغبة شاور مدفوعا الى ذلك بعوامل مختلفة منها : ضغط الخلافة في بغداد ، ورغبته في امتلاك مصر ليتقوى بها على الفرنج ، ثم خوفه من أن يمتلكها الفرنج فاذا تمكنوا منها تمكنوا من كل البلاد الاسلامية · كل هذه الأمور مجتمعة جعلته يوافق على مد شاور بقوة عسكرية تحت قيادة أسد الدين شيركوه الذي سار من دمشق وبصحبته ابن أخيه الشاب صلاح الدين الأيوبي ، وسلك بقواته الطريق المؤدية الى مصر على حافة الصحراء عابرا الاردن من الشمال الى الجنوب مرورا بالزرقاء والأزرق والجفر ومعان ثم أيلة ومنها الى صدر فالسويس والبركة ثم الى القاهرة(٨٨) · فوصلت قواته أواخر جمادى الأولى سنة ٥٥٩هـ (أبريل (نيسان) ١١٦٤م) ، فتصدى لها ضرغام ولكنه انهزم وقتل ، وتمكن شاور من استرداد منصبه الوزاري ·

وعندما حان الوقت للوفاء بالوعود نكث شاور بما اتفق عليه مع نور الدين مهددا باستمداد الفرنج · وبالفعل استنجد بعموري الذي لم يتردد

---

(٨٧) Cuillaume De Tyr, vol. 1. PP. 890 - 891.

المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٦٢ – رانسمان : ج ٢ ، ص٥٩٢ ،
Stevenson, op. cit. P. 186.

وقد ذكر أبو شامة ان ضرغاما ارسل رسولا الى نور الدين زنكي ومعه كتاب يظهر فيه دخوله في طاعته ، ويشرح فيه عن اعمال شاور وظلمه ، وأن نور الدين اظهر الموافقة ولكنه كان في الباطن مع شاور – وعند عودة الرسول هاجمه صاحب الكرك فهرب ونجا بنفسه ، فغنم صاحب الكرك جميع ما كان معه – انظر : (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٤١٨) ·

(٧٧) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٨ – أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٨ ·

البركة : هي بركة الجب ، جب عميرة ، وتسمى بركة الحجاج على بعد بريد من شمال شرق القاهرة ، اي مسافة اثني عشر ميلا · كان يجتمع بها الحجاج عند خروجهم الى الحج ، وكذلك الجيوش الذاهبة الى الشام (المقريزي : الخطط ، القاهرة ١٣٢٤هـ ، ج ٢ ، ص ١٦٣) ·

في تلبية النداء ، ووجدها فرصة سانحة كي يحقق آماله في عرقلة مساعي نور الدين الهادفة الى توحيد الجبهة الاسلامية وحصر الصليبيين بين دمشق شمالا والقاهرة جنوبا • ثم ان مصر بمواردها المالية الكبرى يمكن أن تكون عونا لهم في استمرار بقائهم في الشرق الاسلامي والانتصار على نور الدين والقضاء على جذوة اليقظة الاسلامية في مهدها • واصطدم أسد الدين مع الفرنج وحليفهم شاور فحاصروه في بلبيس ثلاثة أشهر ولكنهم اتفقوا على الرحيل ، فغادر أسد الدين والفرنج الديار المصرية(٨٩) • وكان أسد الدين قد أخذ العهود من عموري على ألا يعترضه أحد عند عودته ، ولكن أمير الكرك (٩٠) نكث بهذا العهد ، فقال : لقد أقسمت أني لن ألحق به برا لذا ركب البحر حتى وصل عسقلان ، ومن هناك سار مسرعا الى امارته في الكرك والشوبك وجمع قواته الموجودة هناك ومكث مترقبا مرور القوة النورية بهذا الطريق عند قفولها الى دمشق كي يوقع بها ، لكن أسد الدين غير الطريق الشرقي المؤدي الى الجفر والأزرق حيث كانت تترصده قوات امارة الكرك ، وشق طريقه عبر غور الأردن فخرج من البلقاء الى الزرقاء فدمشق بعيدا عن جموع الفرنج ، ووصل دمشق بقواته سالما(٩١)

---

(٨٩) عن مسير أسد الدين شيركوه الى مصر واستنجاد شاور بالفرنج راجع : ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ ـ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ـ البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ٦١ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٣١ ـ ٣٣٧ ـ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٧ ـ ١٤١ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٤٢ ـ ٤٣ ـ ابن آيبك : كنز الدرر وجامع الغرر ، القاهرة ١٩٧٢م ، ج ٧ ، ص ٢٧ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا ج ٣ ، ص ٢٦٤ ـ ٢٧٨ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٣٨ ـ رانسمان : ج ٢ ، ص ٥٩٤ ـ ٥٩٥ •
Lane Poole, Saladin, PP. 77 - 84 - Stevenson, op. cit. PP. 186 - 187.

(٩٠) امير الكرك في هذا الوقت هو الامير فيليب دي ميلي Philipe De Milly ٥٥٦ ـ ٥٦٣هـ/١١٦١ ـ ١١٦٨م ، وليس ارناط كما ذكره أبو شامة والمقريزي : اذ ان ارناط لم يتولى امارة الكرك الا منذ عام ٥٧٢هـ (١١٧٧م) •

(٩١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٤١ ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص٢٧٩ •

وفي نيته العودة الى مصر ثانية بعد أن تبين عوراتها ومواطن الضعف فيها[92] بالاضافة الى عوامل الطمع في امتلاكها[93] . وهكذا فان هذه الخطوة التي قام بها نور الدين كانت نقطة تحول هامة في تاريخ المنطقة .

كان نور الدين يسعى الى السيطرة على مصر قبل أن يتمكن عموري منها بعد أن تواطأ شاور معه وأصبح الأمر قضية تسابق في الوصول اليها وقضية مصير . وبادر نور الدين هذه المرة بتسيير جيشه الى مصر ليملكها[94] قبل أن يسبقه عموري الى ذلك ، وعبر هذا الجيش الذي يقوده شيركوه الأردن شرقي الكرك والشوبك[95] . وبلغ شاور ذلك فأرسل الى عموري يطلب منه المساعدة ، فأسرع عموري لنجدته ، وبحكم مجاورته لمصر تمكن من الوصول بقواته في نفس الوقت الذي وصلت فيه قوات نور الدين[96] سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م) . وحاول شيركوه التفاهم سرا مع شاور ليكونا يدا واحدة ضد الفرنج ، وهون عليه المهمة ووعده بالقفول الى الشام لو قدر لهما التعاون للقضاء على الصليبيين . ورفض شاور[97] وقد أعماه حقده وخيانته ما عرضه عليه شيركوه ، ثم كانت معركة البابين في ٢٥ جمادى الأولى ٥٦٢هـ قرب الأشمونين في صعيد مصر فانتصرت قوات شيركوه وأسرت من الفرنج سبعين فارسا . ولو تقدم نحو القاهرة في هذه الآونة لكان في امكانه السيطرة عليها[98] ، ولكنه

---

(٩٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣ – ٢٤ – أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٣٨ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٣٩ .

(٩٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣ .

(٩٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٤ – أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٦٣ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

(٩٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٦٤ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

(٩٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٤ .

(٩٧) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٢٥ – المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٤ .

(٩٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٦٧ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ .

أثر السير الى الاسكندرية وهناك ترك ابن أخيه صلاح الدين ومضى هو الى الصعيد ، فزحفت قوات شاور وعموري الى الاسكندرية وحاصرت صلاح الدين فيها زهاء أربعة أشهر وقيل ثلاثة · وأخيرا تم الاتفاق مع شيركوه على أن يرحل عن مصر على أن يعطى خمسين ألف دينار ، ولكنه لحرصه على مصر اشترط الجلاء الكامل لقوات الفرنج عنها · ولكن الاتفاق بين عموري وشاور نص على أن يترك الفرنج لهم شحنة(٩٩) في القاهرة ، وأن تكون أبوابها بأيدي فرسانهم ، وبنى شاور لهم سوقا وأقطعهم الاقطاعات وأنزلهم في دور القاهرة وتكفل بدفع ألف دينار سنويا لهم من خراج مصر · جرت هذه الأمور والخليفة الفاطمي العاضد لدين الله (٥٥٥ ـ ٥٦٧هـ/١١٦٠ ـ ١١٧١م) لا حول له ولا قوة مغلوب على أمره والأمر كله بيد وزيره شاور ·

ولكن ابقاء قوات احتلال في القاهرة كان من شأنه أن يسيء الى أهل البلاد ويثير نفوسهم · من الطبيعي أن يكون هذا الشعور صادرا عن نفوس مؤمنة بوطنها ودينها ، أما أن يكون صادرا عن الكامل بن شاور فهو أمر نعجب له كل العجب ، ولكنه لا يعتبر مع ذلك معجزة من المعجزات أن يقوم ابن شاور بمكاتبة(١٠٠) نور الدين بدمشق ويعرض عليه أن يكون جنديا من أجناده ، وعينا له في مصر(١٠١) فطالما ينبع الخبر في بيئة

---

(٩٩) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٤ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٠٨ ـ البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ٦٤ ـ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٦٨ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ٣٦٦ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٢ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٤٦ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، القاهرة ١٢٨٥هـ ، ج ٢ ، ص ٧٢ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٨٠ ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٧٦ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٥٠ ·
Lane Poole, Saladin, PP. 90 - 91.

(١٠٠) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٨٠ ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٨٧·

(١٠١) كان الكامل يشغل منصب والى القاهرة (راجع مجموعة الوثائق الفاطمية : تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٨م ، ص ١٦٧) ·

فاسدة • واستبد التوتر بأهل مصر وشغلهم هذا الصراع الرهيب حول مصير بلدهم عن الذهاب للحج فانقطع الحج هذا العام(١٠٢) •

عزم عموري بعد عودته الى بيت المقدس على أن يتحالف مع بيزنطة ليقوى جانبه ويتأهب بذلك لخوض معركة ضارية مع النوريين فيكسبها ويثبت بذلك أقدام الفرنج بأرض الشام ، فقرر الزواج من ماريا كومنينا ابنة أخ امبراطور بيزنطة(١٠٣) • ولكنه لم ينتظر نتيجة هذا الزواج عندما وصله تقرير من القوة الموجودة في القاهرة يؤكد له أن الوقت قد حان لغزو مصر وتسأله المبادرة بالسير اليها وعلى هذا النحو خرج بحشوده الى مصر ووصل بلبيس في غرة صفر ٥٦٤هـ (٣ نوفمبر (تشرين ثاني) ١١٦٨م) فشدد عليها الحصار ثم دخلتها قواته عنوة(١٠٤) فقتلوا وسبوا وأسروا ثم تحركوا نحو القاهرة • والظاهر أن شاور قد أخذ على حين غرة فأخذ يصانعهم ويبذل لهم الأموال لكي يرحلوا عن مصر ، فلما أيقن بأن حلفاء الأمس قدموا هذه المرة لفتح مصر واحتلالها عمد الى تأخير وصولهم الى الحاضرة ، فطلب من أهل مصر «الفسطاط» الرحيل عنها ووزع بها عشرين ألف قارورة نفط وفرق فيها عشرة آلاف مشعل واحرقها ، فظلت النيران تأكل مساكنها وتلتهم عمرانها أربعا وخمسين يوما(١٠٥) •

---

(١٠٢) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٢٢ •

(١٠٣) رانسمان : ج ٢ ، ص ٦٠٩ •

(١٠٤) Guillaume De Tyr, Vol. 1, P. 951.

ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٨ •

(١٠٥) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٨ – البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ٧٥ – ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، مخطوطة بمكتبة بلدية الاسكندرية رقم ١٢٩٢ ب ، لوحة ٢٠٢ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٧٢ – أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٣٢ – ٤٣٣ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٧ – أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٤٧ – ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٧٤ – ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٨٢ – المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٩٧ •

وفي نفس الوقت بادر الخليفة العاضد بالاستنجاد بنور الدين وأرسل اليه الكتب وبطيها ذوائب نساء القصر قائلا[١٠٦] : « واغوثاه ! واغوثاه ! واغوثاه ! الحق دين الاسلام ! أدرك أمة محمد عليه السلام ! يا نور الدين ! يا نور الدين ! يا نور الدين ! » ٠

وشهدت أرض الأردن جيش شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين للمرة الثالثة ، وسلكت الحملة نفس الطريق الذي سلكته من قبل وهو شرقي منطقة الكرك والشوبك ٠ وكان نور الدين قد أعد هذه الحملة خير اعداد لخوفه من النتائج التي يمكن أن تحدث لو انتصر الصليبيون وتغلبوا على مصر ، ويؤكد ذلك ابن واصل بقوله : «لو استولى العدو على الديار المصرية لاستولى على سائر الخطة الاسلامية[١٠٧] ٠ وصلت قوات نور الدين بكاملها الى القاهرة في ربيع الآخر من هذه السنة ، وعندما بلغ عموري ذلك ونمي اليه ما كانت عليه من قوة ، خشي مغبة فعله ، فرحل بقواته عائدا الى القدس في ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ (يناير (كانون ثاني) ١١٦٩م) ، وبذلك أخفق الفرنج فيما سعوا من أجله ٠ ونتيجة لذلك خلع الخليفة العاضد على شيركوه ، ولقد وصف المؤرخون دخول شيركوه هذا واخفاق الفرنج بأنه كان «فتحا جديدا لمصر»[١٠٨] ٠ ولكن شاور لم يترك مماطلته وتسويفه ، وحاول أن يفتك بشيركوه وأعيان قواته ، الا أن ابنه الكامل نهاه عن ذلك[١٠٩] ، فاتفق صلاح الدين الأيوبي وعز الدين جرديك

---

(١٠٦) ويعلق ابن آيبك عن هذه الرسالة بقوله : « هكذا رأيت نسخة هذا الكتاب الى نور الدين لم ازد فيه حرفا » (ابن آ يبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٣٠) ٠

(١٠٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٦٠ ٠

(١٠٨) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٠٩ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٦٠ ــ أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٤٨ ــ الحنبلي : الانس الجليل ، جـ ١ ، ص ٢٧٦ ٠

(١٠٩) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢١٠ ــ أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٩٦ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٦١ أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٤٨ ــ ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ، ص ٢٨٢ ــ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ٣٠٠ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥١ ــ الحنبلي : الانس الجليل ، جـ ١ ، ص ٢٧٦ ٠

على قتل شاور فألقيا القبض عليه وكبلاه في خيمة مفردة • فأرسل العاضد يطلب رأسه فقتل وأرسل اليه وذلك في ١٧ ربيع الآخر ٥٦٤هـ (١٨ يناير (كانون ثاني) ١١٦٩م) • أما ابنه الكامل فقد دخل القصر فكان آخر العهد به ، وقيل أن العاضد قتله وأبدى شيركوه أسفه لمقتل هذا الشاب الذي لم يكن راضيا عن سلوك أبيه • واستوزر العاضد أسد الدين شيركوه مرغما[١١٠] ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش[١١١] ، ولكن لم يطل به الأمر ولم يهنأ بما نال ، فقد توفي في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ (٢٣ مارس (آذار) ١١٦٩م) بعد شهرين وخمسة أيام من توليه الوزارة ، فعهد الخليفة بالوزارة مكانه الى صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وصدر سجل بتنصيبه الوزارة في ٢٥ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ (٢٦ مارس (آذار) ١١٦٩م) وتلقيبه بالسيد الاجل الملك الناصر[١١٢] •

وما أن تم لصلاح الدين الظفر بمنصب الوزارة حتى سعى لوضع حد للدولة الفاطمية ، وتم الحلم الذي طالما راود نور الدين بوحدة مصر والشام وان لم يكن قد تحقق تماما الا بعد وفاة العاضد • وكانت مصر دعما قويا لقوة نور الدين الناهضة وفي صراع المسلمين وجهادهم ضد الفرنج فهي «معظم دار الاسلام وحلوبة بيت مالهم»[١١٣] ، وهكذا تغير ميزان القوى في المنطقة وأصبح لصالح المسلمين •

---

(١١٠) كان العاضد مرغما في استيزاره ، فشيركوه كان قائد الجيش المنتصر وصاحب السلطان الفعلي في البلاد بعد ان قضى على شاور •

(١١١) مجموعة الوثائق الفاطمية : جمع وتحقيق جمال الدين الشيال ، وثيقة رقم ٢٠ ، ص ٣٨٣ ، وما يليها •

(١١٢) مجموعة الوثائق الفاطمية : جمال الدين الشيال ، وثيقة رقم ٢٢ ، ص ٤٠٥ وما يليها • ابن شداد النوادر السلطانية ، ص ٢١٢ ــ البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ٧٩ ــ ٨١ ــ ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢٠٤ « مخطوطة » ــ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٠٥ ــ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة ، ص ١٣٩ ــ ١٤٠ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦٢ ــ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٧٥ ــ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٨٣ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٠٨ •

(١١٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٣٥ •

أخذ صلاح الدين يشدد قبضته ويثبت أقدامه في البلاد ، فقتل مؤتمن الخلافة(١١٤) الذي تواطأ مع أهل القصر الفاطمي واتصلوا بالفرنج ، ولكن صلاح الدين أمسك رسولهم وعرف مؤامرتهم · ثم ثار السودان بعد مقتل مؤتمن الخلافة وكانوا زهاء خمسين ألفا ، فأعمل صلاح الدين السيف فيهم بين القصرين وأحرق حيهم المعروف بالمنصورة على باب زويلة وشردهم وأصبحت محلتهم بستانا(١١٥) · كان ذلك أول امتحان لصلاح الدين على الصعيد الداخلي · ثم تعرض لامتحان آخر على مستوى خارجي هذه المرة عندما هاجم الصليبيون وحلفاؤهم البيزنطيون ثغر دمياط في مستهل صفر ٥٦٥هـ (نوفمبر (كانون أول) ١١٦٩م)(١١٦) · ولكن حملتهم فشلت ، وتبددت آمال عموري نهائيا في امتلاك مصر وكان لذلك آثار بعيدة المدى ،

---

(١١٤) مؤتمن الخلافة : وهو خصي اسود كان حافظا على قصر العاضد ، وكان مقدم السودان في القاهرة ، قتل يوم الاربعاء ٢٥ ذي القعدة ٥٦٤هـ (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٧٤ – ١٧٦ – المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣١٢) ·

(١١٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢١٣ – البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ٨٣ – ٨٤ – ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢٠٤ « مخطوطة » – أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٥٠ – ٤٥٢ – ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٨٤ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٧٤ – أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٥٠ – ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٧٥ – ٧٦ ·

(١١٦) عن حملة دمياط راجع :

Guillaume De Tyr, Vol. 1, PP. 962 - 966.

ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٣٥١ – ٣٥٢ – ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٧ ، البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ٨٧ – سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٧٤ – أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٥٦ – ٤٥٧ – ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٨٥ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٧٩ – ١٨٣ – أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٥١ – ابن كثير : البداية والنهاية ، القاهرة ١٣٥٨هـ ، ج ١٢ ، ص ٢٦٠ – ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٨٤ – رانسمان : ج ٢ ، ص ٦٢٦ ·

Stevenson, op. cit. PP. 195 - 196.

Lane Poole, Saladin, PP. 103 - 105.

فقد قوت من مركز المسلمين وحفزت هممهم لمواصلة جهادهم ضد الصليبيين ودعمت من مركز صلاح الدين فأصبح سيد مصر بلا نزاع ٠ أما بالنسبة للفرنج فقد بدأت مملكة بيت المقدس تتقوقع على نفسها ، وبدأ عموري ينتهج سياسة الدفاع لا الهجوم ، وكانت هذه نقطة تحول هامة سيكون لها أثرها على مسرح الأحداث ٠

(٤)

النشاط الحربي لنور الدين زنكي ضد امارة الكرك

كانت امارة الكرك تشكل حاجزا منيعا بين مصر والشام تمنع الاتصال أو تجعله محفوفا بالأخطار · وكان نور الدين محمود بن زنكي يرى سرعة مهاجمة امارة الكرك ، وفتح الطريق أمام العسكر وقوافل الحجاج والتجار، فقر عزمه على توجيه ضربة قوية الى هذه الامارة ·

وفي مستهل شعبان سنة ٥٦٥هـ (ابريل (نيسان) ١١٧٠م) خرج على رأس حشوده من رأس الماء(١١٧) قاصدا الكرك ، ثم وصلت جموعه الى البلقاء وخيم في عمان عدة أيام حتى استراحت قواته ، وكان الوقت ربيعا فوجدت الخيول لها مرعى جيدا هناك · ثم واصلت قواته سيرها الى الكرك عن طريق وادي الواله(١١٨) مارة بحسبان ثم الربة ، وأخيرا حطت حول الكرك(١١٩) ، فنصب عليها منجنيقين(١٢٠) ، وبدأ يشدد الحصار عليها وقاتلهم أشد قتال ، وضيق عليهم ، ولما علم الفرنج بذلك الحصار سارعوا الى جمع قواتهم ، وقدمت هذه القوات مسرعة لنجدة الكرك ،

---

(١١٧) رأس الماء : موضع من حوران شديد البرد شتاء على بعد نحو عشرين ميلا من درعا (انظر : العماد الكاتب : الفتح القسي ، ص ١٩٢ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٥١ هامش رقم ٤) ·

(١١٨) الواله : أو الوالا واد في البلقاء جنوبي حسبان وشمالي الكرك وشرقي البحر الميت (فردريك بيك : تاريخ شرقي الاردن ، ص ١٤٣) ·

(١١٩) Guillaume De Tyr. Vol. 1, P. 992.

(١٢٠) الذهبي : تاريخ الاسلام ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٦ ، تاريخ مجلد ٤ ، لوحة ٤٣٩ ·

وكانوا في مائتي فارس[١٢١] وألف تركبلي[١٢٢] وكثير من الراجلة يقودهم ابن الهنفري وفيليب بن الرفيق[١٢٣] . وعندما وصلت قواتهم الى ماعين[١٢٤] الواقعة الى الشمال من الكرك ، توقفوا وتجمعوا ، ورأى نور الدين أن يهاجمهم هناك ولهذا فك الحصار عن الكرك وتوجه اليهم وبصحبته أمراء بني ربيعة[١٢٥] من سكان تلك البلاد وجماعات كثيفة من العرب . ولم تحاول قوات الفرنج الاشتباك بنور الدين وآثرت الانسحاب والتنحي عن طريقه[١٢٦] خوفا على أنفسهم ، اذ كان هدفهم فك الحصار عن الكرك ، وعلى أثر ذلك قام نور الدين بمهاجمة أعمال الكرك ، فأحرق العديد من قراها وسار الى البلقاء[١٢٧] ثم قفل عائدا الى دمشق . ولما وصل الى حوران

---

(١٢١) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٤٤ البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ٩٠ — أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٦٥ .

(١٢٢) التركبولية : هي تعريف Tourkopouloi أو Turcoples وهم جند وطنيون خدموا مع الصليبيين في الشام ، كان آباؤهم تركا أو عربا من امهات يونانية ، وكانوا من الفرسان المدرعة بالدروع الخفيفة وقد كون هؤلاء نسبة كبيرة من قوات الداوية والاسبتارية ، وكذلك قوات ملك بيت المقدس الصليبي (عمر كمال : مملكة بيت المقدس ، ص ١١٤ — ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى : القاهرة ١٩٦٨م ، ص ١٥٤) .

(١٢٣) ابن الهنفري : هو Humphery de Toron صاحب بانياس ثم الكرك وكان وقت وقوع المعركة أميرا على الكرك (٥٦٣ — ٥٦٨هـ/١١٦٨ — ١١٧٣) .
فيليب بن الرفيق : هو Philipe de Milly صاحب نابلس ثم الكرك في الفترة من سنة ٥٥٦هـ الى ٥٦٣هـ (١١٦١ — ١١٦٨م) ، ومن ثم رئيسا لفرسان الهيكل ، وفي هذه المعركة كان رئيسا لفرسان الهيكل « الداوية » .

(١٢٤) ماعين : بلدة تقع شرقي البحر الميت الى الجنوب الغربي من حسبان قرب وادي الوالا في البلقاء . Stevenson, op. cit., P. 235.

(١٢٥) البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ٩٠ .

(١٢٦) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٤٤ — ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٥٣ — ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٧ — البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ٩١ — سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٧٥ — أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٤ — ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٨٥ — ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٦١ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٤٩ — الذهبي : تاريخ الاسلام ، مجلد ٤ ، لوحة ٤٣٩ « مخطوطة » — الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٧٨ . Conder, The Latin Kingdom, P. 127.
رانسمان : ج ٢ ، ص ٦٢٧ . Stevenson, op. cit., P. 198.

(١٢٧) ابن قاضي شهبة : سيرة الملك نور الدين ، لوحة ٩٢ « مخطوطة » .

كان قد أهل شهر رمضان ، فخيم نور الدين بقواته بعشترا(١٢٨) لأداء فريضة الصوم ومراقبة تحركات قوات الفرنج ، ولكنهم لم يقوموا بأي عمل ولم يبرحوا مكانهم • وفي هذه الأثناء وصلت الأنباء عن الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام ودمرت الكثير من المدن والقلاع والحصون وكذلك في مملكة بيت المقدس ، عندئذ اهتم نور الدين بعمارة ما خرب واعادة بنائه ، كما اهتم الفرنج بعمارة ما خرب وهدم من بلادهم ، وانشغل كل بذلك(١٢٩) •

أما صلاح الدين فبعد أن اطمأن على الأحوال الداخلية في مصر أخذ يحكم قبضته على البلاد ويتقرب من الرعية ، فأبطل المكوس والمظالم(١٣٠) تشجيعا للتجارة الشرقية التي بدأت تتجه اليها عبر البحر الأحمر عن طريق عيذاب(١٣١) كما أبطل المكوس التي كانت تفرض على الحجاج في مكة وعوض أهلها بغلال من مصر يرسلها اليهم ، وكان لهذا الصنيع أثره في قلوب المسلمين • ثم أتبع ذلك بضرورة الاهتمام بتأمين اتصال مصر بالشام وهو أمر لم يكن من السهل تحقيقه بسبب اعتراض امارة الكرك الصليبية طريق هذا الاتصال ، والظاهر أن نشاط نور الدين الذي بدأه ضد امارة الكرك وقيامه بمحاصرة الحصن أربعة أيام كان حافزا له على متابعة غزو هذه الامارة أسوة بسيده نور الدين •

وينقسم نشاطه ضد هذه الامارة الى مرحلتين : الأولى قام به من القاهرة ، وفي المرحلة الثانية انطلق به من دمشق عندما نقل نشاطه الحربي اليها •

---

(١٢٨) عشترا : موضع بحوران من اعمال دمشق (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٩٧٩) •

(١٢٩) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢١٣ – أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٥١ •

(١٣٠) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٢٢ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ – المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣١٩ – السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٧ – ٢٠ •

(١٣١) عيذاب : مدينة حسنة ، وهي مجمع التجار برا وبحرا ، ومرسى المراكب القادمة من عدن الى الصعيد على بحر القلزم ، تشتهر باللبن والعسل والسمن – (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧٥١ – ابن الوردي : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، ص ٣٤) •

الفصل الثالث

نشاط صلاح الدين الحربي ضد امارة الكرك الصليبية

١ ـ النشاط الحربي الموجه من القاهرة :

ـ أ ـ الحملة الاولى ٥٦٦هـ (١١٧٠م) ٠

ب ـ الحملة الثانية ٥٦٧هـ (١١٧١م) ٠

جـ ـ الحملة الثالثة ٥٦٨هـ (١١٧٣م) ٠

د ـ صلاح الدين يمهد لتوحيد الجبهة الاسلامية ٠

٢ ـ تولية ارناط لامارة الكرك وآثاره على الاحداث ٠

٣ ـ حملات ارناط الصليبية ضد الاراضي المقدسة واليمن :

أ ـ الحملة الاولى ٥٧٧هـ (١١٨١م) ٠

ب ـ الحملة الثانية ٥٧٨هـ (١١٨٢م) ٠

٤ ـ النشاط الحربي الموجه من دمشق ضد امارة الكرك الصليبية :

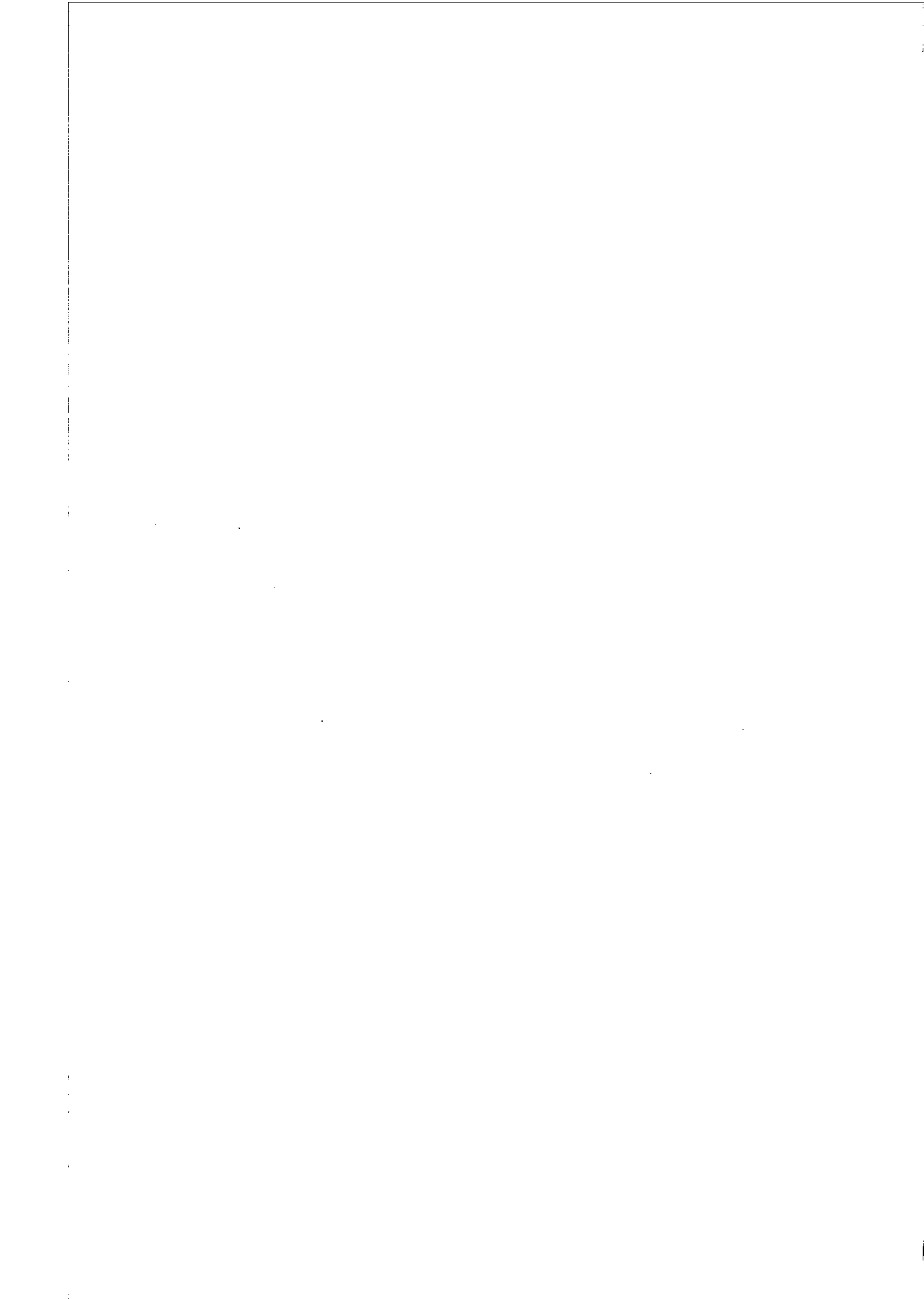
أ ـ المحاولة الاولى ٥٧٩هـ (١١٨٣م) ٠

ب ـ المحاولة الثانية ٥٨٠هـ (١١٨٤م) ٠

جـ ـ المحاولة الثالثة والاستعداد للمعركة الفاصلة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ٠

د ـ المحاولة الرابعة واستسلام الكرك والشوبك ٥٨٤هـ (١١٨٨م) ٠

٥ ـ الكرك الاسلامية في الفترة الاخيرة من حياة صلاح الدين ٠



(١)

النشاط الحربي الموجه من القاهرة

تعرضت الكرك لنشاط حربي مكثف بدأه نور الدين ربيع سنة ٥٦٥هـ / ١١٧٠م وأتبعه صلاح الدين من مصر لمدة أربع سنوات متوالية على النحو التالي :

أ ـ الحملة الاولى ٥٦٦هـ (١١٧٠م) :

أيلة « العقبة » مدينة تقع على شاطيء البحر الاحمر على طرف لسانه الشرقي المعروف بخليج العقبة . كانت مدينة جليلة اشتهرت منذ أقدم العصور بمتاجرها الكثيرة وأسواقها العامرة[1] . بالاضافة الى كثرة نخيلها وزروعها وكانت مع ذلك كله مفتاح البحر الاحمر وطريق الحجاج الى مكة والمدينة . سقط هذا الثغر الهام في أيدي الصليبيين عند استقرارهم في بيت المقدس ، فقد احتله بلدوين الاول سنة ٥١٠هـ (١١١٦م) ، وبنى فيه قلعتين احداهما على الساحل وأخرى في جزيرة فرعون التي لا تبعد كثيرا عن الشاطيء وشحنوها بالمقاتلة . وهكذا أطل الفرنجة على ساحل البحر الاحمر وأصبحوا يسيطرون على الشريان التجاري البحري القديم القادم من الهند والصين واليمن .

كانت هذه القوة الصليبية تضايق التجارة في البحر الاحمر وتراقب القوافل المتنقلة بين القاهرة والعراق والشام وبالعكس ، ونال الحجاج من الصليبيين الموجودين في أيلة ضرر كبير[2] ، ولما اشتد أذاهم رأى صلاح الدين أن تكون ضربته الاولى موجهة الى أيلة لموقعها الاستراتيجي الهام برا وبحرا .

---

(١) المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .

(٢) ابن قاضي شهبة : سيرة الملك نور الدين ، لوحة ٩٥ « مخطوطه » .

وأرى أن الحافز الذي دفع صلاح الدين الى الاهتمام بأمر أيلة أنه كان للصليبيين نشاط بحري في البحر الاحمر وأنهم كانوا يهددون التجارة فيه بل أنهم أصبحوا مصدر ازعاج وخطر على سواحل الحجاز والاماكن المقدسة ، ويمكن ملاحظة ذلك من رسالة كتبها القاضي الفاضل الى الخليفة العباسي في بغداد على لسان صلاح الدين في سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م) ، شرح له فيها أعمال صلاح الدين منذ توليه أمر مصر ، وذكر فيها فتح أيلة وأسبابه فقال : « ومنها قلعة بثغر أيلة كان العدو قد بناها في بحر الهند وهو المسلوك منه الى الحرمين واليمن ، **وغزا ساحل الحرم ، فسبى منه خلقا ، وخرق الكفر في ذلك الجانب خرقا ، كادت القبلة أن يستولى على أصلها ، ومساجد الله أن يسكنها غير أهلها** ، ومقام الخليل صلوات الله عليه أن يقوم به من ناره غير برد وسلام · ومضجع الرسول شرفه الله أن يتطرقه من لا يدين بما جاء به من الاسلام ، ففتح الله هذه القلعة وصارت معقلا للجهاد ، وموئلا لسفار البلاد ، وغيرهم من عباد العباد »[٣] · هذه الرسالة تثبت بما لا يدع مجالا للشك في أن الفرنج غزوا سواحل الحجاز قبل عام ٥٦٦هـ (١١٧٠م) ، وهددوا الحرمين الشريفين ، الا أن ما نعرفه في البحوث التاريخية لا يشير الى قيام نشاط صليبي ضد سواحل الحجاز والحرمين الا منذ تولي ارناط امارة الكرك · واذا كان هناك من يعترض على قولنا محتجا بأن هذه الرسالة لم تكتب في هذا التاريخ فاننا نؤكد أنها كتبت فيه بدليل أنه ورد فيها أيضا : « ومن هؤلاء الكفار صاحب صقلية ·· الى أن وصل منها في السنة الخالية الى اسكندرية أمر رائع وخطب هائل » ومن المعروف أن غزوة صاحب صقلية للاسكندرية حدثت في سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) ، وعلى هذا يمكن تأريخ الرسالة في سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م) · مما تقدم أستطيع القول بانه كان للصليبيين في البحر الاحمر اسطول ونشاط بحري ملحوظ قبل أرناط ، ولكن حجم هذا النشاط يتضاءل

---

(٣) راجع نص هذه الرسالة في : أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٦١٩ – ٦٢١ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٨٦ – ٤٩٣ – القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٨١ – ٩٠ ·

بالنسبة الى حملات أرناط البحرية وغزواته المنظمة التي وجهها فيما بعد من الكرك ، هذا الاسطول هددوا به سواحل الحجاز والحرمين ، وحاولوا عن طريقه اعتراض السفن التجارية فيه للقيام بأعمال القرصنة سبيا ونهبا ، وبذلك تعرضت التجارة البحرية والمقدسات الاسلامية للخطر الصليبي ، بالاضافة الى تحكم أيلة في طريق البر ، وقد كان ذلك حافزا ومبررا طبيعيا لصلاح الدين كي يوجه أولى ضرباته الى أيلة للقضاء على أعمال القرصنة الصليبية ووضع حد لهذا النشاط الحربي الصليبي الموجه منها فقد كان صلاح الدين حريصا على بقاء البحر اسلاميا احتراما للاماكن المقدسة الواقعة على ساحله الشرقي ، ولتيسير حرية الملاحة فيه للسفن التجارية المقبلة بتجارة الهند والصين الى ثغر عيذاب ..

أخذ صلاح الدين يتأهب لخوض معركة بحرية وشيكة ، فأمر ببناء مراكب مفصلة[٤] في دور صناعة مصر (الفسطاط) ثم نقلها على ظهور الجمال برا الى أيلة . وهناك اعاد الصناع تركيبها ، فشحنها بالرجال والسلاح ، وحاصر المدينة وقلعتها برا وبحرا وأحكم عليها الحصار ، فانهارت المقاومة واستطاع فتحهما معا في العشر الاول من ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ (ديسمبر (كانون أول) ١١٧٠م) ، فاستباح القوة الموجودة بها أسرا وقتلا ، ثم قام باعداد قوة من ثقات رجاله في أيلة وقواهم بالسلاح والمؤن والذخيرة .

---

(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٦٥   ابن شداد : النوادر السلطانية ، ج ٢١٤ — البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ١٠٩ — سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ، ص ١٧٧ — أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٨٧ — ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٨٥ — ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٩٨ — أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٥٢ — ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٧٨ — ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٦٣ —رانسمان : ج ٢ ؛ ص ٦٣١ .

Stevenson, op. cit., P. 199.
Lane Poole, Saladin, P. 105.

وهكذا انهى صلاح الدين تحكم الصليبيين في هذا البحر وأمن التجارة فيه وسهل للقوافل البرية مهمة المرور من جانبها • ثم قفل عائدا الى القاهرة محققا بذلك أول خطوة نحو تأمين المواصلات بين مصر والشام والعراق والحجاز •

ب ـ الحملة الثانية ٥٦٧هـ (١١٧١م) :

ازدادت ضغوط نور الدين على صلاح الدين للتعجيل بانهاء الدولة الفاطمية المحتضرة منذ أن وزر صلاح الدين للخليفة العاضد ، ولكن صلاح الدين كان يماطل خشية ردة الفعل لدى المصريين • ولما أرسلت بغداد تعاتب[٥] نور الدين على ابطائه في اعلان الخطبة للخلافة العباسية ، أعاد نور الدين الاتصال بصلاح الدين يؤكد عليه ضرورة اسقاط العاضد من الخطبة واعلانها للخليفة العباسي ، وتم اقامة الخطبة للعباسيين في أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧هـ (١٠ سبتمبر (ايلول) ١١٧١م) • وهكذا انتهت الخلافة الفاطمية « ولم ينتطح فيها عنزان »[٩] ، وأرسلت البشائر الى دمشق وبغداد[٧] ، فزينت بغداد وأقيمت المهرجانات احتفالا بذلك الحدث الهام مدة عشرة أيام • وأرسل الخليفة الخلع الى نور الدين وصلاح الدين واستولى صلاح الدين على ذخائر ونفائس القصر الفاطمي[٨] وصفا له الجو وتلقب بالسلطنة وصار يخطب باسمه على منابر مصر بعـــد الخليفة العباسي والملك العادل نور الدين محمود[٩] •

---

(٥) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٥ •

(٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٦٩ •

(٧) سبط بن الجوزي : شذور العقود في تاريخ العهود ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٩٩٤ تاريخ لوحة ١٧٢ ـ ١٧٣ ـ السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٦ •

(٨) عن نهاية الدولة الفاطمية والاستيلاء على ذخائرها راجع :
ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ ـ ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٦٩ ـ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ ـ البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ١١٥ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣ ـ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ٩٦ ـ ٩٧ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٣ ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٣٢٨ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٨٠ •

(٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٥٧ •

لقد أنهى صلاح الدين أكبر ما كان يواجهه من مشكلات في الداخل واستراح من الحاح نور الدين المتواصل ، ثم شرع يتأهب لمنازلة[١٠] العدو في أمارة الكرك الصليبية وللمرة الثانية أعد صلاح الدين عدته ونظم قواته وخرج من القاهرة وعبر سيناء الى جنوب الاردن وكان هدفه هذه المرة قلعة الشوبك الحصينة الواقعة في جنوب الامارة ، والتي تحتل موقعا حساسا بين مصر والشام بحيث يتيح لها أن تسيطر تماما على طرق القوافل بين البلدين وتهدد التجارة بينهما[١١] • ثم حطت قواته على القلعة في صفر ٥٦٧هـ (اكتوبر (تشرين أول) ١١٧١م) وحاصرها باحكام وأرغمت الحامية الصليبية على التسليم بالامان بعد أن يئست من وصول أي نجدة اليها من بيت المقدس • ولكن الحامية اشترطت امهالها عشرة[١٢] أيام حتى تتم مراسيم التسليم وقبل صلاح الدين ذلك • وعندما علم نور الدين بحركة صلاح الدين هذه جهز قواته وتحرك نحو الكرك ليسهم مع صلاح الدين في القضاء على الامارة أو ليظفر بنصيبه من شرف الفتح • ولكن صلاح الدين لأمر ما رحل قبل وصول مولاه نور الدين وقفل عائدا الى مصر دون أن ينتظر المهلة التي طلبتها حامية الشوبك للتسليم ، ثم أرسل يعتذر الى نور الدين مبررا تعجله في القفول بسوء الاحوال الداخلية في مصر • وكان من الطبيعي أن يغضب نور الدين من تصرف صلاح الدين واعتبره تمردا عليه وحركة ترمي الى الاستئثار بأمور مصر ، وبسبب غضبه هذا أعرب نور الدين عن عزمه على قصد مصر واخراج صلاح الدين منها ، وبذلك بدأت الوحشة بينهما[١٣] ، وكانت الشوبك أحدى أسباب

---

(١٠) ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ١٤١ •

(١١) Lane Poole, Saladin, P. 120.

(١٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٧١ — ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٨٦ — ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٥٠ — المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٣٤م ، ج ١ ، ص ٤٤ •
Lane Poole, Saladin, P. 121.

(١٣) عن الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين وحصار الشوبك راجع :
Guillaume de Tyr, Vol. 1, PP. 992 - 994.
ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٥٨ ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٧١ — ٣٧٢ — أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٥١٩ — ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة

هذه الوحشة · عاد صلاح الدين الى القاهرة ولكنه خسر في هذه الحملة نحو خمسة الاف رأس ما بين جمل وفرس[١٤] بالاضافة الى ما فقده من العدة والسلاح · واجتمع بأهله وذويه ، وتباحث معهم فيما يجب أن يتخذوه من خطوات لمواجهة نور الدين وتهديداته التي أعلنها لانتزاع مصر من صلاح الدين ، لكن والده نجم الدين أيوب لم يوافقهم على ذلك الامر ونهرهم بقوله : « قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده »[١٥] وطلب من ولده أن يكتب الى نور الدين مظهرا الطاعة والخضوع ، وهكذا فعل فترك نور الدين قصده واشتغل بأمور أخرى بالشام[١٦] · وبذلك استطاع نجم الدين أيوب بعقله الراجح واتزان رأيه أن يمنع كارثة محققة ، وقدر لدولة صلاح الدين أن تبقى وتستمر أكثر من ثلاثة أرباع قرن ·

ج ـ الحملة الثالثة ٥٦٨هـ (١١٧٣م) :

بقيت أمارة الكرك بقلاعها وحصونها شوكة في جانب المسلمين في مصر والشام وسدا يحول دون اتصال البلدين الشقيقين ، ولم تكن أي قافلة لتجرؤ على المرور من هذا الطريق دون أن تتولى حراستها قوة عسكرية تحميها وترد عنها أي عدوان يقوم به الفرنج ، ولهذا السبب كان على صلاح الدين أن يعمل على تأمين الاتصال بين مصر وجاراتها تجاريا

= القاهرة ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ـ ابن واصل مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٣ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٥٤ ـ ٥٥ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٨٠ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨ ـ ٤٩ ـ الذهبي : تاريخ الاسلام ، مجلد ٤ ، لوحة ٤٤٨ « مخطوطة » ·
Lane Poole, Saladin, P. 121.
Stevenson, op. cit. P. 201. — رانسمان : ج ٢ ، ص ٦٣٨ ·
هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ١٢١ ·

(١٤) البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ١١٨ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٤ ·

(١٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٥١٩ ·

(١٦) ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٨٧ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٦٩ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٥١ ·

وعسكريا فقر عزمه على توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابله[١٧] ٠

ثم انه أعد قواته وخرج في شوال سنة ٥٦٨هـ (مايو (أيار) ١١٧٣م) وفي نيته شن الغارة على قلعة الكرك ، تلك القلعة الحصينة ذات الموقع الاستراتيجي الممتاز حاضرة امارة الكرك التي تتحكم بطرق القوافل بين مصر والشام والحجاز والمنفذ الذي يسلكه المسافر الى سوريا والحجاز[١٨] ٠ وصل صلاح الدين الى الكرك فأقام عليها ، وكانت تنزل بالكرك قبائل عربية من بني عباد كانت تقدم رغما عنها خدمات للفرنج فتدلهم على المسالك وتنقل اليهم الاخبار وعندئذ رغبهم صلاح الدين في الرحيل عنها[١٩] حتى لا يقعوا تحت رحمة الفرنج ويستذلونهم ويكرهونهم على مساعدتهم وبذل العون لهم ، فخيرهم بين الالتجاء الى مصر أو سورية ، فاختاروا الرحيل الى سورية ، فكتب الى نور الدين يرجوه أن يقبلهم[٢٠]

---

(١٧) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٩ ٠

(١٨) الذهبي : تاريخ الاسلام ، مجلد ٢٦ ، لوحة ٢٤٩ « مخطوطة » ٠
Conder, The Latin Kingdom, P. 127.
Lane Poole, Saladin, P. 123.

(١٩) البنداري : سنا البرق الشامي ، جـ ١ ، ص ١٢٥ ٠

(٢٠) اما نص الرسالة التي ارسلها معهم الى نور الدين فهي :
« سبب هذه الخدمة الى مولانا الملك العادل أعز الله سلطانه ومد أبدا احسانه ، ومكن بالنصر امكانه ، وشيد بالتأييد مكانه ٠ علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص اجنحتهم ويقلل اسلحتهم ، ويقطع مواردهم ، ويخرب بلادهم ، واكبر الاسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة الا يبقى في بلادهم احد من العربان ، وان ينتقلوا من ذل الكفار الى عز الايمان ٠ وما اجتهد فيه غاية الاجتهاد ، وعده من اعظم اسباب الجهاد ترحيل كثير من انفارهم ، والحرص في تبديل ديارهم ، الى ان صار العدو اليوم اذا نهض لا يجد بين يديه دليلا ، ولا يستطيع حيله ولا يهتدي سبيلا ٠ ولو كان هؤلاء العربان يرغبون في الديار المصرية لكان يحمل كلهم ويسوقهم كلهم ، ولكن هواهم في الشام ، ورغبتهم في بلاده دون غيرها من بلاد الاسلام ٠ ولو أن المولى خلى لهم اقليما واقطعهم اقطاعا عظيما ليقطعهم عن الكفر وبلاده ، ويبعدهم عن تكثير سواده لكان في ذلك قد أحسن فعلا وحمل على المسلمين ثقلا ٠ فكيف وهم يخدمون في البلاد خدمة من عرف فوالجها ، وخبر طرقها ومناهجها فما يدعون جهدا في اخرابها ، وشن الغارة عليها ، ومواصلة الفتك فيها » ٠ انظر : (البنداري : سنا البرق الشامي ،
←

فأسكنهم نور الدين صرخد وما حولها[٢١] ، واستخدمهم في قتال الصليبيين لمعرفتهم بمسالك المنطقة ومواضع تجمعاتهم ٠

وكان نور الدين أثناء قيام صلاح الدين بمهاجمة الكرك ونواحيها في زيارة الى الموصل[٢٢] وعند عودته الى دمشق عزم على مشاركة صلاح الدين في حصار الكرك والاغارة على أمارتها ٠ فخرج من دمشق باتجاه الكرك فوصل الرقيم[٢٣] الواقعة على مرحلتين من الكرك ، ولما نمى نبأ وصوله الى صلاح الدين وأحس باقترابه منه رحل من أمارة الكرك[٢٤] بعد أن أرسل اليه يعتذر عن بقائه بمرض والده ٠ ولم ينس أن يحمل اليه هدية ثمينة من مخلفات الفاطميين ، وعند عودته في ذي الحجة وجد والده قد توفي في ٢٧ ذي الحجة سنة ٥٦٨هـ (١٩ أغسطس (آب) ١١٧٣م) بسبب

= ج ١ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٨٤ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٢٦ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥) ٠

(٢١) صرخد : أو صلخد : بلدة صغيرة من حوران من اعمال دمشق ، ذات قلعة مرتفعة وكروم كثيرة ، وليس بها ماء سوى ما يتجمع من الامطار في الصهاريج والخزانات ، ومن شرقيها طريق يعرف بالرصيف يصل الى العراق ، وبين صرخد وبغداد عشرة أيام ـ (أبو الفداء : سيرة صلاح الدين ، ص ٧٢ ـ ابن سباهي : أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك ، لوحة ١٧٧ ـ ١٧٨ « مخطوطة » ٠ Le Strange, P. 529.

(٢٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٨٣ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٦٧ ٠ Stevenson, op. cit. P. 203.

(٢٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٩٢ ـ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢١٧ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٥٦ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٥٢ الرقيم : بليدة بارض البلقاء وبالقرب من عمان ، يزعم بعض الجغرافيين انها بلد أهل الكهف (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٧١٩ ـ القرماني : اخبار الدول وآثار الاول ، ص ٤٥٠) Le Strange. P. 392 ويذكر عدد آخر من الجغرافيين ان الرقيم « قرية على فرسخ من عمان على تخوم البادية ، فيها مغارة لها بابان صغير وكبير وبها ثلاثة قبور » (المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٧٥) ٠

(٢٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٩٣ ـ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٨٨ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٨١ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠ ـ رانسمان : ج ٢ ، ص ٦٤٠ ٠

سقوطه عن ظهر فرسه • وقد أثارت عودة صلاح الدين السريعة المباغتة الى مصر مشاعر الضيق في نفس نور الدين ، وزاد ذلك السلوك غير الودي من الجفوة القائمة بينهما •

ولا شك أن صلاح الدين قد أحس بنوايا نور الدين في خلعه في الوقت الذي كان يشتغل فيه هو — أي صلاح الدين — بتثبيت أركان دولته ودعم قبضته على مصر ، ولهذا يفسر المؤرخون حملاته الى النوبة واليمن وبرقة بأنه كان يسعى من ورائها الى ايجاد مأوى له ولاسرته فيما لو طردهم نور الدين من مصر ، فقد سير أخاه شمس الدولة تورانشاه في أواخر سنة ٥٦٨هـ (١١٧٣م) الى بلاد النوبة لفتحها ولكنه وجدها فقيرة الموارد « فلم ير للبلاد دخلا يرغب فيه ويحتمل المشقة لاجله »(٢٥) لذلك وجه أخاه شمس الدولة تورانشاه مرة أخرى في سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م) لفتح اليمن « فتكون لهم معقلا وحصنا »(٢٦) • وقد أسهب المؤرخون المعاصرون في أسباب فتح اليمن(٢٧) ، ويمكنني أرى أن من أهم أهدافها خوفه من نشاط الصليبيين في البحر الاحمر ، وهو نشاط بدأ منذ فترة تسبق عام ٥٦٦هـ (١١٧٠م) بهدف تهديد الديار المقدسة والسيطرة على تجارة الهند واليمن التي وجه اليها صلاح الدين اهتماما خاصا لما تعود به على بلاده من مكاسب اقتصادية كان في أشد الحاجة اليها لتكون معينا له في رحلة نضاله الطويل مع الصليبيين في الشام • ويتضح ذلك الهدف من رسالة بعث بها الى الخليفة العباسي في بغداد سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م) يشرح له فيها أهدافه من فتح اليمن فيقول : « والكلمة هناك بمشيئة الله الى الهند سارية »(٢٨) اذن فقد كان شديد الحرص على أن يكون الطريق الى الهند ساريا لا يتعرض فيه سالكوه لاعتداءات قراصنة الفرنج ، ثم انه كان ارتبط بعلاقات تجارية مع بعض الدويلات الايطالية كالبندقيه وبيشة « بيزا » وغيرها من المدن

---

(٢٥) ابن سعيد ، المصدر السابق ، ص ١٨٨ •

(٢٦) ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٤٢ •

(٢٧) راجع ما ذكره الدكتور أحمد مختار العبادي في تاريخ البحرية الاسلامية ، ص ٢٦١ هامش ١ •

(٢٨) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٨٦ •

الايطالية[٢٩] ، فكان عليه أن يضمن سلامة الطريق التجاري الى الهند سيما وقد وضع يده على مداخل البحر الاحمر سواء عند خليج العقبة باحتلال أيلة او عند خليج السويس التي تدخل في نطاق ملكه ، ولم يبق عليه سوى السيطرة على مخرج هذا البحر عند باب المندب وثغر عدن ٠ وهكذا جعل صلاح الدين البحر الاحمر بحيرة اسلامية ٠

د — صلاح الدين يمهد لتوحيد الجبهة الاسلامية :

وقد اكتشف صلاح الدين بعد عودته من غزوة الكرك مؤامرة[٣٠] دبرها جماعة من أنصار الفاطميين في مصر بقصد احياء الخلافة الفاطمية وردها الى ما كانت عليه ، وكانوا قد اتصلوا باعداء صلاح الدين من الفرنج والاسماعيلية والحشيشية[٣١] ، ولم يكتفوا بذلك بل اتصلوا بوليم الثاني

---

(٢٩) ويوضح صلاح الدين ذلك في رسالته قائلا : « وما منهم الا من يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب الينا باهداء طرائف اعماله وبلاده ، وكلهم قد قررت معه المواصفة وانتظمت معه المسالمة » ٠ (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٨٨) ٠

(٣٠) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٦٤ — ابن قاضي شهبة : سيرة الملك نور الدين ، لوحة ١١٤ « مخطوطة » ٠

(٣١) الحشيشية : هي فرقة من الشيعة الاسماعيلية اسسها الحسن بن صباح وجعل مركزهم قلعة الموت في المرتفعات الشمالية الغربية من فارس على شواطيء بحر قزوين الجنوبية ، وسموا بالحشيشية ، اما لتعاطيهم عشب مخدر كانوا يتناولونه عند الاقدام على اعمالهم ، أو انها مشتقة من مصدر « حش » اي قطع بمعنى انهم كانوا يقطعون رقاب الضحايا الذين يودون الفتك بهم ، ومنها انتقلت الى اللغة الفرنسية بمعنى القتلة 'assassins' وهي جماعة سرية منظمة يرأسها كبير هو « داعي الدعاة » ثم يليه بعض الزعماء يدعون « كبار الدعاة » ويليهم « العاملون » ثم « الفدائيون » وهؤلاء هم الذين كانوا ينفذون المهام التي تعهد اليهم ، وعليهم الطاعة العمياء للرئيس الاكبر في الاغتيال والقتل ، يستعملون الخناجر المسمومة في اغتيال ضحاياهم ، وقد لعبوا دورا كبيرا في أواخر الدولة الفاطمية ، وحاولوا اغتيال كثير من خلفائها كما حاولوا اغتيال صلاح الدين مرارا ٠ وكثيرا ما سخروا لخدمتهم جماعة مأجورة يقتلون ضحاياهم نظير مبلغ من المال ، فان سلم اعطى المبلغ المتفق عليه وان قتل سلم المبلغ الى ابنائه وأهله ، وكان لهم قلاع في شمال سوريا ، وتم للسلطان بيبرس القضاء عليهم نهائيا (راجع : ابن بطوطة : الرحلة ، ج ١ ، ص ٤٥ — فيليب حتى : تاريخ سورية وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ — ٢٤٦ — عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ٤٧٤ هامش ٢٣ — جوزيف نسيم : لويس التاسع في الشرق الاوسط ، ص ٢٣١ حاشية رقم ١) ٠

النورماني ملك صقلية ليهاجم الاسكندرية في الوقت الذي يهاجم الفرنج مصر من الشرق ، على أن يقوم المتآمرون بالثورة من الداخل ٠ ولكن صلاح الدين اكتشف المؤامرة والقى القبض على زعمائها وفي مقدمتهم عمارة اليمني(٣٢) وعبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس وداعي دعاة الشيعة وغيرهم وقام بصلب ثمانية(٣٣) منهم بين القصرين في ٢ رمضان ٥٦٩هـ (١٥ ابريل (نيسان) ١١٧٤م) ٠ أما صاحب صقلية وليم الثاني النورماني فقد فشل(٣٤) هو الاخر في تنفيذ الشطر الثاني من المؤامرة واخفقت قواته التي نزلت في الاسكندرية في ٢٦ ذي الحجة ٥٦٩هـ (٢٨ يوليو (تموز) ١١٧٤م) في اقتحام المدينة فانسحبوا منها في مستهل المحرم سنة ٥٧٠ (اول أغسطس (آب) ١١٧٤م) ٠ وأما عموري الاول فقد بلغه نبأ فشل الخطة الموضوعة لغزو مصر ، فمرض ولم يلبث أن توفي في (تموز) ١١٧٤م ٠ كذلك ثار الكنز(٣٥) ٠ في اسوان هذه السنة ، ولكن صلاح الدين قضى عليه وعلى

---

(٣٢) عمارة اليمني : هو نجم الدين أبو محمد الحكمي ، الفقيه الشاعر المؤرخ ، ولد بتهامة اليمن واستوطن مصر ومدح خلفاءها ووزراءها من الفاطميين والايوبيين ، واشترك في مؤامرة اعادة الدولة الفاطمية فقتله صلاح الدين سنة ٥٦٩هـ وله ديوان كبير (ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ٩٩) ٠

(٣٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢١٧ ــ البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ١٤٩ ــ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٦١ ــ ٥٦٥ ــ ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٨٩ ــ بن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٤٣ ــ ٢٤٦ ٠

(٣٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤١٣ ــ البنداري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧١ ــ ١٧٤ ــ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٩٨ ــ ابن واصل : مفرج الكروب : ج ٢ ، ص ١١ ــ ١٦ ــ رانسمان : ج ٢ ، ص ٦٤٩ ٠

Lane Poole, Saladin, P. 127.

Stevenson op. cit. P. 203.

عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٦٥ ــ ٢٦٦ ٠

(٣٥) الكنز : هو كنز الدولة ، احد قواد مصر ، استقل في اسوان على حدود بلاد النوبة ، وجمع السودان والعبيد حوله ، وزحف بهم الى قوص بهدف اعادة الدولة الفاطمية ، ولكن صلاح الدين سير أخاه العادل لاخماد حركتهم ، فاستأصلهم في صفر ٥٧٠هـ (١١٧٤م) (البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ١٧٥ ــ ١٧٦ ــ ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٤٣ ــ ١٤٤ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٦ ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٥٩ ــ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٨٨) ٠

أعوانه في صفر ٥٧٠هـ (أيلول) ١١٧٤م ، فاستقرت قواعد ملكه واستوت أموره • وفي أثناء هاتين الحركتين وبينما كان نور الدين زنكي يعد العدة لغزو مصر وانتزاعها من يد صلاح الدين توفي فجأة في ١١ شوال ٥٦٩هـ(٣٦) (١٥ (أيار) ١١٧٤م) ، وبوفاته صفا الجو لصلاح الدين وأصبح سيد الموقف بلا منازع •

تعرض العالم الاسلامي لخسارة عظيمة بموت نور الدين زنكي وأصبحت الأخطار تهدد بلاد الشام لافتقار الدولة الى رجل قوي يسير دفة الامور بحكمة وروية ، كما أن الوحدة التي طالما عمل آل زنكي على تحقيقها تعرضت لامتحان رهيب ، فقد حدث الانقسام بين القادة النوريين الذين تنازعوا أمور ولده الصغير الصالح اسماعيل ، ثم استقر الامر بينهم على أن يسير الملك الصالح اسماعيل الى حلب حيث يربى في نفس الموضع الذي تربى فيه والده تحت اشراف شمس الدين علي بن الداية الذي تمكن من حلب ، أما شمس الدولة بن المقدم فقد استقر في دمشق في حين استأثر الطواشي جمال الدين ريحان بقلعتها • وعلى هذا النحو سار الملك الصالح الى حلب فوصلها في ٢٣ ذي الحجة ٥٦٩هـ (٢٢ (تموز) ١١٧٤م) ، ولكن سعد الدين كمشتكين القى القبض على ابن الداية وابن الخشاب رئيس حلب وتحكم بالملك الصالح اسماعيل •

كان الفرنج أثناء ذلك ينتظرون فجوة يستطيعون منها اعادة بعض الاعتبار الى سلطتهم المنهارة في بلاد الشام ، وما أن علم عموري الاول ملك بيت المقدس بموت نور الدين حتى سارع فجمع قواته وسار الى بانياس فلقيه ابن المقدم نائب دمشق بقواته ، ولكنه ضعف أمام الفرنج وفضل المهادنة نظرا لتطور الامور الداخلية في دمشق ، فراسل عموري بالهدنة

---

(٣٦) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦١ ـ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٠٢ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٨١ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٥٨ •

فأجابه بالقبول ، وتعهد ابن المقدم للفرنج بتقديم مبلغ من المال[٣٦] وان يطلق عددا من أسراهم وعاد كل الى بلده ، ولكن عموري اشتد عليه المرض اثناء عودته وتوفي في ١٢ ذي الحجة ٥٦٩هـ (١١ تموز ١١٧٤م) ٠

استاء صلاح الدين من تصرف قادة دمشق وحلب وتحكمهم بالملك الصالح من جهة وضعفهم أمام الفرنج من جهة أخرى ، وخشي في نفس الوقت من انهيار وحدة الصف العربي الاسلامي الذي جهد عماد الدين ومن بعده نور الدين في تحقيقه ٠ وكان يرى في نفسه انه الوارث الحقيقي لدولة نور الدين وسياسته التي تهدف الى تحقيق الوحدة الاسلامية والى جهاد الفرنج ٠ وكانت قد وردت عليه رسائل من ابن المقدم والقاضي كمال الدين الشهر زوري ومن شمس الدين صنديق بن جاولي صاحب بصرى[٣٨] يستحثونه على سرعة الحركة الى دمشق خوفا من الانقسام وطمع الامراء المتحكمين بالملك الصالح جاء في بعضها : « فانه ان استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة ، وضاقت المناهج المتسعة ، وانفردت مصر عن الشام وطمع أهل الكفر في بلاد الاسلام »[٣٩] ٠ وهكذا لم يتردد صلاح الدين في القيام بدوره الذي قدر له والعمل على تدعيم الوحدة الاسلامية والقضاء على الفرقة ، فخرج في سبعمائة فارس[٤٠] متخذا طريقه على صدر وأيلة ثم

---

(٣٧) البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ١٥٦ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٩٤ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٨٥ ـ رانسمان : ج ٢ ، ص ٦٤٥ ٠

Stevenson, op. cit. P. 213.

(٣٨) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤١٦ ـ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢١٩ ـ البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ١٧٦ ـ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٠٦ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٠٢ ـ ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٤٤ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٢٥ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٧٣ ٠

(٣٩) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٩٦ ٠

(٤٠) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢١٩ ـ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٩٠ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٥٩ ٠

اتجه شمالا عبر الاردن الى بصرى ، ومنها الى دمشق حيث أعلن أن من حقه الوصاية على الصالح اسماعيل وأملاك نور الدين(٤١) • وفي دمشق استقبل استقبالا طيبا ونزل في دار ابيه المعروفة بدار العقيقي ، وفي الصباح سلم له ابن المقدم أبواب قلعة دمشق في ٢٩ ربيع الاول ٥٧٠هـ (٢٨ (تشرين أول) ١١٧٤م)(٤٢) •

أظهر صلاح الدين حنكة سياسية رائعة فأظهر أنه لم يأت طمعا في الملك ، وانما قدم لحفظ الملك الصالح من الطامعين ولتوحيد الكلمة فأعلن : « والله ما جيت الى ها هنا شرها ولا طمعا في الدنيا وفي مصر كفاية وما جيت الا لاستنقذ هذا الصبي »(٤٣) • كذلك أظهر حرصه على وحدة المسلمين في مثل هذه الظروف الحرجة التي مرت بها بعد وفاة نور الدين فصرح قائلا : « انا لا نؤثر للاسلام وأهله الا ما جمع شملهم وألف كلمتهم(٤٤) » • ومن هذا المنطلق بدأ صلاح الدين يعمل على توحيد الجبهة الاسلامية وتدعيمها •

أما مملكة بيت المقدس فقد نكبت بوفاة ملكها عموري الاول الذي اعتبر خسارة فادحة لها ونذيرا بزوالها(٤٥) باعتباره آخر ملك قوي اعتلى عرشها • ولقد ترك عموري وراءه طفلا لم يتجاوز عمره الاثني عشر عاما هو بلدوين الرابع ، وكما حدث في دمشق من نزاع على الوصاية بين القادة والامراء حدث نفس الشيء في مملكة بيت المقدس • ولكن دمشق قيض الله لها رجلا قويا هو صلاح الدين ، فوضع الامور في نصابها وقدر له أن يقود العرب والمسلمين الى النصر • أما بالنسبة لمملكة بيت المقدس فقد حدث في

---

(٤١) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦٣ •

(٤٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩ — هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ١٢٣ •

(٤٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٠٧ •

(٤٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨ •

(٤٥) رانسمان ; ج ٢ ، ص ٦٤٦ • Stevenson, op. cit. P. 213.

بنائها تصدع وانشقاق فظهر حزبان(٤٦) : الاول حزب الحمائم ان جازت لنا هذه التسمية ، يتألف من البارونات الوطنيين والفرسان الاسبتارية (٤٧) ويتزعمهم الكونت ريموند الثالث أمير طرابلس • وكان هذا الحزب يدعو الى التفاهم مع المسلمين تقديرا منهم لحالة الضعف التي انتهت اليهـــا الحركة الصليبية بالقياس الى قوة المسلمين والتي قادها أبطال ميامين أمثال نور الدين وصلاح الدين ، وكان هذا الحزب يسعى الى تحقيق السلام وينفر من القيام بالمغامرات المحفوفة بالمخاطر • أما الثاني فهو حزب الصقور وكان يتألف من الوافدين حديثا من الغرب أو جماعة الطارئين ومن الفرسان

---

(٤٦) رانسمان : ج ٢ ، ص ٦٥٣ • Belloc, The Crusade, P. 283.

(٤٧) الاسبتارية : Knights of The Hospital. أو فرسان القديس يوحنا القديس ، تأسست هذه الجماعة من فرسان الصليبيين عام ١٠٩٩م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، كان هدفها الاول هو علاج المرضى وايواء حجاج بيت المقدس ومساعدتهم ولكنهم تحولوا فيما بعد الى اغراض عسكرية ونذروا انفسهم لمحاربة المسلمين ، وقد اصبحوا مصدر قوة كبيرة لمملكة بيت المقدس في أول الامر ،وكانوا يدينون بالطاعة للبابا مباشرة ، ولعبت هذه مع جماعة الداوية دورا كبيرا في تاريخ الحروب الصليبية • وقد منح الاسبتارية املاكا وثروات طائلة • ووهبت لهم أهم القلاع والحصون للحراسة والمراقبة ، ومع الوقت اصبحوا ملاكا لهذه القلاع والحصون • وكان رمزهم الصليب الابيض •

الداوية : Knights of The Temple

سموا كذلك بالهيكليين ، لان مقامهم الاول كان بجانب موقع هيكل سليمان بالقدس ، وقد شكل هذه الجماعة هيودي باين Hugh de payens سنة ١١١٩م واطلقوا عليها « الرفقاء جنود المسيح الفقراء » في عهد بلدوين الثاني ، وكان غرضها دينيا يستهدف تامين الحجاج في طريقهم ، بين يافا والقدس ، ثم تحولت هذه الجماعة الى هيئة عسكرية دينية لعبت دورا هاما في الحروب الصليبية في الشرق الاسلامي ، وقد وقفت جهودها لمحاربة المسلمين ، وكانت ذات تعصب شديد ، اعطوا بعض القلاع والحصون للحراسة والمراقبة كذلك • ولكنهم مع الزمن امتلكوها وكانت لديهم ثرواتهم وممتلكاتهم • وكان الداوية يشكلون مصدر القوة لمملكة بيت المقدس ، ولكن كثيرا ما دب الخلاف بينهم وبين الاسبتارية ، وكان شعار الداوية الصليب الاحمر •

(راجع : Lamb, The Flame of Islam, P. 269.

فيليب حتي : تاريخ سورية وفلسطين ، جـ ٢ ، ص ٢٣٧ ــ عمر كمال : مملكة بيت المقدس ، ص ١٠٦) وانظر أيضا William of tyre , Vol 1 . P.P. 524 - 525.

King, The knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931, PP. 1 - 2.

الداوية ، وقد اشتهر هذا الحزب بالنزعة العدوانية والكره الشديد للمسلمين ، وغلبت عليه الروح القتالية والتطرف الشديد ، وقد تزعم هذا الحزب الامير المغامر ارناط صاحب الكرك ٠

ومن دمشق بدأ صلاح الدين يثبت أقدامه ويحكم قبضته ، وكان أول عمل حرص على القيام به توحيد بلاد الشام تحت سلطانه وتكوين جبهة اسلامية متحدة ولتحقيق ذلك كان عليه أن يقضي على سلطان الامراء المسيطرين في حمص وحماة وحلب وغيرها ٠ وبهذه النية الصادقة سار الى حمص ونزل عليها في جمادى الاولى من هذه السنة ٥٧٠ (كانون أول ١١٧٤م) فاستولى عليها ولكن القلعة استعصت عليه فتركها وسار الى حماة ، فملك المدينة وقلعتها ٠ ومن هناك زحف الى حلب وحاصرها وبها الملك الصالح اسماعيل ، واضطر أهل حلب الى محاربة صلاح الدين وبادر سعد الدين كمشتكين بالاستنجاد بالاسماعيلية(٤٨) وقدم لهم أموالا مقابل العمل على اغتيال صلاح الدين ، كذلك استنجد امراء حلب بريموند الثالث أمير طرابلس والوصي على عرش مملكة بيت المقدس وكاتبوه(٤٩) ٠ وظل صلاح الدين يحاصر حلب الى شهر رجب ثم رفع عنها الحصار وسار الى حمص عندما بلغه قيام الفرنج بمهاجمتها ، فما كاد يصل بقوته الى حمص حتى رحل الصليبيون عنها الى حصن الاكراد ، فملك صلاح الدين قلعتها في شعبان من هذه السنة ، ثم مضى من هناك الى بعلبك فملكها كذلك ٠ أما كمشتكين حاكم حلب فقد أفرج عن عدد من أسرى الفرنج تعبيرا عن امتنانه لمساعدتهم له ، وكان على رأس هؤلاء الاسرى الامير الفارس ارناط ٠

---

(٤٨) البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ١٨١ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٦١١ ـ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٩١ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٠ ـ رانسمان : ج ٢ ، ص ٦٥٧ ٠

(٤٩) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٦١١ ـ ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٩١ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٨ ـ رانسمان : ج ٢ ، ص ٦٥٧ ٠
Lane Poole, Saladin, P. 139.

استنجد الملك الصالح بعمه سيف الدين غازي صاحب الموصل ضد صلاح الدين ، فجهز جيشا كبيرا لقتاله وسارت الجيوش الى الشام لمنازلته وعندئذ عرض صلاح الدين عليهم حمص وحماه مقابل أن تبقى دمشق بيده على أن يكون نائبا للملك الصالح[٥٠] ولكنهم رفضوا هذا العرض فدارت المعركة عند قرون حماة[٥١] فانهزم عسكر الموصل وحلب[٥٢] وتبعهم صلاح الدين الى حلب وبدأ يحاصرها فأرسل الملك الصالح يطلب المصالحة على أن يكون لكل ما بيده ، فوافق صلاح الدين على ذلك ورحل عن حلب في شوال من هذه السنة ٥٧٠هـ (مايو (أيار) ١١٧٥م) بعد أن أمر بقطع الخطبة للصالح اسماعيل وازالة اسمه من السكة ، واستبد بالسلطنة[٥٣] • ثم زاد مركزه قوة ورهبة بسبب وصول رسول الخليفة العباسي الى حماه يحمل الخلع من بغداد بالتقليد والتمليك والتحكم والتفويض[٥٤] « وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام »[٥٥] وهكذا أصبح لصلاح الدين سلطة شرعية روحية ممنوحة له من الخليفة العباسي ، فدعم هذا من مكانته وقوى همته لتحقيق وحدة المسلمين ومواصلة الجهاد ضد الصليبيين •

---

(٥٠) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٠ •

(٥١) قرون حماه : قمتان تطلان على حماه تقع كل مقابل الاخرى • Le Strange P. 359

(٥٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٥٠ ـ ٦٥١ ـ ابن سعيد : المصدر السابق ، ص ١٤٦ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٨ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٠ ـ أبو الفلاح : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٣٦ • Lane Poole, Saladin, P. 141.

(٥٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٢١ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٠ •

(٥٤) البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ١٩١ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٣٩ •

(٥٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٣٩ •

(٢)

تولية ارناط لامارة الكرك وآثاره على الاحداث

في خضم هذا الصراع استطاع الامير أرناط أن يصل الى مكان الصدارة على مسرح الاحداث في بلاد الشام · وقد سبق لنا أن أشرنا الى أنه تولى أمارة انطاكية وأصبح أميرا عليها بسبب زواجه من أرملتها الحسنـــاء كونستانس أرملة ريموند الذي قتله نور الدين في احدى المعارك · الا أنه بما عرف عنه من حب للمغامرة ونقض للعهود أغار على بلاد نور الدين في شمال الشام ، ناقضا بذلك الهدنة القائمة بينه وبين المسلمين وغنم أسلابا كثيرة · عندئذ لحقت به قوات مجد الدين ابن الداية عامل نور الدين في حلب(٥٦) واشتبكت معه ، وعلى الرغم من المقاومة العنيفة التي أبداها هو وجنده الا أنه وقع في الاسر ، فقيدوه وحملوه على جمل الى حلب حيث سجن فيقلعتها في سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) · وظل مقيما في السجن حتى حدث الخلاف بين صلاح الدين والملك الصالح اسماعيل واعوانه من المتعطشين الى السلطة الذين لم يترددوا في الاستعانة بالفرنج على صلاح الدين · وتعبيرا منهم عن عرفانهم أطلقوا في سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) سراح عدد كبير من أسرى الفرنج من بينهم أرناط(٥٧) الذي قضى ما يقارب ستة عشر عاما في السجن ·

---

(٥٦) Guillaume De Tyr, Vol. 1. PP. 1022 - 1023.
Schlumberger, Renaud de Chatillon, PP. 119 - 120.
Stevenson. op. cit., P. 183.
رانسمان : جـ ٢ ، ص ٥٧٧ — عمر كمال : مملكة بيت المقدس ، ص ١٦٨ — عبد الرحمن زكي : الجيش المصري في العصر الاسلامي ، جـ ١ ، ص ١٢٤ ·

(٥٧) Guillaume De eTyr, Vol. 1, P. 1023.
سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢١٧ — أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ٦٥٠ — ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٨ — ابن آيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٦١ ·
Schlumberger : Renaud de Chatillon, P. 119.
Stevenson, op. cit. P. 214.
Conder, The Latin Kingdom, P. 136.
رانسمان : جـ ٢ ، ص ٦٥٧ ·

عاد أرناط الى انطاكية ولكنه وجد أن زوجته الشابة قد ماتت منذ مدة وأن ابنها أصبح أميرا فيها . ولم يجد أمامه الا السير الى القدس – وكانت الظروف في مملكة بيت المقدس آنذاك في غاية السوء بسبب انقسام باروناتها . فما أن وصل ارناط الى بيت المقدس حتى تلقفه البلاط واكرموا وفادته ولم يلبث أن أصبح رئيسا لحزب المتطرفين . وتدعيما لمركزه زوجه الملك من أتينيت دي ميلي[٥٨] Etiennett de Milly وريثة بارونية الكرك ، وتم ذلك الزواج في سنة ٥٧٢هـ (١١٧٧م) . ويشكل اسناد أمارة الكرك الى ارناط نقطة تحول خطيرة في دورها السياسي والاقتصادي .

وكانت بارونية الكرك تعد من أهم بارونيات مملكة بيت المقدس من الناحية العسكرية والاقتصادية ، فهي خط الدفاع الاول عنها والحارس القوي المنيع الذي يحميها من المسلمين من ناحية جناحها الشرقي والجنوبي ثم انها تتمتع بالاضافة الى ذلك بمركز استراتيجي هام بين مصر والشام تراقب تحركات المسلمين بين جناحي دولتهم القاهرة ودمشق ، ومن الناحية الاقتصادية تعد أكبر بارونية يرد منها عائد اقتصادي لمملكة بيت المقدس بما تتحصل عليه من رسوم على القوافل التجارية المارة عبر اراضيها وبما تفرضه من الضرائب على محاصيلها الوافرة بالغلات الكثيرة ، انها القلب النابض لمملكة بيت المقدس اللاتينية ، وهي بحق مفتاح الطرق العسكرية والاقتصادية للمسلمين .

ورأى صلاح الدين أنه لا يمكن أن يتم مشروع لتوحيد الجبهة الاسلامية الا اذا قدر له أن يزيل هذا العائق وأعني به أمارة الكرك الصليبية ، ولذلك

---

(٥٨) Guillaume De Tyr, Vol. 1, P. 1069.
Schlumberger, Renaud de Chatillon, P. 149.
Conder, The Latin Kingdom, P. 117.
Belloc, The Crusade, P. 281.
Stevenson, op. cit. P. 216.
Setton, A History of the crusader, Vol. 1, P. 803.
Prawer, (J.) The Latin Kingdom of Jerusalem. London, 1972, P. 71.
عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٧٦٨ .

ساءه أن يتولى السلطة في هذه الامارة الهامة شخص مغامر متعصب ملأ الحقد قلبه ولم تستطع تلك السنون التي قضاها في سجون حلب المظلمة الا أن تزيده حقدا وكرها للمسلمين(٥٩) ٠

عاد صلاح الدين الى القاهرة بعد أن رتب أمور دمشق وعقد صلحا مع حلب وأصبح بحق سيد الموقف في الشرق الاسلامي ٠ ففي خلال سنتين قضاهما في بلاد الشام استطاع توحيد الصف وازالة أسباب الفرقة وتوسيع منطقة نفوذه بضم القسم الاعظم من بلاد الشام باستثناء حلب والموصل ٠ وكان قد جدد الهدنة مع مملكة بيت المقدس(٦٠) في سنة ٥٧١ (آب ١١٧٥م) بعد أن اشترط عليهم فيها أمورا يلتزمون بها ، وأولها ضمان حرية التنقل والتجارة بين مصر والشام ٠ وأثناء عودته الى مصر سلك طريقه عبر الاردن فمر على الزرقاء(٦١) ثم اتخذ الطريق الشرقي عبر الشوبك ثم أيلة فصدر(٦٢) بسيناء فالقاهرة التي وصلها في ربيع الثاني ٥٧٢هـ (تشرين أول ١١٧٦م)

---

(٥٩) Conder, The Latin Kingdom, P. 136.
Belloc, The Crusade, P. 281.
Stevenson, op. cit., P. 214.
فيليب حتي : العرب ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٣٨ ـ عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٦٨ ٠

(٦٠) البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ١٩٥ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٤٣ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٥ ـ ابن آيبك : درر التيجان وغرر تواريخ الازمان ، مخطوطة بمكتبة بلدية الاسكندرية ، تحت رقم ٨٣٢٨ ج ، لوحة ٥٧١ ـ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٦٠ ـ ابن كثير : البداية والنهاية : ج ١٢ ، ص ٢٩٣ ٠

(٦١) وكان بصحبته العماد الكاتب الذي نظم شعرا في كل موضع مروا به ، فهو يقول بالزرقاء :

ولم أنس بالزرقاء يوم وداعنا أنامـل تدمـي حـيرة للتنـدم
أعدتـك يـا زرقاء حمـراء انني بكيتك حتى شيب ماؤك بالـدم

وعند مروره بجانب الشوبك قال :

طريـق مصر ضيـق المسلك سالكـه لا شك في مهلك
وحب مصر صار جبـا لمـن أوقعه في شبك «الشوبك»

انظر : البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ٢٣٢ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٧٩ ـ ٦٨٠ ٠

(٦٢) صدر : قلعة خراب بين القاهرة وأيلة (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٧٥) ٠

وفي هذه السنة بدأ صلاح الدين ينظم أمور مصر الداخلية ، ويمكن وسائل الدفاع فيها ، اذ كان يتوقع خطرا خارجيا يتهدد مصر من جانب الفرنج على وجه الخصوص(٦٣) ، ففي القاهرة أمر ببناء السور والقلعة(٦٤) ثم زار دمياط والاسكندرية وتفقد تحصيناتهما واستعرض قطع الاسطول فيهما ٠

بعد أن اطمأن صلاح الدين الى سلامة الجبهة الداخلية آثر أن ينقل نشاطه ضد الصليبيين الى الشام فاستغل فرصة غياب معظم جيش مملكة بيت المقدس في شمال الشام لمساعدة فيليب الالزاسي في هجومه على حماه وحارم ٠ وأراد ضرب الصليبيين في عقر دارهم ، وبهذا العزم خرج بجيوشه من القاهرة في جمادى الاولى سنة ٥٧٣هـ (نوفمبر (تشرين ثاني) ١١٧٧م) متجها الى فلسطين وحاصر بلدوين الرابع في عسقلان ٠ ثم أغارت قواته على المدن والمعاقل فأحرقت الرملة(٦٥) ثم اقتربت من بيت المقدس ، ووصلت الانباء الى المدينة المقدسة فشاع الذعر في نفوس أهلها وأخذت حاميتها تتأهب للانسحاب منها او التحصن بقلعتها ٠ ولكن جيش صلاح الدين شغلوا بالغنائم وبلغت بهم الثقة في قدراتهم الى حد الغرور فلم يهتموا بالتجمع وأخذ يتوزعون في النواحي ، واستغل ملك بيت المقدس فرصة تفرقهم وأسرع بالخروج من عسقلان وباغت قوات صلاح الدين

---

(٦٣) والواقع أن صلاح الدين لم يكن مسرفا في مخاوفة من جانب الصليبيين فقد بلغه اثناء مقامه في مصر نبأ وصول حملة صليبية صغيرة الى الشام يقودها فيليب الالزاسي كونت فلاندرز ، واشتراك الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين مع مملكة بيت المقدس في وضع خطة لغزو مصر ، وعلى الرغم من فشل هذه الحملة الفلمنكية واخفاق البيزنطيين والصليبيين في خطتهم لغزو مصر ، فان صلاح الدين احس بخطورة الموقف ورأى وجوب التحرز من جانب الصليبيين بتحصين القاهرة وسواحل مصر ضد الخطر المرتقب (سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، سلسلة اعلام العرب ، عدد ٤١ ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٢٣) ٠

(٦٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٢٢ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٥٢ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٣ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٨٦ ـ عاشور : الايوبيون والمماليك في مصر والشام ، القاهرة ١٩٧٠م ، ص ٥٦ ٠

(٦٥) Lane Poole, Saladin, P. 154.
Stevenson, op. cit. P. 217.

عند تل الصافية الواقعة الىالجنوب الشرقي من الرملة ، فتزاحمت على العبور أثقال العسكر[٦٦] ، فما شعر المسلمون الا وقد داهمتهم قوات الفرنج وفتكت بهم وشردت جموعهم ، وكان من بين الاسرى القاضي الفقيه عيسى الهكاري • وهكذا انهزمت قوات صلاح الدين[٦٧] ، فعاد عبر الصحراء ، وقد لاقى من الشدة والمتاعب في طريق عودته الكثير ، ووصل الى القاهرة سالما • ومن المعروف أن ارناط صاحب الكرك اشترك في هذه الحملة[٦٨] ، وكان هذا أول نشاط عسكري له ضد المسلمين بعد توليه أمارة الكرك وزواجه من وريثتها ، وبانتصار الصليبيين في تل الصافية « الرملة » ارتفعت معنويات الفرنج ، فاتجه ارناط بقوات مملكة بيت المقدس الى الشمال وحاصر حماه[٦٩] ولكنه رحل عندما علم بمقدم صلاح الدين لنجدتها •

وكانت هزيمة تل الصافية شديدة الاثر على صلاح الدين فهي من أعظم الوقائع في الاسلام « ولم ينكسر المسلمون قط كسرة أنحس من هذه الكسرة » • وفي الحقيقة ان معركة تل الصافية كانت نقطة تحول في سياسة

---

(٦٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٥٨ ــ ٥٩ •

(٦٧) عن كسرة الرملة « تل الصافية » راجع :

Guillaume de Tyr, Vol. 1, PP. 1037 - 1047.

ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٤٢ ــ ٤٤٣ ــ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣ ــ البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ٢٥٢ ــ ٢٦٠ ــ ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢٠٨ « مخطوطة » ــ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢١٧ ــ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٩٩ ــ ٧٠٢ ــ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٩٢ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٥٨ ــ ٥٩ ــ رانسمان : ج ٢ ، ص ٦٧٢ ــ ٦٧٤ •

Lane Poole, Saladin, PP. 153 - 155.

Stevenson, op. cit. P. 217.

(٦٨) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣٥ ــ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢١٧ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٥٨ ــ ٥٩ ــ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٦١ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٦٤ •

(٦٩) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢١٧ ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٣ •

صلاح الدين الاستراتيجية ضد مملكة بيت المقدس ، فقد وضح له صعوبة اتخاذ مصر نقطة انطلاق لهجماته ضد القدس ، لبعد المسافة وصعوبة تأمين خط الامداد لقواته ، ولذلك قرر الانتقال الى دمشق واتخاذها قاعدة لنضاله المقدس ضد الصليبيين ، فهو يشرح ذلك في رسالة فاضلية للخليفة في بغداد فيقول : « وعرفنا أن البيت المقدس ان لم تتيسر الاسباب لفتحه ، وامر الكفر ان لم يجرد العزم في قلعة ، والا ثبتت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خروقه ، وكانت الحجة لله قائمة ، وهمم القادرين بالقعود آثمة ، وانا لم نتمكن بمصر منه مع المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب واذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة والخيل مستريحة والعساكر كثيرة ، والجموع متيسرة ، والاوقات مساعدة »(٧٠) ٠

ويعبر صاحب الروضتين عن انتقاله الى دمشق بعبارة نقلها على لسان صلاح الدين فيقول : « وأما مجيئه فيجيء الى الشام فأنا ما بقي لي دار الا هي حتى يقضي الله بيننا وبين الفرنج وهو خير الحاكمين »(٧١) ٠ ومن دمشق بدأ يوجه نشاطا مكثفا ضد امارة الكرك خصوصا وانه كان على رأسها المغامر الصليبي ارناط ٠ والحق أن هذا الامير المغامر قد جر بسلوكه النزق الويل والدمار على امارته وعلى مملكة بيت المقدس اللاتينية وعلى الوجود الصليبي في الشرق الاسلامي عامة ٠

قامت امارة الكرك الصليبية تحت قيادة ارناط بنشاط حربي مكثف ضد المسلمين ، وقد أضر هذا النشاط بها ضررا بالغا وانتهى بتدميرها واستسلامها ٠فقد كان من طباع ارناط الا يتقيد بالمعاهدات ولا بالكلمة الشريفة ، فكان يتصدى للقوافل التجارية أو قوافل الحجاج الآمنة الرائحة والغادية عبر اقطاعه وينهب ما شاء نهبه منها(٧٢) ، على الرغم من

---

(٧٠) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٨٩ ٠

(٧١) أبو شامة : الروضتين : ج ٢ ، ص ٧ ٠

(٧٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨ ٠

Setton. A History of the Crusades, Vol. 1, P. 603.

الأموال التي كان يحصل عليها من الرسوم المفروضة على القوافل التجارية القادمة من مصر الى الشام والعراق وبالعكس ، ومن اليمن والحجاز الى سواحل الشام[٧٣] ، ولذلك لم يعد أحد من التجار أو الحجاج يشعر بأمن في تلك الناحية وشبهت الكرك والشوبك بالاسدين المفترسين :

ما مـر يوم الا وعندهما   لحم رجال أو يولغان دما

قلما طلب بلدوين الرابع ملك بيت المقدس عقد الهدنة[٧٤] مع صلاح الدين لم يتردد في القبول لوضع حد لاعمال أرناط ، وتم عقدها في سنة ٥٧٦هـ (مايو (أيار) ١١٨٠م) ولمدة سنتين ، وكان أهم شروطها ضمان حرية التجارة والتنقل في هذه المنطقة بالذات ٠

---

(٧٣) Stevenson, op. cit., P. 100.

(٧٤) Guillaume De Tyr, Vol., 1, P. 1064.

البنداري : سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ٣٤٥ – رانسمان : ج ٢ ، ص ٦٩٦ ٠

Stevenson, op. cit., P. 222.

هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ١٤١ ٠

(٣)

حملات ارناط الصليبية ضد الاراضي المقدسة واليمن

أ ـ الحملة الاولى في سنة ٥٧٧هـ (١١٨١م) :

كان ارناط بحق من شياطين الفرنج ومردتهم وأشـــدهم عداوة للمسلمين[٧٥] ، قد تمكن منه الحقد وتأصلت في نفسه الكراهية ضد المسلمين ، وراعه أن يرى القوافل التجارية الغنية تسير بجانب اقطاعه محملة بأنواع البضائع تجوب بلاد العرب من أقصى الجنوب الى الشمال ومن مصر الى بلاد الرافدين تمر بسلام ، فدفعه حقده الى نقض هذه المعاهدة مستغلا في ذلك عودة صلاح الدين الى القاهرة • فجمع حموعه ، ولم يكلف نفسه حمل العلف لخيوله معتمدا على البرية الخضراء المعشوشبة ، كما استغل رطوبة الجو واعتداله وكثرة مياه الامطار التي تغنيه عن حمل المياه وبدأ عدوانه • ففي رجب ٥٧٧هـ (ديسمبر (كانون أول) ١١٨١م) اندفع وراء قافلة تجارية كانت تسير من دمشق الى مكة وتمكن من الظفر بها عند تيماء[٧٦] « دهليز المدينة »[٧٧] ونهبها وأسر من تمكن من أسره ولم يكتف بذلك بل سار الى المدينة المنورة ، وكان يقصد بذلـــك الاستيلاء على تلك النواحي ونهب المسجد النبوي والاستيلاء على ما فيه من كنوز وذخائر • الا أن نائب صلاح الدين بدمشق ابن اخيه عز الدين فرخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب جمع الجند وسار بهم مسرعا الى أمارة

---

(٧٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٧٠ •

(٧٦) أبو شامة : لروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣ ـ ابن الوردي . تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٩٠ ـ رانسمان : ج ٢ ، ص ٦٩٧ •

Rosebault, Saladin Prince of Chivalry, London, 1930, P. 103.
Setton, A History of the Crusades, vol. 1, P. 581.
Morrisson, Les Croisades, P. 45.

هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ١٤٢ •

تيماء : بليدة في اطراف الشام ، بين ووادي القرى على طريق حاج الشام ودمشق ، (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٩٠٧) •

(٧٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١١٠ •

الكرك ، وأخذ ينهب ويدمر كل ما في طريقه . علم أرناط بما قام به عز الدين فرخشاه ، فأسرع بالعودة الى الكرك يحمل معه الغنائم والاسرى والاسلاب ، وأسفرت حملته عن فشل ذريع في بلوغ هدفه والسيطرة على الأراضي المقدسة وفي ذلك يقول ابن الوردي :

قصد البرنس مكيدة عظمت   فانحاز عنها خاسرا خاسي

أيخاف خير الخلق من أحـد   والله يعصمه من الناس(٧٨)

ولما تأكد عز الدين من عودته وابتعاد خطره عن أرض الحجاز عاد الى دمشق .

وأثناء ذلك توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين زنكي في حلب ، وذلك في رجب ٥٧٧هـ (ديسمبر (كانون أول) ١١٨١م) ، بعد أن أوصى بملك حلب الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل ، وهذا بدوره ملكها لأخيه عماد الدين زنكي بن مودود مقابل تخليه عن سنجار(٧٩) ، وخشي صلاح الدين من اتحاد حلب مع الموصل من جديد(٨٠) ، اذ أن ذلك من شأنه أن يصدع الجبهة الاسلامية التي جهد في توحيدها ، لذا أسرع بالسير الى دمشق في مستهل عام ٥٧٨هـ (مايو (أيار) ١١٨٢م) مودعا مصر للمرة الاخيرة ، اذ قدر له أن يقضي بقية سني حياته بعيدا مجاهدا في أرض الشام .

---

(٧٨) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

(٧٩) سنجار : مدينة من ديار ربيعة بالجزيرة الفراتية ، تقع جنوبي نصيبين ، وكانت من احسن المدن وجبلها من اخصب الجبال ، وهي في جهة الغرب من الموصل على ثلاث مراحل عنها ، لها قلعة وبساتين كثيرة (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٢٢) .

(٨٠) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٧٠ ـ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٢٦ ـ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧١ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٦ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٩٠ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٩٥ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٢ .

ولما علم أرناط بسير السلطان صلاح الدين حشد جموعه وكمن له في الطريق لينقض عليه بقواته ، وكان قد نمى اليه أن برفقة صلاح الدين خلق كثير من التجار . وقد حاول أرناط وقواته انتهاز الفرصة « فيقتطفون من القافلة قطفة »(٨١) . الا أن صلاح الدين أحس بما دبره له أرناط فقسم قواته الى قسمين ، الأول جعله تحت قيادة أخيه تاج الملوك بوري وأمره أن يسير في الطريق المار على حافة الصحراء الى يمين الكرك فمعان فالجفر فباير على أن يصحب معه التجار ليكونوا في حمايته ، وتواعد معه على اللقاء بالازرق . أما صلاح الدين فسار بقواتـــه الى وادي موســـى فالقريتين(٨٢) « القرين الحالية » والحسا شرقي قوات أرناط(٨٣) ولم يلاق أية مشقة ، فأخذ يتلف ما في طريقه من محصولات العدو(٨٤) والتقى بأخيه بعد أسبوع في الازرق ، ومن هناك واصلا السير الى دمشق فوصلاها بأمان في صفر ٥٧٨هـ (يونيو (حزيران) ١١٨٢م)(٨٥) .

---

(٨١) أبو شامه : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

(٨٢) القريتين : قرية كبيرة مشهورة من قرى حمص من جهة البرية ، يذكر ياقوت أن أهلها نصارى ذات اشجار وأنهار (ياقوت : المشترك وصفا ، ص ٣٤٤) . ونستدل من ورود اسم القريتين قريبا من الكرك بمناسبة قيام صلاح الدين بمحاصرة حصني الكرك والشوبك في سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) « ويقول العماد الكاتب في الفتح القسي ، ص ٥٨ ــ ٥٩ ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين وفرقة على اعمال القلعتين » . على أن القريتين المذكورة والتي ورد ذكرها في الفتح القسي غير القريتين التي ذكرها ياقوت . ولكني بالبحث في معجم ياقوت الفيت موضعا يعرف « بالقريتين » ذكر فيه أنها « ثنية قرين » في بادية الشام (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٨٠) . ونستنتج من ذلك أن الاسم الصحيح الذي ورد خطأ في الفتح القسي هو « القرينين » وليس « القريتين » ، أي أن الخطأ في التنقيط فقط . وما زال هذا الموضع يعرف حتى اليوم باسم «القرين» ، وهي احدى قرى معان الى الشمال الغربي منها جنوبي البتراء (انظر الخريطة) .

(٨٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٣٥ ــ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

Schlumberger, Renaud de Chatillon, P. 196. - King : The Kinghts Hospitallers, P. 111.

(٨٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٧٨ ــ رانسمان :ج ٢ ، ص ٦٩٨ .

(٨٥) Stevenson, op. cit. P. 225.

وكانت مملكة بيت المقدس ــ أثناء ترصد قوات الفرنج بقيادة أرناط في الكرك لصلاح الدين ــ قد أصبحت بدون حماية ، فاستغل فرخشاه الفرصة وأغار على بلاد طبرية وعكا وفتح قلعة حابس جلدك[٨٦] الاستراتيجية المتحكمة بوادي اليرموك ، وقفل عائدا يجر وراءه الف أسير وعشرين ألف رأس من الانعام[٨٧] ٠

ثم أرسل صلاح الدين الى بلدوين الرابع ملك بيت المقدس يطلب منه أسرى المسلمين والتعويض عما سلبه أرناط من قافلة تيماء ، لكن الملك لم يكن ليستطيع شيئا لضعف مركزه أمام أرناط[٨٨] مع علمه بعدالة مطالب صلاح الدين ٠ وهكذا اعتبر صلاح الدين الهدنة لاغية[٨٩] ، وأصبحت الحرب أمرا لا مفر منه ، ومع ذلك لم يبادر صلاح الدين بتوجيه ضربة شديدة لأرناط وتأديبه ، فأحوال الشام لم تكن لتساعده على ذلك ، طالما أن الامور ما تزال مضطربة في حلب والموصل ٠ ثم انه كان يتحتم عليه قبل المضي في الجهاد الاعظم أن يزيل عوامل الانقسام ويعمل على تدعيم الجبهة الاسلامية ليتمكن من مواصلة جهاده في أمن واطمئنان ، لذلك فقد لجأ الى أسلوب المهادنة مع أرناط بانتظار اللحظة المواتية للانقضاض عليه فنراه يبذل له الأموال حتى يجعل طريق الاتصال عبر الاردن متصلا بين شقي دولته مصر والشام وفي ذلك يقول ابن ايبك : « كان السلطان صلاح الدين رحمه الله قد اصطلح مع الابريز[٩٠] صاحب الكرك ، وكان يعطي

---

(٨٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٧٩ ــ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٢٧ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ، قسم ٢ : لوحة ٣٦٧ « مخطوطة » ٠
Stevenson, op. cit. P. 226.

(٨٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٣٥ ــ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٨ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١١٣ ــ ١١٥ ــ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣١٠ ــ ٣١١ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٧ ــ رانسمان : ج ٢ ، ص ٦٩٨ ٠

(٨٨) Guillaume De Tyr, Vol. 1. P. 1088.
رانسمان : ج ٢ ، ص ٦٩٧ ٠

(٨٩) Schlumberger, Renaud de Chatillon P. 190.

(٩٠) الابريز : لعلها الابرنز « أي البرنس » ٠

الافرنج شيئا كثيرا لا يعلم له قيمة ، ويصانعهم فيما بينه وبينهم ، ويجتهد بكتمان ذلك ، لا يسمع عنه أنه يصانع عن نفسه وعن بلاده · ووقع الصلح بينهم الى وقت معين ، بشرط أن المسافرين يسافروا والقفول لا تنقطع والتجار لا تتعوق من الشام الى مصر »(٩١) ، ثم سار صلاح الدين بقواته الى حلب والموصل ليقر أمورها ·

ب ـ الحملة الثانية في ٥٧٨هـ (١١٨٢م) :

استغل أرناط الظروف غير العادية التي انتهت اليها دولة صلاح الدين في أعقاب وفاة الملك الصالح واشتغاله بتوحيد الجبهة الاسلامية وقام بأجرأ حملة صليبية وأخطرها منذ بداية الحركة الصليبية · وذلك بغزو الاراضي المقدسة مكة والمدينة ، ومحاولة الوصول الى عدن للسيطرة على تجارة البحر الاحمر · لا شك أن عمل أرناط هذا كان حلما قديما طالما راود الغزاة منذ قرون عديدة أو أنه حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، فقد سبق أن تعرضت منطقة الحجاز واليمن لهجمتين استعماريتين في العصر الروماني ، كانت اولاهما تلك الحملة الرومانية البرية التي قادها اليوس جاليوس سنة ٢٤ ق·م· مستهدفة اليمن ، ولكنها تعرضت للفشل ، وتبددت آمال الرومان في السيطرة على اليمن والحجاز(٩٣) وقصروا همهم للسيطرة على تجارة البحر الاحمر من خلال معاهدات عقدوها مع الحميريين(٩٤) · ثم كانت الحملة الثانية في العهد البيزنطي عندما حاول البيزنطيون السيطرة على التجارة الموصلة الى المحيط الهندي وبسط(٩٥) نفوذهم السياسي على بلاد العرب واليمن والحجاز عن طريق حلفائهم الاحباش ، فاحتلت الحبشة اليمن سنة ٥٢٥م ، واكتمل الصراع

---

(٩١) ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٥٠ ـ ٥١ ·

(٩٢) نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٢١٧

(٩٣) السيد عبد العزيز سالم : الدولة العربية ، ص ١١٠ ·

(٩٤) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٦٠ ·

(٩٥) السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع ، ص ٧٥ ·

عندما قام أبرهة الحبشي بغزو مكة في عام الفيل ، ولكن جيشه أصيب بكارثة(٩٦) .

ومن المعروف أن الصليبيين فطنوا الى أهمية البحر الاحمر كشريان رئيسي للتجارة العالمية ، وكانوا يتحكمون في مدخله الشمالي باحتلالهم أيلة « العقبة » سنة ٥١٠هـ (١١١٦م) . فاهتموا بانشاء أسطول يهاجمون به سواحل الحجاز والاراضي المقدسة ويضايقون تجارة البحر الاحمر ، وقد أشرنا من قبل الى رد الفعل الاسلامي عندما وجه صلاح الدين ضربته الاولى اليهم باحتلاله أيلة سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م) ثم باحتلاله اليمن سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) . الا أن أرناط أخذ يعمل على اعادة الوجود الصليبي في البحر الاحمر لعلمه مدى الفائدة التي ستعود على الصليبيين اذا سيطروا عليه . ولهذا أعد حملة في شتاء سنة٥٧٧هـ (١١٨١م) ، وآثر أن يكون ذلك في فصل الشتاء حتى لا تتعرض قواته الى قسوة الصحراء . ومع ذلك فقد اخفقت حملته لطول الطريق وبعد خطوط امداداته وقسوة الطبيعة من حوله ولمضايقة المسلمين لامارته وتعقبهم لقواته ، فوصل تيماء ونهب قافلة تجارية وعاد ولم يحقق هدفه . ولكنه استفاد من تلك الحملة ، فقد ألم بطبيعة بلاد العرب وأدرك أن الامر جدير بمعاودة الكرة مرة اخرى .

ومهد أرناط لحملته المقبلة بمناوشات حاول خلالها اعتراض ايلة ، ولكن حامية أيلة فوتت عليه الغرض ، واستعصى عليه السيطرة عليها(٩٧) عندئذ أعد أرناط مراكب مفصلة من أخشاب غابات الكرك وعهد بها الى الصناع في الكرك وعسقلان(٩٨) وجرب قسما منها في البحر الميت ثم نقلها على

---

(٩٦) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٤٩ ــ ٥٧ ــ وعن حملة أبرهة لمكة وأبعادها راجع : السيد عبد العزيز سالم : الدولة العربية ، ص ٨٣ ــ ٨٨ .

(٩٧) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٥ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

(٩٨) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٥٥ .

Conder, The Latin Kingdom, P. 140.

Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1972, P. 71.

رانسمان : ج ٢ ، ص ٧٠٦ ــ عبد الرحمن زكي : الجيش المصري في العصر الاسلامي ، ج ١ ، ص ١٢٠ .

ظهور الجمال الى خليج العقبة ، فقام الصناع بتركيبها واعدادها ، وتمكن من اعداد وحدة من السفن تتألف من خمسة غربان وعدد كبير من المراكب الصغيرة(٩٩) ، وشحنها بعدد من الرجال والمقاتلة يبلغ ألفا وخمسمائة مقاتل(١٠٠) ، وأبحر بها في عام ٥٧٨هـ نهاية عام (١١٨٢م) ٠ فهاجم مدينة أيلة ففتحها(١٠١) ثم حاول اقتحام جزيرة فرعون مفتاح خليج العقبة ولكنه فشل في بلوغ هدفه ، فترك سفينتين تحاصرانها وتمنع عنهاالميـــاه والمؤن(١٠٢) ، وسار ببقية قواته نحو الجنوب ، ومنعا لاي تدخل من جانب القوات البرية القادمة من مصر والشام سير قوة تسير برا بحذاء الساحل

---

(٩٩) Conder, The Latin Kingdom, P. 141.

غربان : أو اغربة ومفردها غراب ٠ من المراكب الحربية الشديدة البأس التي استعملها المسلمون والفرنج في العصور الوسطى في الغارة والغزو عن طريق البحر ٠ وهي معروفة منذ القدم ، اذ عرفها القرطاجيون والرومانيون وغيرهم من أمم تلك العصور ٠ والغراب كان يعرف أيضا بالشيني وجمعها شواني - وسميت بالغراب لانها كانت تطلى بالقار ، وكانت لها قلوع بيضاء فهي في ذلك تشبه الغربان أو لعلها سميت كذلك بسبب شكل مقدمة هيكلها التي على شكل غراب ٠

وتسير الغربان بالقلوع والمجاديف التي تبلغ بين مائة وثمانين ومائة واربعين مجدافا ، ويحمل الغراب نحو مائتي مقاتل (درويش النخيلي : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، اسكندرية ١٩٧٤م ، ص ١٠٤) ٠

(١٠٠) ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢١١ « مخطوطة » ٠

(١٠١) رانسمان : ج ٢ ، ص ٧٠٦ ٠

Lammens, LA Syrie Precis Historique, Beyrouth, 1921, Vol. 1, PP. 225 - 226.
Setton, A History of the Crusades, vol. 1, P. 582.

(١٠٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٩٠ - ٤٩١ - ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٢٩ - أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٥ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٣١٧ - ٣١٨ - العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ، قسم ٢ ، لوحة ٣٦٩ « مخطوطة » - ابن منكلي : الاحكام المملوكية والضوابط الفارسية في فن القتال في البحر ، مخطوطة بمكتبة كلية الآداب : جامعة الاسكندرية تحت رقم ٩ م ، لوحة ٤٨ - ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٨ - ٧٩ - رانسمان : ج ٢ ، ص ٧٠٦ ٠

Conder, The Latin Kingdom, P. 140.
Stevenson, op. cit. P. 229.

الى تبوك(١٠٣) • وهكذا كانت الحملة التي أعدها تجمع بين الصفتين البرية والبحرية ، ويؤكد ذلك ما قاله الذهبي « وفيها سار الفرنج بحرا وبرا لتملك الحجاز »(١٠٤) •

ومما لا شك فيه أن أرناط كان يهدف من وراء هذه الحملة الى أهداف اقتصادية عسكرية ، وأخرى روحية دينية • أما هدفه الاقتصادي والعسكري فهو السيطرة على تجارة البحر الاحمر باحتلال اليمن ووضع البحر الاحمر تحت النفوذ الصليبي ، وتحويل تجارته الى خليج العقبة والمملكة اللاتينية(١٠٥) وفي هذا دعم كبير للحركة الصليبية ، بالاضافة الى أنه يضعف من قوة خصمه صلاح الدين الذي جعل من السيطرة على البحر الاحمر هدفا أساسيا في استراتيجيته ضد الصليبيين ، فالتجارة التي حولت الى مصر ثم أوروبا كانت تدر عليه المبالغ الطائلة التي تمكنه من الاستمرار في نضاله ضد الفرنج وتوحيد الجبهة الاسلامية ، وقد عمل على اجتذاب المدن الايطالية للتجارة مع مصر ومنحها امتيازات خاصة ، فانهاك صلاح الدين اقتصاديا يعني بالتالي انهاكه عسكريا ، وهي استراتيجية وعاها أرناط وسعى الى تطبيقها • أما أهدافها الروحية والدينية ، فهو ضرب المسلمين في أقدس مقدساتهم ، اذ كان ينوي هدم الكعبة المشرفة(١٠٦) وهدم مسجد الرسول في المدينة المنورة والاستيلاء على جثمان الرسول صلى الله عليه وسلم(١٠٧) ونقله الى الكرك ، وعدم السماح للمسلمين

---

(١٠٣) المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٩٩ ــ ٣٠٠ •

تبوك : واحة تقع بين الحجر (ديار ثمود) وأول الشام • وهو حصن به عين ونخيل ــ (الاصطخري : مسالك الممالك ، ص ٢٠) •

(١٠٤) الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٩٠ •

(١٠٥) Prawer, (J.) The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1972, P. 71.

(١٠٦) King, Kinghts Hospitallers, P. 115.

Lane Poole, Saladin, P. 175.

(١٠٧) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٩ ــ ٣٠ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٣١٧ ــ الحنبلي : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، القاهرة ١٢٨٣هـ ، ج ١ ، ص ٢٨٠ ــ فيليب حتى : تاريخ سورية وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ •

بزيارته الا بجعل كبير يفرضه عليهم ، وكان الدافع الى ذلك روح التعصب البغيض والكراهية التي تعتمل في قلبه ، بالاضافة الى تشجيع فرسان الداوية[١٠٨] الملح له لتحقيق هذا المطمع والاستيلاء على مكة والمدينة أقدس مقدسات المسلمين .

سار الاسطول الصليبي بحذاء الساحل المصري الى عيذاب أهم موانيء مصر على البحر الاحمر وعن طريقها تصل تجارة الهند والشرق الاقصى ومنها يجوز الحجاج الى مكة ، فاستولوا على ستة عشر مركبا هنـــاك وأحرقوها[١٠٩] كما استولى على مركب اخر للحجاج كان قادما من مدينة جدة ، ثم نزلوا على بر عيذاب وتوغلوا في البلاد واستطاعوا أن يأسروا قافلة كبيرة من الحجاج ما بين عيذاب وقوص كانت في طريقها الى الديار الحجازية كما استولوا على مؤن كثيرة في عيذاب كانت معدة لارسالها الى مكة والمدينة ثم واصلت السفن الصليبية سيرها في البحر الاحمر وهاجموا سواحل تهامة واليمن[١١٠] وأحرقوا كل السفن الاسلامية التي قابلوها في طريقهم وأشاعوا الذعر والخوف في سواحل البحر الاحمر ، ولكنهم آثروا العودة الى الشواطيء الحجازية قاصدين مكة والمدينة ، بعدما ثقلت سفنهم بما غنموه من غنائم وأموال .

أثارت هذه الاعتداءات مشاعر الغضب في نفوس المسلمين ، فدعوا الى الجهاد ولتخليص الديار المقدسة من هذا الخطر الصليبي الداهم ، وتتجلى هذه المشاعر في المراسلات العديدة التي كتبها القاضي الفاضل[١١١] حول هذا الموضوع ، فما هو رد الفعل الاسلامي ؟

---

(١٠٨) Conder, The Latin Kingdom, P. 381.

(١٠٩) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٩ – ٣٠ – المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٨ – ٧٩ .
Lane Poole, Saladin, P. 176.

(١١٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٢٧ – ١٣١ – سبط بن الجوزي : مرآة الزمان : ج ٨ ، ص ٢٣٦ .

(١١١) رسائل القاضي الفاضل المتعلقة بهذه الحملة جمعها الدكتور الشيال في آخر كتاب مفرج الكروب لابن واصل الجزء الثالث من رقم ٧ الى ١١ صفحة ٣١٢ الى ٣١٨ .

كان صلاح الدين بعيدا في الشمال ولم يكن لديه أسطول في العقبة يتعقب سفن أرناط ، فأرسل لاخيه الملك العادل أبي بكر بن أيوب بمصر فعهد هذا بدوره الى قائده حسام الدين لؤلؤ(١١٢) ، فأعد اسطولا في الاسكندرية ومصر(١١٣) نقله الى أيلة (العقبة) برا(١١٤) فأعاد تركيبه هناك وشحنه بالمقاتلة من المغاربة البحريين • وكان الحصار الصليبي قد اشتد على قلعة فرعون في خليج العقبة وانقطع الماء عنهم ، ولكن الله أرسل عليهم امطارا غزيرة في شعبان وأصبح لديهم من المياه ما يكفيهم لمدة شهرين(١١٥) ، فقويت معنوياتهم واستعدوا للحصار ، ثم وجه لؤلؤ ضربته الاولى الى الصليبيين المحاصرين وذلك في شعبان ٥٧٨ (ديسمبر (كانون أول) ١١٨٢م) ، واستعمل النار الاغريقية فأحرق السفن المحاصرة(١١٦) وأسر وقتل عددا كبيرا منهم ، أما من هرب منهم الى البر فقد أدركهم العربان في تلك الشعاب وقبضوا عليهم فلم ينج منهم أحد(١١٧) • ثم اتجه الى الجنوب فوصل الى عيذاب ولكنه لم يجد أثرا للاسطول الصليبي(١١٨) وشاهد آثار الدمار التي أحدثها الصليبيون في الميناء ، فتعقبهم في البحر وكانوا قد بلغوا رابغ الميناء الحجازي القريب من

---

(١١٢) حسام الدين لؤلؤ : كان من كبار قواد صلاح الدين الايوبي ، وعرف بأنه اشجع الشجعان وافرس الفرسان ، فهو الذي حطم الفرنج في بحر آيلة وبر الحجاز ، كان كثير المبرات واسع الخيرات ، اشترك في العديد من المعارك ضد الصليبيين ، فيه يقول الرضى بن أبي حصينة المصري مخاطبا الفرنج :

عدو لكم لؤلؤ والبحر مسكنه ... والدر في البحر لا يخشى من الغير
فامر حسامك أن يحظى بنحرهم ... فالدر من كان منسوب الى البحر

توفى في القاهرة سنة ٥٩٦هـ (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٤٠) •

(١١٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٩ ــ ٣٠ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٨ ــ ٧٩ •

(١١٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٩ •

(١١٥) المقريزي : الخطط ، ص ٣٠٠ •

(١١٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٣٠ ، ج ٣ ، ص ٣١٧ ــ ٣١٨ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٨ ــ ٧٩ •

(١١٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٢٠ •
Schlumberger, Renaud de Chatillon, P. 206.

(١١٨) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٩١ ــ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ •

مكة[119] ويقع الى الشمال من جدة وهناك وجدوا تجارا فأسروا بعضهم وأشاعوا الذعر في شواطيء الحجاز · ثم توجهوا نحو الشمال كي يتمموا خطتهم بالاستيلاء على المدينة المنورة ، فتركوا مراكبهم بساحل الحوراء[120] المواجه للمدينة يحرسها عدد من جنودهم ، وسار أرناط برا بفرسان الداوية يصحبه ثلاثمائة مقاتل[121] يساعدهم بعض الاعراب[122] من أهالي تلك الجهات ، وساروا الى مسافة قريبة من المدينة حتى أصبحوا على مسيرة يوم منها وقد انهكتهم حرارة الصيف الشديدة · كانت الارض جرداء صخرية مليئة بالشعاب ومع ذلك جد أرناط في سيره لبلوغ هدفه وأدرك حسام الدين لؤلؤ الاسطول الصليبي في الحوراء ، فانقض عليه وأحرقه جميعه[123] بعد أن اشتبك مع من تولى حراسته من القوة الصليبية فمزق جمعهم ، وأطلق الاسرى من التجار ، ورد اليهم ما أخذ منهم · ثم نزل الى البر بقسم من قواته وقدم بعض الاعراب القاطنين هناك خيلا له ولجنده فركبها وسار خلف أرناط مسرعا كي يمنعه من بلوغ مرامه · وبعد خمسة أيام من المطاردة[124] أدركه وقد أصبح على مسيرة يوم واحد من المدينة ، وعلم أرناط أن لا سبيل الى العودة الى الحوراء حيث ترك أسطوله

---

(١١٩) رابغ : واد يقطعه الحاج له ذكر في المغازي وفي أيام العرب ، وقال الواقدي هو على عشرة أميال من الجحفة فيما بين الابواء والجحفة (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧٢٧) « وهي الآن مدينة عامرة على ساحل البحر الاحمر شمال جدة على طريق المدينة » ·

(١٢٠) الحوراء : مدينة على ساحل وادي القرى بها مسجد جامع ، وبها ثمانية آبار عذبة ، وبها ثمار ونخل ، وأهلها عرب من جهينة وبلى (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٣٨٩) ويذكر المقريزي انها تتصل باعراض مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم (الخطط ، ج ١ ، ص ٢٤) ·

(١٢١) الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٢٨١ ·

(١٢٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٣١ و ج ٣ ، ص ٣١٨ ·
Conder, The Latin Kingdom, P. 141.

(١٢٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣١١ ·
Conder, op. cit., P. 141.

(١٢٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٣١٨ ·

فلجأ بعض جنوده الى المرتفعات(١٢٥) ولكن الحاجب لؤلؤ طاردهم في كل مكان وقتل وأسر معظمهم ، أما أرناط فقد اتجه نحو الشمال هاربا(١٢٦) واستطاع النجاة بصعوبة بالغة ومعه بعض اتباعه حيث التقى بقواته عند تبوك وعاد الى الكرك خاسرا فاشلا • واقتاد لؤلؤ أسراه مكبلين بالاغلال وعاد بهم الى أسطوله وكانوا مائة وسبعين أسيرا(١٢٧) ، فأرسل اثنين منهم الى مكة المكرمة كي يقتلا أمام المسلمين في منى(١٢٨) بموسم الحج وليكونا عبرة لغيرهم • وأما الباقون فقد ساقهم الى عيذاب ثم الى قوص فالقاهرة « وكان دخولهم يوما عظيما »(١٢٩) ووزع هؤلاء الاسرى على سائر انحاء مصر كي يقتلوا بها(١٣٠) • وقد شاهد ابن جبير عددا منهم في الاسكندرية(١٣١) عند قدومه اليها في عام ٥٧٨هـ (١١٨٣م) وقد ركبوا على الجمال بالمقلوب وطيف بهم في شوارع الاسكندرية بين قرع الطبول والنفخ في الابواق ، ثم قتلوا • ولقد استغرقت حملة أرناط وعيثه في البحر الاحمر

---

(١٢٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٩٠ ـ ٤٩١ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٥ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٣١٦ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ ـ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٢٨١ •

Conder, The Latin Kingdom, P. 141.

(١٢٦) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٣٥ •

Conder, Ibid P. 142.

Lane Poole, Saladin, P. 176.

Stevenson, op cit. P. 229.

(١٢٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٣٥ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٣١ ، ج ٣ ، ص ٣١٨ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٩٠ •

(١٢٨) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٩١ ـ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٢٩ ـ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٣٥ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٥ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٦٩ ـ رانسمان : ج ٢ ، ص ٧٠٧ •

Lane Poole, Salain, P. 176.

(١٢٩) ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٧٢ •

(١٣٠) ابن جبير : الرحلة ، ص ٣١ •

(١٣١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٩ ـ ٣١ •

والسواحل زهاء أربعة أشهر(١٣٢) ، من شعبان حتى ذي القعدة من هذا العام ٥٧٨هـ (١١٨٢ - ١١٨٣م) وفي حملته تلك قال ابن الوردي :

لقـــد طمع البرنس بمستحيل فجر لقومـــه سفك الدمـــاء

ولو ترك النبـــي بلا دفـــاع لدافع عنـــه املاك السماء(١٣٣)

وكان من نتائج حملة أرناط الجريئة الفاشلة أنها وحدت بين صفوف المسلمين وألهبت حماسهم فتغير شعور كل من صاحبي الموصل وحلب المناوئين لصلاح الدين وخجلا(١٣٤) من تعاونهما مع الفرنج في الوقت الذي حاول فيه الفرنج طعن المسلمين في أعز مقدساتهم ، لذا سارعا للتفاهم مع صلاح الدين • كذلك أسهمت هذه الحملة في ازدياد محبة المسلمين لصلاح الدين والتفافهم حوله ، وذاعت شهرته(١٣٥) في جميع أنحاء العالم الاسلامي وأصبح رمزا للزعيم الديني والقائد البطل أمل العروبة وموضع رجاء الاسلام •

أما بالنسبة للفرنج فقد صدعت الهزيمة صفوفهم وعجلت بنهايتهم(١٣٦) وأثبتت فشل سياستهم التوسعية في بلاد الشرق الاسلامي ، ومهدت المجال لصلاح الدين كي يسترد ما اغتصبوه من ديار الاسلام ، ثم انها كانت المنطلق لتحرير البيت المقدس ، فتهديد الحرمين الشريفين في مكـــة والمدينة كان من شأنه اثارة الحماس لتحرير بيت المقدس •

عاد صلاح الدين الى دمشق في ٣ جمادى الاولى سنة ٥٧٩هـ (٢٤ أغسطس (آب) ١١٨٣م) بعد أن انتهى من أمر حلب ورفعت أعلامه عليها في ١٧ صفر ٥٧٩هـ (١٢ يونيو (حزيران) ١١٨٣م) ، وخاف عليها

---

(١٣٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٣١٢ - المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٠٠ •

(١٣٣) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٩٢ •

(١٣٤) رانسمان : ج ٢ ، ص ٧٠٧ •

(١٣٥) هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ١٤٣ •

(١٣٦) Lamb, The Flame of Islame, P. 271.

ابنه الظاهر غازي نائبا عنه ، وبذلك أصبحت كل بلاد الشام ومصر تحت سلطانه بالاضافة الى برقة واليمن . ويعترف مؤرخو الحركة الصليبية بأهمية انضمام حلب اليه ومقدار خطورة ذلك عليهم(١٣٧) . عاد صلاح الدين الى دمشق كي ينتقم من أرناط لتجرئه على مهاجمة الحجاز والبحر الاحمر ، لم يكن صلاح الدين قد أنهى استعداداته للمعركة الفاصلة فالموصل ما زال أمرها معلقا ، وهنا تظهر لنا عبقريته الدبلوماسية ، لقد اتبع استراتيجية النفس الطويل لاستنزاف العدو وانهاك قواه ، كي يتمكن هو نفسه من فرض مكان وزمان المعركة الفاصلة عندما تتهيأ الظروف الداخلية والعالمية من حوله . وهكذا بدأ نشاطه المكثف من دمشق ضد أمارة الكرك الصليبية لفتحها .

---

(١٣٧) Guillaume De Tyr, Vol. 1, P. 1114.

(٤)

النشاط الحربي الموجه من دمشق ضد امارة الكرك الصليبية

أ ـ المحاولة الاولى في ٥٧٩هـ (١١٨٣م) :

لم يسترح صلاح الدين من عناء السفر بعد عودته من حلب بل نزل بقواته الى الاغوار ، واجتاز في طريقه على حوران(١٣٨) ثم الى فوعرا(١٣٩) الى الشمال من اربد(١٤٠) في الاقحوانة(١٤١) ، ثم نزل بالقصير(١٤٢) في الأغوار فهاجم الفرنج في بيسان(١٤٣) وطبرية وعين جالوت(١٤٤) وقتل منهم

---

(١٣٨) حوران : اقليم من معاملة دمشق يشتمل على عدد من الاقاليم ، والمستفيض بين الناس انه نيف على ألف قرية (ابن شاهين : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ـ باريس ١٨٩٣م ، ص ٤٦) .

(١٣٩) فوعرا : موضع يقع على رأس وادي يبعد نحو ١٢ ميلا شرقي نهر الاردن والوادي يقع على بعد ثمانية أميال الى الشمال الشرقي من بيسان « وهي الآن قرية معروفة من قرى محافظة اربد الى الشمال منها » . (راجع :
Conder, The Latin Kingdom, P. 147.

(١٤٠) اربد : قرية بالاردن قرب طبرية على يمين الطريق المؤدي الى الغرب . (ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ١٨٢) « وهي الآن مدينة كبيرة وحاضرة شمال الاردن » .

(١٤١) الاقحوانه : من الاردن تمتد حول بحيرة طبرية الى شرق وغرب جسر السد الواقع جنوبي البحيرة ، خيم فيه صلاح الدين ثم نزل الى القصير (راجع : ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٨١ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .
Le Strange, P. 389.
Conder, op. cit., P. 147.

(١٤٢) القصير : قرية في الغور من اعمال الاردن ، يوجد بها طواحين السكر (انظر : ابن بطوطة : الرحلة ، ج ١ ، ص ٣٥ ـ ٣٦ .
Le Strange, P. 490
« وتقع شرقي الشونة الشمالية الحالية في منطقة الاغوار وما زال بها قبر معاذ بن جبل » .

(١٤٣) بيسان : مدينة على نهر الاردن كثيرة النخيل من اعمال فلسطين (المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٦٢) .

(١٤٤) عين جالوت : اسم اعجمي ، بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس من اعمال فلسطين ، كانت بيد الصليبيين مدة ثم حررها صلاح الدين سنة ٥٧٩هـ وعلى مساحتها وقعت المعركة المشهورة بين المغول والمماليك (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧٦٠) .

ثلاثمائة فارس(١٤٥) وخمسة عشر راجلا وأسر عددا كبيرا منهم . وعندما قدمت قوات الكرك(١٤٦) نجدة لهم اصطدمت بها قواته وقتلت منهم عددا كبيرا ووقع في أسر المسلمين منهم نحو مائة وفر الباقون ، ثم عاد صلاح الدين الى دمشق محملا بالغنائم والاسرى في نهاية جمادى الاولى ٥٧٩هـ (سبتمبر ١١٨٣م) .

ثم أخذ صلاح الدين يعد العدة لجولة ثانية جديدة ضد الكرك ، فأخذ يعد عدته لذلك ويحشد قواته طيلة شهر جمادى الثانية من نفس السنة وطلب من الملك العادل نائبه بمصر أن يوافيه بقوة مصرية ويلتقي به عند الكرك(١٤٧) . سار صلاح الديـن بقواتـه في مستهل رجب الى الكرك متبعا في طريقه الزرقاء وعمان وحسبان ثم خيم على الربة(١٤٨) ، ومن هناك تقدمت قواته الى الكرك ، ثم شرع في الهجوم على الربض (المدينة) وكانت على جانب كبير من الحصانة يحيط بها سور منيع به سبعة أبراج(١٤٩) ، وفيها يقول العمري : « وتحف بهذه القلعة مدينة قد عقل الجبل حبوتها وأزلق الغراب أن يطأ ذروتها ، وعصم سوار الوادي الملوي معصمها ، وحمت غرة الجبل المطل أدهمها »(١٥٠) . فشدد عليها الحصار ونجحت قواته في

---

(١٤٥) Setton, A History of the crusades, Vol. 1, P. 599.

(١٤٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٠ - أبو شامة : الروضتين ، ج ٤ ، ص ٥٠ .
Stevenson, op. cit., P. 232.
Lane Poole, Saladin, P. 177.

(١٤٧) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠٢ - ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣١ - سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٤١ - أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥١ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٢ - أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٧٠ - ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٩٣ - ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٠٢ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٨١ - أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٠ - هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ١٣٩ .

(١٤٨) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥١ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥١ .

(١٤٩) Murry, Hand book for Travellers in Syria and Palestine, London, 1868, PP. 56 - 57.

(١٥٠) العمري : مسالك الابصار : جزء ١٦ قسم ٢ لوحة ٣٨٨ - ٣٨٩ « مخطوطة » .

اقتحامها والتغلب عليها(١٥١) ، ومن المكان الذي يفصل بين المدينة والقلعة بدأ يحاصر القلعة الحصينة ، فنصب عليها سبعة مجانيق ضخمة(١٥٢) كانت ترمي بالحجارة ليلا ونهارا على نحو متصل ، واكثر النكاية بالعدو وظل يواصل حصاره للقلعة طيلة شهر رجب ٠

وكان أرناط قبل أن يشرع صلاح الدين في حصار الكرك في شغل شاغل ، فقد كانت الاستعدادات على قدم وساق للاحتفال بزواج الاميرة ايزابيلا الأخت الصغرى لملك بيت المقدس ، من ابن وريثة أمارة الكرك الامير همفري سيد تبنين(١٥٣) . وشاء أن يجعل من هذا الاحتفال شيئا فخما يليق بسيدة أمارة الكرك ، ودعا الى هذا الزواج وجوه الفرنج وأعيانهم ، وبدأت وفودهم تتوافد على الكرك في شهر رجب قبل أن يبدأ المسلمون الحصار ، وجمع المغنين والموسيقيين من جميع أنحاء الامارات الصليبية ثم بدأت الاحتفالات ، ولكن المجتمعين فوجئوا باقتراب قوات صلاح الدين اليهم وقيامها بمحاصرة المدينة ، ولم يستطع أرناط النجاة بنفسه الى داخل القلعة(١٥٤) الا بصعوبة بالغة ، فقد ساعده أحد فرسانه على الجسر الذي يربط القلعة بالمدينة ، ولكن احتفالات الزواج استمرت داخل القلعة بينما تتعرض القلعة لوابل شديد من قذائف المنجنيقات التي نصبت أمام أسوارها القوية ، ويتندر المؤرخون اللاتين والغربيون(١٥٥) من مروءة صلاح الدين وكرمه وخلقه الكريم ، فما أن

---

(١٥١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠٢ ٠

Lane Poole, Saladin, P. 190.
Stevenson, op. cit., P. 234.

(١٥٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠٢ ٠

(١٥٣) Guillaume De Tyr, Vol. 1, P. 1068.
Lane Poole, Saladin, P. 180.

(١٥٤) رانسمان : ج ٢ ، ص ٧١٢ ٠ Lane Poole, Saladin, P. 180.

(١٥٥) Guillaume De Tyr, Vol. 1, PP. 1124 - 1125.
Lane Poole, Saladin, P. 180.
Conder, The Latin Kingdom, P. 144.
Conder, The Monumintal History, PP. 379 - 378.

رانسمان : ج ٢ ، ص ٧١٢ ٠

Rosebault, Saladin Prince of Chivalry, P. 174.
King, The Knights Hospitallers, P. 115.

أرسلت والدة العريس اليه هدية من مأكولات الزواج حتى قبلها وأرسل يسأل عن البرج الذي يضم العروسين ، وأمر باعفائه من قذائف المنجنيقات اكراما للشابين المحتفى بزواجهما · ولم تذكر المصادر العربية المعاصرة شيئا عن هذا الزواج ولكني وجدت ذكرا لهذا الزواج في قصيدة لابن سناء الملك الذي يقول :

جنى أهـــل تلك القلعـــة الشراذ	رأوا هواديها كالباسقات في النخل
غـــدا بعلها الابرنس يلعن عرسه	بها وهي لا تنفك مــن لعنة البعــل
وقـــد رجمتها المنجنيقات اذ رمت	لشيخ لعين كافر جاهل رذل(١٥٦)

كذلك وجدت نصا يشير الى ذلك الزواج في رسالة فاضلية ، نقل ابن فضل الله العمري قسما منها ، يقول القاضي الفاضل : « وهصروه هصرة فاذا البلد قايم على عرسه بل طريح على نعوشه »(١٥٧) ·

وانتهى شهر رجب وصلاح الدين ما زال يضيق الخناق على القلعة ، وفي الرابع من شعبان وصل العادل من القاهرة وبصحبته جند مصر وعدد كبير من التجار الذين قدموا بصحبة الجيش في طريقهم الى دمشق(١٥٨) · واشتد الحصار على القلعة وشعر أرناط بالخطر وكان عليه أن يستنجد ببيت المقدس ، وهنا تظهر القيمة الاستراتيجية لاختيار موقع هذا الحصن فقد كان اختيار الحصون الصليبية على أماكن مرتفعة يتم بطريقة تتيح لها أن تتصل فيما بينها باشارات نارية كانت معروفة عند المسلمين فيما يعرف بالمناور أو الاربطة · وكان الاتصال بين الكرك والقدس يتم ليلا بالاشارات النارية عبر البحر الميت(١٥٩) حيث يشاهد ذلك في برج

---

(١٥٦) ابن سناء الملك : ديوان ابن سنا الملك ، الهند ١٩٥٨ ، ج ٢ ، ص ٥٦٦ ـ ٥٧٧ ·

(١٥٧) العمري : مسالك الابصار ، ج ٢ قسم ٣ لوحة ٤٥٥ « مخطوطة » ·

(١٥٨) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤١ ـ ٤٤ ـ بامخرمة : قلادة النحر في وفيات اعيان الدهر ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٦٧ تاريخ ، لوحة ٧٧٤ « مخطوطة » ·

(١٥٩) Fedden, Crusader Castles, P. 31.

داود بالقدس والذي يبعد عنها بنحو خمسين ميلا ، وبفضل هذه الاشارات أمكن لأرناط أن يطلب المدد والمساعدة من القدس[١٦٠] وأسرعت قوات الفرنج لنجدة الكرك فاجتازوا غور الاردن عبر أريحا[١٦١] واجتمعت قواتهم في وادي الوالة[١٦٢] تترقب الفرصة للتقدم الى الكرك . وفي منتصف شعبان ٥٧٩هـ (٤ ديسمبر (كانون أول) ١١٨٣م) رفع صلاح الدين الحصار عن الكرك اذ رأى أن أمرها يطول لحصانتها ومناعتها ، ولم يكن قد استصحب معه من آلات الحصار ما يكفي ذلك الحصن العظيم والمعقل المنيع[١٦٣] . وعاد الى دمشق في ٢٦ شعبان (١٥ ديسمبر (كانون أول) . واستشهد في هذه الحملة حول اسوار الكرك أحد الامراء النورية هو شرف الدين برغش في ٢٢ رجب[١٦٤] .

ب ـ المحاولة الثانية في ٥٨٠هـ (١١٨٤م) :

أقام صلاح الدين بعد عودته من الكرك في دمشق يعد العدة لجولة جديدة ضد أرناط ، وأرسل يستنفر عساكره من جميع انحاء دولته . فقدم أخوه الملك العادل بعساكر حلب وكان قد أسند ولايتها اليه ، ونور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا[١٦٥] وآمد[١٦٦] وديار بكر .

---

(١٦٠) رانسمان : جـ ٢ ، ص ٧١٢ .

(١٦١) اريحا : مدينة بالاردن بالغور الغربي عند بيت المقدس على مسافة يوم منها . كان يزرع بها النيل وقصب السكر والموز والنخيل (القرماني : اخبار الدول وآثار الاول ، ص ٤٢٨) .

(١٦٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٤١ ـ أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٥١ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٥١ .
Stevenson, op. cit., P. 235.
Setton, A History of the Crusades, Vol. 1, P. 582.

(١٦٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٠٢ .

(١٦٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٢ ـ أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٥٣ ـ المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٢ .

(١٦٥) حصن كيفا : مدينة من الجزيرة الفراتية من ديار بكر ، تقع على دجلة بين جزيرة ابن عمر وبين ميافارقين (القلقشندي : صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٣١٧) .

(١٦٦) آمد : مدينة قديمة على الدجلة وعليها سور من الحجارة في غاية الحصانة ، ولها بساتين ومزارع كثيرة ، وهي كثيرة الخصب (القلقشندي : صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٣٢٤) .

وقدمت عساكر سنجار وماردين[١٦٧] ، كما أرسل الى ابن أخيه تقي الدين عمر نائبه في مصر يطلب اليه القدوم بقواته والالتقاء به على الكرك ٠

كانت هذه أول مرة يأمر فيها صلاح الدين بحشد قواته من الجزيرة وحلب ومصر وسورية مجتمعة ، ولعله كان ينظر بعينه الثاقبة ورأيه الحكيم أن لا بد من وجود تآلف وتآنس بين قواته المتعددة مصرية وجزرية ومشرقية وشامية ٠ لقد أراد بها أن تكون تجربة أولى لوحدة القوات وسرعة حشدها وتدريبها على طبيعة العدو وطبيعة الارض التي سوف يحاربون عليها ، انها مقدمات للمعركة الفاصلة التي ينتظر خوضها عندما تحين اللحظة التي يحددها هو بنفسه ٠

اجتمعت قوات صلاح الدين برأس الماء بحوران ، ثم زحف في أول ربيع الاخر ٥٨٠هـ (يوليو (تموز) ١١٨٤م) نحو الكرك ، مرورا بالظليل[١٦٨] فالزرقاء فعمان فالرقيم فزيزاء[١٦٩] فاللجون[١٧٠] ثم الربة وهناك توقف أياما[١٧١] حتى يتكامل وصول قواته ومن جملتها قوات مصر

---

(١٦٧) ماردين : قلعة بديار ربيعة في الجزيرة الفراتية على جبل عال لا يستطاع فتحها عنوة ، وكانت لبنى ارتق وبقيت بيدهم لمدة طويلة (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣١٦) ٠

(١٦٨) الظليل : وادي يقع شمالي الزرقاء على الطرق القادمة من دمشق الى مصر والحجاز قديما ٠ وهو ملتقى الطرق القادمة من الازرق ودمشق وعمان والازرق ودمشق ، وما زال يشاهد اليوم بين مدينتي الزرقاء والمفرق ويشتهر بمزارعه وبساتينه العديدة ٠

(١٦٩) زيزاء : قرية كبيرة بالبلقاء جنوبي عمان ، تتوسطها بركة ماء عظيمة مشهورة ، وهي على مرحلة من عمان ، كانت محطة لقوافل الحجاج ، كان لهم بها سوق للتجارة (أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٤٧ — Le Strange P. 554 ويقول ياقوت (ج ٢ ، ص ٩٦٦) ٠

تذكرت ليلى يوم اصبحت قافلا   بزيزاء والذكرى تشوق وتشغف

(١٧٠) اللجون : منزلة في طريق المدينة بقرب البلقاء ، وهي غير اللجون المعروفة في فلسطين (القرماني : أخبار الدول وآثار الاول ، ص ٤٧٥) ويذكر ابن واصل انها المنزلة التي تقع شرقي الكرك وهي منزلة الحجاج اذا توجهوا الى الحجاز (ابن واصل : مفرج الكروب « تاريخ الواصلين » لوحة ٢٧٨ « مخطوطة ») ٠

(١٧١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٣ ٠

التي تم وصولها بقيادة تقي الدين عمر في التاسع عشر من ربيع الآخر(١٧٢)
عند ذلك تقدم صلاح الدين نحو الكرك وحاصر المدينة وشدد الحصار عليها
وضربها بالمجانيق ونجح في فتحها واستعصى عليه الحصن ، وكلاهما على
سطح جبل واحد(١٧٣) ، وكان يفصل الحصن عن المدينة خندق عميق
يبلغ ستين ذراعا ، فنصب صلاح الدين تسعة مجانيق أمام باب القلعة
الوحيد المؤدي الى الربض(١٧٤) • وبدأ الحصار في ٧ جمادى الاولى ٥٨٠هـ
(١٧ اغسطس ١١٨٤م) بعد وصول ابن قرا أرسلان الذي توقف في رأس
الماء للراحة من مشقة السفر وعنائه • وشددت قوات صلاح الدين ضربها
للحصن ولكن مهمة اقتحامه كانت صعبة بسبب الخندق العميق الذي كان
يفصل بينه وبينهم وكان « من الاودية الهائلة والمهاوي الحائلة والمهالك
الغائرة الغائلة »(١٧٥) • ولم يكن من سبيل للوصول الى الحصن الا بطم
هذا الخندق ، ولهذا أمر السلطان صلاح الدين باعداد اللبن وجمع الاخشاب
تمهيدا لبناء الجدران المقابلة للحصن من ناحية المسلمين وتسقيفها حتى
يتمكن الجنود من السير تحت هذه السقائف والوصول الى أسوار القلعة
بالاضافة الى ردمه بالحجارة والخشب وغير ذلك من المواد • ونجح
المسلمون في التوصل الى الخندق وبناء هذه السقائف محتمين بالدبابات(١٧٦)

---

(١٧٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٣ — ٤٤ — المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٨٣ •

(١٧٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠٦ — ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧٢ — أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٧١ — العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ، قسم ٢ لوحة ٣٧٣ « مخطوطة » — ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٩٤ •

(١٧٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٦ — ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٧ — ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣١٥ — المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٨٤ •

(١٧٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٦ •

(١٧٦) الدبابات : مفردها دبابة وهي آلة من اسلحة الحصار في العصور الوسطى تتخذ من جلود وخشب ، يدخل فيها الرجال ويقربونها من اسوار الحصن المحاصر كي ينقبوه ، وهذه الآلة تقيهم مما يرمونه فوقهم ، وقد سميت بذلك لانها تدفع فتدب ، وهي آلة متحركة توضع على عجل مستديرة ، والخشب المصنوعة منها من النوع السميك الصلب كما أنها تغلف وتغطى باللبود والجلود بعد نقعها بالخل مدة حتى لا تتأثر بالنار اذا ما رماها العدو بالنفط ، ويدفعها الرجال فتتحرك العجلات لتصل الى الاسوار ويحتمي بداخلها الجنود (راجع : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، ١٨١ هامش ٣) •

التي أحضروها لهذه الغاية ، فكانوا يحتمون بها حتى تم لهم ما أرادوا وبنوا ثلاثة[177] سقائف باللبن محكمة • وهكذا صار قسم من الخندق مسقوفا وأصبح طريقا واسعا ، وتهيأ للجند التحرك فيه بسهولة • ويعبر أبو شامة عن ذلك بقوله : « فتحت دروبا واسعة لا يزحم فيها الجائي الذاهب ، وتوافدت رجال العسكر واتباعه وغلمانه وأشياعه على نقل ما يرمى في الخندق »[178] ، ولم تستطع سهام وحجارة العدو أن تصيب أولئك الجند داخل الخندق ، وكانوا يتحركون دون خوف من أن تصيبهم السهام والجروخ والحجارة[179] ، وما زال الفرنج يقذفون المسلمين الذين نزلوا الخندق بالاحجار والسهام حتى امتلأ تقريبا بما رموه فيه بحيث أن أسيرا مقيدا لدى الفرنج رمى بنفسه اليه ونجا[180] دون أن يتمكنوا منه •

واستمر حصار المسلمين محكما بحيث تفاءل المقاتلون بأن ساعة سقوط هذا الحصن المنيع قد حانت وأن أرناط سيقع في أيديهم ، وتمكنوا بفضل قذائف المجانيق من هدم جوانب كثيرة من أبراج القلعة المواجهة لها وتدمير سقوف الابنية • كما رموها بالنفط وأحرقوا أبراجها « بقوارير من اكسير النادرات ذات الضرام ، وارتفع على رأس كل برج تاج لهبي »[181] • أما السور المقابل للمهاجمين فقد دكته قذائف المسلمين ، فانهدمت ابراجه وأبدانه ، وساءت أحوال الصليبيين بداخله وكثرت خسائرهم ، ومع ذلك

---

(١٧٨) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٦ •

(١٧٩) الجروخ : جمع جرخ ، كلمة فارسية ، وهي آلة حربية ونوع من القوس الرامي يستعمل لرمي السهام والنفوط والحجارة ويقال لمستخدمها من الجند ، جرخي (راجع : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ حاشية ص ١٥٠ ــ والمقريزي : السلوك ، ج ١ ، حاشية ص ١٠٠٣) •

(١٨٠) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٦ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٨ •

(١٨١) العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٢ لوحة ٣٨٩ « مخطوطة » •

فقد قاوموا المسلمين مقاومة شديدة ورموهم بالمنجنيقات(١٨٢) من داخل القلعة . وأبلى عسكر المسلمين بلاء حسنا ولولا ذلك المانع الطبيعي لكانوا قد دكوا أسوارها واقتحموها ، وفي ذلك يقول أبو شامة : « ولولا الخندق الذي هو واد من الاودية واسع عميق لما تعذر الى الزحف اليهم والهجم عليهم طريق »(١٨٣) .

أرسل أرناط يستنجد بالفرنج ويبلغهم عجزه وضعفه أمام صلاح الدين(١٨٤) ، فاحتشدت على الفور جموع هائلة أسرعت لنجدة الكرك . فلما علم صلاح الدين بوصول حشود الفرنج وعلى رأسهم ملك بيت المقدس وكان قد أشرف على أخذها(١٨٥) رأى أن يفك الحصار عن الكرك ويتقدم للاشتباك معهم ، فترك القلعة في ٢٩ جمادى الاولى ٥٨٠هـ (٨ سبتمبر (أيلول) ١١٨٤م) بعد حصار دام ثلاثة أسابيع وسار الى اللجون ثم البلقاء وخيم في حسبان تجاه الفرنج علهم يتخلون عن الموضع الذي كانوا يعسكرون فيه اذ كان صعب المسالك لا يصلح أن يكون ساحة للقتال وعزم على استدراجهم الى شمال الواله . فتقدم نحوهم الى ماعين ، ولكن الفرنج آثروا عدم الاشتباك مع المسلمين ، فتأخر عنهم عدة فراسخ وترك من يخبره بحركتهم(١٨٦) . وتستر الفرنج بوشاح ليلة سوداء وسلكوا طريقا صعبة المسالك تؤدي الى الكرك فدخلوها في الاسبوع الاول من جمادى الاخرة .

وانتهز صلاح الدين فرصة لحاق عسكر الفرنج بالكرك تاركين مملكة بيت المقدس دون حماية كافية وأسرع بقواته الى البلقاء ثم مر بالغور في

---

(١٨٢) العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٢ لوحة ٣٨٩ « مخطوطة » .

(١٨٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٦ .

(١٨٤) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ، ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧ .

(١٨٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٦ .

(١٨٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠٧ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

طريقه الى فلسطين · ثم تقدمت قواته الى نابلس فأحرقها(١٨٧) ونهب نواحيها ، واكثر السبي وسار منها الى سبسطية فاستنقذ منها جماعة من أسرى المسلمين(١٨٨) ، ثم مضى الى جنين(١٨٩) فنهبها وخربها وعاث في تلك الانحاء · وما أن تم له ذلك حتى قفل عائدا الى دمشق فوصلها في منتصف جمادى الآخرة وقد حملت قواته الكثير من الاسلاب والذخائر والنعم والكراع وما تنوء به وما لا يمكن حصره(١٩٠) ·

ومما قاله ابن سناء الملك في هذه الغزوة(١٩١) :

هل الكرك الثكلى بأولادها انتهت   عن النسل مما جرعته من الثكل
وكانوا لها كالعقد لكنه وهـــى   وأضحى لها جيش ابن أيوب كالغل
أتاهم بمثل الرمل ينقـــل خيلهم   الى الأفق ما فوق الطريق من الرمل
عساكر أرواح العساكر شربهـــا   وايبس لها غير الفوارس من أكل
اذا ما انحنوا للحمل حاكوا قسيهم   على أنهم للموت أجرى من النبل
فنابلس لمـــا نزلـــت بربعهـــا   أقامت بهم حق الضيافة والنـــزل
أحسوا بطـــل للخريف فجـــاءهم   ربيع من النبل المسدد كالوبـــل
وعدت بفضل الله للخلق سالمـــا   وأي زمان لم تعـــد فيه بالفضل

---

(١٨٧) Guillaume De Try, Vol. 1, PP. 1124 - 1125.

(١٨٨) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠٧ ـ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ ـ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٤٤ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٦ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٨ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٧٢ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٢ لوحة ٣٧٣ « مخطوطة » ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٩٤ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٣٥٣ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٨٤ ـ رانسمان : ج ٢ ، ص ٧١٤ ·
Lane Poole, Saladin, P. 80.
Conder, The Latin Kingdom, P. 143.

(١٨٩) جينين : بليدة حسنة بين نابلس وبيسان من ارض الاردن بها عيون ومياه (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٨٠) ·

(١٩٠) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٨٩ ·

(١٩١) ابن سناء الملك : ديوان ابن سناء الملك ، ج ٢ ، ص ٥٦٦ ـ ٥٧٠ ·

وما أن عاد صلاح الدين من حملته الثانية الى الكرك حتى أوعز الى عز الدين أسامة(١٩٢) أحد كبار أمرائه ببناء قلعة عجلون « قلعة الربض » لتكون في مواجهة قلعة كوكب الهوا الصليبية المشرفة على بيسان وغور الاردن ، فاختار عز الدين أسامة مكانا في جبل عوف(١٩٣) وبنى قلعته الحصينة ٠

اختار صلاح الدين هذا الموقع الاستراتيجي كي يحمي طرق المواصلات من تدخل الفرنج ويحكم سيطرته على الاغوار والطريق المؤدي الى دمشق والبلقاء ، ويمنع أي توسع للفرنج في المنطقة الواقعة شرقي نهر الاردن الشمالي سواء من الكرك في الجنوب أو من بيسان عبر نهر الاردن ، فيسهل بذلك تحرك قواته ولتكون منطلقا لها عندما يعد العدة للمعركة الفاصلة(١٩٤) ٠

كانت أحوال بيت المقدس الاقتصادية سيئة للغاية ، فطلب ريموند الوصي على عرش الملك بلدوين الخامس من صلاح الدين أن يعقد معه هدنة فوافق صلاح الدين لينهي أمر الموصل ، العقبة الوحيدة الباقية في سبيل اتمام الوحدة الاسلامية التي كان ينشدها ، وتم عقد الهدنة في ربيع سنة ٥٨١هـ (١١٨٥م) على أن تسري لمدة أربع سنوات(١٩٥) ٠ وبفضل هذه الهدنة استؤنفت حركة التجارة بين مصر والشام والعراق والسواحل الفلسطينية ، وأصبح في وسع صلاح الدين أن يتجه الى الموصل بعد أن

---

(١٩٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٨٦ ـ أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٤٥ ـ القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٠٥ ـ ويقول ابن شداد : ان القلعة بنيت في عهد الملك العادل سيف الدين ابي بكر ، أما القلقشندي فيقول انها بنيت في عهد صلاح الدين سنة ثمانين وخمسمائة (انظر المصادر السابقة) ٠

(١٩٣) سمي كذلك لانه كان يسكنه قوم من بني عوف أهل عتووبأس (العمري : مسالك الابصار ، ج ٢ مجلد ٣ لوحة ٤٤١ « مخطوطة ») ٠

(١٩٤) لمزيد من التفاصيل عن قلعة عجلون انظر كتابي تاريخ شرقي الاردن ، القسم الحضاري ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢٧ ٠

(١٩٥) Lane Poole, Saladin, P. 181.
Stevenson, op. cit. P. 206.
هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ١٤٣ ٠

ضمن عدم تدخل الفرنج وبذلك أمكنه أن يتفرغ لمشكلة الموصل .ونجح في عقد الصلح[١٩٦] بينه وبين المواصلة في يوم عرفة من عام ٥٨١هـ (١١٨٦م) وخطب له على منابرها وضربت السكة باسمه ، وأصبح عسكرها يشكلون جزءا من جيشه اذا ندبهم لقتال الفرنج وقد عبر صلاح الدين عن ذلك بقوله : « وقد حصل لنا من صاحب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة وعمت الهيبة والرهبة والعزائم الى الجهاد في سبيل الله نوازع ، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع »[١٩٧] • وعاد صلاح الدين الى دمشق في مستهل سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦م) بعد أن ألف بين قلوب المسلمين جميعا ووحد الجبهة الاسلامية من العراق والجزيرة والشام ومصر •

وبقي أمر واحد يسبق الجهاد الاعظم هو ضمان بقاء دولته في عقبه اذا ما حدث له مكروه عن طريق اعادة توزيعها بين أولاده ، فأقطع ابنه الملك الافضل دمشق ، وأقطع مصر لابنه العزيز عثمان ومعه أخوه الملك العادل نائبا له بعد أن انتزع منه حلب ، وأقطع حلب لابنه الملك الظاهر غازي وهكذا أصبحت مصر والشام ملكا لابنائه بعد أن انتزع حلب من أخيه العادل ومصر من ابن اخيه تقي الدين عمر لخوفه من استبدادهما بالامر دون أبنائه[١٩٨] •

---

(١٩٦) عن الصلح بين صلاح الدين والموصل راجع : ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥١٦ – ٥١٧ – ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣٣ – سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٤٥ – أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٣ – ٦٥ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٤٠ – ١٤١ – أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٧٣ – ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣١٦ – المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٨٩ – ٩٠ – رانسمان : ج ٢ ، ص ٧٢٠ •

Conder, The Latin Kingdom, P. 146.
Lane Poole, Saladin PP. 192 - 193.
Atiya, Crusade Commerce and Culture, New York, 1962, P. 78.
Stevenson, op. cit. P. 240.

(١٩٧) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٤ •

(١٩٨) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢٥ – ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣٣ – ٢٣٤ – ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٩٤ – ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٢٣ – ابن آيبك : درر التيجان ، احداث سنة ٥٨٢هـ « مخطوطة » – رانسمان ، ج ٢ ، ص ٧١٩ •

أما على الصعيد الخارجي فقد وجه همه لقوتين من حوله كان لهما شأن في أمور الشرق آنذاك ، الاولى الجمهوريات الايطالية ، وقد استطاع أن يعقد معها اتفاقيات تجارية نظرا لارتباط مصالحها التجارية مع مصر(١٩٩) أما القوة الثانية فكانت الدولة البيزنطية التي خطبت وده وأرسلت اليه الرسل والسفارات بعدما شعرت بقوته المتزايدة وأدركت عبث التحالف مع مملكة بيت المقدس اللاتينية ، فكانت مصالحها تقضي باستقرار الامور بينها وبينه سيما وقد ارتبط بروابط ودية مع السلاجقة المصاقبين لحدودها وكانوا يشكلون أكبر خطر عليها فعقدت مع صلاح الدين معاهدة(٢٠٠) . وهكذا ضمن صلاح الدين تحييد أكبر قوتين يمكن أن تتدخلا الى جانب الصنيبيين فيما لو نشبت المعركة بينهما ولم تأت سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦م) الا وكانت جبهة المسلمين كاملة مستعدة ،ووحدة مصر والشام والعراق التي نشدها صلاح الدين وعمل في سبيلها عماد الدين زنكي ونور الدين محمود قد أصبحت حقيقة واقعة .

وفيما يتعلق بمملكة بيت المقدس ، فقد واجهت مشاكل خطيرة استعصى حلها بعد أن توفي ملكها بلدوين الخامس ولما يبلغ بعد التسع سنوات في جمادى الآخرة ٥٨٢هـ (أغسطس (آب) ١١٨٦م) . فقد دب النزاع بين الامراء(٢٠١) فأقصي ريموند الوصي ورئيس حزب الحمائم ، في حين نجح حزب الصقور الذي يتزعمه أرناط صاحب الكرك في تمكين نفوذه واضطر ريموند أن يلجأ الى أملاك زوجته بالجليل(٢٠٢) وتحالف مع صلاح

---

(١٩٩) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٨٨ .

(٢٠٠) ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١١٨ — ١١٩ — القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٨٧ — هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ١٤٧ .

(٢٠١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢٧ .
Conder, The Latin Kingdom, P. 144.
Stevenson, op. cit. P. 238.

(٢٠٢) رانسمان : ج ٢ ، ص ٧٢٥ .
King, The Knights Hospitallers, P. 118.

الدين[٢٠٣] « فقويت مناصحته للمسلمين حتى كاد لولا خوف أهل ملته يسلم »[٢٠٤] ، وفي نفس الوقت قام نزاع بين الفرسان الداوية والاسبتارية واحتكموا لدى البابا[٢٠٥] . هذا التمزق والتصدع في البناء الداخلي لمملكة بيت المقدس الصليبية كان من أسباب ضعف الفرنج وقوة المسلمين ، وقد فطن المؤرخون المعاصرون كابن الاثير وسبط ابن الجوزي الى النتائج التي تترتب عليه ، فيقول الاول : « فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم ، وكان ذلك من أعظم الاسباب الموجبة لفتح بلادهم ، واستنقاذ البيت المقدس منهم »[٢٠٦] ، وأما الثاني فيقول « ظهر الخلاف بين الفرنج وتفرقت كلمتهم وكان ذلك سببا لسعادة الاسلام »[٢٠٧] . هذا فيما يتعلق بمملكة بيت المقدس أما فيما يختص بامارة انطاكية فقد نجح المظفر تقي الدين عمر في ابعادها من ساحة المعركة عن طريق معاهدة صلح عقدها معهم[٢٠٨] حتى يتفرغ لمقارعة مملكة بيت المقدس في الجنوب . نلاحظ اذن أن الجبهة الاسلامية كانت قوية متلاحمة يقودها قائد عبقري وسياسي محنك ، في الوقت الذي ظهرت فيه مملكة بيت المقدس ممزقة الاوصال مضعضعة يدير أمورها موتورون حاقدون كأرناط . وهنا أدرك صلاح الدين أن الوقت قد حان لضرب ضربته ، فأخذ يشغل نفسه بقية عام ٥٨٢هـ بالصيد في دمشق[٢٠٩] منتهزا الفرصة المواتية لتنفيذ مخططه الكبير .

---

(٢٠٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢٦ – ٥٢٧ – أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٤ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٤ – أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٧٥ – ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

Lane Poole, Saladin, P. 202.
Stevenson, op. cit., P. 238.
Belloc, The Crusade P. 284.

هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ١٤٧ .

(٢٠٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٥ .

(٢٠٥) Conder, The Latin Kingdom, P. 144.

(٢٠٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢٧ .

(٢٠٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٤٨ .

(٢٠٨) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٢ .

(٢٠٩) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٣ .

جـ ـ المحاولة الثالثة والاستعداد للمعركة الفاصلة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) :

أعد صلاح الدين كل شيء لخوض المعركة ، ولكن ارتباطه مع الفرنج بالهدنة كان يحول بينه وبين الشروع فيها ، ومع ذلك كان واثقا من اقدامهم على نقضها في يوم قريب لما كان يعهده فيهم من روح النكث والغدر فقد اعتاد أرناط أمير الكرك على نقض كل اتفاق ، ولم يعرف عنه أنه أرتبط أرتباط الفرسان باتفاق أو عهد مع المسلمين اذ لم يكن قد نسي بعد أيام كان أسيرا في سجون المسلمين(٢١٠) ، وكان يتوق الى الغدر بهم انتقاما لما لقيه على أيديهم من ذل وهوان ٠ ومن المعروف أنه طلب بنفسه مهادنة صلاح الدين بعد أن أخفق في حملته على اليمن والحجاز(٢١١) وما سببته غارات المسلمين على أمارته من انهاك له واستنفاذ لقوته ، ولم يعترض صلاح الدين آنذاك على هذا الطلب ٠ وعلى هذا النحو أخذت القوافل تسير آمنة مطمئنة ما بين مصر والشام والحجاز مارة بأمارة الكرك ، وكعادته نقض المعاهدة ، فما أن مرت في نهاية سنة ٥٨٢ (١١٨٧م) أمام اسوار قلاعه قافلة غنية كبيرة حافلة بأنواع السلع الثمينة قادمة من مصر في طريقها الى الشام(٢١٢) حتى انقض عليها بعساكره وأسر رجالها وانتهب

---

(٢١٠) Lane Poole, Saladin, P. 181.

(٢١١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢٧ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٥ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٥ ٠

(٢١٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨ ـ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣٤ ـ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٤٨ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٥ ـ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧٢ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٥ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٧٥ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٩٦ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٢ لوحة ٣٧٧ « مخطوطة » ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٠٥ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٩٢ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٩٣ ٠
Lane Poole, Saladin, P. 198 - Conder, The Latin Kingdom, P. 147 -
Belloc, The Crusade, P. 283 - Stevenson, op. ct. P. 241.
Rosebault : Saladin Prince of chivalry, P. 173.
Setton, A History of the crusades, vol. 1, P. 5d5. 606.
Morrison, Les Croisaaes, P. 45.

متاعها وأموالها مستهينا بهذا التصرف بكل مبادىء الشرف والقيم الاخلاقية، فعندما ذكره بعض أسرى المسلمين بالمعاهدة المبرمة بينه وبين صلاح الدين تهجم عليهم قائلا : « قولوا لمحمدكم يخلصكم(٢١٣) » ولما بلغت هذه العبارة صلاح الدين أرسل اليه يأمره باطلاق سراح الاسرى والتعويض عليهم فرفض ، فأرسل عندئذ الى ملك القدس يطلب اطلاق سراح القافلة وما حوته من أموال ، ولكن ملك بيت المقدس كان أضعف من أن يؤثر على أرناط ففشل في مسعاه ، فنذر صلاح الدين ان ظفر به قتله بيده عقابا على مـــا اقترفته يداه ولمهاجمته الديار المقدسة قبل ذلك • ورأى أن يبدأ بأرناط فأعلن « الجهاد الاعظم » واستنفر القوات مـــن جميع أنحاء العالـــم الاسلامي(٢١٤) من الموصل ، والجزيرة واربل وديار بكر وماردين ومصر والشام • أخذت جموع العساكر تتقاطر الى دمشق من كل فج ، وظل صلاح الدين مقيما بدمشق حتى انتهت هذه السنة ٥٨٢هـ واكتملت الاستعدادات وقدم الجنود من منطقة الشمال • وعدئذ خرج صلاح الدين من دمشق في مستهل محرم ٥٨٣هـ (ابريل (نيسان) ١١٨٧م) وقد غلبت على نفوس رجاله شهوة القتال في سبيل الله ونذر كل مقاتل أن يبذل نفسه وروحه لله • وعندما وصلت جموع الجيوش الى حوران ، قسم جنده الى قسمين : الأول جعله بقيادة ولده الافضل وأمره بالاقامة في رأس الماء ينتظر قدوم بقية الاجناد ، والاخر تقدم به هو نفسه الى بصرى ، حيث خيم على قصر السلامة أحد قصور بادية الشام منتظرا عودة الحاج الشامي

---

(٢١٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢١ — ٢٢ — أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٨١ — ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٣٦ — ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٩٤ •

Lane Poole, Saladin, P. 199.

(٢١٤) العماد الكاتب : الفتح القسي ، ص ١٩١ — ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٢٩ — ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، جـ ٣ ، ص ٧٣ — ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٨٦ — العمري : مسالك الابصار ، جـ ١٦ قسم ٢ لوحة ٣٧٨ « مخطوطة » — ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ، ص ٣٠٦ — الذهبي : دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٩٣ •

Belloc, The Crusade, P. 284.

Lane Poole, Saladin, P. 199.

هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ١٤٧ •

من مكة ، فقد خشي أن يغدر بهم أرناط ، وكان مع الحج هذا العام أخته ست الشام(٢١٥) وابنها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين وغيره • وصل الحاج في صفر ولم يجرؤ أرناط على اعتراض سبيلهم ، كذلك انتظر صلاح الدين وصول « قفل مصر الشتوي »(٢١٦) وما أن اطمأن الى وصول الحجاج من الحجاز ، والتجار من مصر حتى تفرغ لارناط •

وفي ربيع الاول ٥٨٣هـ (مايو (أيار) ١١٨٧م) تقدم السلطان الى أمارة الكرك ، وما كاد أرناط يسمع باقتراب صلاح الدين حتى لاذ بأسواره يتحصن وراءها ولم يجرؤ على الخروج لملاقاته(٢١٧) ، فهاجم صلاح الدين أمارة الكرك وأعمالها وخرب ديارها ، واحرق غلاتها ، وقطع ثمارها ، وأزعج الساكنين فيها ، وأجلى عنها فلاحيها ، وقطع أشجارها من كروم وزيتون وغيره(٢١٨) فالعماد الكاتب يقول : « وفجع الفرنج بكرمها وزيتونها »(٢١٩) • ومع ذلك فقد ظل أرناط متحصنا في قلعته يرقب الاحداث من حوله ولا يجرؤ على الخروج لملاقاة خصمه • وفي هذه الاثناء

---

(٢١٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٠ ــ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٥٠ ــ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٥ ــ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٠ ــ رانسمان : ج ٢ ، ص ٧٣٣ •

(٢١٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٨ •

(٢١٧) Stevenson, op. cit. P. 241.

(٢١٨) في قطع الاشجار المثمرة للعدو يقول الحموي : يجوز محاصرة الكفار في حصونهم وقلاعهم وأخذ النقوب عليهم وتشديد الامر بمنع الدخول والخروج وقطع الميرة وتغوير المياه وقطع الانهار والاشجار ، واضرام النار والرمي بالنفط والمنجنيق وتخريب ما تدعو الحاجة الى اليه لقوله تعالى : « واحصروهم » ولان النبي صلى الله عليه وسلم حاصر الطائف ورماه بالمنجنيق وحرق كرومه ، وحصر بني النضير وحرق نخلهم ، فان غلب على ظنه حصول ذلك للمسلمين ولم تدع لذلك حاجة فالاولى ان لا يفعله ، ويقتل الخنازير وتراق الخمر ، ويتلف كل ما لا يجوز ان ينتفع به من كتبهم ، ولا يجوز عقر الخيل ولا اتلاف غيرها من الحيوان المحترم (راجع : ابن جماعة الحموي بدر الدين محمد : تحرير الاحكام في تدبير أهل الاسلام ، مخطوطة بمكتبة بلدية الاسكندرية رقم ٣٦٣٨ ج لوحة ٢٨ ــ ٢٩) وراجع أيضا : الشافعي : الام ، القاهرة ١٩٦٨ ، ج ٧ ، ص ٣٢٤ ، موضوع قطع اشجار العدو •

(٢١٩) العماد الكاتب : الفتح القسي ، ص ٥٩ •

وصل الجيش المصري فتلقاه صلاح الدين في القرينين (القرين الحالية) ففرقه على كل من قلعتي الكرك والشوبك الصليبيتين • واستمرت قوات صلاح الدين تدك وتدمر أمارة الكرك مدة شهرين كاملين(٢٢٠) ، بينما كانت قوات المسلمين الاخرى في رأس الماء تحت قيادة ابنه الافضل تنتظر صدور الاوامر • فعندما أمره صلاح الدين بأن يفتح جبهة أخرى(٢٢١) ، أغارت وحدات من قواته على فلسطين وقطعت الاردن عبر أملاك ريموند في طبرية والجليل ولكنه لم يعترض سبيلهم(٢٢٢) فدخلوا بلاده وخرجوا بالغنائم والسبايا(٢٢٣) وأوقعوا بالفرنج وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وممن قتل آنذاك مقدم الاسبتار(٢٢٤) ، أما مقدم الداوية فقد أفلت ونجا من المعركة • وهكذا حارب الفرنج لاول مرة على جبهتين في آن واحد ، جبهة في شرقي الاردن وجبهة في الجليل عند صفورية ، وهو أمر لم يكن في قدرتهم القيام به ، ثم وردت البشائر الى صلاح الدين وهو بالكرك والشوبك بانتصار قوات الافضل عند صفورية(٢٢٥) ولهذا رفع الحصار وترك أخاه الملك العادل في عسكر يحاصر الكرك(٢٢٦) وسحب قواته وأسرع فيها الى

(٢٢٠) العماد الكاتب : الفتح القسي ، ص ٦١ — ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢١٥ « مخطوطة » — أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٥ — ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٦ — السلامي : مختصر التواريخ ، لوحة ٣٠٤ « مخطوطة » •

(٢٢١) العماد الكاتب : الفتح القسي ، ص ١٩٢ — العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٢ لوحة ٣٧٨ « مخطوطة » — ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٠٦ •

(٢٢٢) رانسمان : ج ٢ ، ص ٧٣٠ • Lane Poole, Saladin, P. 203.

(٢٢٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٤ •

(٢٢٤) العماد الكاتب : الفتح القسي ، ص ٦٢ — سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٥١ — أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٦ — ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٧ •

Stevenson, op. cit. P. 243.

Conder, the latin kingdom, P. 147.

هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ١٤٨ • Atiya, op. cit. P. 78.

(٢٢٥) صفورية : مدينة وكورة في اقليم الاردن قرب طبرية • (Les Strange. P. 525).

(٢٢٦) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧٣ — هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ١٥٠ •

Setton, op. cit. Vol. 1, P. 586.

الشمال كي ينظم قواته بعدما اكتمل وصولها من النيل الى الفرات · ثم خيم في عشترا بحوران فاجتمعت اليه القوات التي كانت برأس الماء « وقد غص بها الفضاء »(٢٢٧) وعرضها فكانت في اثني عشر الف مقاتل(٢٢٨) ، ثم سار الى خسفين(٢٢٩) ومنها الى الاقحوانة ، فأقام هناك خمسة أيام(٢٣٠) وباعتقادي أن هذه المنطقة التي أقام بها صلاح الدين تقع شمالي الاردن وتطل على بحيرة طبرية والغور ووادي اليرموك أي في منطقة الكفارات الحالية لان الطريق المؤدي من خسفين الى بحيرية طبرية كان صعب المسالك لا يمكن أن يجتازه جيش كبير · ثم ترك المسلمون أثقالهم(٢٣١) بالاقحوانة وتقدموا الى غور الاردن فاجتازوا نهر الاردن الى طبرية عند جسر السد جنوبي بحرية طبرية تماما ·

أما الصليبيون فقد شعروا بالخطر الداهم وحاولوا لم شتاتهم فأرسلوا الى ريموند في طبرية واصطلحوا معه(٢٣٢) متناسين خلافاتهم ولو لفترة

---

(٢٢٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ·

(٢٢٨) عرض القوات : ويسمى يوم العرضة ، وهو اجتماع القوات والقيام برقصة الحرب وهم يحملون السيوف وينشدون اناشيد الحرب ، وهي بمثابة اعداد القوات للحرب اي تحميتها وزيادة نشاطها وما زالت العرضة تستعمل في السعودية للآن ، وهي رقصة الحرب أو : « العرضة النجدية » واصبحت رقصة شعبية يشترك فيها الملوك والامراء والشيوخ ·

(٢٢٩) خسفين : قرية من حوران على الطريق المؤدي الى مصر ، تقع بين نوى والاردن وتبعد ١٥ مرحلة عن دمشق ·
Le strange, P. 486.

(٢٣٠) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٣ ــ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٦ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ــ رانسمان : ج ٢ ، ص ٧٣٥ ــ هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ١٤٨ ·
Setton, A. History of the Crusades, vol. 1, P. 585.

(٢٣١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٢ ·

(٢٣٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣٤ ــ ٢٣٥ ــ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٦ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ، قسم ٢ لوحة ٣٧٨ «مخطوطة» ــ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٠ ــ رانسيمان : ج ٢ ، ص ٧٣٣ ·
Belloc, The Crusade, P. 284.
Lane Poole, Saladin, P. 203.
Stevenson, op. cit. P. 243.

موقوتة حتى يتهيأ لهم الوقوف في وجه صلاح الدين يدا واحدة واجتمعوا في عكا ثم تقدموا الى صفورية لمواجهة صلاح الدين في حطين(٢٣٣) ٠

وفي حطين التي تقع بالقرب من طبرية دارت يوم الجمعة بين الفريقين معركة من أشهر المعارك الفاصلة في تاريخ الصراع الصليبي الاسلامي ، وكان الجو حارا خانقا ، فأحس الفرنج بالظمأ ولكن المسلمين منعوهم من موارد المياه فالتجأ الفرنج الى تل حطين(٢٣٤) فرماهم المسلمون بالنفط(٢٣٥) فأحرقوا الحشائش اليابسة من حولهم ، فاجتمعت عليهم حرارة الشمس والنار ومرارة العطش ، وتم النصر للمسلمين في يوم السبت ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣هـ (٤ يوليو (تموز) ١١٨٧م) ٠ وتمكن المسلمون من سحق قواتهم وابادة أكبر جيش حشده الفرنج في الشام « فمن عاين القتلى قال : ما ثم أسير ، ومن عاين الاسرى قال ما ثم قتيل »(٢٣٦) ٠ وقد استطاع أحد المقاتلين المسمى درباس الكردي أن يأسر ملك القدس جي Guy of Lusignan أما أرناط فقد أسره غلام الامير ابراهيم المهراني(٢٣٧) ٠ وأسر في هذه المعركة جملة من قادة وأمراء الفرنج(٢٣٨) من بينهم أوك صاحب جبيل Hugh II Lord of Jebail وصاحب بيروت ، وجفري اخو الملك « الكند سطبل امليك » ، وهنفري بن هنفري ، وهو سيد تبنين Humphry of Toron ومقدم الداوية ، ومقدم الاسبتار ٠ كما أحضر

---

(٢٣٣) حطين : قرية تقع بين طبرية وعكا ، وبقربها حدثت معركة حطين (الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٢٨٤ ٠ Le Strange, P. 451.

(٢٣٤) العماد الكاتب : الفتح القسي ، ص ١٩٦ ـ ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢١٥ « مخطوطة » ـ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٥١ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨١ ٠

Atiya, Crusade, Commerce and Culture. P. 78.

(٢٣٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢١ ـ ابن منكلي : الاحكام الملوكية ، لوحة ٥٥ « مخطوطة » ٠

(٢٣٦) الذهبي : دول الاسلام ، ج٢ ، ص ٩٤ ٠

(٢٣٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٥١ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٢ ٠

(٢٣٨) Eracles, Recueil des Historiens. H. Occ. vil. 2, P. 67.

الى السلطان صلاح الدين صليب الصلبوت[٢٣٩] وهو مرصع بالجواهر واليواقيت في غلاف من ذهب ، وله قدسية خاصة لدى المسيحيين يحملونه في حروبهم ٠

وبعد أن أنتصر المسلمون هذا الانتصار الحاسم الذي يعتبر « مفتاح الفتوح الاسلامية »[٢٤٠] ، نصب السلطان خيمته واستعرض أسرى الفرنج وفيهم الملك جي وابرنس الكرك أرناط ٠ كان الملك يلهث من العطش فقدم له السلطان ماء مثلوجا وقدم الباقي لارناط ، ولكن صلاح الدين قال له : « اني ما أذنت في سقيه ، فأنت الذي سقيته فليس له أمان عندي »٠ ثم استدعاه السلطان وعدد عليه أفعاله الدنيئة وجرائمه العديدة ووفاء منه بنذره قام اليه فضربه بالسيف فمزق كتفه ، ثم أجهز عليه المماليك واحتزوا رأسه ، وأطعموا جثته للكلاب[٢٤١] وهكذا استؤصلت شأفة مملكة بيت المقدس بقطع رأس أرناط الذي دمر برعونته بناء دولة اللاتين ٠

ثم تقدمت قوات صلاح الدين المظفرة تجتاح البلاد ، فأتم فتح قلعة طبرية التي تركها خلفه ، وكانت طبرية تقاسم على نصف الغلال في الصلت والبلقاء وجبل عوف والسواد والجولان[٢٤٢] ، وباحتلالها تخلصت هذه المناطق من المناصفات ٠ وانطلقت قوات صلاح الدين الى عكا « مظنة التجار »[٢٤٣] وأكثر مدن الساحل حصانة ، ففتحوها واستولوا على ما

---

(٢٣٩) ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢١٥ « مخطوطة » ــ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٥١ ــ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ١٩٤ ٠

Setton, A History of The Crusades, Vol. 1, PP. 610 - 615.
Atiya, Crusade Commerce and Culture, P. 79.

(٢٤٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ٠

(٢٤١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٥٢ ٠

(٢٤٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٠ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩٦ ٠

(٢٤٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٦ ٠

كانت تحتويه مخازنها من بضائع وثروات طائلة ، وقد نقل صلاح الدين قفلها بمفتاحه الى سجن قلعة الكرك ، بعد فتحها وهو كبير جدا يبلغ وزنه حمل فرس ، وبقي هذا القفل في القلعة حتى زمن ابن شاهين الظاهري (أواخر القرن التاسع الهجري) حيث يقول : « وهو بها الان عجيب من العجائب »(٢٤٤) • وبعد عكا واصل صلاح الدين فتح الساحل حتى عسقلان ثم توجه الى القدس وشدد عليها الحصار(٢٤٥) ، ودخلتها قواته بالامان في يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ (١٢ اكتوبر (تشرين أول)١١٨٧م) بعد أن سمح للفرنج بالخروج الى صور ، وهنا تظهر لنا سمة الاسلام الداعي للسلام ، فلم يقدم صلاح الدين على الانتقام كما فعل الصليبيون عند فتحهم للقدس(٢٤٦) ، مما جعل مؤرخي الغرب يلهجون بالثناء والاعجاب لخلق صلاح الدين(٢٤٧) ومروءته ومما قاله وليم الصوري المؤرخ الصليبي المعاصر : « كان رجلا حكيم المشورة ، وباسلا في الحرب ، شهما الى ابعد حدود الشهامة »(٢٤٨) •

وهكذا حررت القدس من أسارها الذي دام ما يقارب القرن من الزمان ، وكان يوما مشهودا ورفعت الاعلام الاسلامية على أسوارها(٢٤٩) وقام صلاح الدين بتنظيم الاماكن المقدسة وازالة التغييرات التي أحدثها

---

(٢٤٤) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ٤٤ •

(٢٤٥) Eracles, Recueil des Historiens, H. Occ. Vol. 2, PP. 82 - 92.

(٢٤٦) يقول المؤرخ فوشيه دي شارتر المرافق للحملة الصليبية الاولى ، أن الفرنج قتلوا في المسجد الاقصى عشرة آلاف شخص من المسلمين ، وكانت الدماء في المسجد تصل الى كاحل القدم • انظر :

Fulcher of Chartres, A History of the expedition to Jerusalem, New York, 1973 P. 122.

(٢٤٧) رانسمان : ج ٢ ، ص ٧٥٣ •

Lane Poole, Saladin, P. 233.
Setton, A History of he crusades, Vol. 1, PP. 616 - 617.
Atiya, Crusade Commerce and Culture, P. 80.

عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٨٣١ •

(٢٤٨) هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ١٢٥ •

(٢٤٩) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٩ ــ ٥٥٠ •

الصليبيون في المسجد الاقصى وقبة الصخرة ، واحتفل بفتح المسلمين لها احتفالا عظيما شهده الكثير من أرباب العلم حيث قدموا للمشاركة في شرف فتح ثالث الحرمين الشريفين ، وارتفعت الاصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير ، وفي هذا اليوم حط الصليب المنصوب على قبة الصخرة ، « وكان شكلا عظيما »(٢٥٠) • وتبارى الشعراء والادباء في تمجيد هذا الفتح ومما قاله أحدهم وهو الشريف محمد بن اسعد بن علي بن معمر الحلبي المعروف بالجواني نقيب الاشراف بالديار المقدسة :

أترى مناما ما بعينـــي أبصر	القدس تفتح والفرنجة تكسر
ومليكهم في القيــد مصفود ولـم	يرقبل ذاك لهم مليك يؤســـر
قد جاء نصر الله والفتح الذي	وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشآم وطهر القدس الذي	هو في القيامة للانام المحشـر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها	فاروقها عمر الامام الاطهر(٢٥١)

د ـ المحاولة الرابعة واستسلام الكرك والشوبك في ٥٨٤هـ ١١٨٨م :

ثم فتح معظم مدن فلسطين والساحل وقوات صلاح الدين ما تزال تحاصر الكرك والشوبك بقيادة أخيه الملك العادل في حين تولى القائد سعد الدين كمشبة الاسدي صهر الملك العادل(٢٥٢) حصار الكرك • وكانت الاميرة «أتينيت دي ميلي » أم هنفري ، وريثة أمارة الكرك وزوجة أرناط في جملة أميرات الصليبيين اللاتي عفا عنهن صلاح الدين في القدس • فقدمت اليه « مسكينة مستكينة مستعطفة مراحم السلطان مستلينة »(٢٥٣) ترجوه بابنها الذي وقع في الاسر يوم حطين وهـو هنفري بـن هنفري « سيد

(٢٥٠) ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٥٤ •

(٢٥١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٥ •

(٢٥٢) ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢١٩ « مخطوطة » ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ ـ السلامي : مختصر التواريخ ، لوحة ٣٠٨ « مخطوطة » •

(٢٥٣) العماد والكاتب : الفتح القسي ، ص ٢٠٦ •

تبنين »(٢٥٤) ، فأجابها صلاح الدين أنه لا يمانع في اطلاق سراحه اذا سلما له حصني الكرك والشوبك التي ما زالت قواته تحاصرهما ، فوافقت على ذلك • فاستقدم ابنها من دمشق وكان قد أرسله اليها مع كبار أسرى الصليبيين يصحبهم صليب الصلبوت الذي وقع في أيدي المسلمين يوم حطين ، فذهب هنفري وأمه الى حصن الكرك ومعهما قوة من أمراء المسلمين وجنودهم كي يتسلموا تلك المعاقل منهما ، وعند وصولها الى أسوار الكرك خاطبت القوة الموجودة فيها وطلبت منهم تسليم الحصن والخروج منه ، ولكنهم عصوا أمرها وأمر ولدهـا « وأفحشوا لها في خطأ الخطاب »(٢٥٥) علما بأنها كانت وريثة اقطاع الاردن وصاحبة تلك الحصون فيه ، وقد حاولت اقناعهم بكل ما لديها من أساليب الاقناع ولكنهم أغلظوا لها القول ولم يصدعوا بما أمرت • وما حدث في الكرك حدث في الشوبك فقد رفضت حاميته الاستجابة لها ، فعادت خائبة الى القدس وقد قبل صلاح الدين عذرها وخفف عنها ووعدها أن تسلم هذه الحصون فسوف يعيد اليها ابنها من الاسر ، ثم أعاده الى دمشق مع بقية الاسرى أما هي فقد أقامت بعكا مدة(٢٥٦) ، ثم رحلت ولحقت بجموع الفرنج في صور •

بقيت قوات سعد الدين كمشبة تحاصر حصني الكرك والشوبك وبعض الحصون الاخرى القريبة مثل : سلع والوعيرة وغيرها ، واشتد عليهم الحصار ، فنفذت الاقوات في حصن الكرك فاضطروا الى اخراج أطفالهم ونسائهم منه رحمة بهم ، وذلك كي يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم

(٢٥٤) ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢١٩ « مخطوطة » ـ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٣١١ ـ رانسمان : ج ٢ ، ص ٧٥٧ •

Conder, The Latin Kingdom, P. 155.

(٢٥٥) العماد الكاتب : الفتح القسي ، ص ٢٠٦ ـ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٣١٢ •

(٢٥٦) العماد الكاتب : الفتح القسي ، ص ٢٠٧ ـ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٣١٢ •

وبلغ الجوع بهم أن باعوا أنفسهم للبدو مقابل الطعام والماء[٢٥٧] ، واشتد الامر عليهم فاضطروا الى أكل لحوم الحمير والخيول والكلاب[٢٥٨] بعد أن عدمت أزوادهم وأكلوا آخر حصان لديهم[٢٥٩] . وجاءت مشكلة نضوب الماء ، فاشتد الظمأ بهم ، وعندما يئسوا من أية نجدة تأتيهم كتبوا الى الملك العادل يتوسلون اليه أن يخفف عنهم ، واستمرت الرسل تتردد بين المعسكرين ، وكان العادل قد أبدى تشددا في شروط الاستسلام لما عاناه من الضرر من هذا الحصن ومن فيه ، وأخيرا قبل العادل أن يتسلم الحصن منهم مقابل أن يسمح لهم بالخروج الى صور كما فعل صلاح الدين مع بقية الفرنج ، فأرسل العادل الى سعد الدين باستلام الحصن منهم وذلك في شهر رمضان سنة ٥٨٤هـ [٢٦٠] (نوفمبر (تشرين ثاني) ١١٨٨م) كما تسلم الحصون الواقعة الى الجنوب من البحر الميت [٢٦١] ، هرمز وسلع والوعيرة والطفيلة والجمع[٢٦٢] ، وقد دام حصار الكرك مـــدة سنة ونصف تقريبا[٢٦٣] .

---

(٢٥٧) رانسمان : ج ٢ ، ص ٧٥٧ ــ احمد بيلي : صلاح الدين الايوبي ، القاهرة ١٩٢٢م ، ص ١٥٩ .

(٢٥٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٥٧٢ .

(٢٥٩) رانسمان : ج ٢ ، ص ٧٥٨ .

(٢٦٠) أبو شامة : الروضتين ، ص ١٣٤ ــ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٥٩ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ ــ أبو الفداء : المختصر ، ص ٧٩ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٢ لوحة ٣٨٧ «مخطوطة» ــ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٣٠ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٤٢ .
Setton, A History of the Crusades, Vol. 1, P. 619.

(٢٦١) ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٨١ .

(٢٦٢) الجمع : قلعة في وادي موسى من جبال الشراة قرب الشوبك .
Le Strange, P. 466.

(٢٦٣) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧٣ ــ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٨١ .
King The Knights Hospitallers, P. 134.

أما الشوبك فلم تستسلم للمسلمين الا بعد أن نفذت منها الاقوات(٢٦٤) وتم ذلك في ربيع الاول من سنة ٥٨٥هـ(٢٦٥) (ابريل (نيسان) ١١٨٩م) بعد حصار دام سنتين(٢٦٦) تقريبا ، وكانت آخر المعاقل الصليبية في منطقة شرقي الاردن ٠

ان حصني الكرك والشوبك قد صمدا طويلا للحصار ، لم تؤثر فيهما الأسلحة وشدة القتال وضراوته ٠ لكن الجوع(٢٦٧) والعطش كانا وحدهما المعول الذي حطم كبرياء هذين المعقلين الحصينين وغيرهما من معاقل الصليبيين الحصينة في بلاد الشام ، لقد كان الجوع أشد فتكا وأكبر أثرا من رمي المجانيق والسهام وضرب السيوف والرماح ٠ وهكذا انتهت أسطورة هذا الحصن الذي تسبب في الحاق الضرر بالمسلمين ، ومنه خرجت أجرأ حملة صليبية قام بها صليبيو بلاد الشام لغزو الحجاز والاماكن المقدسة واليمن ، وعلى عاتق صاحبه تقع مسئولية نهاية مملكة بيت المقدس الصليبية(٢٦٨) ٠ وبسقوط هذه الحصون عاد الامن والسلام الى تلك المنطقة بعد فترة من الزمان تقرب من القرن عاشتها سجينة الفرنج « وأمنت قلوب من في ذلك الصُقْع من البلاد ، كالقدس وغيره ، فانهم كانوا ممن بتلك الحصون وجلين ومن شرهم مشفقين »(٢٦٩) ٠

---

(٢٦٤) Eracles, Recueil des Historiens, H. Occ. Vol. 2, P. 81.

(٢٦٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٩ ـ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٥٩ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٤٣ ٠

Setton, A History of the Crusades, Vol. 1, P. 619.

(٢٦٦) ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٨١ ـ العمري مسالك الابصار ، ج ٢ مجلد ٣ لوحة ٤٥٦ « مخطوطة » ٠

(٢٦٧) يا مخرمة : قلادة النحر لوحة ٨٠٠ « مخطوطة » ـ السلامي : مختصر التواريخ لوحة ٣٠٨ « مخطوطة » ـ رانسمان : ج ٢ ، ص ٧٥٧ ٠

Fedden, Crusader Castles, P. 37.

(٢٦٨) Conder, The Latin Kingdom, P. 147.

(٢٦٩) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٢١ ٠

(٥)

الكرك الاسلامية في الفترة الاخيرة من حياة صلاح الدين

في نهاية عام ٥٨٤ (١١٨٩م) وصل صلاح الدين الى بيت المقدس ومعه أخوه الملك العادل ، وصلى عيد الاضحى في قبة الصخرة ، وفي اليوم التالى توجه الى عسقلان للنظر في أمورها والاهتمام باحوالها باعتبارها بوابة مصر الشرقية ، ومن هناك أذن للعادل بالسفر الى مصر لمساعدة ابنه الملك العزيز وأقطعه الكرك بدلا من عسقلان التي كان قد وهبها اليه بعد فتحها • فدخلت الكرك في فلك الدولة الايوبية ، وعلى أثر ذلك اهتم العادل باعادة السمة العربية الاسلامية اليها ومحو بصمات الصليبيين من أرضها فأقيمت بها المساجد وشيدت الدور والمرافق بمدنها وقراها • وكتب القاضي الفاضل يلتمس من السلطان صلاح الدين بأن يعين خطيب جامع عيذاب خطيبا بجامع الكرك ، وكان قد هجر عيذاب لقسوة الحياة فيها وقصد الشام لما سمع بالفتوحات الصلاحية وطلب خطابة الكـرك فأجيب(٢٧٠) •

ومن ناحية أخرى تجمعت بقايا الصليبيين في صور بعدما سمح لهم صلاح الدين بالذهاب اليها بعدما فتح مدنهم وحصونهم ، وقد أدرك المؤرخون المسلمون المعاصرون هذا الخطأ الذي ارتكبه صلاح الدين بسماحه لهم بالتجمع في هذا الثغر • وقدر لصور أن تكون نقطة انطلاق صليبية لمهاجمة المسلمين من جديد ، ويعبر ابن الاثير عن ذلك بقوله : « وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين في اطلاق كل من حصره ، حتى عض بنانه ندما وأسفا حيث لم ينفعهذلك »(٢٧١) • كذلك يعلق سبط بن الجوزي قائلا : « لقد صنع السلطان الحزم بتسيير الفرنج الى صور ولم ينظر في عواقب الامور ، فان اجتماعهم بصور كان سببا لاخذهم البلاد وقتلهم بعكا من

---

(٢٧٠) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ •

(٢٧١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٢٣ •

قتلوا من الاعيان وأجناد الاسلام ، وقد كان الواجب عرضهم على الاسلام فان ابوا فالسيف وهو أصدق أنباء من الكتب ٠ واني أشبه هذه القضية بفدية الاسارى يوم بدر حيث أشار بعض الصحابة بأخذ ذلك القول وبعضهم أشار بضرب الرقاب »[٢٧٢] ٠

أحدث سقوط بيت المقدس بيد المسلمين هزة عنيفة في أوروبا وسرعان ما أعدت الحملة الصليبية الثالثة التي اشترك فيها من ملوك أوروبا ثلاثة أولهم : فردريك بربروسا امبراطور المانيا الذي قدم عن طريق القسطنطينية ولكنه غرق في الطريق ومات وتخطف المسلمون اتباعه ولم يصل منهم الا نفر قليل[٢٧٣] ، وثانيهم ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا وثالثهم فيليب اغسطس ملك فرنسا ، وحطت رحالهم أمام عكا في ربيع الثاني وجمادى الاولى من سنة ٥٨٧هـ (يونيو (حزيران) ١١٩١م) التي كان يحاصرها ملك بيت المقدس جي بجموع فرنجة الشام المجتمعين في صور ومعهم بعض الصليبيين القادمين من الغرب منذ سنة ونيف تقريبا ٠ واجتمعت حول عكا جحافل الصليبيين وشددوا الحصار ، وكان صلاح الدين قد أعلن الجهاد وجمع الجموع حول عكا ، ولكن فشلت كل محاولة لانقاذ المدينة فاستسلمت في ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ[٢٧٤] (١٢ يولية (تموز ١١٩١م) ودخلها الفرنج وغدروا بأهلها وحاميتها ، وهكذا عاد الصراع مجددا على أرض فلسطين ٠

في خضم هذا الصراع المتجدد لم تكن حركة التجارة والقوافل قد توقفت بين مصر والشام والحجاز ، بل استمرت منطقة شرقي الاردن تقوم

---

(٢٧٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٥٥ ٠

(٢٧٣) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٦٠ ٠
Atiya. Crusade, Commerce and Culture, P. 81.

(٢٧٤) عن محاصرة عكا من قبل الفرنج واستسلامها راجع : ابن شداد : سيرة صلاح الدين الايوبي ، تحقيق محمد محمود صبح من صفحة ١٦٩ الى ٢٨٢ ـ أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٨٩ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٢٨٨ ـ ٣٦١ ٠
Lane Poole, Saladin, P. 297.

بدورها كحلقة وصل بين مصر والشام وبلاد الرافدين والحجاز ، فالخطر الصليبي ما زال في فلسطين والساحل والقوافل تعبر شرقي الاردن في رواحها وغدوها كما كانت من قبل ٠ وحدث أن طلب صلاح الدين امدادا من مصر ينضم اليه للدفاع عن القدس(٢٧٥) ، ونصح هذه القوات بالاحتراز من العدو في مسيرهم ، فخرجت العساكر المصرية وبصحبتها قافلة تجارية قاصدة دمشق ، ووصلت أنباء هذه القافلة عن طريق « العرب المفسدين » الى رينشارد قلب الاسد ، فتقدم الى تل الصافية قرب الرملة لاعتراض العسكر المصري ، ولما علم السلطان بحركة الصليبيين هذه أرسل من فوره الامير فخر الدين الطنبا العادلي وشمس الدين أسلم الناصر لابلاغ العسكر بحركة الفرنج حتى يأخذوا حذرهم ويحتاطوا منهم ، فالتقوا بهم في الحسا جنوبي الكرك ٠ ولكنهم لم يقيموا فيه بل تركوه وساروا الى ماء يقال له الخويلفة(٢٧٦) حيث عسكروا هناك ، وحطت رحالهم لثقتهم أن العدو لن يطرقهم في هذا المكان ، وأقاموا ليلتهم هناك ، وطلب الامير أسلم من مقدم العسكر المصري الامير فلك الدين أخو الملك العادل لامه أن يستأنفوا السير ليلا كي يبتعدوا عن هذا المكان ٠ لكن فلك الدين خاف ان سار بهم ليلا أن يجري أمر على القافلة ، فنادى في الناس أن يقيموا في هذا المكان حتى الصباح ، فطلب منهم الامير أسلم الصعود الى الجبل ولكنهم فضلوا البقاء كما هم فصعد هو ورجاله لامضاء الليلة هناك ٠

أما رينشارد فقد اجتاز وادي عربة الى شرقي الاردن وأقام برأس وادي الحسا بانتظار القفل والعسكر ، وعندما وصلت أنباؤه من عيونه الاعراب ، ركب ومعه عدد قليل من جنده وسار حتى أتى القفل ، فطاف حوله وهو يلبس لباساً عربياً ، ولما رآهم ساكنين قد غشيهم النعاس ، عاد الى جنده وكانوا الف فارس مردفين الفا آخر ٠ وفي صبيحة يوم الثلاثاء ١١ جمادى الآخرة ٥٨٨هـ (٢٣ يونيو (حزيران) ١١٩٢م) فاجأ القفل

(٢٧٥) الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٤١ ٠

(٢٧٦) الخويلفة : اسم موضع بنواحي فلسطين (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٠١) ٠ وهناك ماء أخرى بهذا الاسم في جنوب الاردن ٠

والعسكر المصري مع تباشير الصباح وحط عليهم ، فبغت الناس ولاذوا بالفرار ، وانقسم القفل ثلاثة أقسام(٢٧٧) قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب وعسكر مصر ، وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب أيضا ، أما القسم الثالث فقد استولى عليه الصليبيون وساقوه أمامهم مع عدد من الاسرى بلغ خمسمائة أسير ٠ أما جملة ما غنموه من القفل فكان : من الجمال ثلاثة آلاف جمل ، ومن الخيل الف وخمسمائة فرس ، ومن البغال مثلها ، أما الاموال التي نهبت فكانت الفا الف دينار عينا ، وأقمشة وبضائع بما قيمته الفا الف دينار كذلك ، وكانت هذه الهزيمة على حد قول سبط بن الجوزي : « نوبة لم يجر مثلها في الاسلام »(٢٧٨) ، ولقد تألم السلطان صلاح الدين لهذا الامر واغتم ، حتى قيل أنه « ما مر بالسلطان خبر أنكى منه في قلبه ولا أكثر تشويشا لباطنه »(٢٧٩) ٠ أما الفرنج فقد كانت فرحتهم عظيمة بهذا السبي العظيم ، ارتفعت معنوياتهم وقويت نفوسهم بما استولوا عليه من الاموال والجمال التي كانت تحمل الميرة والزاد الواصلة من مصر مع عسكرها ، وعقدوا العزم على التقدم نحو بيت المقدس وفتحها ٠

فاهتم صلاح الدين بتحصين أسوار بيت المقدس وخرب ما حولها من صهاريج وآبار ، ولما شعر الفرنج باستحالة الوصول اليها والتمكن منها أخذوا يراسلون صلاح الدين في المسالمة والصلح ٠ ولقد كانت الروح الصليبية بعد الحملة الصليبية الثالثة هذه تستغل في الاغراض السياسية لصالح الملوك والاباطرة، ومن ناحية أخرى ومع الزمن نمت وازدادت الروابط بين المسلمين والمسيحيين(٢٨٠) ، ولم يجد الصليبيون حرجا في

---

(٢٧٧) عن هذه الواقعة راجع : ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٧٠ ــ ١٧١ ــ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٦٦ ــ ٢٦٨ ــ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٧ ــ ١٩٨ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٨٣ ــ ٣٨٤ ٠
Lane Poole, Saladin, P. 340.

(٢٧٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٦٦ ٠

(٢٧٩) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٧١ ٠

(٢٨٠) Lamb, The Flame of Islam, P. 268.

مسالمة المسلمين مع أنهم لم يفتحوا بيت المقدس التي قدموا من أجلها ٠ كانت الظروف ملائمة لدى كل من المسلمين والصليبيين في عقد الصلح بينهما ، فيقول سبط بن الجوزي : « وكان من أسباب الصلح أنه خاف على بيت المقدس ، والناس ملوا وعلتهم الديون »(٢٨١) ، ويعني بذلك صلاح الدين ٠ وبعد مراسلات ومشاورات طويلة اتفق الطرفان على أن يستقر بيد الصليبيين يافا وعملها وقيسارية وعملها وحيفا وعكا وعملهما ، أما البلاد الجبلية التي فيها القلاع فتبقى بيد المسلمين ، وأن تكون عسقلان خرابا وأن تكون اللد والرملة مناصفة بين الطرفين ، واشترط السلطان دخول بلاد الاسماعيلية في الهدنة ، واشترط الفرنج كذلك دخول صاحب انطاكية وطرابلس في الهدنة ، واستقرت القاعدة على ذلك وجعلت مدتها ثلاث سنوات وثلاثة أشهر تبدأ من ٢١ شعبان ٥٨٨هـ (الموافق ٢ سبتمبر (أيلول) ١١٩٢م) ، وهو ما عرف بصلح الرملة(٢٨٢) ٠ وسمح للفرنج بزيارة القدس وبحرية التجارة وتنقل القوافل بين الطرفين ، ثم أبحر ريتشارد من عكا عائدا الى بلاده بعد شهر من توقيع الهدنة ٠

كان الملك العادل صحبة أخيه السلطان صلاح الدين بالقدس ، وقام بدور كبير حتى تم الصلح بين الطرفين ، عندئذ التمس العادل من أخيه أن يعطيه البلاد الشرقية ، فوافق السلطان على أن ينزل العادل عن كل ماله في الشام ما خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ونصف اقطاعاته في

---

(٢٨١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٦٨ ٠

(٢٨٢) عن صلح الرملة : راجع : ابن الاثير : الكمل ، ج ١٢ ، ص ٨٥ – ٨٧ – أبن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢٢٥ « مخطوطة » – سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٦٨ – أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ – ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ١٧٣ – ١٧٧ ، أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٨٧ – ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٢٩ – ٣٣٠ – القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٧٧ ٠

Lane Poole, Saladin, P. 356.
Stevenson op. cit. P. 286.
Compbell. the Crusades. P. 328.
Atiya, op. cit. P. 81.

مصر . كذلك اشترط عليه أن يقدم في كل سنة ستة آلاف غرارة غلة تحمل من الصلت والبلقاء الى القدس[٢٨٣] .

وفي آخر رمضان ٥٨٨هـ (سبتمبر (أيلول) ١١٩٢م) استأذن العادل أخاه بالسفر الى الكرك كي يتفقد أموره ، فأذن له ، فمضى اليه ، واهتم العادل بالكرك اهتماما كبيرا فهي « حصنه ومستقرة »[٢٨٤] ، فقام باعادة بناء أسوار الحصن وتجديد ما يمكن تجديده[٢٨٥] ، واهتم كذلك بالمدينة ووجه اليها اهتماما خاصا ، بالاضافة الى اهتمامه بالمناطق المحيطة بالكرك وأصبحت أمارته هذه تمتد من الصلت شمالا الى العقبة جنوبا ، وكانت بلادا غنية خصبة كثيرة الخيرات ، ونستدل على ذلك من استعداده لتقديم الغلال للقدس بهذه الكميات الكبيرة . وبعد أن انتهى من اصلاحاته وتنظيماته والنظر في شئون أمارته غادرها في ذي القعدة متوجها الى البلاد الشرقية ، فالتقى بأخيه صلاح الدين في دمشق بعد عودته اليها من القدس فأقام عنده أياما ثم واصل رحلته .

عاد العادل الى دمشق في مستهل السنة التالية ، فخرج للصيد مع أخيه مدة خمسة عشر يوما وعادا ، ثم استأذن العادل السلطان بالسفر الى الكرك فأذن له فمضى اليه بعد أن ودعه ، وكان ذلك هو الوداع الاخير

---

(٢٨٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٤٤ - أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٧ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ - أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٨٥ - ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .
وقد ذكر العمري أن عدد الغرارات هي خمسة آلاف غراره (العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٢ لوحة ٣٩٦ « مخطوطة » ، ويقول الدكتور ابراهيم علي طرخان ان عدد الغرارات هي : عشرة آلاف غرارة أو ستة آلاف غرارة ، والغرارة : ١٢ كيلة . (راجع : ابراهيم علي طرخان : النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٨م ، ص ٣٩ ، ص ٥١٦) .

(٢٨٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤١٠ .

(٢٨٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٩٨ .

الذي لا لقاء بعده · ذلك أن صلاح الدين مرض فجأة واشتدت عليه العلة ففاضت روحه الى ربه صبيحة يوم الاربعاء ٢٧ صفر ٥٨٩هـ (٤ مارس (آذار) ١١٩٣م) فكان عمره ستا وخمسين سنة(٢٨٦) وأشهرا ، وكان العادل لا يزال في الكرك · وبموت صلاح الدين طويت صفحة من صفحات الخالدين الابطال في تاريخ أمتنا الماجدة ، انه انموذج حي للقائد الفذ الذي لا تكرره الايام ، انه أسطورة خالدة ستبقى في أذهان أمتنا العربية والاسلامية أبد الدهر لتعطي قادتها مثلا عظيما ونموذجا فرديا رائدا يحتذون بـه ويتمثلونه ·

---

(٢٨٦) ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢٢٥ « مخطوطة » ·

الفصل الرابع

الكرك بعد صلاح الدين

١ ـ الكرك زمن الملك العادل وابنه الملك المعظم عيسى

٢ ـ الكرك موضع مساومة بين الأيوبيين والفرنجة في دمياط

٣ ـ الشوبك ونواحيها أساس الخلاف بين الكامل محمد والناصر داود .



(١)

الكرك زمن الملك العادل والمعظم عيسى

استقر في الحكم بعد وفاة صلاح الدين كل من : الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين في دمشق والبلاد المنسوبة اليها وهي : الساحل وبيت المقدس ، وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الأعمال الى الداروم(١) . أما ولده الملك العزيز عثمان فقد انفرد بملك مصر وكان ولده الظاهر غياث الدين غازي بحلب فاستولى عليها واستقر أمره فيها وعلى جميع أعمالها مثل : حارم وتل باشر ، وأعزاز ، وبرزية ، ودربساك ومنبج وغير ذلك . هؤلاء الثلاثة هم أبناء صلاح الدين وكانت بيدهم أهم الممالك آنذاك مصر ودمشق وحلب وأعمالها . أما بقية البلاد فقد توزعها أفراد من البيت الأيوبي نذكر منهم :

١ ـ الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، وكان بيده الكرك والشوبك مضافا اليها البلاد الشرقية قاطع الفرات وهي(٢) حران والرها وسميساط والرقة وقلعة جعبر وميافارقين وديار بكر .

٢ ـ الملك العزيز سيف الاسلام ظهير الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر وقد انفرد باليمن .

٣ ـ أما الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد شيركوه فكان بيده حمص والرحبة وتدمر .

٤ ـ الملك الأمجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب وكانت من نصيبه بعلبك وأعمالها .

---

(١) الداروم : قلعة قرب غزة على الطريق المؤدي الى مصر . (Le strange P. 437)

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٧٩ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٦١ .

٥ – الملك الظافر خضر بن السلطان صلاح الدين وكانت بيده بصرى يتولاها من قبل أخيه الملك الأفضل ملك دمشق · هذا بالاضافة الى جماعة من الأمراء كانت بيدهم.بلاد وحصون منهم : سابق الدين عثمان بن الداية وكان بيده شيزر وأبو قبيس · وناصر الدين منكورس بن خمارتكين وكان يتولى صهيون وحصن برزيه · وبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق ، فكان يتولى تل باشر وعز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن المقدم وبيده بعرين وكفر طاب وحصن أفامية ، أما الأمير عز الدين أسامة الجبلي[٣] فكان بيده عجلون وكوكب الهوا · وهكذا كانت شرقي الأردن بيد الملك العادل والأمير عز الدين أسامة ·

وبعد وفاة صلاح الدين قدم الملك العادل من الكرك وأقام وظيفة العزاء[٤] لأخيه في دمشق · وبعد ذلك بعدة أيام رحل الى البلاد الشرقية عندما علم أن صاحب الموصل أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي قد تحرك لامتلاكها[٥] منتهزا فرصة موت السلطان صلاح الدين ، لكن ملوك الشام اتفقت كلمتهم على تسيير العساكر مع الملك العادل ليقف في وجه أطماع صاحب الموصل التوسعية ، فأقام في قلعة جعبر[٦] لشل أية حركة يحاول صاحب الموصل القيام بها ·

أما في دمشق فقد حسن الوزير ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير للملك الأفضل طرد أمراء أبيه والتضييق عليهم[٧] فغادر بعضهم

---

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٥١ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٥ – أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩٣ – ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ·

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٧٩ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٦ – أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩٢ – ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٠٨ – أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٢١ ·

(٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٩٨ ·

(٦) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٦ ·

(٧) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٥١ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٤ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٩٢ – ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٩ ·

دمشق الى الديار المصرية وألبوا صاحبها الملك العزيز على أخيه ، وقسم آخر رحل الى حلب حيث الملك الظاهر غازي • وبدأت الوحشة بين الأخوين الأفضل ملك دمشق والعزيز ملك مصر ، وعلى هذا النحو بدأ الخلاف والنزاع[٨] يدب بين الأخوين على أثر وفاة صلاح الدين • وعزم العزيز عثمان ملك مصر على الزحف الى دمشق وانتزاعها من أخيه ، اما بتحريض من الأمراء الناصرية الكبار الذين هاجروا من دمشق الى القاهرة وكانوا يرون ضرورة توحيد الكلمة تحت قيادة العزيز[٩] • أو غيرة على وحدة الجبهة الاسلامية بعد أن فرط بعض أمراء البيت الأيوبي في الحفاظ عليها ، كصاحب جبيل الذي سلمها للفرنج[١٠] والأفضل الذي تقاعس عن استردادها وأساء السيرة في دمشق ورفض الانصياع لأوامر أخيه العزيز بترك بيت المقدس[١١] • أو بتوجيه من بعض الناصحين أمثال الأمير عز الدين أسامة الجبلي صاحب عجلون الذي نصح العزيز بقوله : «أقصد البلاد فانها في يدك ، قبل أن يحصل في الدولة من الفساد مالا يمكن تلافيه»[١٢] •

سار العزيز من مصر في سنة ٥٩٠هـ (١١٩٤م) قاصدا دمشق ، فنزل بالقصير[١٣] من الغور (الشونة الشمالية الحالية) ، ثم زحف الى دمشق ، فلما علم الأفضل بذلك أرسل يستنجد بعمه الملك العادل ، فقدم من البلاد الشرقية ومعه صاحب حلب وصاحب حماة وصاحب حمص وجمع من أمراء البيت الأيوبي • ولما شعر العزيز باستحالة فتح دمشق جنح الى

---

(٨) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، بيروت ١٩٢٧ ، ص ٢٥ •

(٩) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ •

(١٠) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٦ ــ جبيل : احدى الثغور في ساحل الشام ، وهي مدينة تقع على بعد ١٨ ميلا شمالي بيروت أخذها الصليبيون سنة ٤٩٦هـ (١١٠٣م) واستعادها صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) وبها قلعة حصينة (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١١١) •
(Le strange. P. 464)

(١١) ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٢٤ •

(١٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١١٨ •

(١٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٣٠ •

السلم واتفقوا : أن يكون البيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز ، وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها والغور للأفضل ، أما الملك الظاهر غازي صاحب حلب فقد أخذ جبلة واللاذقية من أخيه الأفضل ، وأما الملك العادل فقد رد اليه اقطاعه(١٤) الأول في مصر الذي كان له على أيام صلاح الدين وزوج ابنته من العزيز ابن أخيه(١٥)٠وعلى أثر ذلك عاد الملك العزيز الى مصر وعاد المتحالفون كل الى بلده بعد أن اقتطعوا أجزاء من مملكة الأفضل ٠

تتابع الأحداث وتتوالى وتتطور لصالح العادل ، ازدادت الوحشة بين الأخوين العزيز والأفضل وأشعل أوارها المماليك الصلاحية والأسدية(١٦)٠فسار العزيز مرة أخرى في السنة التالية ٥٩١هـ (١١٩٥م) لامتلاك دمشق فاستنجد الأفضل بعمه العادل الذي أسرع بالقدوم وسخر قدرته ودهاءه للوصول الى أهدافه فأوقع الانقسام في صفوف العزيز ، فانحاز الأسدية الى العادل والأفضل(١٧) وحسنوا اليهما المسير الى مصر وامتلاكها من العزيز على أن يبقى الأفضل فيها ويعطي العادل دمشق ٠ وعندما شعر العزيز بالخطر غادر دمشق عائدا الى مملكته في مصر ٠

سار العادل والأفضل قاصدين الديار المصرية ، ولكن العادل خشي أن يستحوذ الأفضل على السلطان دونه ، فينكث بوعده ويستأثر بالشام ومصر معا(١٨) ٠ عندئذ قرر اصطناع الحيلة وزين للأفضل أن

---

(١٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١١٠ ــ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٩ ــ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٨٠ ٠

(١٥) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٨٠ ٠

(١٦) الاسدية : هم مماليك اسد الدين شيركوه وحواشيه الاكراد ، وكان مقدم الاكراد الاسدية ــ أبو الهيجاء السمين (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٢٣) ٠ الصلاحية : أو الناصرية هم موالي السلطان صلاح الدين الايوبي ، وكان مقدمهم فخر الدين جهاركس (ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٣٥) ٠

(١٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٤٦ ــ ٤٧ ٠

(١٨) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١١٩ ــ ١٢٠ ــ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٣٢ ٠

ليس من الحكمة أن يتقاتل مـع أخيه ، وبمساعي القاضي الفاضل تـم الصلح بينهما ، وعاد الأفضل الى دمشق وبقي العادل بمصر وعفا العزيز عن الأسدية(١٩) ٠

بدأ العادل ينفذ وهـو بمصر خطتـه التي كان يهدف مـن ورائهـا الظفر بالسلطنة ، فما زال بالعزيز حتى أقنعه بانتزاع دمشق من الأفضل واسناد ولايتهـا اليـه ، وبالفعل سارا الى دمشق وحاصراها في رجب ٥٩٢هـ (يونيو (حزيران) ١١٩٦م) ، الا أن الأفضل لم يصمد للحصار وسئم أهل دمشق حكمـه وضاقوا بوزيره ابن الأثـير فراسلوا العزيز والعادل ، فدخلا دمشق يوم الأربعاء ٤ شعبان «فما صدهم أحد»(٢٠) ٠ وتم الصلح على أن يتولى الأفضل صرخد وتصبح دمشق بيد العادل ، ثم عاد العزيز الى مصر في التاسع من شعبان ٠

أصبحت دمشق بيد العادل وهذه أول خطوة في اعادة توحيد البلاد تحت حكمه وسيطرته ، الا أنه أبقى الخطبة والسكة باسم العزيز «وأشاع أنه نائب العزيز»(٢١) وأخذ يعمل على تحقيق آماله وطموحه ٠ كان العادل يحكم دمشق والكرك والبلاد الشرقية وهو عبء كبير عليه ، ولذلك فقد عين ابنه الملك المعظم عيسى نائبا عنه في الكرك منذ سنة ٥٩٢هـ (١١٩٦م) ثم عاد فولاه دمشق في سنة ٥٩٤هـ (١١٩٨م) ٠ وكان الملك العزيز قـد خلع عليه وخصه(٢٢) بالسنجق واللواء هذا العام أيضا ، فدخل المعظم دمشق وقد قرت به العيون وكان أعز أولاد العادل عنده وأدناهم منزلة لديه وأقربهم لقلبه ، لذا خصه بدمشق والكرك منذ هذه السنة ٠

وفجأة توفي الملك العزيز ملك مصر في ٢٠ محرم سنة ٥٩٥هـ (١٧ أكتوبر (تشرين أول) ١١٩٨م) وانقسم مماليكه وخاصته الى فريقين :

---

(١٩) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ ٠
(٢٠) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ٠
(٢١) أبو شامة : الروضتين ، ح ٢ ، ص ٢٣١ ٠
(٢٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٩٣ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ ٠

فريق كان يؤيد الأفضل وآثر أن يدعوه الى القاهرة ليعتلي دست السلطنة. وفريق فضل أن يستقر الأمر للعادل الذي كان ما يزال يحاصر ماردين . وتمكن الأفضل من ملك مصر على أنه أتابك ابن أخيه الملك المنصور محمد ابن العزيز وكان عمره اذ ذاك تسع سنوات[٢٣] وشهورا . ولكن المماليك الناصرية نفروا من الأفضل وراسلوا العادل يستدعونه اليهم ليدخلوا معه مصر ليملكوها[٢٤] .

تكون تحالف من الأفضل والظاهر غازي ملك حلب وابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد صاحب حمص[٢٥] وقرروا انتزاع دمشق من العادل وحاصروه ستة أشهر قاسية ، الا أن العادل استغل مواهبه فأوقع بين الأفضل وأخيه الظاهر غازي ملك حلب[٢٦] فانسحبوا وفشلت جهود الأفضل في احتلال دمشق . أما العادل فقد خرج من هذه المحنة أقوى مركزا وأشد عودا ،، واستجاب لنداء المماليك الصلاحية بالاسراع لامتلاك مصر وانتزاعها من الأفضل ، وعند بلبيس هزم العادل الأفضل[٢٧] فراسله بالصلح ، عندئذ طلب منه مغادرة مصر الى الشام وأعطاه ميافارقين وأعمالها وجبل جور وحاني والمعاقل والحصون المسحوبة من ميافارقين ولكنه لم يف له به[٢٨] . فسار الأفضل الى الشام في السابع عشر من ربيع الآخر، وفي اليوم التالي دخل العادل القاهرة واستقر بدار السلطنة على أنه أتابك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان وأبقى الخطبة له كي يضمن رضاء الناصرية . ثم استقدم العادل ابنه الكامل محمد وكان بدمشق كي يستنيبه

---

(٢٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠٠ .

(٢٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٤٢ .

(٢٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٤٣ ـ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٩٧ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠٠ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٣٥ .

(٢٦) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٢٧) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

(٢٨) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠٣ .

في مصر ، فودع الملك المعظم عيسى أخاه عند رأس الماء[٢٩] وسار الكامل الى مصر فلاقاه والده في العباسية في الحادي والعشرين من رمضان ٠ وفي يوم الاثنين السابع عشر من شوال قطع العادل الخطبة عن الملك المنصور محمد بن العزيز وجعلها له ولابنه الكامل ٠ وهكذا استقل العادل في السلطنة وأعاد توحيد البلاد الاسلامية كما كانت على عهد أخيه صلاح الدين وحقق ما كان يخشاه صلاح الدين وهو انتقال السلطة الى الملك العادل وأبنائه ، وكان صلاح الدين قد نبه وحذر منه[٣٠] ، وخطب للعادل بكل بلاد الشام ومصر والبلاد الشرقية ٠ وكان الملك الظاهر صاحب حلب قد صالح عمه على أن يخطب له بحلب وبلادها وأن يضرب السكة باسمه ، واشترط عليه العادل أن يقدم خمسمائة فارس[٣١] من خيار عسكر حلب في خدمته ان خرج للجهاد وقبل الملك الظاهر غازي بذلك ، واستقرت الأمور والأحوال على ذلك ٠

ولكن الأمور ساءت مرة أخرى واتفق الأفضل والظاهر غازي عـلى محاربة العادل وساعدهما الأمراء الصلاحية[٣٢] لغضبهما من عزل الملك المنصور بن العزيز ٠ وحاصر المتحالفون دمشق مدة شهرين وبها المعظم عيسى ، فأسرع العادل قادما من مصر وأقام في نابلس[٣٣] وأرسل من هناك قوة لمساعدة المعظم عيسى في دمشق ، ولكنهم فشلوا في اقتحامها بعد أن أوقع العادل بين الأخوين فرفعا الحصار عنها في أول المحرم ٥٩٨هـ (أكتوبر (تشرين أول) ١٢٠١م) ٠ فتقدم العادل الى دمشق ثم اتجه الى

---

(٢٩) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٠٣ ٠

(٣٠) ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ٢٠٦ ٠

(٣١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠٣ ٠

(٣٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٦١ ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠٥ ــ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٣٧ ٠

(٣٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٦١ ــ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٠٩ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٢٥ ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠٥ ــ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٤٨ ــ (ويذكر المقريزي ان العادل وصل الى دمشق قبل وصول الافضل والظاهر اليها وانهما حاصراه فيها ٠ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٥٥) ٠

حماة وتظاهر بأنه ينوي المسير الى حلب فخاف الظاهر وانتظم الصلح بينهما : على أن يكون للعادل مصر ودمشق والسواحل وبيت المقدس وجميع ما بيده ويد أولاده من بلاد الشرق ، وأن يكون للظاهر حلب وأعمالها ، وللمنصور حماة وأعمالها ، وللمجاهد حمص والرحبة وتدمر ، وللأمجد بعلبك وأعمالها ، وللأفضل سميساط وقلعة نجم وسروج ورأس عين[٣٤] • وأن يكون الملك العادل سلطان البلاد جميعها وحلفوا على ذلك ، فخطب للعادل بحلب في يوم الجمعة حادي عشر جمادى الآخرة من هذه السنة • وجهز العادل ابنه الأشرف مظفر الدين موسى الى الجزيرة ليتسلم حران والرها وأعمالهما ويستقر بالجزيرة ، على أن يأخذ أخوه الأوحد أيوب ميافارقين ، وجعل ابنه الحافظ نور الدين أرسلان بقلعة جعبر • أما دمشق والكرك فقد تولاها ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى ، وأما الكامل محمد فقد اختاره وليا لعهده في مصر ، وعاد العادل الى دمشق «وقد اتفقت كلمة بني أيوب»[٣٥] •

وجه الملك المعظم اهتماما خاصا لامارة الكرك «شرقي الأردن» وعمل على توطيد الأمن والاطمئنان في ربوع هذه الديار من اليرموك شمالا حتى خليج العقبة جنوبا •

وكان العادل قد اتخذ في الكرك نائبا عنه هو ابنه الملك المعظم عيسى، وفي سنة ٥٩٤هـ (١١٩٨م) جعل العادل المعظم نائبه في دمشق ، أي أن المعظم أضاف دمشق[٣٦] الى الكرك بحيث أصبحت أملاكه تمتد من حمص شمالا الى العريش جنوبا وكان يدخل في ولايته بلاد الساحل ، وبلاد الغور وأرض فلسطين والقدس والكرك والشوبك وصرخد[٣٧] • ولكنه اختص

(٣٤) ثم انتزع العادل من الافضل سروج ورأس عين ، كما أخذ منه أخوه الظاهر قلعة نجم ، ولم يبق مع الافضل سوى سميساط فقط ، وبقي فيها الى ان توفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من صفر سنة ٦٢٢هـ (ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ٢٠٠ ــ ٢٠١ ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠٩) •

(٣٥) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٥٩ •

(٣٦) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٧٥ •

(٣٧) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٦٨ •

امارة الكرك باهتمامه ورعايته وترك في عمرانها بصماته ، فنقل اليها الصناع والعمال وجعلها مدينة تكتفي بنفسها ولا تحتاج الى غيرها[٣٨] ، كذلك مصرها وجملها وأغناها بالمباني والمنشآت وأقام بها التحصينات العديدة • وطبعها بطابع اسلامي خالص ، كما وجه عناية خاصة الى القرى المحيطة بالكرك وكانت قد تأثرت بالهجمات المتوالية التي أخذ صلاح الدين يشنها عليها عندما وجه ضربته القاضية الى مملكة بيت المقدس وقيامه بمحاصرة أرناط في الكرك ، فأحرق هذه القرى وقطع أشجارها وأخرب ديارها وغور مياهها وانتسف مزارعها • فقام المعظم باعادة تنظيم هذه القرى فاهتم بمساعدة الأهالي في زراعة الأشجار وتنظيم الزروع والثمار[٣٩] ، كما وجه عنايته بمصادر المياه فأجرى اليها عيون المياه العذبة وحفر الآبار والصهاريج فعادت الحياة هادئة مطمئنة الى هذه الديار وازدهرت القرى وعمرت •

كذلك اهتم المعظم عيسى بترميم ما تهدم من قلعة الشوبك الحصينة وعمل على تجميل القلعة والمدينة وتدعيم تحصيناتهما[٤٠] • وكانت القلعة قد تضررت كثيرا بسبب الحصار الطويل الذي دام ما يقارب السنتين حتى استسلمت حاميتها الصليبية ، كما تأثرت زروعها وأشجارها بهجمات المقاتلين ، ولهذا اهتم الملك المعظم بنقل الأشجار الى الشوبك من سائر الأقطار وغرسها ، وكان في واديها عينان احداهما عن يمين القلعة والأخرى عن يسارها[٤١] ، ومن مياههما تروي البساتين الواقعة حولها[٤٢] • ويقول العمري: إن الشوبك غدت من جراء هذا الاهتمام تضاهي دمشق في خضرتها وكثرة بساتينها وتدفق المياه فيها ، بل وتفوقها بطيب هوائها[٤٣] •

---

(٣٨) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧٤ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ٢ مجلد ٣ لوحة ٤٥٦ « مخطوطة » •

(٣٩) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧٤ •

(٤٠) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٨٠ •

(٤١) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٥٦ •

(٤٢) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٤٧ •

(٤٣) العمري : مسالك الابصار ، ج ٢ ، مجلد ٣ لوحة ٤٥٦ « مخطوطة » •

لم يترك الملك المعظم أي جزء من منطقة شرقي الأردن الا ووجه اليه عنايته وحرص على سلامة وأمن الطرق بين الشام ومصر ، وضرب على أيدي اللصوص وقطاع الطريق ٠ فقد حدث أن مرت من البلقاء قافلة بها عدد من جواري الملك المعظم ، وعند مرورها بالقرب من الصلت تعرض لها جماعة من بني رحمان(٤٤) سكان قرية مجاورة تسمى «كفر يهوذا» فهاجموا القافلة وسبوا الجواري وأخذوا بعضهن ٠ ولما وصل النبأ الى الملك المعظم غضب غضبا شديدا وأعد حملة قادها بنفسه وهاجم القرية واستأصل أهلها جزاء ما فعلوه ٠ وتأمينا لسلامة المسالك المؤدية الى الشام ومصر والحجاز رأى الملك المعظم ضرورة بناء قلعة في هذا المكان تشرف على الطريق في هذه المنطقة بالذات لمنع تحركات العصاة ووضع حد لمنتهكي الأمن من بني رحمان أو غيرهم ٠ فاختار رأس جبل يعرف برأس الأميركي يبني عليه القلعة الجديدة ، وكان موضعها شعراء ملتفة فأمر بقطعها وبنى عليها قلعة الصلت(٤٥) ، وأصبحت هذه القلعة تتحكم بالمنطقة الممتدة من الصلت الى غور الأردن ٠ وكان تحت القلعة عين ماء واسعة يجري ماؤها حتى يدخل بلدة الصلت ، البلدة العامرة الآهلة بالسكان ، ذات البساتين العديدة الغنية بأصناف الفواكه المختلفة ٠

ومن أمثلة حرصه على نشر الأمن في البلاد ما فعله كذلك مع قاطع طريق اسمه قنديل كان قد استأثر بالأغوار من بيسان شمالا(٤٦) حتى أريحا جنوبا ، وقد شكل هذا عصابة من مائة شخص وأخذ يضايق الناس والقوافل في تلك المنطقة ٠ وكان الملك المعظم يتنقل بين أجزاء مملكته فينتقل من دمشق الى القدس عن طريق الأغوار ، فيمر بحوران ثم بمنطقة الأردن الشمالي حيث أربد ثم ينزل الى القصير وبيسان ويسير في وادي الأردن

---

(٤٤) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٨٤ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ٢ قسم ٣ لوحة ٤٤١ « مخطوطة » ٠

(٤٥) الصلت : اسم روماني مأخوذ من الكلمة اللاتينية "Saltus" ومعناها الغابة ٠

(٤٦) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٢٩ ٠

جنوبا حتى أريحا ثم القدس ، وكان من عادته أن يبيت ليلة واحدة(٤٧) وهو في طريقه من دمشق الى القدس • وصل المعظم الى بيسان صباحا ومكث هناك مستريحا حتى تناول الغداء ، ثم واصل مسيره الى القدس ، وبعد خروجه من بيسان بمسافة قليلة اعترضه قنديل برجاله ولم يكن مع الملك المعظم سوى عشرة من الخيالة • ويروي سبط بن الجوزي على لسان المعظم عندما رأى قنديل حيث يقول «فوقفت وصحت فيه ولك أنت قنديل ؟ قال : نعم ، وبيده قوس لو ضرب بسهمه الجبل لنفذ منه»(٤٨). فأمر المعظم بعض مماليكه بالنزول وطلب منه أن يكتفه بوتر قوسه ، فكتفه وهرب أصحاب قنديل ، ولما وصل القدس أحضر قنديل أمامه فأمر بشنقه • وكان شابا مليحا شجاعا ، ولكن قنديل طلب من الملك المعظم أن يستبقيه ، وقال له : أتركني أحمي بلادك وأجاهد الكفار بين يديك ، فرق قلب المعظم اليه وخلع عليه وأطلقه وعاد الى الغور ، فأقام فيه هذه المرة بصفته حارسا للأمن بعد أن كان قاطع طريق ، فأمنت الطريق وحفظت الأموال وعم الأمن والسلام ربوع الأغوار ، وظل قنديل يقوم بهذه المهام حتى استشهد في الطور عند دفاعه عنه ومحاربته للصليبيين(٤٩).

كذلك اهتم المعظم عيسى اهتماما خاصا براحة الحجاج الشاميين وأمنهم أثناء مرورهم في أرض امارته فعمل على توفير كل وسائل الراحة والاطمئنان لهم • فقام ببناء حمامين بمدينة معان في جنوب الأردن أحدهما للرجال والآخر للنساء أباحهما للحجاج بدون مقابل(٥٠) ، كذلك أعد لهم دور الضيافة هناك عند رواحهم الى مكة أو غدوهم منها ، وأوقف لذلك أوقافا خاصة في الساحل • كذلك نظم الطريق الذي يسلكه الحجاج الى

---

(٤٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٣٠ •

(٤٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٣٠ •

(٤٩) الطور : جبل مطل على الناصرة بنى عليه المعظم حصنا سنة ٦٠٧هـ وانفق عليه أموالا لا تحصى ، وكمل هذا الحصن في سنة ونصف (راجع : سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٥٦ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١١٣) •

(٥٠) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٢٩ ـ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، دمشق ١٩٤٨م ، ج ١ ، ص ٥٨٤ •

الحجاز وقام بغرسه من باب الجابية بدمشق الى مكة · كما قام بحفر البرك والمصانع لخدمتهم ، وكان ينوي بناء دور في كل منزلة[٥١] ينزلها الحجاج ولو عاش «لسار الناس الى مكة بغير دليل»[٥٢] · وجريا على سياسته أقام عددا من القلاع والحصون على طول الطريق المسلوكة الى الديار المقدسة تحفظ القوافل السائرة فيها وتحرسها · كذلك اهتم بالمزارات في مؤتة جنوبي الكرك ، فقام ببناء المساجد هناك[٥٣] وهيأ للزوار والقادمين وسائل الراحة ، فبنى لهم دور الضيافة مدة اقامتهم هناك وأوقف لذلك الأوقاف الكافية ·

وفي القسم الشمالي من الامارة تبرز مدينة عجلون ، وكانت اقطاعا للأمير عز الدين أسامة أحد كبار الأمراء الصلاحية ، وهي مبنية على جبل عوف الذي كان ينزله قوم من بني عوف من جرم قضاعة ، فنسب الجبل اليهم · واستوطن بنو عوف هذا المكان في أول امتلاك الفاطميين لبلاد الشام ، وكانوا أولي بأس ونجدة ، ولكنهم كانوا يتصارعون فيما بينهم بسبب تشعب قبائلهم «ولم يدخلوا تحت طاعة»[٥٤] ، حتى بنى عز الدين أسامة قلعة عجلون · وعندما شرع في بنائها منعوه وقاوموه ، ولكنه اصطنع معهم اللين والسياسة وأوهمهم أنه انما يبني هذه القلعة لتحميهم من عدوان الفرنج ، فاقتنعوا بذلك ووافقوه وساعدوه في بنائها ، وعندما اكتمل بنيان القلعة استدعى عز الدين مشايخ ووجوه قبائل بني عوف ، وأقام لهم سماطا كبيرا ، وبعد أن انتهوا من تناول الطعام أمر غلمانه بالقاء القبض عليهم وحبسهم فيها «فدخلوا تحت الطاعة»[٥٥] ولم يزل حصن عجلون بيد عز الدين أسامة حتى سنة ٦٠٨هـ [٥٦] (١٢١١م) ·

---

(٥١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٥٨٤ ·

(٥٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٢٩ ·

(٥٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٢٩ – النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٥٨٤ ·

(٥٤) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٨٦ ·

(٥٥) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٨٦ ·

(٥٦) ذكر بعض المؤرخين ان هذه الحادثة كانت سنة ٦٠٩هـ (راجع : ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٠٠ – ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ١٦١ – ابن آيبك :

وحدث أن اتهم العادل عز الدين أسامة بالخيانة ، ونسب اليه مكاتبات الى الملـك الظاهـر غازي صاحب حلب[٥٧] ، فاستقدمـه الى القاهرة ، وتصادف أن اجتمع العادل بأولاده الفائز والكامل والمعظم بدمياط في هذه الآونة ، فانتهز أسامة هذه الفرصة ، فخرج من القاهرة في آخر جمادى الآخرة متظاهرا بأنه يتصيد وعندما ابتعد عنها أسرع في المسير مع مماليكه نحو عجلون ليعتصم فيها • والظاهر أن والي بلبيس رآه يمر قريبا من بلبيس فأسرع بارسال بطائق الحمام الى العادل بدمياط وأخبره بوجهة عز الدين ومماليكه • فانزعج العادل لذلك وقال لأبنائه : «من ساق خلفه فله أمواله وقلاعه»[٥٨] ، فقال المعظم أنا أفعل ذلك ، وركب من دمياط في غرة رجب وكان بصحبته سبط بن الجوزي المؤرخ المعروف ، فتركه صحبة أهله وحاشيته ، وأسرع المعظم ومعه ثمانية من مماليكه الذين يعتمد عليهم خلف أسامة[٥٩] ، وقطع مسافة ثمانية أيام في ثلاثة أيام فقط ، وبذا سبق أسامة •

كان مماليك أسامة قد تقطعوا عنه وبقي وحده ، وكان مصابا بمرض النقرس[٦٠] ، فوصل الى الداروم ، أما المعظم فقد وزع عيونه وأتباعه ومسك عليه من البحر الى الزرقاء ، وحدث أن رأى أحد الصيادين أسامة في نواحي الداروم فعرفه ، فدفع اليه أسامة مبلغ ألف دينار ليوصله الى

= كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٧٢ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٦٣ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٠٥) اما سبط بن الجوزي فقد ذكر انها في سنة ٦٠٨هـ لانه كان مع المعظم عند خروجه من مصر وشارك في هذه الحادثة ، ووافقه ابن واصل في ذلك (راجع : سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ـ ٢١٠) •

(٥٧) النويري : نهاية الارب في فنون الادب ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة ، ج ٢٧ لوحة ١٦ •

(٥٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٦٦ ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٧ « مخطوطة » •

(٥٩) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٧ « مخطوطة » •

(٦٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٧ « مخطوطة » •

عجلون . سار الصياد به ومعه بعض رفاقه قاصدين عجلون مرورا بطريق الخليل ، ودخلوا به الى بيت المقدس في السادس من شهر رجب ، وكان المعظم قد سبقه في الوصول في اليوم الثالث من رجب وأخذ يرقبه ويترقبه ومع ذلك فقد كان المعظم يخشى أن يصادفه مماليكه فيرمونـه بسهـم ويقتلونه ، فكان يقول : «ما كنت خائفا الا أن يصادفني في الطريق غلمانه فيقتلوني»(٦١) . حتى اذا ما تأكد من انصراف رجال أسامة عنه ألقى القبض عليه وأنزله في كنيسة صهيون الواقعة خارج المدينة(٦٢) ، ثـم أرسل اليه طعاما وشرابا وأخذ يلاطفه ويتودد اليه ، وقال له : أنت شيخ كبير وبك مرض النقرس ولا تصلح لك القلاع والحصون . وطلب منه أن يسلم اليه عجلون وكوكب الهوا على أن يبقى لـه كل أموالـه ومماليكه وأن يقضي بقية حياته معهم كالوالد لهم ، ولكنه امتنع وشتم المعظم وأغلظ له القول . ولما يئس المعظم من قبوله اقتاده تحت الحراسة الى الكرك حيث سجنه ، وبقي هناك حتى مات ، واستولى المعظم على قلاعه وأمواله وذخائره وخيله ومن جملتها داره الشهيرة بدمشق وحمامه داخل باب السلامة(٦٣) ، وكانت قيمة ما أخذه ألف ألف دينار(٦٤) . أما حصن كوكب الهوا فقد حاصره المعظم وانتزعه من نواب عز الدين أسامة وأمر بهدمه بعد أن نقل جميع ما به من ذخائر(٦٥) الى حصن الطور الذي بناه الملك المعظم في سنة ٦٠٧هـ (١٢١٠م) ، أما قلعة عجلون فقد أبقي عليها .

وكان اهتمام الملك المعظم بمنطقة الأغوار شديدا ، فقد جعل من هذه المنطقة مكانا يقضي فيه وقت شتائه(٦٦) «مشتى» تجنبا لبرد دمشق

---

(٦١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٦٦ .

(٦٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٦٣ – ويقول النويري : انها ضيعة بالقدس (النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٧ « مخطوطة ») .

(٦٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٢ – ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٦٣ .

(٦٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ . ص ٣٦٧ – النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٧ « مخطوطة » .

(٦٥) ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٧٢ .

(٦٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٨١ .

القارس ، اذ أن هذه المنطقة تمتاز بانخفاضها عن مستوى سطح البحر وبارتفاع درجة حرارتها صيفا واعتدالها شتاء ، ولا زالت الأغوار حتى اليوم مشتى أردنيا مقصودا .

وكانت امارة الكرك حتى بعد أن ضمت دمشق الى المعظم أثيرة لديه يتردد عليها كثيرا باعتبارها مخزنا له وحرزا وحصنا يحفظه وأمواله وأهله . كانت حصون الأردن وقلاعه مخازن لذخيرته وسلاحه يطلبها فيجدها عند الحاجة . وحدث في فترات اقامته بالكرك وتغيبه عن دمشق أن نشط في دمشق شخص يدعى ابن الكعكي ، كون حزبا وأعوانا كانوا ينزلون على الناس في البساتين يقتلون وينهبون ، ثم اتصل هذا بالملك الصالح اسماعيل[٦٧] وكان ببصرى واتفق معه أن يستولي له على دمشق في فترة غياب المعظم في الكرك ، عندئذ كتب المعظم الى والي دمشق[٦٨] يأمره بالقبض على ابن الكعكي وشنقه ، فصلب في العشر الأواخر من رمضان سنة ٦٢٢هـ .

وكان سكان الأردن خليطا من المسلمين والنصارى ، ولكن كان أغلب سكان الشوبك من النصارى[٦٩] . وقد نزح عدد كبير من سكان شرقي الأردن النصارى الى القدس وخصوصا من أرض البلقاء وعمان ، وعرفوا هناك بالمشرقيين لأنهم قدموا من المنطقة الواقعة شرقي القدس ، وقد استقر هؤلاء في محلة المشارقة ببيت المقدس[٧٠] . وكان هؤلاء النصارى عربا شدهم شعور الوطنية الصادقة الى مساعدة اخوانهم في العروبة ضد الغزاة الصليبيين ، وقد قاموا بتقديم الخدمات الجليلة للملك المعظم ، كما حدث

---

(٦٧) هو الصالح عماد الدين اسماعيل بن العادل ، كان صاحب بصرى والسواد وهو في خدمة اخيه الملك المعظم ، ثم صار صاحب بعلبك . وقد انتزع دمشق من ابن اخيه الصالح نجم الدين ايوب سنة ٦٣٧هـ وصار سلطانها (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٦ - أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٠٦) .

(٦٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤١٨ .

(٦٩) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٤٧ القرماني : اخبار الدول وآثار الاول ، ص ٤٥٧ .

(٧٠) ابن القفطي : تاريخ الحكماء ، ليبزج ١٩٠٣م ، ص ٣٧٨ .

في عكا ذلك أنه كان للمعظم أعوان منهم في عكا من جملتهم نساء الخيالة(٧١) ، وكانت نوافذ بيوتهم تقابل جبل الكرمل المطل على عكا · فاذا خرج الفرنج من عكا وعزموا على مهاجمة المسلمين تفتح المرأة الطاقة وتشعل بها شموعا تدل على مائة فارس ، فان كان العدد مائتين أوقدت شمعتين وهكذا · فان كانوا يريدون قصد حوران ، أو ناحية دمشق أو نابلس أشارت الى تلك الناحية ، وكان الذين يتسلمون هذه الاشارات في جبل الكرمل يرسلونها بواسطة النيران المتعارف عليها حتى تصل الى الملك المعظم سواء كان في نابلس أم في دمشق ·

وكان رجال الدين من متنصرة العرب يحرصون كل الحرص على مقاومة الغزاة الصليبيين وبذل كل ما أمكنهم من خدمات لاخوانهم في العروبة ، فقد ورد الى سعد الدين مسعود والي الشوبك كتاب من الملك المعظم عيسى يطلب اليه فيه أن ينفي راهبا كان يقيم منفردا في صومعته في بعض جبال الشوبك ، فقام الوالي بنفيه تلبية لأوامر الملك المعظم ، فغادر الراهب الشوبك الى جهة غير معلومة · وبعد عام كامل عاد الراهب الى الشوبك ومعه كتاب من الملك المعظم نفسه يطلب الى الوالي فيه أن يعيده الى مكانه ، وأمره أن يحسن معاملته وأن يكرمه وأوصاه به خيرا · أثار هذا التصرف فضول الوالي سعد الدين وأراد أن يعرف قصة هذا الراهب الذي نفي أولا وأكرم ثانيا ، فبحث عن جلية الأمر وأرسل وراء الراهب وسأله عن أمره ، فقال له : ان الملك المعظم «قد بعثه الى البحر» كي يكشف له أخبار الامبراطور على وجهها(٧٢) · والواقع أن خلافا وقع بين الملك المعظم عيسى وأخيه الملك الكامل ملك مصر ، فاستنجد الأخير بالامبراطور فردريك الثاني ووعده باعطائه القدس ان ساعده في حربه ضد أخيه الملك المعظم عيسى،ولذلك أراد المعظم أن يعرف أخبار الامبراطور فردريك حتى لا يؤخذ على غرة ، فأرسل الراهب الشوبكي الى صقلية كي يعرف حقيقة أمر هذا التحالف ويرسل اليه بأنبائه ، وقد قام هذا الراهب

(٧١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٢٦ ·

(٧٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٢٧ ·

بالمهمة خير قيام ولم يكتشف أمره أحد · وقد تظاهر المعظم بنفيه ابعادا للشك من حوله ، وعندما عاد الراهب الى دمشق منحه الملك المعظم أرضا في الشوبك يعيش منها وأعطاه مائة دينار أخرى · هذه صورة من صور تعاون عرب الأردن المسيحيين مع اخوانهم المسلمين في رحلة نضالهم الطويلة ضد الصليبيين ·

كذلك اهتم المعظم بالعلم والعلماء ورتب لهم العطاء الكثير(٧٣) ، فأقام عدد منهم في الكرك التي أصبحت عاصمته الثانية بعد دمشق ، فقد نزلها العالم سبط بن الجوزي(٧٤) مؤلف تاريخ مرآة الزمان فترة من الوقت كذلك كان لديه طبيب خاص مقيم بالكرك هو أبو الفضل بن أبي سليمان(٧٥) وكان طبيبا مشهورا في صناعة الطب وعالما به متميزا في المعالجة والمداواة وغيرهما كثير ·

---

(٧٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٢٧ ·

(٧٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٧٣ ·

(٧٥) أبو الفضل بن ابي سليمان : ولد سنة ٥٦٠هـ وتوفي سنة ٦٤٤هـ ، وخدم الملك المعظم ، وبعد وفاته خدم اخاه الملك الكامل وتوفي بالديار المصرية (راجع : ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، القاهرة ١٨٨٢م ، ج ٢ ، ص ١٢٣) ·

(٢)

الكرك موضع مساومة بين الأيوبيين والفرنج في دمياط

استطاع الملك العادل أن يعيد بناء الجبهة الاسلامية كما كانت عليه زمن أخيه السلطان صلاح الدين ، فأصبحت البلاد كلها تحت سلطانه يهيمن عليها هو وأبناؤه وهو من ورائهم يراقب ويوجه «وصار هو يتنقل في ممالك أولاده والعمدة في كل الممالك عليه»(٧٦) • هذه الجهود العظيمة التي بذلها العادل لتوحيد الجبهة الاسلامية من جديد أقلقت دول الغرب الأوروبي وأزعجته ، اذ كانت هذه الدول تسعى الى تفتيت العالم الاسلامي وتمزيق وحدته حتى لا يقوى على الصمود فينفذون من خلال الثغرات ويحققون أهدافهم في استعادة أمجادهم واسترجاع القدس وغيرها • ولهذا تجددت الدعوة في أوروبا للقيام بحملة صليبية جديدة لوقف العادل عند حده واجهاض قوته وتحطيمها وكانت مصر في نظرهم تمثل مركز الثقل أو القلب الذي ينبض بحياة الأمة الاسلامية • ومن هذا المنطلق عهدوا الى توجيه هذه الحملة المرتقبة الى مصر لتدميرها فلا تقوم للعالم الاسلامي والعربي بعدها قائمة • وهكذا تشكلت الحملة الصليبية التي عرفت بالحملة الرابعة ولكنها انحرفت الى القسطنطينية في سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٢م) ولم تصل الى مصر أو الشام • ويرى المؤرخون أن العادل بذل جهدا كبيرا في تغيير خط سيرها(٧٧) باتفاقه مع البنادقة حيث منح تجارتهم مزايا استثنائية مقابل أن يعمل دوج البندقية بنفوذه الكبير على ابعادها ، وبالفعل تمكن دوج البندقية من تحويل مسارها وأبعد خطرها عن العادل ودولته •

ولما يئس الصليبيون في الشام من وصول حملة جديدة اليهم وبلغهم انحراف الحملة الصليبية الرابعة عن مقصدها في الوقت الذي وقفت فيه

---

(٧٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٢٧ •

(٧٧) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٣٣ – الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ، اسكندرية ١٩٦٧م ، ج ٢ ، ص ٩٩ •

جموع الفرنجة أمام حشود المسلمين في مرج عكا[78] جنحوا الى السلم وترددت الرسل بين الملك العادل وعموري الثاني لوزجنان ملك الفرنجة ، وتقرر الصلح بين الطرفين سنة ٦٠١هـ (١٢٠٤م) وبموجب هذه الهدنة تنازل لهم العادل عن يافا وعن مناصفات[79] اللد والرملة كما أعطاهم الناصرة[80] أيضا ، ثم رحل العادل الى مصر بالعساكر المصرية وكان قد استدعاها لمحاربة الصليبيين وتفرقت العساكر الشامية كل الى بلده ·

أصبح الملك العادل سيد الموقف في بلاد الشرق الاسلامي ودانت له البلاد من الفرات الى النيل ، وساد الأمن والاستقرار ربوع دولته ، وكان لا بد أن يحظى بالتقليد والتشريف من الخليفة في بغداد كي يضفي على ملكه نوعا من الشرعية · فلما كانت سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) أرسل الخليفة الامام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله (٥٧٥_٦٢٢هـ/١١٨٠_١٢٢٥م) رسوله الشيخ شهاب الدين السهروردي[81] الى العادل وكان يزور دمشق آنذاك ، فلبس العادل خلعة الخليفة في يوم مشهود أعد لمثل هذه المناسبة ونثر الذهب بين يديه · وكانت الخلعة جبة أطلس أسود مطرزة بالذهب وعمامة سوداء بطراز مذهب ، وطوق ذهب مجوهر تطوق به الملك العادل وسيف جميع قرابه ملبس ذهبا ، بالاضافة الى حصان أشهب بمركب ذهب ، ونشر على رأسه علم أسود مكتوب فيه بالبياض اسم الخليفة ،

---

(٧٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٦٢ ·

(٧٩) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٦٢ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١١١ ـ القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٧٧ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٦٤ ـ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٥٣ ـ عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٤٦ ـ لم تذكر المصادر شيئا عن مدة هذه الهدنة ، فقال ابن الاثير في الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٩٤ : « فاصطلح هو والفرنج » · واما ابن واصل فيقول : « تقررت بينهم وبينه الهدنة مدة اتفق عليها » مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٦٢ ـ اما المقريزي في السلوك ، ج ١ ، ص ١٦٤ · « وتقررت الهدنة مدة » · اما المراجع الاوروبية فتذكر انها ست سنوات (عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٤٦) ·

(٨٠) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٩٤ ·

(٨١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٨٠ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١١٤ ـ ١١٥ ـ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٦٤ ·

وأرسل اليه الخليفة مع هذه الخلعة تقليدا بالبلاد التي تحت حكمه ، وخوطب بشاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين(٨٢) . أما أبناء الملك العادل فقد خلع رسول الخليفة على كل من الملك الأشرف والملك المعظم عيسى عمامة سوداء وثوبا أسود واسع الكم . ثم غادر الرسول دمشق متوجها الى القاهرة حيث خلع على الملك الكامل محمد مثل أخويه وجري فيها نظير ما جرى بدمشق من الاحتفال ، وبعد اتمام هذه المراسم عاد الرسول الى بغداد بعد أن قام الملك العادل بتكريمه وتعظيمه .

واعتلى عرش بيت المقدس حنادي بريين Jean de Brienne في سنة ٦٠٧هـ (١٢١٠م) وشرع عهده بتجديد الهدنة مع العادل لمدة ست سنوات أخرى . ولكن فرسان الداوية حاولوا نقض هذه الهدنة ، فأرسل الملك المعظم الذ يكان مقيما بنابلس يطلب المدد من دمشق ، وبلغ الحماس بأهل دمشق مبلغا عظيما وقامت النساء بقص شعورهن لتجعل في قيد الخيول ، وشارك في هذه الحملة المؤرخ سبط بن الجوزي والتقاهم المعظم خارج نابلس فاجتمعوا بجامعها ، وأحضرت الشعور فأخذها المعظم وجعلها على صدره ووجهه وجعل يبكي . ثم خرجت الجموع الى بلاد الفرنج فخربوا ديارهم وقطعوا أشجارهم(٨٣) وأسروا جماعة وقتلوا آخرين ولكن الداوية لم يجرؤوا على الخروج ورضخوا للهدنة المعقودة . وبعد أيام قفل المعظم عائدا وعندما وصل الى الطور وهو الجبل المطل على الناصرة رأى أن يؤسس قلعة هناك تحمي منطقة الجليل والأغوار ، ولهذا طلب أخاه الملك الأشرف وعساكر الشرق وحلب(٨٤) وشرع في عمارة قلعة الطور المنيعة ، وقد أنفق عليها أموالا طائلة(٨٥) وكمل بناؤها في سنة ونصف وتم شحنها بالرجال والذخائر والأسلحة .

---

(٨٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٨٢ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١١٥ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٨٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٥٥ .

(٨٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٥٦ .

(٨٥) الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١١٣ .

كان ملك الفرنج حنادي بريين قد انتهز فترة الهدنة التالية وأخذ في تصفية بعض المشاكل الداخلية لدى الصليبيين ، وكانت تختمر في رأسه فكرة غزو مصر وكان يمني نفسه بحملة تنتهي بفتح أبواب بيت المقدس وهو حلم راود الصليبيين من قبله وبعده ، ولكنهم فشلوا جميعا في تحقيقه ، أرسل دي بريين الرسل الى رومة يطلب الدعوة لارسال حملة جديدة(٨٦) ، ووصلت جموع هذه الحملة الى عكا(٨٧) سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧م) .

وكان العادل في مصر عندما بلغه نبأ وصول الحملة ، فخرج مسرعا الى الشام ، فوصل الى الرملة ثم الى اللد ، ولما علم الفرنج بقدومه خرجوا من عكا لملاقاته وكانوا في خمسة عشر ألفا . وسار العادل نحوهم فوصل الى نابلس وكان ينوي أن يسبقهم الى البلاد التي تلي عكا حتى يحميها منهم ولكنهم سبقوه اليها ونزلوا على عين جالوت ، أما العادل فقد نزل في بيسان في غور الأردن فتقدم الفرنج اليه في شعبان عازمين على محاربته وكانوا يعلمون أنه في قلة من العسكر ، اذ كانت عساكره متفرقة في البلاد . ورأى العادل ألا يلقاهم وهو في فئة قليلة لا قبل لها بهم خوفا من هزيمة نكراء تلحق به(٨٨) . وكان العادل حازما شديد الحذر ، لذا انسحب من أمامهم فاعترضه ابنه الملك المعظم عيسى ولكنه شتمه باللغة الكردية وسأله قائلا : «بمن أقاتل»(٨٩) . وساق العادل فعبر الشريعة (أي نهر الأردن) وصعد المرتفعات الشرقية لوادي الأردن واتجه الى عجلون ثم مضى الى حوران وعسكر بالفوار(٩٠) . ثم أرسل يطلب العساكر من بلاد الشرق وانتقل الى مرج الصفر قرب دمشق ونزل فيه حتى تتجمع القوات لديه

---

(٨٦) ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ، ص ٣٤٤ .

(٨٧) كان معظم جموع هذه الحملة من الهنغاريين والالمان بقيادة ليوبولد السادس دوج النمسا ، وأندرية الثاني ملك هنغاريا ، وقد لحق بهما هيو ملك قبرص .

(٨٨) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٢ ، ص ٣٢١ .

(٨٩) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨٣ .

(٩٠) Recueil des Historiens, des croisade H.. orientaux, Vol. 4, Pr. 160 - 161.

هناك . أما الفرنج فتقدموا نحو بيسان ، «وبها الأسواق والغلال والمواشي شيء لا يعلمه الا الله تعالى»[٩١] فاستولوا عليها ثم تقدموا الى القصير (الشونة حاليا) وارتفعوا الى عقبة الكرسي الواقعة شرقي القصير ومنها وصلوا الى زحر[٩٢] ونواحيها وعاثوا في شمال الأردن (محافظة اربد الحالية) ووصلوا الى الجولان ثم الى خسفين ونوى[٩٣] ونازلوا بانياس وأقاموا هناك ثلاثة أيام ينهبون ويقتلون ويأسرون وقد تهيأ أهل دمشق واستعدوا للحصار[٩٤] . ولكن الفرنج عادوا فنزلوا الغور يجرون وراءهم كميات هائلة من الأسلاب والسبايا والأسرى ، ثم ساروا الى حصن الطور ونزلوا أدناه يوم الأربعاء ٢٠ شعبان وظلوا يحاصرونه حتى اليوم الثاني من رمضان . واستبسلت حامية حصن الطور في الدفاع عنه واستشهد عدد من أبطاله ، ولما يئس الفرنج من فتحه رحلوا عنه طالبين عكا في يوم الخميس السادس من رمضان . كان الملك المعظم عيسى عند انسحاب والده قد توجه بقواته فنزل على عتبة اللُّبن بين نابلس ورام الله كي يحمي القدس[٩٥] من أية محاولة يقوم بها الفرنج لاحتلالها أو التقدم نحوها . وبعد رحيل الفرنج الى عكا نزل الملك المعظم الى الطور وأبدى أسفه على شهدائه وقام بتوزيع الأموال على حاميته وطيب قلوبهم وأمر باصلاح ما تهدم منه . ثم أخذت الأنباء تتوارد على الملك العادل بأن جموع الصليبيين تكاثرت في عكا وأن خطرهم قد أصبح عظيما لذلك اهتم السلطان الملك العادل بتحصين سائر الثغور الاسلامية وعمائرها[٩٦] ، أما الصليبيون فبعد أن اكتملت جموعهم في عكا أبحر بهم حنا دي برين الى الديار المصرية .

---

(٩١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٨٣ .

(٩٢) زحر : قرية تقع في المرتفعات الشرقية لغور الاردن تقابل بيسان وبين القصير واربد . « وهي قرية موجودة حتى اليوم في محافظة اربد » .

(٩٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٢١ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٨٢ – ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٣٤ – ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٧٦ – ٧٧ – المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٨٧ .

(٩٤) الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

(٩٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٢٢ – سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٨٣ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٥٦ – المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

(٩٦) ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٨٧ .

حطت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة حنا دي بريين(٩٧) عند دمياط في شهر صفر سنة ٦١٥هـ (مايو (أيار) ١٢١٨م) ، وكان هدف الحملة القضاء على مركز المقاومة الأول في مصر تمهيدا لانتزاع القدس(٩٨) ، وهذا ما عبر عنه المؤرخ ابن واصل حيث يقول : «ان الملك الناصر صلاح الدين انما استولى على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر ، وتقويته برجالها ، فالمصلحة أولا أن نقصد مصر ونملكها ، وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد فصمموا عزمهم على ذلك(٩٩) . أسرع الملك الكامل بالتقدم لمواجهة الفرنج وعسكرت قواته في العادلية(١٠٠) . شدد الفرنج هجومهم على برج السلسلة(١٠١) الذي وصفه المؤرخون بأنــه «قفل الديار المصريــة»(١٠٢) «واستمات المدافعون عنه ، وبعد شهور ثلاثة سقط في أيدي الفرنج في جمادى الأولى ٦١٥هـ (أغسطس (آب) ١٢١٨م) وتمهد الطريق أمامهم ، للتقدم عبر النيل الى داخل الأراضي المصرية . الا أن الكامل أغرق بعض المراكب في مجرى النيل ليمنع تقدمهم(١٠٣) ، وأرسل بسبعين رسولا لجميع أنحاء العالم الاسلامي يطلب النجدة ويستحثهم على المساعدة والعون «ويخوفهم من تغلب الفرنج على مصر ، فانه متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها»(١٠٤) .

---

(٩٧) Eracles, Recueil des Historiens des Croisades, H. occ. vol. 2. P. 329.

(٩٨) Campbell. The crusades. PP. 382 - 383.

(٩٩) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ .

(١٠٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٦٠ — ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٤٤ .

(١٠١) برج السلسلة : برج كبير منيع يقع في بر الجيزة المقابلة للعادلية وبينهما نهر النيل ، تمتد منه سلاسل غليظة من الحديد الى سور دمياط لتمنع المراكب من دخول النيل والتغلغل داخل البلاد (ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٢٣) .

(١٠٢) ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٩٦ — ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٧٩ .

(١٠٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٢٣ .

(١٠٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٩٥ — ١٩٦ .

كان العادل في مرج الصفر يرسل الامدادات واحدة تلو الأخرى الى ابنه الملك الكامل في مصر ، وقام المعظم بهجمات موفقة ضد الفرنج في الساحل الفلسطيني (١٠٥) . ومن جهة أخرى رأى الملك العادل ضرورة هدم حصن الطور الذي بناه الملك المعظم قبل سنوات خشية أن يستولي عليه الفرنج فيكون «سببا لخراب الشام»(١٠٦) . فلم يوافق الملك المعظم على ذلك وبقي أياما لا يدخل على والده ، ولكن العادل أرضاه بمال دفعه اليه ووعده باقطاع في مصر ، فأجابه الى ذلك ، وأرسل من هدم القلعة وسويت بالأرض . أما ما فيها من الذخائر والعدد فقد نقلت الى قلعتي عجلون والكرك(١٠٧) وقسم آخر الى القدس ودمشق . وأثناء وجود العادل على مرج الصفر كتب اليه الكامل يخبره بسقوط برج السلسلة ويطلب منه النجدة ويستصرخه ، تأثر العادل لسقوط البرج وتألم لذلك «فدق يده على صدره ومرض مرض الموت»(١٠٨) ، ثم رحل الى عالقين احدى قرى دمشق عند عقبة فيق(١٠٩) وعلى فراسخ من دمشق واشتد عليه المرض هناك ، وتوفي في السابع مـن جمادى الآخرة ٦١٥هـ(١١١) (٣١ أغسطس (آب) ١٢١٨م) . فقدم الملك المعظم عيسى عند علمه بنبأ الوفاة ونقل والده الى دمشق حيث دفنه واستولى على ما كان لوالده من الجواهر النفيسة والسلاح والذخائر والخيول والأثقال وغير ذلك ، وكان في خزانة الملك العادل لما توفي سبعمائة ألف دينار عينا(١١٢) ، وكان له بالكرك ضعف هذا المبلغ ،

---

(١٠٥) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٨٩ .

(١٠٦) Recueil des Historiens des croisades, H. orientaux, vol. 4, P. 165.
وانظر أيضا :
Eracles, Recueil des Historiens, H. occ. vol. 2, PP. 330 - 331.

(١٠٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٨٩ ـ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٩٥ .

(١٠٨) Recueil des Historiens des croisades H. orientaux, vol. 4, P. 166.

(١٠٩) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٦ ـ السلامي : مختصر التواريخ ، لوحة ٣١٢ « مخطوطة » .

(١١٠) ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢٣١ « مخطوطة » .

(١١١) Eracles Recueil Historiens, H. occ. vol. 2, P. 330.

(١١٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٧٦ ـ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٩٧ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٧ ـ ابن الوردي : المختصر ، ج ٢ ، ص ١٣٦ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٤٥ .

كله أخذه الملك المعظم واحتواه ٠ وكان الملك العادل أقوى شخصية أيوبية تولت السلطة بعد صلاح الديـن وعرف بحكمته ومقدرته عـلى المناورة والخديعة ، كذلك كانت له دراية كبيرة بالحرب وفنونها ، ويروي أن أحد المصنفين وضع كتابا في مكائد الحروب وقدمه للسلطان صلاح الدين عندما كان يحاصر عكا فقال : «لا نحتاج لهذا مع وجود الملك العادل»(١١٣) ٠

كان لنبأ وفاة العادل آثار بعيدة على معنويات المسلمين في دمياط «فضعفت نفوس الناس»(١١٤) ٠ أما بالنسبة للفرنج فقد كان له دوي هائل وقوبل بالفرح والبهجة اذ كان الفرنج ينظرون للعادل على أنه أقوى قائد في الجبهة الاسلامية(١١٥) ٠ وترتب على وفاة العادل انقسام خطير في الجبهة الاسلامية ، فقد تجرأ عماد الدين أحمد بن علي بن المشطوب أحد أمراء الأكراد الهكارية بمصر واتفق مع لفيف كبير من الأمراء كانوا ينقادون اليه واتفقوا عـلى خلع الملك الكامل وتوليـة أخيـه الملك الفائز ابراهيم بن العادل(١١٦) ليتمكنوا من خلاله حكم البلاد ٠ وصلت أنباء المؤامرة الى الملك الكامل فانتقل مع بعض أتباعه ليلا من العادلية الى أشموم طناح ونزل هناك ، ولما أصبح الصباح دب الفزع والفوضى في صفوف الجيش عندما أبصروا مخيم الملك الكامل خاليا ، فركب كل على هواه وفارقوا المكان وتركوا خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم ٠

كان فريق من الفرنج قد رحلوا من دمياط بعد استيلائهم على(١١٧) برج السلسلة ، في حين قدمت امدادات هائلة من أوروبا يقودها الكاردينال

---

(١١٣) ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ٢٠٦ ٠

(١١٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٢٤ ٠

(١١٥) Compbell, the crusades, P. 284.

(١١٦) ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ٣٩٢ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٦ – ١٧ – أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٧ – ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٤٥ – المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٤٩ ٠ Stevenson, op. cit. P. 304.

(١١٧) Campbell, The crusades, P. 383.

بلاجيوس[118] مبعوث البابا والقائد العام للحملة الصليبية على مصر ، ومن هنا بدأ النزاع بين ملك بيت المقدس حنا دي بريين والكاردينال بلاجيوس مما سيؤثر على سير الحملة ونتائجها فيما بعد . وقد استطاع الفرنج بعد جهود مضنية القضاء على كل ما اعترضهم من مشكلات في طريقهم وواصلوا تقدمهم حتى أصبحوا في مواجهة العادلية التي كان يخيم فيها الملك الكامل ، ثم عبروا النيل الى بردمياط في العشرين من ذي القعدة ٦١٥هـ (٦ فبراير ١٢١٩م) بغير مقاومة وغنموا كل ما في معسكر المسلمين[119] «فكان عظيما يعجز العادين»[120] . وهكذا وصل الفرنج الى دمياط وأحدقوا بها وأحكموا عليها الحصار .

ازدادت الوحشة بين الكامل وجنده واشتد خوفه ولم يعد يثق بأحد من عساكره وصار يفكر جديا في مغادرة الديار المصرية الى اليمن[121] حيث كان يتولى أمرها ابنه الملك المسعود صلاح الدين يوسف . ويقول ابن الأثير أن الكامل لو فعل ذلك لاستولى الصليبيون على مصر ولكان «الفرنج ملكوا الجميع بغير تعب ولا مشقة»[122] ، ولكن تشاء الأقدار أن لا تحدث هذه الكارثة . فبعد يومين فقط من هذه الحركة[123] وصل الملك المعظم

---

(١١٨) Campbell, The crusades, P. 384.

(١١٩) ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ج ٣٩٣ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧ – ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٤٥ – المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

Lane Poole, A History of Egypt, P. 221.

(١٢٠) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٢٥ .

(١٢١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٩٦ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧ .

Recueil des Historiens des croisades, H. Orientaux, vol. 4, P. 175.

ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ١٩٩ – أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٧ – ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .

(١٢٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٢٥ – ويقول ابن الفوطي : « لو أخذت مصر لما بقي بالشام معهم ملك لاحد » « راجع : ابن الفوطي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابقة . بغداد ١٣٥١هـ ، ص ١٠٨) .

(١٢٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٢٥ – ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ٣٩٣ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧ – المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

عيسى من الشام نجدة لأخيه الكامل وكان وصوله فرجا لأخيه وللبلاد بعد الشدة ، واشتد أزر الكامل به وشكا اليه ما فعله ابن المشطوب • ورأى المعظم ضرورة استئصال رأس الأفعى ، فاحتال على ابن المشطوب وأخرجه بعيدا عن المعسكر بنية الافضاء اليه بأمور هامة ، وهناك أسلمه لبعض غلمانه وأعطاه خمسمائة دينار(١٢٤) وقال له : ان الأشرف يطلبك فسر اليه • فسار الى دمشق ثم حماة ووصل الى الأشرف في البلاد الشرقية فأكرمه ثم خامر عليه وكاتب صاحب الروم(١٢٥) ، وبقي هناك حتى توفي وبذلك انتهت هذه المؤامرة وقضى عليها المعظم بحكمته وشجاعته • أما الملك الفائز ابراهيم فأرسل في مهمـــة الى الملوك الأيوبيـــة بالشـــام والشرق(١٢٦) طلبا لامداداتهم ، وكان الغرض اخراجه من مصر كذلك ، فمضى الى دمشق ثم حماة ثم بلاد الشرق ولكنه اعتل بين سنجار والموصل ومات هناك وقيل مات مسموما فرد الى سنجار حيث دفن ، وبذا انتظم أمر الكامل وقوي ساعده وترتبت قواعد ملكه(١٢٧) •

عاد الملك المعظم عيسى الى الشام وقد لمس مقدار الخطر الذي يتهدد المسلمين بسبب حصار الفرنج لدمياط ، ورأى من جانبه أن لا قدرة له بمواجهة الفرنج في الشام والدفاع عن القدس لو قدمت جموع صليبية جديدة من أوروبا • والظاهر أنه رأى أن جهود المسلمين يجب أن تركز في الدفاع عن مصر وأبعاد الفرنج عنها ، فلجأ من جانبه الى تخريب الحصون والقلاع بالشام حتى لا يتحصن فيها الفرنج فيصعب على المسلمين بعد ذلك اجلاؤهم عنها • فخرب قلعة تبنين(١٢٨) ثم بانياس بالاضافة الى القلعة

---

(١٢٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٩٦ •

(١٢٥) Recueil des Historiens des Croisades, H. Orientaux, vol. 4, P. 176.

(١٢٦) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٠١ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٨ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٩٧ •

(١٢٧) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٩٨ •

(١٢٨) Eracles, Recueil des Historiens des croisades, H. occ. vol. 2, P. 339..
الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١١٧ ـ السيوطي : اتحاف الاخصا في فضائل المسجد الاقصى ، مخطوطة بمكتبة بلدية الاسكندرية رقم ٣٢١٧ لوحة ٨٠ ـ بامخرمة • قلادة النحر في وفيات اعيان الدهر ، ج ٣ قسم ١ لوحة ٨٣٦ « مخطوطة » •

التي كان قد خربها من قبل ، أما بالنسبة لبيت المقدس فقد وصلته أنباء أن هناك طائفة من الفرنج تهدف الى احتلالها(١٢٩) • وكان يتولى القدس أخوه العزيز عثمان(١٣٠) وعز الدين آيبك الاستادار صاحب صرخد(١٣١) ، فأرسل يامرهما بهدم أسوار بيت المقدس ، ولكنهما أجاباه بأن في مقدورهما مواقعة الفرنج • غير أن المعظم عيسى رأى غير ذلك ، فانهم ان استولوا على بيت المقدس لقتلوا كل من فيه كما حدث في الحملة الصليبية الأولى ولبسطوا سيطرتهم على دمشق وبلاد الشام(١٣٢) • وفي نفس الوقت لم يكن في مقدوره الدفاع عنها بسبب تفرق القوات الأيوبية ووجود قوات مصر والشام في دمياط ، ثم ان الأشرف كان في شغل شاغل عنهم بحربه مع ملوك وأمراء الموصل والبلاد الشرقية(١٣٣) • وهكذا شرع المعظم في أول شهر المحرم من سنة ٦١٦هـ (مارس (آذار) ١٢١٩م) في هدم أسوار القدس ، فهدمهما جميعا ما عدا برج داود(١٣٤) الواقع غربي المدينة فقد أبقاه كما هو • ومع أن عمل الملك المعظم عيسى كان من قبيل الحيطة فحسب الا أن أهل القدس ذعروا لذلك أشد الذعر ، وضجت البلد وخرج الناس رجالا ونساء شيوخا وشبابا وأطفالا الى الصخرة والمسجد الأقصى متضرعين محتمين ، أما النساء فقد قطعن شعورهن وخرج

---

(١٢٩) Recueil des Historiens des croisades, H. orientaux, vol. 4, P. 173.
أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ ــ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٢٦ « مخطوطة » ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤٥ •

(١٣٠) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٩٥ ــ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٠٢ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤٥ •

(١٣١) الاستادارية : وموضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان ، وهو الذي يمشي بطلب السلطان ويحكم في غلمانه وباب داره ، وفي عهد المماليك صارت الاستادارية احدى وظائف ارباب السيوف (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠) •

(١٣٢) Recueil des Historiens des croisades, H. orientaux, vol. 4, P. 174.

(١٣٣) ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ٣٩٤ ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣١ •

(١٣٤) Eracles, Recueil des Historiens, H. occ. vol. 2, P. 339.
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣٢ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٠٤ •

الناس من القدس هاربين لا يلوون على شيء تاركين وراءهم كل ما يملكون « وما شكوا أن الفرنج تصبحهم(١٣٥) ، وتوجهوا خارجين من القدس واتجهوا في ثلاثة مسالك : قسم توجه الى مصر ، وقسم توجه الى الكرك والآخرون توجهوا الى دمشق(١٣٦) . ويصف المؤرخ المعاصر سبط بن الجوزي هذه الحادثة فيقول : «والبنات المخدرات يمزقن ثيابهن ويربطنها على أرجلهن من الحفا ، ومات خلق كثير من الجوع ومن العطش ، وكانت نوبة لم تكن في الاسلام ، ونهبت الأموال التي كانت لهم في القدس ، وبلغ قنطار الزيت عشرة دراهم ، والنحاس الرطل بنصف درهم»(١٣٧) .

وبينما كان الفرنج يواصلون حصارهم لدمياط كانت محادثات الصلح تجري بين الطرفين ، وكان الملك الكامل على يقين من أن الفرنج ان احتلوا دمياط وملكوها لن يقف أمامهم مانع من التقدم نحو القاهرة . فحاول شراء الصليبيين ورأى أن تنازله للصليبيين عن بعض المواقع الشامية أفضل من فقدان القاهرة والديار المصرية ، فعرض عليهم عرضا سخيا يقضي بأن يتنازل لهم عن القدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين الأيوبي من الفرنج بالساحل الشامي ما عدا الكرك والشوبك(١٣٨) ، مقابل الانسحاب من دمياط ، وأتبع عرضه باستعداده التام لاعادة الصليب المقدس الذي كان صلاح الدين قد ظفر به في موقعة حطين منذ ثلاثين سنة مضت تقريبا(١٣٩) .

---

(١٣٥) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٩٥ .

(١٣٦) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٩٥ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٠٢ – أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤٥ .

(١٣٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٩٥ .

(١٣٨) Eracles, Recueil des Historiens, H. occ. vol. 2, P. 338.
ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٢٩ – ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ٣٩٤ – ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٩٥ – ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٠٩ – ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٤٢ – ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٩٥ – ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ – القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٤١٣ – المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٢ – الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٥٦ .

(١٣٩) Lane Poole, A History of Egypt, P. 222, King, The Knights Hospitallers, P. 194.
Campbell, The crusades, P. 385.

ولكن هذا العرض السخي لم يلق قبولا حسنا من الصليبيين ، بل زادهم غطرسة وغرورا ، وبالغوا في الطلب فأصروا على اضافة الكرك والشوبك[١٤٠] الى ما سبق عرضه ، بالاضافة الى مبلغ من المال قدره ثلاثمائة ألف دينار[١٤١] لاعادة تعمير أسوار القدس التي هدمها الملك المعظم عيسى · ولكن المسلمين بطبيعة الحال لم يقبلوا ذلك ، فالكرك والشوبك كانت أكثر مناطق الشام حيوية لهم ، فان سلمت للفرنج مع بيت المقدس والساحل لأحكم الصليبيون قبضتهم على طرق المواصلات بين دمشق والقاهرة ولاستطاعوا تمزيق الوحدة الاسلامية وانعزلت دمشق عن القاهرة ولعادت الأمور الى مثل ما كانت عليه قبل أن يحرر صلاح الدين امارة الكرك وهو أمر كانوا يهدفون اليه ويسعون الى تحقيقه · ورفض المسلمين لمقترحات الفرنج يعبر في حد ذاته عن الأهمية الكبرى التي تتمتع بها منطقة جنوب الأردن كحلقة ربط ووصل بين أجزاء العالم العربي على الرغم من استعدادهم للتفريط في القدس ومدن الساحل ، أي أن المسلمين كانوا على استعداد للتضحية بالقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية مقابل دمياط في حين رفضوا التضحية بالكرك والشوبك ·

والواقع أن الفرنج انقسموا أمام هذه العروض المغرية الى قسمين : فالملك حنا دي بريين ملك بيت المقدس وجد في هذا العرض فرصة طيبة يستطيع من خلالها استعادة مملكة بيت المقدس وممتلكاتها الى ما كانت عليه قبل أن يستولي عليها صلاح الدين وقد أيده في رغبته هذه كثير من

(١٤٠) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٢٩ ـ ويقول ابن واصل : « لا بد من تسليم الكرك والشوبك » (راجع : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٩٥) ·

(١٤١) ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ٣٩٤ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٩٥ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣٦ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ ـ القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٤١٣ ـ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٥٦ ـ ويقول المقريزي : « انها خمسمائة الف دينار » (السلوك ، ج ١ ، ص ٢٠٧) ·

البارونات(١٤٢) واعتبروا جميعا شروط المعاهدة مشجعة وسخية • أما الداوية والاسبتارية(١٤٣) الذين كانوا يملكون الشوبك والكرك يوما ما وعرفوا أهمية كل من الحصنين الاستراتيجية والعسكرية من حيث احكامها السيطرة على طرق الاتصال والقوافل بين أجزاء العالم الاسلامي ، كذلك عرفوا القيمة الحربية التي تتمتع بها هذه الاجزاء بالنسبة للقدس باعتبارها خط الدفاع الأول عن القدس ، فقد رفضوا العرض وبالغوا في التشدد ورأوا أن ترك دمياط وصمة عار في وجه كل فارس منهم ، كذلك فان العار والفضيحة سوف تدمغ كل أفراد القوات المشتركة في هذه الحملة ، بالاضافة الى أنهم تساءلوا كيف يمكن أن نثق بكلمة المسلمين ومن يضمن ذلك ؟؟! وأشاروا الى أن الطريقة الوحيدة التي يمكن الحصول بها على مكاسب من المسلمين هي استعمال القوة واصطناع الصبر ، فبالقوة يفرضون ارادتهم ويحققون رغباتهم كذلك وبالصبر والتأني يسهل عليهم الاستيلاء على دمياط وأنها لا بد وأن تسقط ان أحكموا الحصار وشددوه ، وان فتحت دمياط فالطريق لفتح الديار المصرية والأراضي المقدسة يصبح ممهدا(١٤٤) • واقتنع بلاجيوس مندوب البابا بوجهة النظر الاسبتارية ، وهكذا تغلبت جبهة الرفض الصليبية وتم رفض ما عرضه المسلمون عليهم ، ثم شدد الفرنج الحصار على دمياط وعانى سكانها الشدائد العظيمة ، وصبروا صبرا لم يسمع مثله(١٤٥) ، وأخيرا سلمت دمياط الباسلة ، فدخلها الفرنج في ٢٧ شعبان ٦١٦هـ (٥ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٢١٩م) بعد حصار دام ثمانية عشر شهرا • وبعد أن عجز الكامل والمعظم عيسى عن انقاذها دون أن يقصرا في الدفاع عنها(١٤٦) ، وتفنن الصليبيون في تعذيب سكانها والتنكيل بهم بعد أن أمنوهم •

---

(١٤٢) Campbell, The Crusades, P. 386.

(١٤٣) Eracles, Recueil des Historiens des croisades, H. occ. vol. 2, P. 338.

(١٤٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣٣ •
Campbell, The crusades, P. 386.

(١٤٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٢٦ •

(١٤٦) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٩٦ •

وأحدث سقوط دمياط دويا هائلا في العالم الاسلامي ، وأثار مشاعر الحزن والأسى في نفوس المسلمين ، وكان بامكان الفرنج الاستيلاء على القدس لو أنهم أرادوا ذلك ، اذ كانت بلاد الشام مكشوفة تماما لا تحميها قوات اسلامية ، ولو أنهم استولوا على القدس لكان في مقدورهم السيطرة على فلسطين كلها • ولكنهم انقسموا مرة ثانية ، فريق كان يرى التوجه الى القدس وهم الأقلية ، وفريق آخر رأوا أن أبواب القاهرة أصبحت على مرأى من أبصارهم وأن الطريق أصبح ممهدا ومن الخير استغلال نصرهم في دمياط لاسقاط القاهرة ، أما الفريق الثالث فقد كانوا يفضلون التريث بعض الوقت على الأقل ليروا عن ما يسفر عنه الموقف ، فقد تذكر هؤلاء أنهم لم يكونوا من القوة بحيث يقومون بمثل هذا العمل الكبير وهو حصار القاهرة واحتلالها • وتغلب رأي بلاجيوس الذي يتزعم الفريق الثاني ، وكان بلاجيوس هذا مجرد راهب لا تتوفر له الدراية الكافية بالأمور العسكرية والسياسية ، والظاهر أنه اغتر بانتصار الفرنج في دمياط ورأى أنه من الحمق الانسحاب عن مصر وتركها بعد أن أصبحت القاهرة عاصمة الدولة مهددة(١٤٧) ، ورأى أن قوة القاهرة يمكن تحطيمها بهجوم قوي مركز سريع • أما الملك حنا دي برين الذي كان يشعر بالمرارة من هذا الانقسام الذي آلت اليه قيادة الحملة فقد صرح بأن لدى الصليبيين فرصة ضئيلة في امتلاك القاهرة واحتلال الديار المصرية واخضاعها ، وحتى لو فتحت مصر ، كيف يمكن لهذه البلاد الواسعة الشاسعة أن تحكم بهذه الأعداد القليلة من الصليبيين(١٤٨) ؟ لقد أدرك حنا دي برين عامل الكثافة البشرية وأهميته بالنسبة للمحتل الدخيل وأن بمقدور هذه الكثافة السكانية أن تستوعب هذه القوة الصليبية الضئيلة وتذيبها بسهولة •

كان الملك المعظم عيسى عند أخيه الكامل عندما سقطت دمياط ، فطلب منه الكامل أن يمضي بنفسه ليجمع القوات من الشام والمشرق(١٤٩) ، فاستجاب لطلب أخيه وتمكن أثناء سيره بالشام أن

(١٤٧) Campbell, The crusades, P. 388.

(١٤٨) Campbell, The crusades, P. 388.

(١٤٩) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٩٧ •

يفتتح قيسارية ويخرب الكثير من بلاد الفرنج(١٥٠) ، أما الكامل فقد ابتنى مدينة سماها المنصورة عند مفترق فرعي النيل المتجه أحدهما الى دمياط والآخر الى أشموم طناح(١٥١) ، ونزل فيها بعساكره وجعلها مقرا له ٠

والحق أن أحداث هذه السنة سجلت فواجع للمسلمين الذين جانبهم الحظ ، بما حاق بهم من مآسي وما نالهم من مصائب ، ففي مصر فقدوا دمياط وسفك الصليبيون دماء سكانها ٠ وفي الشام هدمت أسوار القدس من قبيل الحيطة وفر سكانها خوفا من التعرض للمذابح على أيدي الفرنج مما تسبب في هلاك الكثير منهم وفقدانهم لبلادهم وممتلكاتهم ٠ وفي المشرق ظهر خطر التتار المدمر ، اجتاحت جحافلهم بلاد ما وراء النهر والدولة الخوارزمية في موجات عاتية دمرت كل معالم الحضارة الاسلامية هناك ٠

سار الملك المعظم بنفسه الى الملك الأشرف بحران وطلب منه العودة بقواته وبذل العون سيما بعد أن زالت الأسباب التي كانت تمنعه من القدوم لدمياط ، وكان المعظم حريصا على تحرير دمياط(١٥٢) ، ودفعه حرصه وغيرته على الاسلام الى اقناع الأشرف بضرورة الاشتراك في دفع الفرنج عن دمياط ٠ وهكذا سارت قوات الملك الأشرف باتجاه دمياط عن طريق القصير(١٥٣) (الشونة الحالية) حيث أقام فيها عدة أيام للراحة ثم

---

(١٥٠) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٩٧ ـ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٠٤ ـ هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢١٢ ٠

(١٥١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣٣ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٨ ـ ابن منكلي : الاحكام المملوكية ، لوحة ٥٩ « مخطوطة » ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ ـ ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ، القاهرة ١٨٩٣م ، ج ٥ ، ص ٧١ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١١٩ ـ السيوطي : اتحاف الاخصا في فضائل المسجد الاقصى ، لوحة ٨٠ « مخطوطة » ٠
Lane Poole, A History of Egypt, P. 223.

(١٥٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٠٧ ابن منكلي : الاحكام المملوكية ، لوحة ٥٩ « مخطوطة » ٠

(١٥٣) سبط بن الوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٠٨ ٠

واصل سيره ٠ أما الفرنج فبعد أن تجمعت لديهم قوات جديدة قادمة من الغرب خلال عامين من مقامهم بدمياط تحركوا في صيف عام ٦١٨هـ (١٢٢١م) باتجاه القاهرة ، وعند المنصورة استعد الجيشان للمواجهة ، ورأى الملك الكامل أن يقدم عروضه للفرنج ، وللمرة الثانية عرض عليهم عرضه الأول باعادة مملكة بيت المقدس كما أعلن موافقته على دفع مبلغ الثلاثمائة ألف دينار التي طلبوها لتعمير القدس[١٥٤] ، ولكن الغرور والسفه بلغا منهم مبلغا كبيرا فأصروا على أن يسلم الكرك والشوبك ، اذ كان يحدوهم الأمل في أن ينتصروا في المنصورة فتصبح الطريق الى القاهرة مفتوحة أمامهم[١٥٥] ٠ كذلك رأى بلاجيوس مندوب البابا أن هذا العرض فقد قيمته ومزاياه بعد أن تحسن موقفهم بالاستيلاء على دمياط ، وكان لرفض الكاردينال عروض الكامل خير عظيم للمسلمين ، فان تعصب الكاردينال والفرسان الداوية والاسبتارية أعمت بصائرهم عن فهم نفسية المسلمين وعن الرؤية الحقيقية للموقف ولم يستمعوا الى صوت العقل والمنطق ولا لنصيحة الملك حنا دى برين ومؤيديه ، وكان النزاع قد دب بينهما منذ فتح دمياط[١٥٦] ٠ وفي أثناء ذلك وصلت البطاقات[١٥٧] من سوريا الى الكامل بقرب وصول النجدات اليه ٠ وبذا أصبحت الفرصة أمامه كبيرة لكسب المعركة ، وبقي الجيشان متواجهين طيلة شهر كامل ازدادت مياه النيل خلاله زيادة كبيرة ، فأمر الكامل بتفجير فجوة عظيمة بالنيل ، ففاضت المياه وأغرقت معسكر الفرنج واكتسحت خطوط امداداتهم من دمياط وقطعتها وأصبح الفرنج محاصرين بالمياه والجند ولا سبيل لهم في العودة ٠ وفي غضون ذلك اندفعت عليهم عساكر الأيوبيين متلهفة كالموج الهادر ، فوصلت قوات الملك الأشرف ثم وصل الملك المعظم

---

(١٥٤) ابن آيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٢٠٩ ــ ابن منكلي : الاحكام المملوكية ، لوحة ٥٩ « مخطوطة » ٠

(١٥٥) Campbell, The crusades, P. 388
King, The Knights Hospitallers, P. 196.

(١٥٦) Stevenson, op. cit. P. 305.

(١٥٧) Campbell, The crusades, P. 398.

عيسى ، والملك الناصر صاحب حماة ، والملك المجاهد صاحب حمص ، والملك الأمجد صاحب بعلبك ، وعسكر حلب • ونزل كل هؤلاء بالمنصورة امدادا للسلطان الملك الكامل(١٥٨) محمد ، ولم يجتمع مثل هذا العدد من الملوك الأيوبيين منذ أن قام صلاح الدين بمحاصرة عكا(١٥٩) • وأصبح الفرنج في موقف حرج لا يحسدون عليه فلم يكن باستطاعتهم التقدم ولا الرجوع ، بالاضافة الى أن امداداتهم بالطعام والذخائر كادت تكون معدومة الى حد استحالت معه فرصة النجاة • ولما عاينوا الهلاك أرسلوا في طلب الصلح وتسليم دمياط مقابل السماح لهم بالرحيل سالمين ، فوافق الكامل بشرط أن يرسلوا رهائن من ملوكهم الى أن يتسلم المسلمون دمياط • وطلب الفرنج بالمقابل أن يرسل الكامل ابنه رهينة لديهم ، فأرسل ابنه الملك الصالح نجـم الدين أيـوب وكان عمره اذ ذاك خمس عشرة سنة ومعه ابن أخيه شمس الملوك(١٦٠) • أما الفرنج فأرسلوا عشرين مـن رؤسائهم من بينهم الملك حنا دي بريين نفسه(١٦١) وبلاجيوس مندوب البابا وغيرهم • واسترجع المسلمون دمياط يوم الأربعاء ١٩ رجب سنة ٦١٨هـ (٨ سبتمبر (أيلول) ١٢٢١م) وتم عقد الهدنة بين الطرفين لمدة ثماني سنوات وشرطوا عليهم أن يطلق كل ما عنده من الأسرى(١٦٢) •

---

(١٥٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ٩٤ ـ ٩٥ ـ ابن آيبك : درر التيجان وغرر تواريخ الزمان احداث سنة ٦١٨هـ « مخطوطة » ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٠٣ ـ هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢١٣ •

(١٥٩) Lane Poole, A History of Egypt, P. 223.

(١٦٠) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٠٩ ـ ابن منكلي : الاحكام المملوكية ، لوحة ٥٩ « مخطوطة » •

(١٦١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٣١ ـ ابن سعيد : النجوم ، الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ٣٩٥ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٩٨ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ص ١٣٦ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٤٣ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢١١ ـ ابن منكلي : الاحكام السلطانية ، لوحة ٥٩ ـ ٦٠ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٠٩ ـ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٥٧ ـ بامخرمة : قلادة النحر ، ج ٣ قسم ١ لوحة ٨٢٨ « مخطوطة » •

(١٦٢) Stevenson, op. cit. P. 307.

ومرة أخرى أبدى السلطان الكامل تسامحا مع الصليبيين فزودهم بأنواع الأطعمة التي يحتاجون اليها(١٦٣) وأرسلها اليهم في معسكرهم الغارق بالمياه عند المنصورة ورحل الفرنج بعد أن مكثوا في مصر مدة ثلاث سنوات وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما(١٦٤) ٠

وكان لاسترداد دمياط ورحيل الفرنج عن مصر صداه في جميع أنحاء العالم الاسلامي ، فأقيمت الزينات وأقبل الناس يهنىء بعضهم بعضا ٠ وهكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة في فتح مصر واسترداد القدس ، ورفض المسلمون تسليم الكرك والشوبك اليهم ، وبذلك احتفظ الأيوبيون بوحدة أراضيهم وخرجوا منتصرين أقوياء ، أما الصليبيون فقد غادروا دمياط مخذولين مهزومين يكتنفهم العار والخذلان والهزيمة ٠

---

(١٦٣) Compbell, The Crusades, P. 389.

(١٦٤) ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢٣٢ « مخطوطة » ــ المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٣ ٠

(٣)

الشوبك ونواحيها أساس الخلاف بين الكامل محمد والناصر داود

كان للوقفة الشجاعة التي وقفها ملوك البيت الأيوبي أثرها الكبير في فشل الحملة الصليبية الخامسة على دمياط ، ولكن التصدع سرعان ما هدد البيت الأيوبي من جديد بعد عودة الملوك الى قواعدهم مما عجل بنهاية الدولة الأيوبية ٠

وقد اقترن بالفرقة بين أفراد البيت الأيوبي ظهور خطر جديد قادم من الشرق هو الخوارزمية(١٦٥) التي اندفعت أمام ضغط التتار وأصبحت تجاور الأيوبيين ٠ وكان من أسباب الوحشة أن الملك الأشرف موسى بن العادل صاحب سنجار وأخلاط والبلاد الشرقية رحل الى الديار المصرية لزيارة أخيه الملك الكامل(١٦٦) ، ومر بالمعظم في دمشق ولكنه لم يستصحبه معه(١٦٧) ، فأطال المقام هناك ، فأخذ الشك يدخل الى قلب المعظم من أخويه ، وخاف أن يكونا قد اتفقا عليه(١٦٨) أما السبب الثاني فهو تدخل الخليفة الناصر لدين الله العباسي ٥٧٥ــ٦٢٢هـ (١١٨٠ــ١٢٢٥م) الذي أبدى استياءه من الكامل بسبب تصرف ابنه صاحب اليمن واستهانته بأمير الحاج العراقي ، فأعرض عنه وعن الأشرف لاتفاقهما وقاطعهما ،

---

(١٦٥) الخوارزمية : ينسبون الى بلاد خوارزم ٠ وخوارزم اقليم منقطع عن خراسان وعن ما وراء النهر ، والمفاوز محيطة به من كل جانب ويحيط به من الغرب بعض بلاد الترك ، ومن جهة الجنوب خراسان ، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر ومن الشمال بلاد الترك أيضا ٠ ويقع اقليم خوارزم على نهر جيجون بين شعبين منه ، وهي من ابرد البلاد ٠ (انظر : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٤٥٣ ــ ٤٥٤) ٠

(١٦٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١١٦ ٠

(١٦٧) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٦٤ ٠

(١٦٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٠٩ ٠

وراسل مظفر الدين بن زين الدين كوكبوري صاحب اربل(١٦٩) واتفقا على مراسلة الملك المعظم عيسى ومحاولة ضمه الى صفهما ضد الكامل والأشرف(١٧٠) • أما السبب الثالث فيرجع الى الملك الناصر بن الملك المنصور صاحب حماة الذي رفض أن يدفع مبلغا من المال كان قد وعد بدفعه للمعظم عندما ساعده الأخير على امتلاك حماة ، فاغتاظ منه المعظم وعزم على قصد بلاده وانتزاعها منه ، وتمكن من تنفيذ وعيده فاحتل سلمية والمعرة وقد شاهد المؤرخ ابن واصل ذلك بنفسه فهو يقول : «وشاهدته رحمه الله حين دخوله اليها»(١٧١) ، ثم نازل حماة التي كان يتلهف الى الاستيلاء عليها وضمها الى مملكته • ولما وصلت الأخبار الى كل من الكامل والأشرف خشيا من تفاقم الأمر ، فان سمحا له بذلك «أطمعته نفسه بالاستيلاء على البلاد كلها»(١٧٢) ، فأرسل اليه الكامل يتهدده ويأمره بالرحيل ، فأجابه الى طلبه ورحل غاضبا على أخويه فنفرت القلوب فيما بينهما •

وأعتقد أن اجتماع الأشرف بالكامل في القاهرة كان للاتفاق على أخيهما الملك المعظم ، فقد كانت تراود الملك الكامل الآمال في ضم الشام الى مصر . ومما يؤكد ذلك أن ابنه الملك المسعود صاحب اليمن حضر من هناك خصيصا لهذا الأمر ، ولا شك أن والده قد وعده بملك الشام فقدم من هناك ليتسلم مملكته الجديدة ولكن الظروف لم تكن مواتية ولم يتحقق ذلك • ويؤكد ما ذهبنا اليه قول سبط بن الجوزي المؤرخ المعاصر : «وما جاء من اليمن الا طمعا في أخذ دمشق والشام»(١٧٣) • ثم عاد الملك المسعود الى اليمن يحمل

---

(١٦٩) اربل : قاعدة بلاد شهرزور ، وهي مدينة كبيرة تقع بين الزابين وتبعد عن الموصل بمسافة يومين ولها قلعة حصينة ــ (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٦٦) •

(١٧٠) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٦٤ •

(١٧١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١١٩ •

(١٧٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٢٧ •

(١٧٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤١٧ •

هذا الأمل وان كان قد أرجأ تحقيقه الى فرصة أخرى ، فنراه بعد موت الملك المعظم عيسى يحاول القدوم الى الشام لوضع يده علـى مملكـة دمشق[174] ، وللمرة الثانية لا تساعده الظروف لتحقيق أهدافه وأهداف أبيه الكامل ٠ والكامل أول من جحد فضل أخيه المعظم عليه أثناء الحملة الصليبية الخامسة على دمياط على الرغم من أنه اعترف بهذا الفضل أمام سبط بن الجوزي ، وقد روى السبط ذلك بقوله : «قال الكامل الي في مصر : ومن حفظ علي البلاد وأحياني بعد الموت غيره يشير الى نوبة بن المشطوب[175] ٠

وازاء هذا التحالف الجديد الموجه ضد الملك المعظم عيسى مستهدفا انتزاع مملكته لم يجد بدا من الاتفاق مع شخصية اسلامية قوية تضمن له الغلبة ، ووقع اختياره على شخصية جلال الدين بن علاء الدين خوارزم شاه الذي كان قد عظم أمره وصارت له مملكة عراق العجم وأذربيجان ، وشخصية مظفر الدين بن زين الدين كوكبوري صاحب اربل واتفـق الثلاثـة «وصاروا يـدا واحـدة»[176] وكان المعظم قـد أرسل الصدر البكري[177] محتسب دمشق رسولا إلى جلال الدين خوارزم شاه وقرر الأمور معه وجعله سندا له ، كذلك أرسل ولده الملك الناصر داود رسولا لصاحب اربل وأبقاه عنده رهينة[178] لتوكيد صدق هذا التحالف ٠

وعمد جلال الدين خوارزم شاه الى استغلال هذا التحالف في اقتحام بغداد والقضاء على الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، فاختبط الناس في بغداد وانزعج الخليفة وأمر فنصبت المجانيق وحصنت الأسوار ، وأنفق

(١٧٤) الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ـ ويقول سبط بن الجوزي : « وعندما بلغه وفاة المعظم فطمع بالشام ودمشق « مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٣٥ ٠

(١٧٥) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٢٩ ٠

(١٧٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٦ ٠

(١٧٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤١٠ ٠

(١٧٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤١٧ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٥٧ ٠

الخليفة في العساكر ألف ألف دينار[١٧٩] ٠ وعندئذ كتب جلال الدين للملك المعظم عيسى يطلب منه المساعدة في ذلك والتوجه بقواته لمحاصرة بغداد ولكن المعظم أرسل اليه قائلا : «أنا معك على كل أحد الا على الخليفة فانه امام المسلمين»[١٨٠] ٠ وفشل جلال الدين في مسعاه ٠

بدأ نشاط هذا التحالف الثلاثي بالاتفاق بين الحلفاء الثلاثة على أن يقصد مظفر الدين كوكبوري الموصل ، ويقصد جلال الدين خوارزم شاه خلاط وهي للأشرف ، أما الملك المعظم فيتوجه الى حمص وحماة ٠ ولم يكن للملك الأشرف طاقة لمواجهة هذا التحالف سيما وأن أخاه الكامل بعيد في مصر ، فان أرسل قواته مددا اليه فان المعظم لن يسمح لها بالمرور عبر أملاكه[١٨١] ٠ فقرر التوجه الى أخيه الملك المعظم في دمشق قاصدا قطع مادة الشر[١٨٢] فلقيه أخوه وأكرمه وأظهر له الابتهاج والسرور ولكنه أبقاه عنده ، وكانت الرسل لا زالت مترددة بين الملك المعظم وبين السلطان جلال الدين خوارزم شاه ،وأرسل جلال الدين للمعظم خلعة سنية فلبسها وركب بها في دمشق بحضور أخيه الملك الأشرف ٠ وقد عزم الملك المعظم على تزويج احدى بناته من جلال الدين ولكنها لم تحمل اليه ، وكان المعظم يركب فرس جلال الدين ويحلف برأسه في مجلس ملكه[١٨٣] ، واتحدا فيما بينهما اتحادا كليا[١٨٤] ٠ أما الأشرف فقد أقام عند أخيه مدة عشرة أشهر كالأسير[١٨٥] وعلم الا خلاص له الا باتفاقه مع

---

(١٧٩) الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ٠

(١٨٠) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤١٨ – الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ٠

(١٨١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٦٤ ٠

(١٨٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٨٠ ، ويقول أبو الفداء : « طلبا للصلح وقطعا للفتن » المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٣ ٠

(١٨٣) ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٨١ ٠

(١٨٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٨٠ ٠

(١٨٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٤ – ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ١٤٨ ٠

أخيه المعظم ومساعدته ، فأقسم أنه يعاضده على الملك الكامل والملك المجاهد صاحب حمص والملك الناصر صاحب حماه(١٨٦) . وعندئذ أرسل المعظم الى جلال الدين يطلب منه الرحيل عن خلاط ثم اذن للأشرف بالرحيل الى بلاده في جمادى الآخرة سنة ٦٢٤هـ (يونيو (حزيران) ١٢٢٧م) وبذلك تشكل تحالف كبير ضد الكامل ضم سلطان الخوارزمية وصاحب اربل والملك المعظم عيسى .

وصلت أنباء هذه الأحداث الى الملك الكامل في مصر فعظم عليه الأمر وخشي مغبة هذا التحالف(١٨٧) وكان قد توهم في جنده أنهم يمالئون أخاه المعظم(١٨٨) . ولم يكن أمامه من حليف سوى أن يرسل الى الفرنجة يعتضد بهم، فأرسل الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين ابن حموية الى الامبراطور فردريك الثاني في صقلية وطلب منه القدوم الى عكا ، ووعده بأن يعطيه القدس وما بيد المسلمين من الساحل(١٨٩) مع أن هذه البلاد كانت لأخيه الملك المعظم عيسى(١٩٠) .

---

(١٨٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٤ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

(١٨٧) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٦٤ .

(١٨٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٧ ، ص ٢٠٩ ـ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٨٧ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

(١٨٩) Eracles, Recueil des Historiens, H. occ. vol. 2, P. 358.

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٤٠٦ ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٤ ــ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٤٨ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٤٩٤ « مخطوطة » ــ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٥١ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢٢ ــ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٣٢ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٥٧ .

Lane Poole, A History of Egypt, P. 226. - Conder, The Latin Kingdom, P. 312.

Stevenson, op. cit. P. 310.

Campbell, The crusades, P. 405.

هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢١٥ .

(١٩٠) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ ، فهو يقول : « سأله أن يعطيه القدس وكوكب والطور ليعطيها للفرنج عوضا عن دمياط فاسرها في نفسه ووعده فيها بما طلب به قلبه » .

وعلى هذا النحو يكون قد عرض القدس وفلسطين أملاك أخيه المعظم للمرة الثانية على الفرنج ويقول المقريزي فيذلك : «ليشغل سر أخيه المعظم»(١٩١) . ولقيت هذه الدعوة استحسانا لدى فردريك الثاني فأرسل الى الكامل رسولا يحمل معه هدية سنية وتحفا غريبة من بينها فرس الامبراطور نفسه بمركب ذهب مرصع بجوهر فاخر ، فتلقاه الكامل بالاقامات من الاسكندرية الى القاهرة ، وخرج بنفسه بظاهر القاهرة لاستقباله وبالغ في اكرامه . ثم انه رد على هدية الامبراطور بهدية عظيمة يحملها اليه جمال الدين بن منقذ الشيزري فيها من تحف الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم ما قيمته أضعاف ما أرسله الامبراطور ، من بينها سرج من ذهب وجواهر قيمتها عشرة آلاف دينار(١٩٢) .

وترتب على اتصالات الكامل بفردريك أن قام المعظم بتوثيق علاقته بخوارزم شاه فكتب اليه يطلب منه العون والمساعدة ، ووعده بأن تكون الخطبة والسكة له في دمشق(١٩٣) ، فأرسل اليه جلال الدين خلعة لبسها المعظم وشق بها دمشق ، كذلك أخذ الملك المعظم يبث العيون على فردريك للتجسس عليه وتتبع أخبار الفرنج ، ومن هؤلاء العيون الراهب الشوبكي الذي ذكرناه في الصفحات السابقة .

لم يتردد فردريك في اهتبال هذه الفرصة ، فأخذ يتأهب لاعداد حملة لاسترداد بيت المقدس وأراد أن يضمن لهذه الحملة النجاح في مقصدها ، وفي أهدافها . فرأى أن يكاتب الملك المعظم كي يأخذ منه أيضا الوعد بالتنازل عن القدس كما أخذه من أخيه الكامل ، فأرسل اليه رسولا من قبله فبعد أن اجتمع ذلك الرسول بالملك الكامل توجه الى الشام وقدم الى دمشق وسلم الملك المعظم رسالة من الامبراطور يطلب فيها القدس

---

(١٩١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢٢ .

(١٩٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

Conder, The Latin Kingdom, P. 312.

(١٩٣) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢٢ .

والساحل الفلسطيني تلك البلاد التي وعده بها الكامل ، ولكن الملك المعظم رفض ذلك قائلا : «قل لصاحبك ما أنا مثل الغير ، ما له عندي سوى السيف»(١٩٤) .

وبادر المعظم بتجهيز العساكر الى نابلس(١٩٥) لحماية القدس من مطامع الامبراطور فردريك وأنفق في هذه العساكر مبلغ تسعمائة ألف درهم(١٩٦) ، ثم مرض في منتصف شوال بالدوسنتاريا واشتد المرض حتى رمى قطعا من كبده وتوفي وهو في السابعة والأربعين من عمره في نهاية ذي القعدة ٦٢٤هـ (١٢ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٢٢٧م) ، وقيل انه مات مسموما واتهم جماعة في ذلك(١٩٧) . وكان المعظم ملكا جليلا شجاعا مقداما شديد البأس مهيبا ، كثير الحياء متواضعا ، ضحوكا غيورا جوادا حسن العشرة(١٩٨) ، وكان عالما قصده العلماء وكان يتولى مناقشتهم ويناظرهم ، وكان حنفي المذهب في حين كان كل آل بيته على المذهب

---

(١٩٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٢٤ .
Recueil des Historiens des croisades, H. Orientaux, Vol. 4. P. 185.
ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٨٤ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١١٧ .
عن رسل الامبراطور فردريك واتصالاته يذكر الدكتور سعيد عاشور ان الامبراطور قبل مغادرته الغرب قام باتصالات واسعة مع غير الكامل من امراء البيت الايوبي بالشام لاعداد الجو والحصول على القدس دون عناء ، ومن هؤلاء الملك الجواد احد امراء بني أيوب بالشام ، واشار الى رسالة له أوردها القلقشندي ردا على الامبراطور . غير أن الملك الجواد لم يكن اميرا في الشام آنذاك ولم يملك دمشق الا بعد موت الملك الكامل ، كما ان القلقشندي نفسه أورد ان تاريخ هذه الرسالة هو ٦٣٠هـ ، في حين تمت اتصالات فردريك ومراسلاته للكامل وغيره في سنة ٦٢٤هـ وقبل أن يأخذ القدس . اذن الرسالة كتبت بعد ان أخذ فردريك القدس وكان هدفها توطيد العلاقات وتقويتها وليس للتمهيد لاخذ القدس (انظر : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٧ ، ص ١١٧ ـ ١١٨ عاشور : الايوبيون والمماليك ، ص ١١١ ـ ١١٢) .
(١٩٥) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٢٧ .
(١٩٦) السلامي : مختصر التواريخ ، لوحة ٣٢٧ « مخطوطة » .
(١٩٧) السلامي : مختصر التواريخ ، لوحة ٣٢٧ « مخطوطة » .
(١٩٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٢٥ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ .

الشافعي[199] . وكان قليل التكلف جدا لا يركب في موكب كبير ، بل يفضل دوما أن يركب بجمع قليل ، وقد ضرب به المثل في البساطة ، فاذا فعل الانسان فعلا بدون تكلف قيل فيه «فعل المعظمي»[200] . وكان محبوبا من أهل دمشق ، وجرى بسبب موته مالم يجر في موت ملك قبله أو بعده ، فقد خرجت البنات المخدرات وشققن ثيابهن ونشرن شعورهن وبقين هكذا تحت القلعة بدمشق من أول النهار الى آخره[201] .

وخلفه في مملكته أكبر أبنائه الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر داود وكان لا يتجاوز من العمر اذ ذاك عشرين سنة ، وتولى عز الدين آيبك المعظمي صاحب صرخد[202] واستادار أبيه تدبير مملكته وكان عمه الملك الكامل قد أرسل اليه الخلع مع الأمير علاء الدين بن شجاع الدين المظفري وحمل الرسول الغاشية بين يديه ، ثم حملها كذلك عماه الملك العزيز عثمان صاحب بانياس والملك الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب بصرى .

ولا شك أن وفاة الملك المعظم عيسى وضعت حدا لمشاكل الملك الكامل فزالت مخاوفه وانهار التحالف الذي نظمه أخوه ضده ، ومن جديد بدأت تراوده فكرة ضم بلاد الشام تحت سلطانه بعد أن زال المانع والممانع . فأرسل الكامل لابن أخيه الشاب يطلب منه قلعة الشوبك ليجعل منها

---

(199) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٧٢ — ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٨٨ — أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٥ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٦٧ .
السلامي : مختصر التواريخ ، لوحة ٣٢٧ « مخطوطة » .

(200) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢١٠ — ويقول : « رأيته بالبيت المقدس سنة ثلاث وعشرين وستمائة والرجال والنساء والصبيان بالجامع الاقصى يزاحمونه ولا يردهم احد عنه . وهذا المسلك لم يسلكه احد من أهل بيته ولا غيرهم » .

(201) السلامي : مختصر التواريخ ، لوحة ٣٢٧ « مخطوطة » .

(202) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٢٤ — ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٥١ .

خزانة له ومعقلا وملجأ يأوي اليه عند الشدائد(٢٠٣) ، ولكن الملك الناصر داود عز عليه أن يفقد جزءا من مملكته ومملكة أبيه «فلم يقع منه الاجابة الى ذلك»(٢٠٤) ٠ وكان من الطبيعي أن يغضب الملك الكامل وأن يضع حدا لسياسة الوئام مع ابن أخيه ، وقرر تنفيذ خطته في ازاحته من طريقه وانتزاع أملاكه ٠ فأعلن أن الملك الناصر داود يشتغل باللهو وينصرف عن مصالح الدولة واتخذ ذلك مبررا يؤاخذه عليه(٢٠٥) ٠ ثم انه خرج في عساكر كثيفة الى الشام في شهر رمضان من سنة ٦٢٥هـ (أغسطس (آب) ١٢٢٨م) فنزل في غزة وخيم بتل العجول ينتظر الفرصة لانتزاع دمشق من الناصر داود(٢٠٦) ٠ وفي هذه الأثناء تمكن من انتزاع نابلس والقدس والخليل وغيرها من الأعمال(٢٠٧) من مملكة الناصر داود وولى عليها الولاة من قبله ، ثم سار الى نابلس ونزل بدار الملك المعظم عيسى(٢٠٨) ٠

انزعج الناصر داود لفعل عمه الكامل وشهد تمزق مملكته أمام عينيه ولما يمض عليه في الحكم سوى شهور قليلة ، فخاف خوفا شديدا ولم يجد من يعتضد به سوى عمه الملك الأشرف ٠ فأرسل اليه الأمير عماد الدين ابن موسك وفخر القضاة نصر الله بن بصاقة(٢٠٩) فاجتمعا بالملك الأشرف

---

(٢٠٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٢٥ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢٦ ـ ويقول ابن سعيد : «ونظر لنفسه معقلا فاختار القلعة الجبلية ، ثم اراد امنع منها وابعد عن العدو ، فأخذ من ابن اخيه قلعة الشوبك (النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ٣٩٦) ٠

(٢٠٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٢٥ ٠

(٢٠٥) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢٥ ٠

(٢٠٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٨٢ ٠

(٢٠٧) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٨٠ ـ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٢٤٦ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٧ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٤٩٤ « مخطوطة » ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٥١ ـ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٥٨ ٠

(٢٠٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٢٨ ٠

(٢٠٩) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٣١ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٢٨ ـ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٩٢ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢٦ ٠

بسنجار وطلبا منه أن يساعد ابن أخيه الملك الناصر داود ويدفع عنه عمه الملك الكامل · سارع الملك الأشرف الى تلبية طلبهما وقدم في شهر رمضان الى دمشق وقد زينت لقدومه وضربت بها البشائر ، وخرج الملك الناصر داود لاستقباله وقد شهد المؤرخ المعاصر ابن واصل هذا الاحتفال فيقول : «وكنت يومئذ بدمشق وشاهدت دخوله الى القلعة وعلى رأسه شاش علم كبير ، وهو مشدود الوسط بمنديـل والملك الناصر الى جانبـه»(٢١٠) · والواقع أن الأشرف موسى لم يتحرك لنجدة ابن أخيه كما تظاهر هو بذلك وانما لأنه وجد الفرصة سانحة لتحقيق مطامعه واحياء الاتفاق القديم بينه وبين الكامل لاقتسام أملاك المعظم ، ولم يكن قد نسي بعد ما عاناه مـن جراء أفعال المعظم عيسى والد الملك الناصر داود · وكانت اقصى أمانيه أن يتملك دمشق(٢١١) ، فأصبح يعمل لتحقيق ذلك في الباطن وابن أخيه الملك الناصر داود واثق في تعضيد عمه الأشرف له مسرور بوجوده مطمئن اليه ·

أرسل الأشرف الأمير سيف الدين علي بن قلج أحد كبار الأمراء الحلبيين رسولا الى أخيه الكامل يشفع في الملك الناصر وابقاء دمشق عليه، ولكن الكامل عرض عليه ملك دمشق وطلب منه الابتعاد عن الناصر داود · ثم سار الى غزة وخيم على تل العجول كي يكون قريبا من خطوط امداداته وصار يرقب الأحداث وتطوراتها · أما الأشرف والناصر فقد اتفقا على المضي الى الكامل للاتفاق معه ، ووصلا نابلس ولما لم يجداه هناك ، طلب الأشرف من الناصر داود أن ينتظره في نابلس ليسير وحـده الى أخيـه ويسوي الأمر معه(٢١٢) · استقبل الكامل أخاه الأشرف استقبالا حافلا

(٢١٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٢٨ ·

(٢١١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٣٠ ــ فهو يقول : « وفي قلب الملك الاشرف من محبة دمشق والميل الى تملكها ما فيه ، فهو يعمل على ذلك باطنا » المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢٦ ·

(٢١٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٣٠ ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٧ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٤٩٤ « مخطوطة » ·

واجتمعا معا وتمت الصفقة بينهما في غياب الملك الناصر داود وباعه عمه الملك الأشرف وصار نجدة عليه لا له · وتم الاتفاق بينهما على انتزاع دمشق من الناصر داود على أن تكون بجميع أعمالها الى عقبة أفيق للملك الأشرف · أما الملك الكامل فيكون له ما بين غزة وعقبة أُفيق من البلاد والحصون ، أما الملك الناصر داود فقد اتفقا على تعويضه عن مملكته بحران والرقة والرها وسروج ورأس عين وجملين والموزر من بلاد الملك الأشرف بالبلاد الشرقية قاطع الفرات[٢١٣] · ولما علم الناصر داود بهذا الاتفاق وأدرك أن عمه الأشرف طعنه من ورائه ، غادر نابلس مسرعا الى دمشق فلحق به عمه الأشرف في القصير[٢١٤] وأعلمه أن الكامل مصمم على نزع دمشق منه وطلب منه الرضوخ للأمر ، لكن الناصر رفض وغادر القصير عائدا الى دمشق وتحصن فيها · أما الأشرف فقد ساق خلفه بقواته من عسكر حلب ونزل حول دمشق وحاصرها ، وضيق عليها الخناق · أما الكامل فقد بقي بتل العجول حتى يتم أمر الصلح مع فردريك الثاني «ليخلو سره جهتهم»[٢١٥] ·

تسليم بيت المقدس :

حطت جموع الحملة الصليبية السادسة في عكا في شهر شوال ٦٢٥هـ (سبتمبر (أيلول) ١٢٢٨م) بقيادة الامبراطور فردريك الثاني وبصحبته أصغر جيش صليبي وصل الى الديار المقدسة[٢١٦] وذلك بعد شهر واحد

---

(٢١٣) ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢٣٦ « مخطوطة » ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٣١ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٧ ـ ابن آيبك : درر التيجان وغرر تواريخ الازمان احداث سنة ٦٢٦هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢٧ ـ السيوطي : اتحاف الاخصا في فضائل المسجد الاقصى ، لوحة ٨١ « مخطوطة » ـ بامخرمة : قلادة النحر ، ج ٣ قسم ١ لوحة ٨٥٥ « مخطوطة » ـ السلامي : مختصر التواريخ « مخطوطة » ـ الموزر : قلعة بنيت على الممر المسمى درب اللكام · (Le Strange, P. 509)

(٢١٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٣٧ ·

(٢١٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٤١ ·

(٢١٦) Campbell, The crusades, P. 404.

من وصول الكامل الى فلسطين · والواقع أن فردريك انما قدم استجابة للدعوة التي تلقاها من الكامل بمنحه القدس وبعض أجزاء فلسطين ان ساعده في حربه ضد أخيه الملك المعظم عيسى ، ولكن وصول الامبراطور تم بعد أن زالت الأسباب التي دعت الكامل لاستدعائه بموت المعظم ، كما أن الظروف تغيرت كثيرا لصالح سلطان مصر(٢١٧) وهكذا «نشب به الملك الكامل»(٢١٨) · وبدأت المفاوضات بين الطرفين، ويقول كوندر :(٢١٩) واجتمع فردريك بالملك الكامل في جنوب قيسارية(٢٢٠) كصديق في شتاء هذا العام أي بعد شهور من وصوله وتردد الملك الكامل في تنفيذ وعده ولكـــن الامبراطور فردريك صاحب الاتجاهات السلمية(٢٢١) لم ييأس · فلم تكن لديـه رغبـة في خوض حـرب ضد المسلمـين الذين مـال اليهـم وتأثر بثقافتهم(٢٢٢) فقد نشأ في صقلية أحد مراكز اشعاع الحضارة الاسلامية للغرب الأوروبي ثم انه كانت تربطه بالملك الكامل صداقة قوية ، وكان عليه أن يشترك في الحملة الصليبية الخامسة على دمياط ولكنه لم يفعل مما دعا البابا أن يلقي على عاتقه مسؤولية فشل هذه الحملـة وتعرض لحرمانه(٢٢٣) · لهذا آثر فردريك الحصول على القدس سلميا وبالطرق السياسية ، ولما كانت قوات هذه الحملة لا تشكل أي خطر على المسلمين ـ فقد كانت أعدادها معروفة لديهم ـ لذا تجمدت الاتصالات مدة خمسة أشهر بين الطرفين(٢٢٤) بعد أن حاول الكامل التنصل من وعوده · وأثناء

---

(٢١٧) Campbell, The crusades, P. 405.
Stevenson, op. cit. P. 310.

(٢١٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ ·

(٢١٩) Eracles, Recueil des Historiens des croisades, H. occ. vol. 2, P. 369.

(٢٢٠) Conder, Tne Latin Kingdom, P. 313.

(٢٢١) Conder, Ibid P. 313.

(٢٢٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ ·
Atiya, Crusade, Commerce and Culture, P. 88.
كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ، ترجمة احمد دراج ، القاهرة ١٩٧٤م ، ص ٩٥ ·

(٢٢٣) Stevenson, op. cit., P. 307.

(٢٢٤) Stevenson. Ibid P. 311
هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢١٧ ·

ذلك شرع الامبراطور في عمارة صيدا[٢٢٥] وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج وسورها خراب فاستولى عليها وعمرها ، ثم باشر في تحصين يافا وتقوية مركزه الضعيف[٢٢٦] . ومع ذلك فانه لم يقطع الأمل وعاود الاتصال بالكامل الذي كان لديه الاستعداد الكافي هذه المرة بقبول مطالبه ، فان حصار دمشق لم يأت بأية نتيجة وفي نفس الوقت خشي أن يدفع اليأس كلا من الامبراطور والناصر داود الى الاتحاد معا عليه[٢٢٧] ، وشعر الكامل أن قدوم حملة صليبية جديدة وفتح جبهة جديدة ضد الفرنج بسبب تعنته من شأنه تفويت الفرصة السانحة أمامه وأن ذلك لن يمكنه من تحقيق مآربه وأطماعه في امتلاك الشام[٢٢٨] ، واحياء امبراطورية والده الواسعة ، ثم انه كان يهدف الى الابقاء على شعور الصداقة المتين الذي يربط بينه وبين فردريك . كل ذلك دفع الكامل الى مصالحة الامبراطور ويضيف المؤرخون الغربيون الى ذلك أن كلا من الملكين كانا على درجة كبيرة من التسامح الديني وأنهما سبقا عصرهما بقرون عديدة[٢٢٩] . وأخيرا

---

(٢٢٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٧٧ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٣٥ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٨ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٥٠ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٤٩٤ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢٩ ـ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٥٨ .

(٢٢٦) Eracles, Recueil des Historiens des croisades, H. occ. vol. 2, P. 372.
Campbell, The crusades, P. 405.
Stevenson, op. cit., P. 311.

(٢٢٧) Campbell. op. cit. P. 405.
Stevenson, op. cit., P. 311.

(٢٢٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٤٢ .

(٢٢٩) Stevenson, op. cit. 311.
Conder, The Latin Kingdom, P. 313.
Campbell, op. cit. P. 407.
Atiya, Crusade, Commerce and culture, and culture, P. 88.
هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢٢١ .
وقد وصفه المؤرخون المسلمون قائلين . « والظاهر من كلامه أنه كان هديا ، وانما كان يتلاعب بالنصرانية » (سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٣٣) . اما ابن واصل فيقول : « وكان الامبراطور فاضلا محبا للحكمة والمنطق والطب مائلا الى المسلمين » (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٣٤) . ويصفه ابن الوردي قائلا : « كان فرنجيا فاضلا محبا للحكمة والمنطق مائلا الى المسلمين لان منشأه بجزيرة صقيلة وغالبها مسلمون » (ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٥٠) .

وقـع الاتفاق في ٢٨ ربيـع الأول ٦٢٦هـ (٢٥ فبراير (شباط) ١٢٢٩م) وعقدت المعاهدة بين الطرفين لمدة عشر سنوات(٢٣٠) وبموجبها أعطى الكامل القدس للفرنج(٢٣١) ثانية بالاضافة الى الناصرة وبيت لحم ومدينة اللد وتبنين(٢٣٢) والقرى الممتدة على طول الطريق بين القدس وعكا · واشترط الكامل أن تبقى أسوار القدس التي دمرها الملك المعظم عيسى خرابا فلا يعاد بناؤها ، وأن يبقى المسجد الأقصى والصخرة بيد المسلمين ، كذلك ضمنت المعاهدة حرية العبادة للمسلمين في الأماكن المقدسـة · وتعهـد فردريك بعدم القيام بأي هجوم على مصر أو حتى المساعدة فيه(٢٣٣) وأن يسعى بنفوذه في القضاء على أية محاولة صليبية للهجوم على أملاك الملك الكامل · ثم ان الملك الكامل طلب من سكان القدس مغادرتها فكان يوما عظيما ومصابا أليما ، ودخلها الامبراطور وأقام بها يومين ثم عاد الى عكا ومن ثم غادرها الى بلاده في جمادى الثانية ٦٢٦هـ (أول مايو(أيار)١٢٢٩م) وهكذا استطاعت الحملة الصليبية السادسة أن تحقق سلميا مالم تستطعه الحملة الصليبية الخامسة بالحرب والحصار الطويل ·

---

(٢٣٠) Eracles, Recueil des Historiens des Croisades, H. occ. vol. 2, P. 374.

(٢٣١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٨٢ ـ ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢٣٥ « مخطوطة » ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٤٢ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٨ ـ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٢٩٢ ـ ابن آيبك : ذرر التيجان احداث ٦٢٦هـ « مخطوطة » ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٤٩٥ « مخطوط » ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٥٠ ـ القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٢٩ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣٠ ـ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٥٨ ·

Conder, The Latin Kingdom, P. 313.
Lane Poole, A History of Egypt, P. 227.
Stevenson, op. cit. P. 312.

(٢٣٢) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٣٩ « مخطوطة » ·

(٢٣٣) Campbell, The crusades, P. 406.
Atiya, Crusade Commerce and culture, P. 89.

وأما الملك الكامل فقد قدم القدس للفرنج على طبق من فضة من أجل تحقيق أطماعه في الشام ، ولم يغفر له معاصروه هذه الزلة الشنيعة(٢٣٤) ، حتى ان أمراء جيشه عارضوه ومنهم الأمير سيف الدين بن أبي زكري الذي أشار عليه بابقاء دمشق لابن أخيه الناصر داود والاتحاد مع أخيه الأشرف فيجتمع الثلاثة ويقاتلوا العدو «فاما لنا واما علينا ، ولا يقال عن السلطان أنه أعطى الفرنج القدس»(٢٣٥) ، لكن السلطان غضب عليه وأمر باعتقاله وأرسله الى مصر حيث سجنه . ولما ورد الخبر الى دمشق بتسليم القدس عم الغضب الناس جميعا واعتبروا ذلك العمل كفرا وخروجا عن الدين(٢٣٦) ، وقامت المآتم في جميع بلاد المسلمين(٢٣٧) ، وشق ذلك على الناصر داود وأخذ في التشنيع(٢٣٨) على عمه الملك الكامل وطلب من سبط ابن الجوزي الواعظ المؤرخ أن يجلس بجامع دمشق ويذكر ما جرى على البيت المقدس ، ويروي ابن الجوزي ذلك فيقول : «ورأيت من جملة الديانة الحمية للاسلام موافقته فجلست بجامع دمشق ولم يتخلف من أهل دمشق أحد»(٢٣٩) .

---

(٢٣٤) يقول ابن الاثير : « استعظم المسلمون ذلك واكبروه » (الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٨٢) ، اما سبط بن الجوزي فيقول : « فقامت القيامة في جميع بلاد المسلمين » ، « ياخجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة » (مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٣٢) ـ ويقول ابن واصل : « وانكروا على الملك الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه » (مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٤٤) ، وشاهد ابن واصل وعظ سبط بن الجوزي في جامع دمشق فقال : «فلم ير في ذلك اليوم الا باك أو باكية» (مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٤٦) ـ اما ابن ابي الدم فقد كان ممالئا للكامل فهو يقول : « فسلم المولى السلطان الملك الكامل خلد الله سلطانه ذلك اليهم مع تهدمه وعدم حصانته حفظا لبقية ثغور المسلمين » ، ثم يقول : « ومتى مهد المولى السلطان الملك الكامل خلد الله أيامه بلاد الشرق واتفقت كلمة الملوك على سلطنته والطاعة له ، استعاد البيت المقدس من هو في حوزة من الفرنج في يوم واحد بل في ساعة واحدة » ، التاريخ المظفري ، لوحة ٢٣٥ ـ ٢٣٦ « مخطوطة » .

(٢٣٥) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ .

(٢٣٦) السيوطي : اتحاف الاخصا في فضائل المسجد الاقصى ، لوحة ٨١ « مخطوطة » .

(٢٣٧) السلامي : مختصر التواريخ ، لوحة ٣٢٨ « مخطوطة » .

(٢٣٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٤٦ .

(٢٣٩) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٣٢ .

اطمأن الملك من ناحية الفرنج ولم يبق أمامه الا تحقيق ما قدم من أجله ، ولكي يضمن ولاء أمراء البيت الأيوبي قام بتوزيع الأموال عليهم ، فمنح أخاه الملك العزيز عثمان صاحب بانياس خمسين ألف دينار(٢٤٠) ، وأعطى ابنه الظاهر غازي عشرة آلاف دينار وقماشا نفيسا وخلعا سنية ، أما الأمير عز الدين أيدمر المعظمي فمنحه عشرين ألف دينار واقطاعا بمصر وغلالا • وكان لهؤلاء أعظم الأثر في استيلائه على دمشق ، ثم انهم تستروا على جريمة تفريطه في القدس • وفي جمادى الأولى رحل الى دمشق واشترك مع قوات أخيه الأشرف في محاصرة الناصر داود ، ولما لم يجد الملك داود نصيرا له في الشام اضطر الى الاتصال بالخوارزمية حلفاء أبيه بالأمس ، فأرسل الشيخ شمس الدين الخسروشاهي رسولا الى جلال الدين بن خوارزم شاه يطلب منه مساعدته والقيام بمهاجمة خلاط «ليشغل سر الملك الأشرف لينذفع عنه شره»(٢٤١) • أما الملك الكامل فقد سير نور الدين الكركي(٢٤٢) — وكان من أنصار الملك المعظم عيسى ثم تحول مع الملك الكامل — في قوة لمحاصرة الكرك ، وكانت تقيم بالكرك زوجة الملك المعظم عيسى والدة الملك الناصر داود وقد أبدت هذه الأميرة شجاعة نادرة فأخرجت هي والأمير سعد الدين بن صارم الدين نائب الناصر بالكرك(٢٤٣) جماعة من أهل الكرك اليهم انضموا مع الحامية ، فحاربوهم وأوقعوا بهم ونهبوا ما معهم وأسروا نور الدين قائد هذه الحملة كما أسروا أميرا آخر من مرافقيه يدعى «شقيفات» وكان هو أيضا من أصحاب الملك المعظم عيسى ، فحبستهما في جب قلعة الكرك وبقيا فيه حتى ماتا ، وهكذا حفظت هذه المرأة الشجاعة الكرك لابنها •

أما أهل دمشق فقد قاموا بنصرة الناصر داود(٢٤٤) فتفانوا في القتال واستبسلوا في المقاومة ، اذ كانوا غير راضين عن سلوك الأخوين الكامل والأشرف وانتهاكهما لحق الناصر داود ، كما أسخطهم على الكامل تفريطه

(٢٤٠) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣٤ •

(٢٤١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٣٤ •

(٢٤٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٥٨ •

(٢٤٣) Recueil des Historiens des Croisades, H. orientaux, vol. 4, P. 189.

(٢٤٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٣٩ — ويقول المقريزي : « وناصحته العامة مناصحة كبيرة وأبلوا في عسكر الكامل والاشرف بلاء عظيما » (السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣٤) •

في القدس وتقديمها لقمة سائغة للصليبيين ، بالاضافة الى حبهم الشديد للملك الناصر داود ووالده الملك المعظم عيسى • ولكن اشتداد الحصار حول دمشق أدى الى ارتفاع الأسعار وقلة الأقوات فنفذت أمواله ، واضطر الناصر الى ضرب أوانيه من الذهب والفضة دنانير ودراهم(٢٤٥) وفرقها حتى نفذ أكثر ما كان لديه من الذخائر ، وازداد الأمر سوءا بعد أن فارقه جماعة من أصحابه منهم أرغش المعظمي(٢٤٦) ، فاضطر مرغما الى المصالحة• واتصل بعمه الملك الكامل فدخل دمشق يوم الاثنين أول شعبان(٢٤٧) ٦٢٦هـ (٢٤ يونيو (حزيران) ١٢٢٩م) بعد حصار دام أربعة أشهر(٢٤٨)، وقد شهد ابن واصل ذلك اليوم وصور لنا بقلمه صورة حية عن تعلق أهالي دمشق بقائدهم والتفافهم حوله فهو يقول : «ولقد كنت عند باب القلعة ذلك اليوم ، وقد دخل العسكر المصري من جميع الأبواب ، وامتلات المدينة منهم ، وكان الى جانبي انسان من أهل دمشق ، فلما رأى ذلك بكى بكاء عاليا ، وأعلن بالعويل وما رأيت يومئذ أحدا من الدمشقيين الا ورأيته في صورة من فجع بموت ولد أو أب»(٢٤٩) • وبمقتضى هذه المصالحة اقتصرت مملكة الناصر داود على : الكرك والشوبك وأعمالها والصلت وعجلون والبلقاء والأغوار جميعها ونابلس وأعمال القدس وبيت جبريل(٢٥٠) ـ ولكنه انتزع منه الشوبك ـ وأعطاه مبلغ ستة عشر ألف

---

(٢٤٥) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٢ ، ص ٤٨٣ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ، ص ٢٥٣ ـ المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٣٤ •

(٢٤٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ، ص ٢٥٣ •

(٢٤٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٤٣٤ ـ ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢٣٦ « مخطوطة » •

Recueil des Historiens des Croisades, H. orientaux, vol. 4, P. 190.

ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ، ص ٢٥٧ ـ المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٣٥ ـ هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢١٧ •

(٢٤٨) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٤٣٤ •

(٢٤٩) بن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ، ص ٢٥٧ •

(٢٥٠) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٤٣٤ ـ ابن آيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٢٩٥ ، وحول هذه الاتفاقية راجع أيضا : ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ، ص ٢٥٦ •

Recueil des Historiens de Croisades, H. orientaux, vol. 4, P. 190.

دينار مصرية(٢٥١) ، وبذا أصبحت مع الناصر داود جميع الأراضي التي تتفق تقريبا مع الاردن الحالي . أما البلاد الشرقية التي كانت للأشرف والتي اتفق الأشرف والكامل في تل العجول على اعطائها للناصر داود فقد فضل الملك الكامل أن يأخذها لنفسه ، بعد أن رأى حصانة حصون الكرك ومناعة معاقلها وفشله في فتحها(٢٥٢) ، فأرسل الكامل نوابه للبلاد الشرقية لاستلامها من نواب الأشرف ، أما دمشق فقد تسلمها الملك الأشرف موسى ٠

أما الملك الناصر داود فقد سافر بأهله واخوته وكل ما يتعلق به من دمشق الى الكرك في يوم الجمعة ثاني عشر شعبان سنة ٦٢٦هـ(٢٥٣) (٦ يوليو (تموز) ١٢٢٩م) وتسلم البلاد التي عينت له ٠ وبذا يكون مولد امارة الكرك ، التي تجسد الكيان الأردني الحالي بحدوده وأوضاعه والذي قد تم منذ سبعة قرون ونصف تقريبا ، والأحداث التاريخية تثبت أن الأردن كان قائما منذ مئات السنين ، ولم يكن حديث الصنع أو التكوين ، أما تشكيله الحديث فهو عودة للوضع الطبيعي الصحيح ٠

وهكذا نجد أن الشوبك كانت سبب الوحشة بين الكامل والناصر داود ، كما أنها كانت من قبل سبب الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين لانسحاب الأخير منها وعدم اجتماعه بنور الدين هناك ، كذلك كانت سبب

= أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٩ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٥١ ـ ابن آيبك : درر التيجان أحداث سنة ٦٢٦هـ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ ، لوحة ٤١ « مخطوطة » ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٤٩٦ « مخطوطة » ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٢٣ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ـ السيوطي : اتحاف الاخصا في فضائل المسجد الاقصى ، لوحة ٨١ « مخطوطة » ـ السلامي : مختصر التواريخ ، لوحة ٣٢٨ « مخطوطة » ـ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٥٩ ٠

Eracles, Recueil des Historiens des Croisades, H. occ, vol. 2, P.383.

(٢٥١) ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٢٣٦ ٠

(٢٥٢) يقول ابن واصل : «ان البلاد التي قد عينت لي حصون ومعاقل مثل الكرك والشوبك والصلت ربما تعذر اخذها علي لحصانتها (مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٥٢) ٠

(٢٥٣) Recueil des Historiens des croisades H. orientaux. vol. 4, P. 190.

خلاف ومساومة بين الفرنج والمسلمين أثناء الحملة الصليبية الخامسة على دمياط حيث أصر الفرنج على استلامها ورفض المسلمون ذلك ، أما الشوبك فقد تنازل(٢٥٤) عنها الملك الناصر داود لعمه الكامل فقال له : «يا ابن أخي ليس لي حصن يحمي رأسي وافرض أن هذا الحصن لـك وقد وهبتني اياه» .

---

(٢٥٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ــ ويقول سبط بن الجوزي : « وكان قد بكى بين يدي الكامل على الشوبك ، فقال الكامل انا مالي حصن يحمي رأسي وافرض انك وهبتني اياه ، فسكت » (مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٣٤) .



الفصل الخامس

امارة الكرك زمن الناصر داود

١ ـ موقف الناصر داود صاحب الكرك من عميــه الكامل والأشرف ·

٢ ـ موقف الناصر داود صاحب الكرك من العادل بن الكامل صاحب مصر ·

٣ ـ موقف الناصر داود صاحب الكرك مــن الصالح نجــم الدين أيوب صاحب مصر ، والصالح اسماعيل صاحب دمشق ·

(١)

موقف الناصر داود صاحب الكرك من عميه الكامل والأشرف

كان يوم الجمعة الثاني عشر من شعبان ٦٢٦هـ) ٦ يوليو (تموز) ١٢٢٩م) مولد امارة الكرك في ظل الملك الناصر داود وكانت تستوعب كل حدود الاردن الحالية بالاضافة الى نابلس واعمال القدس والخليل[١] وأخذت أمارة الكرك الايوبية مكانا مرموقا في بلاد الشام وشاركت في مجريات الاحداث في هذه المنطقة بشكل مباشر ، وكان بلاط الناصر داود يعج بالعلماء والفقهاء والادباء ، فقد كان أديبا وشاعرا يحب العلماء كوالده ويجلس اليهم ويجزل لهم العطاء · وقد لازمه عدد كبير منهم نذكر من بينهم الامام شمس الدين الخسرو شاهي[٢] الذي أقام بالكرك صحبة الناصر وكان عالما بالطب والحكمة وقرأ عليه بالكرك الكثير من الحكماء منهم : الحكيم الاجل ابو منصور سديد الدين بن الحكيم موفق الدين يعقوب بن سقلاب[٣] الذي أقام فيما بعد بالكرك في خدمة الملك الناصر ، وكان مكينا معتمدا عليه في صناعة الطب ، ومنهم أيضا شرف الدين بن جمال الدين ابن بصاقة الذي سلم له الناصر اعمال دولته[٤] وظل يخلص له حتى آخر أيامه ، والأديب الشاعر أبو الفتح نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقي الغفاري[٥] ، واسماعيل بن ابراهيم بن شاكر بن عبد الله التنوخي[٦] وكان صدرا عظيما وكتب الانشاء للناصر داود ، والنحوي الاديب ابراهيم بن عبد الرحيم بن علي بن اسحق بن علي الاموي القرشي[٧] والعالم الزاهد

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٢٤١ ·

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب « تاريخ الواصلين » لوحة ٢٨٥ « مخطوطة » ·

(٣) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ج ٢ ، ص ٢١٦ ·

(٤) ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ٢٩٩ ·

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٨٤ ·

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٦٧ ·

(٧) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، بيروت ١٩٣٩م ، ج ٧ ، ص ٥٩ ·

جمال الدين عبد الحق المغربي قاضي البلقاء[٨] ، ولن ننسى المؤرخين العملاقين سبط بن الجوزي وابن واصل[٩] اللذين خدما الناصر وأقاما عنده وكذلك والد ابن واصل العالم الفقيه الذي أقام بالكرك مدة[١٠] وغير هؤلاء كثير ٠

بدأ الملك الناصر في تنظيم مملكته وأحاط نفسه بنخبة من العلماء والفقهاء والادباء والحكماء ، وكانت امارته لا تختلف عن بقية الامارات الاخرى ، لها تنظيماتها الادارية وجيشها الخاص واتخذ لنفسه الوزراء[١١] وجدد بناء قلعة الكرك وأنشأ قاعة كبيرة له سماها القاعة الناصرية[١٢] ظلت مخصصة للاستقبالات الرسمية على عهده وعهود من خلفه من الامراء والملوك ٠

وأصبحت أمارة الكرك في عهد الملك الناصر **داود تشكل مركزا لتوازن القوى بين القاهرة ودمشق ، ان مالت مع احداها رجحت الكفة لصالحها ، وكان كل من الكامل والاشرف يعي هذه الحقيقة ويحاول أن يكسب الناصر الى جانبه** ٠ أما الناصر داود فقد كانت تعوزه قوة الشخصية والتمرس السياسي ، واعتقد ان والده الملك المعظم لم يمنحه الوقت الكافي أو يهيء له فرص المشاركة في الاحداث السياسية التي كانت تدور من حوله آنذاك فمنذ حداثة سنه عكف على العلم والتحصيل فأخذ العلم على العديد من العلماء الذين أجزل لهم العطاء وغمرهم بفضله وكرمه ٠ وهكذا انصرف الناصر داود كلية للعلوم والادب واصبح قليل الدراية بالسياسة وشئونها فما أسرع ما كان ينخدع ، ولم تكن لديه الحنكة السياسية التي تمتع بها

---

(٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣٣٠ ٠

(٩) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٧٢ ٠

(١٠) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٨٥ « مخطوطة » ٠

(١١) احد هؤلاء الوزراء هو : الوزير شرف الدين ابن الامير محمد بن عبد الوهاب الانصاري (سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ، ص ٤٤٧) ٠

(١٢) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ٠ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ٠

والده الملك المعظم ، ولا البصيرة ووضوح الرؤية او بعد النظر وهي صفات امتاز بها صلاح الدين وجده الملك العادل • لقد خسر دمشق في أول تجربة سياسية خاضها وستبقى دمشق أملا يسعى عبثا من أجل استردادها •

أما الملك الكامل فبعد أن تحقق له ما أراد أخذ يعمل على توثيق صلاته بأمراء بني أيوب في الشام ضمانا لتأييدهم له عن طريق المصاهرة ، فزوج بنتيه فاطمة خاتون من الملك العزيز صاحب حلب(١٣) ، وغازية خاتون من الملك المظفر صاحب حماة ، واحتفل بدخولهما في كل من حلب وحماة احتفالا عظيما في سنة ٦٢٩هـ (١٢٣١م) أثناء خروج الكامل من مصر في هذه السنة • وكان سبب خروج الملك الكامل هذه السنة رغبته في انتزاع آمد وبلادها من صاحبها الملك المسعود بن الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان(١٤) ، الذي أساء السيرة في الرعية وتعرض لحريمهم واكثر من الفساد فاتفق الكامل والاشرف على قصده وانتزاع آمد منه • ورأى الكامل ضرورة تعزيز صلته بابن أخيه الملك الناصر داود فأرسل اليه يبلغه بقدومه الى الكرك في طريقه الى البلاد الشرقية ، وسارت القوات المصرية صحبة أخيه الاشرف(١٥) الى دمشق ، أما هو فسار في جريدة (قوة صغيرة) الى الكرك ومر بطريقه على الشوبك وكان الملك الناصر داود قد سلم هذا الحصن اليه قبل ثلاث سنوات ، وبعد أن تفقد أحوال المدينة والحصن سار باتجاه الكرك ، وكان الناصر داود قد أعد العدة لاستقبال عمه بما يليق بمكانه فخرج لاستقباله بالشوبك ثم عاد لترتيب الاقامة له وابدى من الحفاوة والتكريم حدا لا يوصف ، فرتب الاقامات له في اللجون شرقي الكرك • وضربت للملك الكامل هناك خيمة ودهليز كبيران على درجة كبيرة من الابهة والفخامة نمقا بتصاوير رائعة الجمال ، ومد له الناصر سماطا

---

(١٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ص ١٦٠ •

(١٤) ابو واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٧٧ « مخطوطة » ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٥٩ ـ ابن دقماق : نزهة الانام في تاريخ الاسلام ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٧٤٠ تاريخ احداث سنة ٦٢٩هـ •

(١٥) ابو واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٧٨ « مخطوطة » •

عظيما بعد أن ذبح أعدادا كبيرة من البقر والغنم والخيل والجمال ، وكانت عادة الترك أن يمد هذا السماط ويترك كي ينهبه العامة[16] • ثم دعا الناصر لهذا الحفل عددا كبيرا من الوجوه والامراء والفقهاء والعلماء ، وما أن أتم الناصر تجهيزه حتى خرج لاستقبال عمه على بعد فرسخ من اللجون وبرفقته المؤرخ ابن واصل ووالده ، والشيخ شمس الدين قاضي نابلس والشيخ الامام العلامة شمس الدين الخسرو شاهي ، وساروا جميعا الى اللجون حيث أعدت الاستقبالات العظيمة للملك الكامل الذي وصل في العشر الأخير من شعبان[17] وعندما ترجل الكامل ونزل في دهليزه أمر فنهب السماط وكان فيه « ابراج من الحلوى عظام »[18] فتسلق العامة الى موضع هذه الابراج وتساقطوا من أعاليها ، وكان الملك الكامل واقفا والى جانبه الملك الناصر يضحكان من منظر انتهاب العامة للسماط ووقوع بعضهم على بعض لقد كان احتفالا عظيما ويوما مشهودا • وانتهز الكامل فرصة هذه الاحتفالات ليوثق علاقته بالناصر داود فقرر أن يزوجه من ابنته عاشورا خاتون[19] ــ وكانت في مصر انذاك ــ وفي اليوم اجتمع عدد كبير من الشخصيات الكبرى من اصحاب السلطان الملك الكامل واصحاب السلطان وابن اخيه الناصر داود من بينهم القاضي شمس الدين الشريف قاضي العسكر المنصور الكاملي ، وكمال الدين ابن شيخ الشيوخ وابن واصل ووالده والخسرو شاهي وغيرهم ، وكان متولي العقد من جهة الكامل عن ابنته عاشورا خاتون كمال الدين ابن شيخ الشيوخ[20] ، أما متولي القبول من جهة الملك الناصر فكان نائب الناصر بالكرك الطواشي عزيز الدولة ريحان • وبعد العقد نثر الذهب والفضة على الناس ، وعمت الفرحة الجميع وهكذا تمت المصاهرة بين الكامل محمد والناصر داود وبها

---

(١٦) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٧٨ « مخطوطة » •

(١٧) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٥٩ •

(١٨) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٧٨ « مخطوطة » •

(١٩) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٧٨ « مخطوطة » ــ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٠٩ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٤٢ •

(٢٠) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٧٨ « مخطوطة » •

استطاع ان يمكن نفوذه في امارة الكرك وضمن انضواء صاحبها اليه كما فعل مع كل من صاحبي حماه وحلب عن طريق المصاهرة ٠ وفي أثناء مقام الكامل في اللجون وصل اليه الملك المظفر تقي الدين صاحب حماه ، قدم لاستقبال خاله السلطان والاحتفاظ بمقدمه ٠ ثم رحل الكامل من الكرك بعد أيام متوجها الى دمشق وفي صبحته الملك الناصر داود وعسكره بعد أن حصل بينهما الاتحاد التام(٢١) ، ولما تكامل وصول العسكر الى دمشق سار الكامل الى الشمال لمنازلة آمد ومعه قوات بني أيوب في الشام ٠

ونجح الملك الكامل في افتتاح آمد وتسلمها من صاحبها وسجنه في قلعة حصن كيفا(٢٢) ، وأقام على آمد ابنه الملك الصالح أيوب نائبا(٢٣) وكان قد استصحبه معه في هذه الحملة ، وترك في القاهرة ابنه العادل سيف الدين أبو بكر مع أمه التي كانت أقرب نسائه اليه(٢٤) ٠ وبعد أن تم الفتح كتب الملك الناصر داود الى الطواشي عزيز الدولة ريحان نائبه بالكرك يخبره بفتح آمد ويصف صورة الواقعة ، فضربت البشائر بمدينة الكرك وقلعتها(٢٥) وأقيمت الزينات لهذا النصر ، ثم رد الطواشي عزيز الدولة على الملك الناصر برسالة من انشاء شرف الدين بن جمال الدين ابن بصاقة(٢٦) وكان بالكرك ، وارفق معها قصيدة من نظمه ، وكان الناصر داود قد تغير على ابن بصاقة وسجنه في جب قلعة الكرك ، ثم عاد فاطلقه ٠ وقد سر الناصر من القصيدة وعند عودته للكرك في أول سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) أنشدها أمامه فمنحه خمسة الاف درهم(٢٧) واقطعه اقطاعا سنيا واعاده الى خدمته بعد أن رضي عنه ٠ وبعد انتهاء المهمة بنجاح عاد الملك الناصر

---

(٢١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠٩ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥١٢ « مخطوطة » ٠

(٢٢) ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٢هـ « مخطوطة » ٠

(٢٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٠ ــ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٥٣ ٠

(٢٤) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٧٩ « مخطوطة » ٠

(٢٥) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٨١ « مخطوطة » ٠

(٢٦) انظر نص الرسالة في الملاحق ٠

(٢٧) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٨٢ « مخطوطة » ٠

داود الى الكرك قادما من البلاد الشرقية ، فخرج أعيان الكرك ومن بينهم ابن واصل لاستقباله ، والتقوا به عند زيزاء فأحسن اليهم جميعا ويعبر ابن واصل عن ذلك قائلا : « ولازمت خدمته والحضور في مجلسه في غالب الاوقات والاستفادة معه على الشيخ شمس الدين الخسرو شاهي في العلوم النظرية »[٢٨] .

وسادت المودة ملوك وأمراء البيت الايوبي واتفقت كلمتهم حتى انهم في سنة ٦٣١هـ (١٢٣٣م) ساروا جميعا بصحبة الملك الكامل والاشرف قاصدين علاء الدين كيقباذ صاحب بلاد الروم الذي حاول السيطرة على خلاط[٢٩] وغيرها من البلاد الشرقية . وكان الملك الناصر داود عند عمه بمصر عندما عزم على الرحيل بقواته ، فسار الناصر الى الكرك لتهيئة اموره واعداد عساكره ولحق بقوات عمه بدمشق ثم زحفت القوات الايوبية باتجاه كيقباذ « لانتزاع البلاد الرومية منه »[٣٠] . حطت العساكر على النهر الازرق في حدود بلاد الروم وضرب في معسكر الكامل ستة عشر[٣١] دهليزا لستة عشر ملكا كانوا في خدمته من بينهم الملك الاشرف موسى صاحب دمشق والملك المظفر غازي صاحب ميافارقين ، والملك الناصر داود صاحب الكرك والملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص ، والملك المظفر صاحب حماه وغيرهم من الملوك والامراء ، وكان هذا الاجتماع اكبر تجمع أيوبي منذ سنين عديدة[٣٢] . وعلى الرغم من اجتماع كلمة بني ايوب وارتباطهم الوثيق بالكامل يبدو ان الكامل كان لا يزال يعمل من اجل الانفراد بالسيطرة على

---

(٢٨) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٨٤ « مخطوطة » .

(٢٩) خلاط : أو اخلاط بلدة عامرة من بلاد أرمينية لها بساتين كثيرة ، وبها عدة انهار شبيهة بانهار دمشق ، وبردها شديد وهي اجل مدينة بأرمينية (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ٣٥٥) .

(٣٠) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٩٠ « مخطوطة » .

(٣١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٢ — ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٥٩ — العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥١٦ « مخطوطة » — ويذكر ابن دقماق أنها ثمانية عشر دهليزا (انظر نزهة الانام احداث ٦٣١هـ « مخطوطة ») .

(٣٢) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٩٠ « مخطوطة » .

بلاد الشام ، ولقد لمس الملوك والامراء ذلك اثناء هذه الحملة ، ولذلك تقاعسوا عن حرب الروم ، والظاهر أنهم أحسوا بنوايا الكامل بالانفراد بالشام ومصر[٣٣] ، وقصر نفوذ أمراء البيت الايوبي على بلاد صاحب الروم التي يوزعها فيما بينهم ، بدليل ان الاشرف طلب من أخيه الكامل الرقة[٣٤] لتكون برسم عليق دوابه اذا عبر الفرات ، ولكن الكامل امتنع وقال : « أما يكفيه كرسي بني أمية ؟ » • وهكذا فسدت النيات بين أمراء البيت الايوبي والكامل ، وبوجه خاص بين الكامل وابن اخيه الملك الناصر داود فقد بلغه اتفاقه مع الملوك عليه[٣٥] ، فقد كان الناصر داود اكثر الملوك حساسية ، لانه لدغ من عمه عندما انتزع منه دمشق وخشي أن يسلب منه امارة الكرك كذلك ، لذا طلب منه الكامل أن يطلق ابنته عاشورا خاتون والتي عقد عقدها باللجون شرقي الكرك ، ولم يكن قد أعرس بها بعد[٣٦] ، والزمه بطلاقها فطلقها وأشهد على ذلك • وعلى هذا النحو ازدادت النفرة بين ملوك البيت الايوبي ولم يستطع الكامل تحقيق ما أراد • وفشل في احتلال املاك صاحب الروم وقرر العودة الى الديار المصرية يعتصر قلبه الاسى والحزن وبذلك تنتهي مرحلة الوفاق المؤقت بين آل ايوب وتبدأ مرحلة جديدة من التنافس والتنازع تستنفذ قواهم وتمتص قدراتهم أمام الفرنج •

---

(٣٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٥٣ ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٢ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٢٣ « مخطوطة » ــ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٦٠ ــ ويقول ابن دقماق : (قعد السلطان مع جماعة من خواصه فقال : ملك الروم ان صار لنا وملكناه عوضنا ملوك الشام والشرق عما بأيديهم وأقطعناهم الروم وجعلت الشام والشرق مضافا الى ملك مصر) انظر : ابن دقماق نزهة الانام احداث ٦٣١هـ « مخطوطة » •

(٣٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٥٣ ــ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٤٥ ــ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٤هـ « مخطوطة » ــ الرقة : حاضرة بلاد ديار مضر وتقع على الضفة الشرقية لنهر الفرات وعلى بعد نحو ٢٤ ميلا شرقي الرصافة ، وكانت تشتهر بتجارتها المختلفة • Le Strange P. 518

(٣٥) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٩٢ « مخطوطة » •

(٣٦) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٩٣ « مخطوطة » ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٣ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥١٧ « مخطوطة » ــ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ١٦٠ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٥١ •

أما الملك الناصر داود فقد كان مبعث خوفه عقد اتفاق جديد ضده يطيح بمملكته · وأما الوحشة بين الكامل والاشرف فلم تكن قد بلغت حدا كبيرا من الخطورة وانما كان كل قد تغير بالباطن ولم يظهره(٣٧) · ووجد الملك الناصر داود أن مصلحته تقضي بسفره الى بغداد ليلوذ بدار الخلافة ويستنصر بالخليفة ، وبهذه النية خرج الملك الناصر من الكرك في مستهل سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٥م) يرافقه فخر القضاة شرف الدين بن جمال الدين ابن بصاقة ، والشيخ شمس الدين الخسرو شاهي ، وابو الفتح نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقي الغفاري(٣٨) وبعض خواص مماليكه ، وعندما اقترب من الحلة ، خرج زعيمها الامير شرف الدين علي بن جمال الدين قشتمر وتلقاه بالاكرام واحتفل به احتفالا عظيما ، ومد له سماطا بلغت تكاليفه اثني عشر الف دينار(٣٩) ثم سار الى بغداد وعندما اقترب منها أمر الخليفة المستنصر بالله (٦٢٣ – ٦٤٠هـ / ١٢٢٦ – ١٢٤٢م) بتلقيه واكرامه ، فخرج الى لقائه النقيب الطاهر قطب الدين ابو عبد الله الاقساسي نقيب الطالبيين ، كما استقبله خادمان من خدم الخليفة عن يمينه وشماله وجميع الحجاب والدعاة وانزل في دار الوزارة معززا مكرما · وقدم الناصر للخليفة هدية ضمت الجواهر النفيسة وبعض التحف الجليلة فقبلها الخليفة وزاد في اكرامه · وأثناء مقامه في بغداد سأل أن يحضر المدرسة المستنصرية التي بناها الخليفة على شط دجلة ، فأمر الخليفة باستدعاء فقهاء المدارس ببغداد وجلس الناصر داود على طرف ايوانها الشمالي وكان الخليفة في روشن يسمع كلامهم(٤٠) · وبحث الناصر مع الفقهاء وناظرهم ، ثم قدم المشروب وبعده أنواع الاطعمة فتناول الملك الناصر ثم قبل الارض مرارا ولما فرغوا انصرف الى داره · حاول الملك الناصر داود مقابلة الخليفة وطال مقامه هناك وهو يردد السؤال ولكن الخليفة لم يوافق على ذلك(٤١) خشية

---

(٣٧) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٩٧ « مخطوطة » ·

(٣٨) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٤٨ ·

(٣٩) ابن الفوطي : التجارب النافعة ، ص ٧٨ – النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٥٠ « مخطوطة » ·

(٤٠) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٩٩ « مخطوطة » ·

(٤١) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٩٧ « مخطوطة » – أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٤ – العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٢٠ « مخطوطة » – المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٢٥١ ·

أن يؤدي ذلك الى سوء فهم من ناحية الملك الكامل فتقع على اثرها جفوة بين بغداد والقاهرة ، وكان الخليفة حريصا على أن تسود مشاعر الود بينه وبين الكامل وأن يكون البيت الايوبي قويا متماسكا للوقوف في وجه خطر المد التتاري القادم من المشرق • واخيرا كتب الناصر داود قصيدة قدمها للخليفة تساءل فيها عن سبب اعتراض الخليفة على استقباله شخصيا مع أنه استقبل صاحب اربل مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك ، وطلب الناصر ان يعامله بالمثل مع انه اي الناصر اولى بذلك من كوكبوري • واعجب الخليفة بالقصيدة[42] ورأى أن يجمع بين المصلحتين ، فاستدعاه اليه سرا « جبرا لقلبه ورعاية في عدم الجهر للسلطان الملك الكامل »[43] ويروي الملك الناصر قصة تفاصيل المقابلة فيقول : « استدعاني الخليفة بعد شطر من الليل فدخلت من باب السر الى ايوان فيه ستر مضروب ، فقبلت الارض بين يديه فأمرني بالجلوس ، فجلست ثم أخذ الخليفة يحدثني من خلف الستر ويؤانسني ، ثم أمر الخدم فرفعوا الستر فقمت وقبلت الارض ثانيا وتقدمت فقبلت يد الخليفة فأمرني بالجلوس فجلست بين يديه فجاراني في أنواع العلوم وأساليب من الشعر الى آخر الليل ، ثم خرجت من عنده وعدت الى منزلي في باقية النهار »[44] • ثم تأهب الملك الناصر للعودة الى بلاده بعد أن تم لقاءه بالخليفة وخلع عليه خلعة سنية[45] وزاد الى لقبه المعروف به « الولي المهاجر »[46] وارسل الخليفة معه رسولا مشربشا[47] هو سعد

---

(٤٢) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٩٩ « مخطوطة » •

(٤٣) المصدر نفسه : لوحة ٢٩٩ « مخطوطة » •

(٤٤) المصدر نفسه : لوحة ٢٩٩ « مخطوطة » •

(٤٥) وتشتمل هذه الخلعة : عمامة مذهبة سوداء وجبة سوداء مذهبة ، وخلع كذلك على اصحابه ومماليكه خلعا جليلة ، واعطى عدة أرؤس من الخيل وثيابا كثيرة وخمسة وعشرين الف دينار وخمسين جملا وكراعا كثيرا وآلات ومفارش وغير ذلك (انظر : ابن الفوطي : التجارب النافعة ، ص ٧٩ ـ ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٩٩ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٧ لوحة ٥١ « مخطوطة ») •

(٤٦) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٠٠ « مخطوطة » •

(٤٧) الشربوش : لباس للرأس وهو يشبه التاج مثلث الشكل يوضع على الرأس بغير عمامة ، فعندما يمنح أي مملوك رتبة فارس كان من المألوف أن يمنحه الخليفة أو السلطان خلعة تتناسب ومرتبة الفروسية ثم يضع على رأسه شربوشا (ماير : الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتي ، القاهرة ١٩٧٢م ، ص ٥١) •

Dozy, Dictionnaire Detaille de vetements, vol. 2, P. 220.

الدين حسن بن علي(٤٨) - وكان من اكبر خواصه - الى السلطان الملك الكامل كي يصلح ما بينهما · ثم وصل الملك الناصر الى دمشق في شوال بعد غياب دام سبعة أشهر تقريبا ومعه الاعلام السود رنك الخليفة(٤٩) ، فقد جعل رنكه كله أسود انتماء للخليفة العباسي في بغداد · وكان الملك الكامل اذ ذاك مقيما بدمشق في ضيافة اخيه الملك الاشرف ، فخرج الكامل والاشرف الى لقائه خارج دمشق ، وقبل الكامل شفاعة الخليفة وزال ما كان بينهما ونزل الناصر داود بقصره بالقابون وكان قد ورثه عن ابيه الملك المعظم عيسى · ثم توجه الملك الناصر بعد ذلك الى الكرك يرافقه رسول الخليفة « ليرتبه بالكرك ويلبسه الخلعة ثم لتؤكد أمره وتحسم مادة الطمع فيه »(٥٠) · واحتفل لوصوله احتفالا مهيبا فضربت له الخيام في وادي الكرك ومد السماط العظيم الذي دعي اليه الاكابر من العلماء والفقهاء والاجناد وتقدم رسول الخليفة فألبس الناصر خلعة الخليفة ودقت البشائر بمدينة الكرك وقلعتها احتفالا بذلك فكان يوما مشهودا ، ثم خلع الملك الولي المهاجر الناصر داود على رسول الخليفة وأكرمه ، فعاد الى بغداد بعد أن ادى مهمته أما الملك الناصر فقد أقام في امارته بالكرك وقد اطمأن قلبه بسبب نسبته الى الخليفة في بغداد(٥١) ·

---

(٤٨) النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٧ لوحة ٥١ « مخطوطة » ·

(٤٩) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٠٠ « مخطوطة » - الرنك : ساد استعمالها منذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) في الشرق والغرب معا ، وهي علامة خاصة للخليفة أو الامير تنقش على العصائب والتروس وتمتاز ببساطتها وخلوها من الزخارف ولم يكن يمتاز الامير عن غيره من الامراء الا باللون الذي يختاره لرنكة (الباز العريني : المماليك ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٢٢٧) · أما القلقشندي فيقول : « ثم صار لكل امير رنك خاص يجعله على كل ما يملكه كعلامة مميزة لهذا الامير ، فيدهنون الرنك على أبواب بيوتهم والاماكن المنسوبة اليهم كمطابخ السكر وشون الغلال، والاملاك والمراكب ، وعلى قماش خيولهم من جوخ ملون مقصوص ، وعلى قماش جمالهم من خيوط صوف ملونة ، وتنقش على العبي والسيوف والاقواس » (القلقشندي : صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٦١ - ٦٢) ·

(٥٠) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٠٠ « مخطوطة » ·

(٥١) المصدر نفسه : لوحة ٣٠٠ « مخطوطة » ·

على أن الخلاف بين الاخوين الكامل والاشرف لم يلبث أن اتسع اتساعا ينذر بالخطر ، فعمل الاشرف على تكوين حلف قوي يضم ملوك وامراء الشام « فحلفوا واتفقوا »(٥٢) بعد أن تأكدوا من مطامع الكامل في بلاد الشام وسعيه الحثيث لتكوين امبراطورية تضم مصر والشام معا بالاضافة الى اليمن التي كانت تحت حكم ابنه الملك المسعود • ولم يكتف الاشرف بذلك بل عمد الى ضم علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو صاحب الروم فكاتبه(٥٣) ، كذلك سعى الاشرف الى ضم الناصر داود الى جانبه ، وهنا تبرز أهمية امارة الكرك لكل من طرفي النزاع ويحاول كل فريق اجتذاب الملك الناصر داود الى جانبه لوقوع امارته بين المتخاصمين ، بالاضافة الى اهميتها الاستراتيجية كخط للمواصلات ومركز هام للمقاومة بما تشتمل عليه من قلاع وتحصينات • **والواقع أن هذه الامارة كانت تمثل مركزا لتوازن القوى بين القاهرة ودمشق ولهذا لا نعجب اذ رأينا الناصر داود يصبح موضع اهتمام كل من الكامل والاشرف ، وأصبحت الكرك مركز نشاط دبلوماسي واسع تتردد الرسل على الناصر من عميه الكامل والاشرف** • كانت العروض التي قدمت اليه جميعا مغرية ، فالاشرف وعده بأن يجعله ولي عهده في ملك دمشق كما وعد بأن يزوجه من ابنته الوحيدة(٥٤) ، أما عمه الكامل فقد ارسل اليه القاضي الاشرف بن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني يدعوه الى الوقوف في صفه ، ويحذره من عدم تكرار الخطأ السابق عندما نشب بينهما الخلاف فلجأ الى عمه الاشرف الذي تآمر عليه واخذ منه دمشق ، وكتب اليه يعده

---

(٥٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٦٣ – (ابن دقماق : نزهة الانام ، احداث ٦٣٤هـ) « مخطوط » •

(٥٣) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٠٦ « مخطوطة » – أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٧ – العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥١٢ « مخطوطة » – ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٥٤ – ابن دقماق : نزهة الانام احداث ٦٣٥هـ « مخطوطة » – بامخرمة : قلادة النحر ، ج ٣ قسم ١ لوحة ٨٥٥ « مخطوطة » •

(٥٤) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٠٣ « مخطوطة » – أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٦ – العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ١ ص ٥٢١ « مخطوطة » •

باعادة املاك ابيه المعظم اليه فيقول : « وانا التزم لك ان وافقتني خرجت معك بعساكري وسلمت اليك مملكة والدك كلها تكون لك »(٥٥) ، وأمام الاختيارين تحير الناصر واشتغل فكره فلجأ الى امه يسألها المشورة ، فأشارت عليه باللجوء الى عمه الكامل خوفا من أن يجري عليه ما جرى في المرة الاولى ، وكان رأيها في ذلك ان قوة الكامل اكبر وان الاشرف قد سبق وجرب فغدر • لذا استقر عزم الناصر على الاتفاق مع عمه الكامل ووجد في ذلك فرصة مواتية يستعيد بها ملك أبيه بعد أن فشل مرارا في سبيله •

رحل الناصر مع رسول عمه الكامل باتجاه الديار المصرية في ذي الحجة ٦٣٤هـ (أغسطس (آب) ١٢٣٧م) ولما علم عمه بقرب وصوله خرج لاستقباله شخصيا الى منزلة قطيا(٥٦) ، ورتب له الاقامات في الطريق التي سيسلكها الى القاهرة واحتفل به احتفالا مهيبا ، وبالغ في اكرامه مما ادهش الناصر فانخدع بالمظاهر ، وزينت القاهرة احتفاء بقدومه وانزله في دار الوزارة(٥٧) ، ولم يكتف بذلك بل خلع عليه خلعة السلطنة وقلده دمشق(٥٨) واركبه بالسناجق السلطانية وسار الكامل أمامه(٥٩) وأمر الامراء بأن يحملوا الغاشية بين يديه بالتناوب(٦٠) ، وأول من حملها ابن عمه الملك

---

(٥٥) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٠٣ « مخطوطة » •

(٥٦) قطيا أو قطية : قرية بالرمل المعروف بالجفار على طريق الشام قرب الفرما ، وكانت مركزا لاخذ المكوس من التجار الواردين الى مصر والصادرين منها ، وهناك رمل بالطريق يختم ليلا ويحفظ ما حوله بالعربان حتى لا يمر احد ليلا دون ان يدفع المكوس (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٧٧ ــ ٣٧٨) •

(٥٧) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٠٣ « مخطوطة » ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٥٤ •

(٥٨) العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٢١ « مخطوطة » ــ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٦٥ ــ ابن دقماق : نزهة الانام احداث ٦٣٤هـ « مخطوطة » ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٥٤ •

(٥٩) ابن دقماق : نزهة الانام احداث ٦٣٤هـ « مخطوطة » •

(٦٠) الغاشية : هي غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب ، يظنها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يدي السلطان عند الركوب في مواكب الاحتفالات كالميادين والاعياد ونحوها ، يحملها المرء رافعا لها على يديه يحركها يمينا وشمالا ، عرفها الايوبيون عن طريق السلاجقة (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٧) •

العادل سيف الدين ابو بكر ولي العهد بمصر ، ثم حملها الملك الجواد مظفر الدين بن يونس بن مودود ، ثم حملها الأمراء كل حسب رتبته الى أن صعد القلعة ، وزيادة على ذلك أمر الكامل بتجديد عقده على ابنته عاشورا خاتون . لقد كان هذا الاحتفال شيئا عظيما مهيبا أثلج فؤاد الملك الناصر فأرسل رسالة الى الكرك يصف فيها حفاوة عمه به واكرامه له وبدأ رسالته بأحد أبيات المتنبي :

واعلـــم قوما خالفوني وشرقـــوا وغربت أني قد ظفرت وخابوا(٦١)

وهذا يؤكد لنا ان هناك من خالفه من حاشيته واتباعه وخوفوه من غدر عمه الكامل واطماعه . لكن الناصر داود العالم الفقيه تأثر بحكم طيبته بحسن استقبال عمه له وانخدع بهذه المظاهر البراقة ، فلم يكن سياسيا محنكا ممن لا تنطلي عليهم اساليب الخداع وانما كان طيب القلب حسن النية فانطلت عليه خديعة عمه ويعبر ابن دقماق عن ذلك قائلا : «وكل ذلك من الكامل خداع ومكر وحيلة عملها على استمالته »(٦٢) ، وسنرى فيما بعد أن هذه الحفاوة البالغة لم تكن سوى قناعا زائفا يخفي حقيقة ما وراءه من اطماع . أما الناصر فقد اقام في ضيافة عمه الكامل « وقد اشتد ازر الملك الكامل به »(٦٣) .

وكان من الطبيعي أن يستاء الملك الاشرف صاحب دمشق من تصرف الناصر داود وتقاربه من الكامل وأحس بخطورة انضمامه الى الكامل . وردا على هذا التحدي ، قام بعمل انتقامي سريع ضد الناصر ، فأرسل قواته الى

(٦١) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٠٣ « مخطوطة » - أما النص الذي ورد في المخطوطة فهو :

سيعلم قوما خالفوني وشرقوا وغربت اني قد اصبت وخابوا

وما ذكرته في المتن هو الوارد في ديوان المتنبي (انظر : شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي ، ج ١ ، ص ٣٢٦ ، بيروت ١٩٣٨م.) .

(٦٢) ابن دقماق : نزهة الانام احداث ٦٣٤هـ « مخطوطة » .

(٦٣) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٠٦ « مخطوطة » .

نابلس وكانت ضمن املاك الناصر داود فاحتلها(٦٤) واستولى على ما كان فيها للناصر · وأرسل متعاونا مع أمراء وملوك الشام رسالة للملك الكامل ينذره فيها ويخوفه من الخروج ويعلمه باتفاق الكلمة ضده(٦٥) ، لكن الامور لم تلبث ان تطورت لصالح الملك الكامل ، فقد مرض الاشرف واشتد به الداء فعهد بولاية العهد الى أخيه الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ابن الملك العادل صاحب بصرى ، ثم توفي يوم الخميس الرابع من المحرم ٦٣٥هـ (٢٨ أغسطس (آب) ١٢٣٧م) ودفن بدمشق · كان الاشرف سلطانا واسع الصدر كريم الاخلاق كثير العطاء ، وعند وفاته لم يوجد في خزائنه شيء من المال بل كانت لا تزال عليه ديون للتجار(٦٦) · وقد قال الملك العادل عندما سمع نبأ وفاته « والله لو لم يمت لراحت البلاد منا »(٦٧) ، فلما قيل له أن ملكك يمتد من الموصل شرقا الى اليمن جنوبا فماذا يفعل ؟ قال : « لقد كان كريما وليس مع الكريم حديث » ·

وبوفاة الاشرف ايقن الناصر بان دمشق في متناول يده ، فالصالح اسماعيل ملكها الجديد لن يستطيع الوقوف في وجه الكامل وحليفه الناصر داود · ففي شهر صفر من هذه السنة ٦٣٥هـ سار الملك الكامل وبصحبته ابن أخيه الناصر داود الى الشام «وهو لا يشك أن الملك الكامل يسلم اليه دمشق لما كان قد تقرر بينهما »(٦٨) · وقبل أن يصلا الى دمشق قام الامير ظهير الدين بن سنقر الحلبي أحد اتباع الملك الناصر بمكاتبة

---

(٦٤) ابن دقماق : نزهة الانام احداث ٦٣٤هـ « مخطوطة » ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٥٥ ·

(٦٥) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٥٥ ــ بامخرمة : قلادة النحر ، ج ٣ قسم ١ لوحة ٨٥٥ « مخطوطة » ·

(٦٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٠٠ ــ بامخرمة : قلادة النحر ، ج ٣ قسم ١ لوحة ٨٥٥ « مخطوطة » ·

(٦٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٦٣ ·

(٦٨) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣١٠ « مخطوطة » ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٨ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٢٤ « مخطوطة » ــ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٦٥ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٥٦ ·

نائب الاشرف المقيم بقلعة عجلون(٦٩) « قلعة الربض » وبذل له اربعين الف درهم(٧٠) وخلعة ومركوبا وقماشا مقابل تسليمه القلعة ، فوافق على ذلك وتسلمها الملك الناصر في شهر ربيع الأول(٧١) ، ولم ينكر الملك الكامل هذا التصرف وأقره عليه فاستوثق الناصر داود من صدق نوايا عمه · ثم وصلت قواتهما الى دمشق في جمادى من سنة ٦٣٥هـ ، وشددت حصارها على الملك الصالح اسماعيل وكان قد استعد للحصار وعزم الناصر داود على افتتاح دمشق وضمها الى مملكته تنفيذا للاتفاق القائم بينه وبين الكامل · فزحف على دمشق من جهة العقيبة(٧٢) وباب توما(٧٣) ووصل قرب الأسوار وكادت قواته تقتحم المدينة · ولما علم الكامل بذلك خشي أن فتح الناصر دمشق تمكن منها واصبح صاحب الحق فيها ، وهنا تظهر سوء نيته فأرسل اليه فخر الدين ابن شيخ الشيوخ يرده عن دخولها(٧٤) فرجع عن عزمه(٧٥) · اشتد الحصار حول دمشق وكان الوقت شتاء والبرد قارس شديد واضطر الصالح الى تسليم دمشق وعوض عنها : بعلبك والبقاع وبصرى والسواد(٧٦) وذلك بعد أن توسط رسول الخليفة العباسي محي

---

(٦٩) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٨٨ ·

(٧٠) المصدر السابق : ج ٣، ص ٨٩ ·

(٧١) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣١٠ « مخطوطة » ·

(٧٢) العقيبة : يطلق على الجانب الشمالي من دمشق ، وهو مدينة مستقلة بذاتها ذات ابنية جليلة وعمائر ضخمة يسكنها كثير من الامراء والجند (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٩٤) ·

(٧٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٧٥ – ابن دقماق نزهة الانام احداث ٦٣٥هـ « مخطوطة » ·

(٧٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٦٧ ·

(٧٥) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣١٠ « مخطوطة » ·

(٧٦) يقول سبط بن الجوزي : «وكان خالي محي الدين بدمشق فدخل بينهما بالصلح» (مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٦٧ و ص ٤٧٥) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) موحة ٣١٠ « مخطوطة » – أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٨ – النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٥٤ « مخطوطة » – ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٢٥ – العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٢٤ « مخطوطة » – ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٦٥ – ١٦٦ – ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٤٨ – ابن دقماق : نزهة الانام احداث ٦٣٥هـ « مخطوطة » – المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٥٦ ·

الدين ابو المظفر يوسف بن الشيخ جمال الدين ابو الفرج بن الجوزي وكان قد قدم من بغداد ليصلح بين الملوك ويعلمهم بضرورةالمصالحةللوقوف صفا واحدا في وجه خطر التتار الداهم عليهم من الشرق • ودخل الملك الكامل دمشق في نهاية جمادى الاولى سنة ٦٣٥هـ (يناير (كانون الثاني) ١٢٣٨م) وبين يديه ابن اخيه الملك الناصر داود ، فنزل الكامل بقلعة دمشق أما الناصر داود فنزل بداره المعروفة بدار اسامة وكانت لوالده الملك المعظم أخذها من عز الدين أسامة صاحب عجلون عندما استولى على أمواله واملاكه • وهكذا دخلت دمشق في فلك دولة الكامل الذي استأثر بها ليصبح سلطانا على مصر والشام • ويعلل ابن واصل عدم توفيق الناصر داود بسوء حظه فيقول : « وكان هذا من الامور التي اقتضاها سوء حظه ، انه كان مع وفور عقله ناقص الحظ قليله جدا»(٧٧) • والواقع أن سوء الحظ لم يكن بسبب اخفاقه في كل خططه وانما يرجع ذلك الى عدم وضوح الرؤية السياسية لديه ، فلم يكن يحسن اهتبال الفرص او استغلالها لصالحه ، كان لا يزال تلميذا في مدرسة السياسة ومكائدها التي امتازت بها العصور الوسطى • ولو انه قبل الانضمام الى الاشرف لملك دمشق واصبح اكبر قوة تقف في وجه اطماع عمه الملك الكامل ، بل كان قادرا على منازلته والانتصار عليه ويؤكد ذلك ما ذكره ابن واصل اذ يقول : « ولو حصلت له دمشق على قوته بالحصون التي بيده وموافقة الحلبيين وصاحب حمص كان يقدر على الملك الكامل »(٧٨) • أما الكامل فلم يف بطبيعة الحال بوعده للناصر وعهد الى المماطلة والتسويف ثم رأى أن يبعده عن دمشق ولو لفترة مؤقتة يتهيأ للكامل خلالها ان يكرس سيطرته للشام • وكان الخليفة قد ارسل رسوله ليصلح بين الملوك كما ارسل مالا للملك الكامل ليجهز به عسكرا للخليفة في بغداد ، فقد بلغه توجه التتار اليها فامتثل الكامل لامر الخليفة وامر باخراج مائتي ألف دينار كي تستخدم في اعداد القوات وتجهيزها وأعد قوة من عشرة الاف مقاتل بينهم ثلاثة الاف فارس ، اما الاموال التي أرسلها

(٧٧) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٠٩ « مخطوطة » •

(٧٨) المصدر نفسه : لوحة ٣٠٩ « مخطوطة » •

الخليفة ومقدارها مائة الف دينار فقد ردها للخليفة ٠ وسير هذهالقوة الى بغداد بقيادة الملك الناصر داود[٧٠] يساعده الاميران ركن الدين الهيجاوي وعماد الدين ابن موسك ٠ والظاهر ان القوة التي كان قد أعدها الكامل لدعم الخليفة بقيادة الناصر لم تخرج الى وجهتها اما بسبب مرض الكامل او لاستكمال تجهيزها ، فمن المعروف ان الكامل توفي بعد شهرين من دخوله دمشق وذلك في يوم الاربعاء ٢١ رجب ٦٣٥هـ (١٠ مارس (آذار) ١٢٣٨م) أي بعد وفاة أخيه الاشرف بستة اشهر فقط ٠ ويؤكد المؤرخ المعاصر ابن واصل أن الناصر كان موجودا بدمشق وانه كان مقيما في داره المعروفة بدار اسامة[٨٠] ، كما يؤكده قول ابن آيبك : « وكان الناصر جالسا على الباب ، فطلب الاذن للعبور اليه ، فقلت للسلطان : داود على الباب ، فقال ينتظر موتي ! وانزعج فخرجت وقلت له : وماذا اوقفك يا خوند ؟ فقام وتوجه الى دار اسامة وكان نازلا فيها »[٨١]

---

(٧٩) ابو دقماق : نزهة الانام احداث ٦٣٥هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ٠

(٨٠) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣١٤ « مخطوطة » ٠

(٨١) ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٢٧ ٠

(٢)

موقف الناصر داود صاحب الكرك من العادل بن الكامل صاحب مصر

اتفق أمراء بني أيوب على أن يخلف العادل سيف الدين بن الملك الكامل أباه في مصر وأن ينوب عنه بدمشق ابن عمه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل أبي بكر بن ايوب(٨٢) مستبعدين بذلك الناصر داود لاقتناعهم بأنه ان استولى على دمشق استبد بالامر لنفسه(٨٣) . ثم ان الملك الناصر داود لم يبذل فيهم الاموال كما فعل الجواد الذي بذل ستة آلاف الف دينار(٨٤) ، وخلع عليهم خمسة آلاف خلعة . ولم يكتف الامراء بذلك بل ارسلوا اليه الامير نور الدين علي بن الامير فخر الدين عثمان الاستادار وطلب منه الخروج من دمشق ومغادرتها . تهيأ الناصر داود للخروج في الوقت الذي تظاهر فيه أهل دمشق لصالحه عندما علموا بالمؤامرة التي دبرت ضده ، ونادوا باسمه ملكا عليهم(٨٥) ، فقد كانوا

---

(٨٢) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣١٤ « مخطوطة » ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٩ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٢٦ « مخطوطة » ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٦٦ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٥٥ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٥هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٦١ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٤١ .

(٨٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٤٦٩ ـ ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣١٤ « مخطوطة » .

(٨٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٦٨ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٠٤ .

(٨٥) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣١٤ «مخطوطة» ـ ويقول ابن كثير : فركب من دار اسامة والعامة وراءه الى القلعة لا يشكون في ولايته الملك ، فلما جاوز العمادية عطف برأس فرسه نحو باب الفرج ، فصرخت العامة : لا . لا . لا (ابن كثير ـ البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٥٠ ، وانظر أيضا : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٠٤) .

يميلون اليه ويحبونه وكانوا على استعداد للانضمام اليه ونصرته ، لكن المماليك بزعامة بهاء الدين بن ميلكشو هاجموا أهل دمشق وضربوهم بالدبابيس ومزقوا جموعهم .

خرج الملك الناصر داود من دمشق غاضبا فنزل بعجلون ثم سار الى الكرك وهناك استقر عزمه على حشد قواته تمهيدا للقيام بعمل عسكري واسع النطاق . ولما تم له ذلك خرج بهذه القوات يقودها الامير مجد الدين عمر الهكاري شقيق الفقيه عيسى الهكاري(٨٦) وسار الى فلسطين فاستولى على غزة والسواحل وضمها الى مملكته(٨٧) ، ثم اقام بجموع قواته على غزة يراقب تطور الاحداث في كل من القاهرة ودمشق ، وبذلك أصبحت أمارة الكرك تضم جميع أراضي الأردن وفلسطين وهو أقصى توسع شهدته هذه الامارة . ومن هناك أرسل رسله الى ابن عمه الملك العادل ملك مصر يطلب منه دمشق ليكون نائبا له فيها ، ولكن العادل لم يوافقه على ذلك ، فكاتبه للمرة الثانية وذكر له أن الملك الكامل كان قد وعده بدمشق والتزم له بذلك ، وها هو الان قد ملك كل بلاد الساحل وضمها اليه فلم يبق سوى دمشق وطلب مساعدته في ذلك على أن يكون الى جانبه ومعه وتحت طاعته(٨٨) واستمرت المراسلات بين الطرفين في هذا المعنى .

وصلت أنباء استيلاء الناصر داود على الساحل الى الملك الجواد فخرج بقوات دمشق وما تبقى لديه من القوات المصرية ومقدمهم عماد الدين ابن شيخ الشيوخ والمماليك الاشرفية ، واستعمل الجواد الحيلة على الناصر داود فطلب من الاشرفية مكاتبته(٨٩) والتظاهر بأنهم الى جانبه ومن حزبه

(٨٦) النويري : نهاية الارب جزء ٢٧ لوحة ٥٦ « مخطوطة » .

(٨٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٦٨ — ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣١٥ « مخطوطة » — ابن آيبك : كنز الررر ، ج ٧ ، ص ٣٢٩ — ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٥٠ — ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٥هـ « مخطوطة » — المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٦٩ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٠٥ .

(٨٨) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣١٥ « مخطوطة » .

(٨٩) النويري : نهاية الارب ، جزء ٢٧ لوحة ٥٦ « مخطوطة » — ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٥٠ — ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٥هـ « مخطوطة » .

وأطماعه في الملك فاغتر بكلامهم(٩٠)،وسار من غزة باتجاه نابلس كي يلقاهم لكن بعض أتباعه ومرافقيه نصحوه بأن يرسل خزانته وامواله الى الكرك ويسير بعسكره اليهم ، ولكنه لم يستمع الى نصيحتهم ، وكانت أجناده متفرقة في البلاد فنزل الناصر داود الى مكان يقال له ظهر حمار بين نابلس وجنين(٩١) ولم يكن معه سوى سبعمائة فارس فقط ، ترافقه خزانته وامواله على سبعمائة جمل ٠ وكان الملك الجواد ينزل بجنين فركب بعسكره واحاط بالناصر ، فوقع المصاف في ٢٤ ذو الحجة ٦٣٥هـ (٧ أغسطس (آب) ١٢٣٨م) فانكسر الناصر داود كسرة قبيحة ومضى منهزما الى نابلس ثم الى الكرك لا يلوي على شيء ، واستولى الملك الجواد على خزانته(٩٢) وذخائره وخيوله وخيامه واثقاله ، فافتقر الناصر فقرا شديدا(٩٣) ، وكان فيها مالا يحصى قيمته من جملتها صندوق صغير فيه اثنتا عشرة قطعة من الجوهر والفصوص ليس لها قيمة ولا تقدر بثمن استولى عليها عماد الدين ابن شيخ الشيوخ ٠ وعاد الجواد الى دمشق وفرق ستمائة الف دينار وخمسة الاف خلعة وأبطل المكوس والخمور ونفى الخواطي من دمشق ٠

تعتبر هذه الهزيمة نقطة تحول في حياة الناصر داود فقد قلت أمواله كما ضعفت قوته فاقتصر على مراقبة الامور من مقر ملكه بالكرك ٠ كان الملك الجواد ما يزال يطمع في الاستبداد بملك دمشق ، فبذل الاموال

(٩٠) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٤٦٨ ٠

(٩١) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٢٠ « مخطوطة » ــ أما النويري فيذكر انه نزل ونصب دهليزه على سبسطية (نهاية الارب ، جـ ٢٧ لوحة ٥٦ «مخطوطة»)٠ ظهر حمار : قرية بين نابلس وبيسان ٠ (Lestrange, P. 545).

(٩٢) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٢٠ « مخطوطة » ــ أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٧٠ ــ النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٧ لوحة ٥٦ « مخطوطة » ــ ابن الوردي : تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ١٦٧ ــ العمري : مسالك الابصار ، جـ ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٢٨ « مخطوطة » ــ المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٧٣ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٠٥ ٠

(٩٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٤٦٨ ــ ابو آيبك : كنز الدرر جـ ٧ ، ص ٣٢٩ ــ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ١٥٠ ــ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٥هـ « مخطوطة » ٠

لذلك والزم الخطيب بذكر اسمه في الخطبة بعد العادل(٩٤) ٠ وأثار ذلك مخاوف العادل فبعث عماد الدين ابن الشيخ الى الملك الجواد وطلب منـــه أن يسير الى مصر ، لكن الجواد رفض ذلك واتفق مع الفداوية على قتل عماد الدين فقتلوه على باب جامع دمشق(٩٥) ٠ كان رد فعل العادل سريعا فاتصل بالملك الناصر داود ووثق علاقته به للوقوف في وجه الجواد فقدم الناصر الى القاهرة وأقام بجانبه ، ولما أعلن الملك العادل نيته في قصد دمشق لمنازلة الجواد اشار عليه الملك الناصر داود بأن يتبع معه سياسة اللين والمداراة فيطلب منه التنازل عن دمشق مقابل بلد آخر ، وكان قد اشير على العادل كذلك بأن يعده بقلعة الشوبك ان ترك دمشق فقبل الجواد هذا العرض أولا ثم عاد فرفضه ٠ كذلك وعده العادل أن يعطيه الاسكندرية(٩٦) ان هو تنازل عن دمشق ولكن الجواد رفض كل هذه العروض ٠ لم يستمع العادل الى نصيحة الناصر داود باستعمال اللين والمداراة مع الجواد وصمم على السير الى دمشق ، وخرج الى ظاهر القاهرة بنية الزحف فخشي الملك الجواد مغبة هذا العمل وخاف من اجتماع العادل والناصر عليه فلايقدر عليهما ، فاتصل بالملك الصالح نجم الدين أيوب أخو الملك العادل وصاحب حصن كيفا وديار بكر وغيرها من بلاد الشرق وبادله دمشق بسنجار(٩٧) وعانه وحصن كيفا ، ولم يتردد الصالح في الاستجابة لذلك العرض السخي وتسلم دمشق بعد أن رتب ابنه الملك المعظم تورانشاه على بلاد الشرق ٠ وبذا برز على مسرح الاحداث في مصر والشام شخصية سيكون لها شأن في تاريخ هذه المنطقة ٠

---

(٩٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٦١ ٠

(٩٥) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٧٧ ، ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٦هـ « مخطوطة » ٠

(٩٦) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٧٧ ـ بامخرمة : قلادة النحر ، ج ٣ قسم ١ لوحة ٨٦٧ « مخطوطة » ٠

(٩٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٧٥ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧١ ، ـ ابن الفوطي : التجارب النافعة ، ص ١١٥ ـ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٣٢ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٦٧ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٥٢ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٦هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٧٤ ـ السيوطي : اتحاف الاخصا ، لوحة ٨٢ «مخطوطة» ـ بامخرمة : قلادة النحر ، جزء ٣ قسم ١ لوحة ٨٦٧ «مخطوطة» ٠

بعد أن استقر الملك الصالح نجم الدين ايوب بدمشق زين له بعض الامراء في مصر الاستيلاء عليها وكاتبوه(٩٨) يتعجلونه في القدوم اليهم ويعدونه ببذل العون له في ملـــك مصر ، فجهز قواتـــه ووعده الملـــك الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب بعلبك بالمساعدة ٠ فسار نجم الدين بقواته من دمشق بعد أن ترك فيها ابنه الملك المغيث جلال الدين عمر نائبا ، فوصل الى نابلس(٩٩) واستقر بها ينتظر وصول امدادات الصالح اسماعيل اليه ، ثم ولى على نابلس وعلى أعمال القدس والاغوار والخليل وبيت جبريل والساحل والعريش عمالا من قبله(١٠٠) وكانت هذه المنطقة تابعة للملك الناصر داود الذي انضم الى العادل بعد أن رفض الصالح نجم الدين اعطاءه دمشق مقابل أن ينضم اليه ويساعده في امتلاك مصر(١٠١) ٠ اثناء ذلك وصل محي الدين يوسف بن جمال الدين بن عبد الرحمن الجوزي رسولا من الخليفة العباسي ببغداد كي يصلح بين الملوك وكادت الوساطة تتم بين الاخوين على أن تكون دمشق للصالح نجم الدين أيوب ، ومصر للعادل ، وان يرد الى الناصر داود ما أخذ من بلاده(١٠٢)٠ ولكن الامور تطورت تطورا سريعا لم يكن في الحسبان ففي ٢٧ صفر ٦٣٧هـ (٢٨ سبتمبر (أيلول) ١٢٣٩م) استولى الملك الصالح اسماعيل صاحب بعلبك عـــلى دمشق بمساعدة المجاهد صاحب حمص(١٠٣) بعد أن اتفقا على أن تكون البـــلاد

---

(٩٨) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٢٥ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٨٠ ٠

(٩٩) Eracles. Recueil des Historiens, H. occ. vol. 2, P. 417.

(١٠٠) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٧٦ ـ ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٢٥ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، جزء ٢٧ لوحة ٦٥ « مخطوطة » ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٥٢ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٧هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٨٢ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٠٦ ٠

(١٠١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧١ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٨٣ ٠

(١٠٢) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٢٦ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٨٤ ٠

(١٠٣) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٢٣٦ ـ ٢٣٧ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٦٦ « مخطوطة » ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٧هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٨٧ ـ بامخرمة : قلادة النحر ، ج ٣ قسم ١ لوحة ٨٦٧ « مخطوطة » ٠

مناصفة[١٠٤] بينهما تم ذلك في الوقت الذي كان الصالح نجم الدين أيوب ينتظر في نابلس قدومه اليه · وعندئذ اسرع بقواته يريد دمشق ولما وصل القصير « الشونة » في الغور وصلته أنباء استيلاء الصالح اسماعيل على القلعة واعتقال ابنه المغيث ، فتفرق اتباعه من حوله ولم يبق معه سوى نفر ضئيل من خواصه ومماليكه[١٠٥] لا يبلغون المائة ، فرجع الى نابلس ومعه جاريته أم ولده خليل المدعوة شجر الدر واستاداره حسام الدين بن ابي علي الهذباني[١٠٦] ·

وكان الملك الناصر داود قد قدم من مصر وقد انضم اليه الامير سيف الدين علي بن قلج النوري فأقطعه عجلون واعمالها مع بيسان واعمالها[١٠٧] وفي هذه الاثناء كتب الوزيري نائبه بنابلس[١٠٨] يخبره بخبر ابن عمه الملك الصالح نجم الدين فأرسل اليه يخفف عنه ويطلب منه أن ينتقل الى دار الملك المعظم عيسى بنابلس ويقيم فيها · ثم ارسل الى نابلس قوة من ثلاثمائة فارس بقيادة الاميرين عماد الدين بن موسك والظهير بن سنقر الحلبي ، وتلقاهم الملك الصالح نجم الدين فخدموه وخفف الاميران عنه

---

(١٠٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٧٩ ·

(١٠٥) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٨٠ ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧٢ ــ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٦٦ « مخطوطة » ــ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٣ ، ص ٣٣٦ ــ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٦٨ ــ العمري : مسالك الابصار جزء ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٣٢ « مخطوطة » ــ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٥٤ ــ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٧هـ « مخطوطة » ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٨٨ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٠٧ ــ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٥٩ ·

(١٠٦) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧٣ ــ العمري : مسالك الابصار ، جزء ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٣٢ « مخطوطة » ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٦٨ ·

(١٠٧) ابن واصل : مفرج الكروب (نسخة مصطفى فاضل) لوحة ٤٥ « مخطوطة » ــ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ص ٨٩ ــ ابن دقماق : نزهة الانام احداث ٦٣٧هـ « مخطوطة» ·

(١٠٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٨٠ ــ النويري : نهاية الارب ، جزء ٢٧ لوحة ٦٦ « مخطوطة » ــ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٣٧ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٠٨ ·

وقال لهما انه يستجير بابن عمه فأجاباه بانه قد أجاره ، فاطمأن قلبه ، وفي احدى الليالي ضرب بوق النفير وزعموا بقدوم الفرنج ، فركب الجنود ومن جملتهم مماليك الملك الصالح ووصلوا الى سبسطية وعندئذ دخل عماد الدين والظهير ومعهما بعض الجنود الى دار الملك الصالح وطلبا منه القيام معهما والتوجه الى الكرك مدعين ان ابن عمه يريد الاجتماع به ، وأخذا سيفه ، وكانت الى جواره جاريته شجر الدر فخافت وكانت حاملا فاجهضت وأركبوه بغلة بغير مهماز في رجله ولا مقرعة في يده وسارا به الى الكرك وذلك في الثاني والعشرين من شهر ربيع الاول ٦٣٧هـ (٢٣ اكتوبر (تشرين اول) ١٢٣٩م) ، وبعد ثلاثة أيام وصلوا الربة(١٠٩) ٠ لم يكلمهم الملك الصالح طيلة هذه المدة ولم يأكل لهم طعاما حتى جاء خطيب الربة اليه برغيف خبز عليه دجاجة فأكل منها ، ومكثوا في الربة يومين ثم ادخلوه الكرك ليلا ولم يكن معه سوى الامير ركن الدين بيبرس أحد مماليكه وسريته أم خليل شجر الدر فأنزلوه بقلعتها في دار السلطنة(١١٠) ٠وأرسل اليه الناصر داود يقول له : انما فعلت هذا احتياطا عليك كيلا يصل اليك مكروه من أخيك أو من عمك ، ورتب من يقوم بخدمته من أهل بيته يحضرون له كل ما يشتهيه من الاطعمة والاشربة والملابس(١١١) ، كما أمر شهاب الدين ونجم الدين ابن شيخ الشيوخ بملازمة خدمته وتأنيسه(١١٢) ، وكانا من أخص أصحاب الناصر وأمرائه المقربين ، كذلك رتب على حراسته ثمانين حارسا عليهم مملوك يسمى زريق(١١٣) وصفه الصالح نجم الدين بأنه كان فظا غليظا وكان أضر عليه من كل ما جرى ، أما خزانة الصالح ونساؤه وخيله فقد

---

(١٠٩) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٨١ ـ النويري : نهاية الارب ، جزء ٢٧ لوحة ٦٧ « مخطوطة » وانظر أيضا :
Eracles, Recueil des Historiens, H. occ. vol. 2, P. 417.

(١١٠) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٣١ « مخطوطة » ٠

(١١١) المصدر نفسه : لوحة ٣٣٢ « مخطوطة » ٠

(١١٢) المصدر نفسه : لوحة ٣٣١ « مخطوطة » ٠

(١١٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٨١ ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٦٧ « مخطوطة » ابن آيبك : كنز الدرر ، ج٧ ، ص ٣٣٨ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٠٩ ٠

أرسلها الوزيري نائب نابلس الى الصلت[114] حيث حفظت بقلعتها هناك ، أما مماليكه وجنوده فبعد عودتهم من النفرة المزعومة ولم يجدوا سيدهم تفرقوا في البلاد • ولكن قسما منهم لحق به بالكرك وهناك خيرهم الناصر بين البقاء أو السفر ووعدهم باطلاق سراح سيدهم من الاعتقال وان يقوم بنصرته ، فآثر بعضهم البقاء في الكرك ومنهم بهاء الدين زهير كاتب الانشاء وشهاب الدين بن سعد الدين ، أما حساب الدين بن ابي علي الاستادار فقد حبسه الناصر في سجن الخيالة بقلعة الكرك ووضع في رجله قيدا وكان معه بعض أصحاب الملك الصالح نجم الدين ، وقد شاهدهم ابن واصل هناك بسجن الخيالة وقال عنهم : « وكنت أصعد الى القلعة واجتمع به في الحبس في اكثر الاوقات »[115] •

وصلت أخبار اعتقال الصالح نجم الدين بالكرك الى الملك العادل بمصر فابتهج لذلك ، وأمر فضربت البشائر في مصر والقاهرة وزينتا وملئت عدة برك[116] تحت القلعة بشراب الجلاب وسبل على الناس • واظهر الملك العادل من الاغتباط مالا حد له وبادر بارسال علاء الدين ابن النابلسي رسولا من قبله الى الملك الناصر داود بالكرك يطلب فيها منه أن يبعث اليه بأخيه الملك الصالح نجم الدين في قفص من حديد ووعده باعطائه اربعمائة[117] الف دينار « وقيل مائة الف دينار »[118] كما وعده بنيته الصادقة في انتزاع دمشق من عمه الصالح اسماعيل واعطائها اليه ، وحلف على ذلك ايمانا غليظة • وفي نفس الوقت وصلت الى الملك الناصر رسائل من الملك الصالح

---

(114) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٨١ — النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٦٧ « مخطوطة » — ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٣٩ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣١٠ •

(115) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٣٢ •

(116) نفس المصدر : لوحة ٣٣٢ •

(117) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٩٠ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٧هـ « مخطوطة » •

(118) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٨٢ — كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٣٩ — الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٤٢ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣١٠ — السيوطي : اتحاف الاخصا . لوحة ٨٢ « مخطوطة » •

يطلب منه فيها أن يسير اليه نجم الدين أيوب أو يرسله الى اخيه العادل بمصر وفي مقابل ذلك عرض عليه مبلغا كبيرا من المال ، ولكن الناصر لم يقبل طلبه · ثم اطلع الملك الصالح نجم الدين أيوب على هذه الكتب وبادر بالرد على الملك العادل قائلا : «أما المال فهو عندك كثير ، وأما دمشق فاذا أخذتها ممن هي معه الان وسلمتها الي سلمت اليك أخاك وهذا هو جوابي[119] · ولما بلغ العادل هذا الرد غضب لذلك وارسل الى الناصر داود يتهـــدده ويتوعده[120] وعزم على الخروج الى الشام لمنازلته بالكرك وانتزاع بلاده ·

تحرير بيت المقدس من الصليبيين :

استغل الصليبيون في القدس فرصة النزاع القائم بين أمراء البيت الايوبي وخالفوا شروط الهدنة التي نصت على بقاء الاسوار خرابا ، فأعادوا بناء أسوار القدس وعمروا قلعة جعلوا برج داود أحد ابراجها[121] · عندئذ رأى الملك الناصر داود وجوب استنقاذ القدس من المغتصب المحتل سيما وانهم جـــددوا نشاطهـــم بزعامـــة ثيوبالـــد الكمبـــاني[122] Theobald of Champagne بتحصين عسقلان وغيرها على أثر وصول جموع صليبية جديدة من الغرب[123] واستيلائهم على قافلة تجارية أسلامية قرب نهر الاردن[124] كانت في طريقها الى دمشق بعد أن نصبوا كمينا لها ، مما أثار الناصر داود وعزم على الانتقام خاصة وان الهدنة المعقودة بين الصليبيين

---

(١١٩) ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٧هـ « مخطوطة » ــ المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٩٠ ·

(١٢٠) أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٧٣ ــ العمري : مسالك الابصار ، جـ ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٣٣ « مخطوطة » ·

(١٢١) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٣٣ « مخطوطة » ·
Stevenson, op. cit., P. 317.

(١٢٢) هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢٢٢ ·

(١٢٣) Conder, The Latin Kingdom, P. 315.
Campbell, The crusades, P. 412.
Stevenson, op. cit. P. 317.
هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢٢٢ ·

(١٢٤) رانسمان : جـ ٣ ، ص ٣٧٣ ·

والمسلمين قد انتهى مفعولها • لذا حشد الناصر داود الأجناد وأعد عدته لمباغتة الفرنج بالهجوم ، وكان هؤلاء لا يتوقعون ذلك لانشغال الايوبيين بخلافاتهم • سار الناصر بقوات من الاردن واجتاح أعمال القدس ثم بدأ يحاصرها في شهر ربيع الاول سنـــة ٦٣٧هـ (اكتوبر (تشرين أول) ١٢٣٩م)(١٢٥) مقسما قواته الى فرق ، وعقد لكل فرقة راية وعين لكل طائفة منهم جانبا من جوانب المدينة المقدسة • ثم أخذ ينتظر الفرصة المواتية للهجوم على المدينة ، وانتظر على حد قول المنهاجي السيوطي حتى كان ليلة عيد من أعياد الفرنج(١٢٦) ، وكانوا في شغل شاغل باحتفالاتهم بالقدس حسب عادتهم ، وشنت قوات الناصر هجوما عنيفا على القدس دكت فيه حصونها بالمجانيق(١٢٧) ودمرت قلعتها واشعلت النيران فيها ، ثم رفعوا الاعلام والرايات فوقها(١٢٨) • وكان الفرنج قد طلبوا الأمان على أن يسمح لهم الناصر بالرحيل عنها ، فسمح لهم بذلك بشرط الا يأخذوا معهم مالا او سلاحا ، وحرر الناصر القدس في جمادى الأولى سنة ٦٣٧هـ (ديسمبر (كانون أول) ١٢٣٩م)(١٢٩) بعد حصار دام ٢١ يوما(١٣٠) • وعادت القدس الى حظيرة الحكم الاسلامي بعد عشر سنوات عجاف وكان لهذا الفتح أثره العميق في نفوس المسلمين سيما وقد تم في ظروف الانقسام والانشقاق في صفوف الايوبيين • وكتب الناصر من انشائه الشخصي الى الخليفة العباسي المستنصر بالله يبشره بهذا الفتح(١٣١) « وأنه قد جرى على يد عبد الديوان

---

(١٢٥) هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢٢٢ •

(١٢٦) المنهاجي السيوطي : اتحاف الاخصا ، لوحة ٨٢ « مخطوطة » •

(١٢٧) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، جـ ٣ ، ص ٢٢٥ — ابن واصل : مفرج الكروب ، (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٣٣ « مخطوطة » — المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٩١ •

(١٢٨) المنهاجي السيوطي : اتحاف الاخصا ، لوحة ٨٢ « مخطوطة » •

(١٢٩) هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢٢٣ •

(١٣٠) المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٩١ ، وانظر أيضا :

Rothelin, Recueil des Historiens des Croisades, H. occ. vol. 2,PP. 529 - 530.

Benvenish, (M.) The Crusaders in the Holy Land, New York. 1972, P. 48.

يوسف غوانمه ، بيت المقدس في الحملة الصليبية الاولى والسادسة ، بحث القي في المؤتمر الثالث لتاريخ بلاد الشام ، من ١٩ ٢٤ نيسان ١٩٨٠م ، الجامعة الاردنية عمان — الاردن •

(١٣١) انظر نص الرسالة في الملاحق •

ويد جنده »(١٣٢) اشارة الى انتماء الناصر داود الى الخليفة العباسي في بغداد ٠ ثم شرع الناصر داود في هدم برج داود الذي تأخر فتحه حتى ١٥ جمادى الأولى حيث تحصن فيه جماعة من جنود الفرنج(١٣٣) وجعله مسجدا للمسلمين ٠ ثم طلب من الخليفة رأيه فيما ينبغي أن يفعله بأسوار القدس هل يهدمها أم يبقيها كي تقوم بحماية البلد المقدس فيقول : « والعبد متردد بين أن يجعل عين هذه القلعة بالهدم أثرا ، وعيانها بالردم خبرا ، ليخمد سور شرها ، ويؤمن غائلة أمرها ، وينقطع رجاء الكافر من نزالها وحصرها وبين أن يبقيها معقلا لهذا البيت الشريف وموئلا للمجاورين فيه من طائفة الدين الحنيف ٠ وأما برج داود فقد تقدم عزم العبد على أن يغض من طرفه ، ويجدع من انفه ،ويقلل من ارتفاعه ، ويسهل من امتناعه ، ويجعله مسجدا للركوع والسجود ، لا معقلا للجموع والحشود ، ومعبدا يلتزم بمزاره لا حصنا يعتصم بأسواره »(١٣٤) كذلك امر بكتابة البشائر الى سائر الممالك الاسلامية(١٣٥) يخبرهم بهذا الفتح المبين والنصر العزيز ، واتفق وقت اتمام هذا الفتح وصول محي الدين بن الجوزي رسول الخليفة الى الملك الناصر لتسوية الخلاف بين أمراء البيت الايوبي ، وكان يرافقه جمال الدين يحيى بن مطروح الشاعر الذي هزه الفرح لتحرير القدس فمدح الناصر بقصيدة قرنه فيها بعمه البطل الملك الناصر صلاح الدين يوسف الذي فتح القدس واشتراكهما في اللقب والفعل وهو معنى لطيف جميل ، فهو يقول :(١٣٦)

---

(١٣٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٢٣٢ ٠

(١٣٣) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٦٤ « مخطوطة » ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٣٣ ، رانسمان : ج ٣ ، ص ٣٧٧ ٠

Campbell, op. cit. P. 412.

Conder, The Latin Kingdom P. 315.

(١٣٤) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ ٠

(١٣٥) المنهاجي السيوطي : اتحاف الاخصا ، لوحة ٨٢ « مخطوطة » ٠

(١٣٦) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥٢٤ ـ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ ـ ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٣٣ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٦٣ « مخطوطة » ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٨٢ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٧هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٩٢ ـ المنهاجي السيوطي : اتحاف الاخصا ، لوحة ٨٢ « مخطوطة » ـ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٦٠ ٠

المسجد الاقصى له عـــادة　　سارت فصارت مثلا سائرا

اذا غـــدا بالكفر مستوطنا　　ان يبعث الله لـــه ناصرا

فناصـــر طهـــره أولا　　وناصـــر طهـــره آخـــرا

وهكذا قامت جيوش امارة الكرك الايوبية بتحرير القدس وفك اسارها من قبضة الصليبيين وأصبحت امارة الكرك تضم كل املاك الاردن الحالية بالاضافة الى نابلس والقدس والخليل ٠

وحاول رسول الخليفة التوفيق بين الناصر والملك العادل والملك الصالح اسماعيل ، ولكنه لم ينجح في مسعاه لان الناصر داود كان مصمما على أن تعاد دمشق اليه(١٣٧) ٠ غير انه عندما تدخل الملك المظفر صاحب حماة ــ وكان من مؤيدي الملك الصالح نجم الدين أيوب ــ في الامر وارسل قاضي حماة شهاب الدين ابراهيم بن عبد الله بن ابي الدم صاحب التاريخ المظفري رسولا للناصر داود يطلب منه اخراج الملك الصالح نجم الدين أيوب من السجن ومساعدته في انتزاع مصر من العادل ، ووعده الملك الناصر بالمساعدة واقسم له « واعطاه يده على ذلك »(١٣٨) ، ثم جمع الناصر داود رجاله وخواصه لاستشارتهم في الامر ، وكان بينهم الامير عماد الدين بن موسك ، وابن قلج صاحب عجلون ، والظهير سنقر الحلبي وتم الاتفاق على اخراج الصالح نجم الدين من السجن ومحالفته والاتفاق معه ٠ ففي ١٧ شعبان ٦٣٧هـ (٢١ مارس (آذار) ١٢٤٠م) أرسل الناصر مـن أحضره من الكرك بعد أن امضى في سجنها سبعة أشهر(١٣٩) ، فاحتفل الناصر بقدومه وضرب له دهليز السلطنة واجتمع اليه مماليكه وأعوانه ومحبوه ، وأمر الناصر داود بقطع الخطبة للملك العادل وخطب للملك الصالح نجم الدين

---

(١٣٧) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٣٣ « مخطوطة » ٠

(١٣٨) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٣٤ « مخطوطة » ٠

(١٣٩) لقد اتهم السامري وزير الصالح اسماعيل سبط بن الجوزي بأنه كان السبب في اخراج الصالح نجم الدين من الكرك ، لذا فقد نقم عليه الصالح اسماعيل وأخرجه من دمشق الى حماه (سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٤٨٦) ٠

ايوب وكان ذلك في يوم عيد الفطر وأركبه بشعار السلطنة وحمل الغاشية بين يديه[١٤٠] ، وقام ابن موسك فنثر الذهب على الخطيب والناس احتفالا واغتباطا بهذه المناسبة • ثم توجه الملكان الى القدس حيث اجتمعا عند الصخرة وتحالفا هناك ، واتفقا على أن تكون الديار المصرية للملك الصالح نجم الدين[١٤١] أيوب ، أما الشام والبلاد الشرقية فتكون للملك الناصر داود ، ثم انطلقا الى غزة وخيما فيها بنية التوجه الى مصر •

بلغ الملك العادل نبأ هذا التحالف الجديد فانزعج وخرج بقواته ونزل بلبيس ليواجه قوات اخيه ، وأرسل بدوره الى الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق يطلب منه الخروج من دمشق للالتقاء به والقاء القبض على الناصر داود ونجم الدين ايوب • فخرج الصالح اسماعيل بقواته من دمشق ونزل في الفوار من أرض السواد وكان بصحبته الملك المنصور ابراهيم بن الملك المجاهد صاحب حمص بعسكره كذلك ، واخذا يرقبان تطور الاحداث • أما الملك الناصر وحليفه فلما رأيا تحرك الجيوش اليهما من الشمال والجنوب خشيا أن تطبق عليهما ويكونا بين شقي رحى لا مخرج منه ولا خلاص ، فاسرعا عائدين الى نابلس[١٤٢] وفي نيتهما التوجه الى الكرك للاعتصام بها والاحتماء خلف اسوارها ، اذ لم تكن لديهما القدرة على مواجهة جيوش مصر ودمشق مجتمعة • ولكن القدر يتدخل لينقذ الملك

(١٤٠) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٦٨ « مخطوطة » •

(١٤١) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٣٦ « مخطوطة » ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧٤ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٣٣ « مخطوطة » ــ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٦٩ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٩٤ ــ اما سبط بن الجوزي فيقول : (حلفني الناصر على اشياء ما يقدر عليها ملوك الارض وهو ان آخذ له دمشق وحمص وحماه وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر وغيرها وأن يكون له نصف الديار المصرية ونصف ما في الخزائن من الاموال والجواهر والخيول وغيرها فحلفت من تحت القهر والسيف) (أنظر : سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٨٢ ــ والنويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٦٨ « مخطوطة » وانظر أيضا :
Eracles, Requeil des Historiens, H. occ. vol. 2, P.P. 417 - 418.

(١٤٢) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٣٦ « مخطوطة » ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٩٤ •

الناصر داود وحليفه من هذا المأزق ، فقد بلغ استياء المماليك من الملك العادل مبلغا كبيرا بسبب سوء المعاملة التي كانوا يلقونها منه ، لذا اتفقت المماليك الاشرفية ومقدمهم عز الدين ايبك الاسمر والمماليك الكاملية ومنهم جوهر النوبي وشمس الدين الخواص وغيرهم على القبض على العادل ومكاتبة اخيه الملك الصالح نجم الدين ايوب بالقدوم الى الديار المصرية لتسلم السلطنة فيها(١٤٣) ، فأحاطوا بالعادل ببلبيس واعتقلوه في خيمة صغيرة وارسلوا الرسل الواحد في أثر الآخر الى الصالح نجم الدين ايوب والناصر داود يطلبون منهما الحضور . فأسرعا بالذهاب الى مصر وفي الطريق اليها كانت تنضم اليهما جموع المماليك التي تسحبت للانضمام اليـــه وتأييده ، ووصل نجم الدين الى بلبيس ثم تابع سيره الى القاهرة ودخل قلعة الجبل في ٢٤ ذي القعدة ٦٣٧هـ (١٨ يونيو (حزيران) ١٢٤٠م) وزينت القاهرة وقلعة الجبل لمقدم الملك الصالح نجم الدين ايوب ، أما الملك الناصر داود فنزل بدار الوزارة حسب عادته(١٤٤) .

---

(١٤٣) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٣٧ « مخطوطة » ـ ابن الفوطي : التجارب النافعة ، ص ١٤١ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧٤ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٣٤ « مخطوطة » ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٦٩ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٥٦ ، ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٧هـ « مخطوطة » ـ والجوهر الثمين لوحة ١٠٠ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٩٥ ـ الذهبي : دول الاسلام ، حـ ٢ ص ١٤٢ .

Eracles, Recueil des Sistoriens, H. occ. vol. 2, P. 419.

(١٤٤) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٣٨ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٩٧ .

(٣)

موقف الناصر داود صاحب الكرك من الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر والصالح اسماعيل صاحب دمشق

ولم يمض شهر على مقام الملك الناصر داود بالقاهرة حتى عاد الى امارته بالكرك بعد أن يئس من تلبية طلبه وتحقيق ما تحالف من اجله مع الصالح نجم الدين • وكان يظن ان الصالح سيرسل معه العساكر الى دمشق لانتزاعها من الصالح اسماعيل ولكن نجم الدين تأول في يمينه متعللا بانه انما حلف تحت التهديد وقوة السيف وحلل نفسه من أي التزام تجاه الناصر داود•وهكذا طعن داود للمرة الثالثة من أهل بيته،الأولى من الأشرف والثانية من الكامل ، والثالثة من الصالح نجم الدين ايوب ، واستشعر الشر من الصالح، فطلب منه السماح له بالسفر الى الكرك • وكان الفرنج قد هاجموا نابلس من املاك الناصر داود بايعاز من الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق انتقاما من الناصر لتحالفه مع نجم الدين ايوب ، ولكن أهل نابلس قاوموا الفرنج وصدوهم وكسروهم ، فعادوا الى ديارهم خاسرين مهزومين • ولهذا خشي الناصر من احتمال عودتهم لمهاجمة بلاده[١٤٥] ، فاستأذن من الصالح بالرحيل فأذن له « وهو بين الطائع والعاصي »[١٤٦] .

---

(١٤٥) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٦٩ « مخطوطة » ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧٤ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٣٥ « مخطوطة » ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٦٩ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٩٩ ـ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٦١ ـ ويقول سبط بن الجوزي وابن كثير : « فأرسل الى الناصر داود عشرين الف دينار فردها عليه ولم يقبلها منه » • انظر (سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٨٢ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٤٥) •

(١٤٦) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٣٩ « مخطوطة » ـ ويقول ابن دقماق أن الناصر عاد الى مصر بعد أن أمن بلاده وطلب منه تسيير القوات معه لاسترجاع دمشق فهو يقول : « وصل السلطان الملك الناصر داود لاستنجاز وعده له بدمشق فحمل اليه الملك الصالح نجم الدين أيوب المال وهو اربعمائة الف دينار فسأله الناصر ان يجرد معه عساكر لفتح دمشق فماطله السلطان » (ابن دقماق : نزهة الانام احداث ٦٣٧هـ « مخطوطة ») •

أقام الناصر داود بالكرك والغصة تملأ فؤاده مما ناله من ابن عمه صاحب مصر ، ولم يتوار عن مسرح الاحداث بعد كل هذه النكسات وانما آثر المضي في طريقه حتى النهاية • أماالصالح اسماعيل ملك دمشق فقد رأى في اعتلاء نجم الدين أيوب عرش مصر خطرا محققا يتهدده[١٤٧] كما ايقن بانه سيصبح الهدف التالي له ، فلم يجد بدا من الاعتضاد بالفرنج والاحتماء بهم لمساعدته في حرب مصر والكرك أو لاعتراض جيوشه اذا ما دخلت ارض فلسطين في طريقها الى دمشق • فاتفق مع الصليبيين واعطاهم في مقابل ذلك صفد وقلعة الشقيف ومناصفة صيدا وطبرية واعمالها ، وكذلك جبل عاملة وسائر بلاد الساحل[١٤٨] ، وبلغت به الجرأة والتواطؤ مع الفرنج أن سمح لهم بالدخول الى دمشق وابتياع اسلحتهم وآلات الحرب منها[١٤٩] وأنكر أهل دمشق عليه هذا الفعل الشائن وهاجمه الفقهاء في المساجد ولكنه ضيق عليهم فغادر دمشق العالمان الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام الشافعي الى مصر ، والشيخ جمال الدين ابو عمر بن الحاجب المالكي الى الكرك حيث أكرمه الملك الناصر داود واحسن اليه فنظم له مقدمته الكافية في النحو[١٥٠] ثم جمع الملك الصالح اسماعيل جموعه من حلب وحمص

---

(١٤٧) يقول سبط بن الجوزي : وحكى لي الصالح أيوب بمصر وقال : « ان فتح الله على يدي دمشق لافعلن به واصنع » (مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٧٦) •

(١٤٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٨٥ ـ ابن واصل : مفرج الكروب (نسخة مصطفى فاضل) لوحة ٣٦ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٧٢ « مخطوطة » ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧٧ ـ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٤٧ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٣٩ « مخطوطة » ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٥٥ ـ القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٧٨ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٠٤ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٤٣ ـ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٦١ ـ هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢٢٤ •

Eracles, Recueil des Historiens, H. occ. vol. 2, PP. 417 - 418.
Stevenson, op. cit. P. 318.

(١٤٩) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٧٢ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٠٤ ـ هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢٢٤ •

(١٥٠) ابن واصل : مفرج الكروب (نسخة مصطفى فاضل) لوحة ٣٦ « مخطوطة ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٣٩ « مخطوطة » ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٧١ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٥٥ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٩هـ « مخطوطة » •

وطلب مساعدة الفرنج ، وعزم على قصد مصر لامتلاكها ولكنه علم بان الناصر داود يترصده في حسبان(١٥١) من ارض البلقاء فخاف ان ينتهز الناصـــر خروجه الى مصر فيهاجم دمشق « فما امكنه التوجه الى مصر وهذا الداهية خلفه »(١٥٢) . لذا آثر أن يوجه ضربته الأولى اليه ، فحول عنانه نحوه والتقيا على حسبان حيث دارت معركة ضارية بين الجانبين انتهت بانتصار الصالح اسماعيل وحلفائه على الناصر داود(١٥٣) وتمكن الصالح من الاستيلاء على احماله واثقاله وأسر جماعة من أصحابه . أما الناصر فقد فر الى الكرك واحتمى باسوارها بينما تابع الصالح اسماعيل طريقه الى مصر وقد امن مؤخرته ، ونزل على نهر العوجا في فلسطين(١٥٤) ، وطلب المساعدة من الفرنج وجدد لهم العرض بل وعدهم بالاضافة الى ذلك باعادة جميع مــــا فتحه السلطان صلاح الدين الايوبي من بلادهم اليهم(١٥٥) ثم تقدم الى تل العجول قرب غزة حيث عسكر اياما . ولما علم الصالح نجم الدين بحركة الصالح اسماعيل وتقدم جيوش الشام والقوة الصليبية نحو مصر ، خرج اليهم وتقاتلا عند غزة فانحازت جيوش الشام الى الصالح نجم الدين أيوب(١٥٦) وانهزم الصالح اسماعيل وحلفاؤه الفرنج وأسر المصريون من الصليبيين اعدادا كبيرة منهم مقدم الاسبتارية(١٥٧) فاستخدمهم الصالح نجم الدين ايوب في بناء قلعة الروضة(١٥٨) التي جعلها مستقرا لمماليكه البحرية(١٥٩) .

---

(١٥١) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٧١ « مخطوطة » .

(١٥٢) ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٨هـ « مخطوطة » .

(١٥٣) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٧١ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٠٤ .

(١٥٤) نهر العوجا : ويسمى نهر ابي فطرس وهو شمالي مدينة الرملة من فلسطين يبعد عنها ١٢ ميلا ، ويصب في البحر الابيض جنوب غابة ارسوف (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٨١ ـ ٨٢) .

(١٥٥) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٠٤ . Campbell, The crusades, P. 413.

(١٥٦) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٠٥ .

(١٥٧) وليم موير : دولة المماليك ، ص ٢٧ . Stevenson, op. cit., P. 318.

(١٥٨) المقريزي : السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٠٥ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٣٩هـ « مخطوطة » ـ هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢٢٦ .

(١٥٩) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٧٥ .

كان الملك الجواد – لسوء سيرته – قد فقد ممتلكاته في البلاد الشرقية التي بادل بها دمشق فالتجأ الى بغداد[١٦٠] ، ثم قدم الى الشام وحاول دخول مصر فتبعه الملك الصالح نجم الدين فالتجأ الى الملك الناصر داود صاحب الاردن ، فقبله مع ما كان يعمل في قلبه عليه من السخط والغضب • وكان الملك الصالح نجم الدين قد ارسل قوة بقيادة كمال الدين ابن الشيخ للقبض على الجواد ، ولما وجد ان الجواد قد التجأ للناصر داود تقدم لمحاربته وكان الناصر اذ ذاك في القدس ، فسير قواته مع الجواد وجرت معركة بين قوات مصر والاردن في بيت فوريك بالقرب من القدس انتهت بانتصار الناصر داود[١٦١] ، ووقع ابن الشيخ وعدد من اصحابه اسرى ولكن الناصر اكتفى بتوبيخه وحجزه لعدة ايام ثم اطلق سراحه فعاد الى مصر مع فلول قواته • بعد ذلك نشطت قوات الناصر داود وارتفعت معنوياتها فوجه ضربةأخرى الى قوات دمشقبقيادةالأمير عز الدين أيبك صاحبصرخدوأوقع بها على الفوار من ارض السواد[١٦٢] فانكسر واستولت قوات الاردن بقيادة سيف الدين بن قلج صاحب عجلون على احماله واثقاله وذخائره •

ولم يكن باستطاعة الملك الصالح أيوب أن يوجه ضربة قوية للصالح اسماعيل بسبب وجود ابنه المغيث مسجونا لديه ، فآثر الصالح ايوب ان يجنح الى السلم • واتفق الطرفان بعد مكاتبات على أن تكون دمشق وبلادها للملك الصالح اسماعيل[١٦٣] وان تقام الخطبة والسكة للصالح نجم الدين في كل من دمشق وحلب وحمص مع اشتراط الافراج عن المغيث بن الصالح ايوب • ونص الاتفاق كذلك على مهاجمة الملك الناصر داود صاحب الكرك وانتزاع أملاكه منه واقتسامها ، وتنفيذا لهذا الاتفاق اسرع الصالح اسماعيل

---

(١٦٠) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٨٧ – ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٥٧ – الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٤٤ •

(١٦١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٨٧ – ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٤٧ – ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٥٧ – المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٠٩ – الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٤٤ •

(١٦٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٣٠٩ •

(١٦٣) ابن واصل : مفرج الكروب (نسخة مصطفى فاضل) لوحة ٤٥ « مخطوطة » – المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣١٤ •

بارسال قواته الى عجلون للانتقام من صاحبها(١٦٤) ، وحطت قواته حولها وحاصرتها بقيادة الملك المجاهد ابراهيم صاحب حمص · وكانت عجلون مدينة محصنة للغاية وكانت قلعتها كذلك ، واستبسلت قوات عجلون في الدفاع واستطاعت حاميتها أن تقضي على اكثر من مائتي جندي من قوات دمشق ، وقد كلفت هذه الحملة الصالح اسماعيل ما يزيد على الاربعمائة الف دينار انفقها دون ان ينجح في الاستيلاء عليها(١٦٥) ولم يقدر للاتفاق المذكور أن يطول أكثر من ذلك اذ سرعان ما أعاد الصالح اسماعيل المغيث الى السجن بعد انْ زين له وزيره السامري امين الدولة ابو الحسن غزال المسلماني(١٦٦) سوء فعله قائلا : «هذا خاتم سليمان لا تخرجه من يدك»(١٦٧) وبذلك نقض الصالح اسماعيل الاتفاق وأرسل يستدعي قواته من عجلون ، بعد ان تحقق من ان الصالح ايوب كان يراسل الخوارزمية ويستحثهم للقدوم لنصرته ومحاربة الصالح اسماعيل(١٦٨) ·

شعر الصالح اسماعيل بخطورة الموقف فأرسل الى الناصر داود بالكرك ليتفق معه ضد نجم الدين وحلفائه الخوارزمية ، وعلى هذا النحو تكون تحالف جديد ضم دمشق والكرك وحلب وحمص اتفق أصحابها وصاروا كلمة واحدة(١٦٩) · ولم يكتف الصالح اسماعيل بذلك بل أرسل للفرنج

(١٦٤) ابن واصل : مفرج الكروب (نسخة مصطفى فاضل) لوحة ٤٥ « مخطوطة » — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢١ ·

(١٦٥) الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٤٧ ·

(١٦٦) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٨٢ — ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٦٢ ·

(١٦٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٩٠ — ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٥٢ — ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٦٢ — ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤١هـ « مخطوطة » — الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ·

(١٦٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٩١ — ابن واصل : مفرج الكروب (نسخة مصطفى فاضل) لوحة ٤٦ « مخطوطة » — ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٥٨ — الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٤٦ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٢ ·

(١٦٩) ابن واصل : مفرج الكروب (نسخة مصطفى فاضل) لوحة ٤٦ « مخطوطة » — المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣١٥ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٢ ·

وقدم لهم القدس وطبرية وعسقلان[١٧٠] ووعدهم ان هم ساعدوه في امتلاك مصر جعل لهم فيها نصيبا[١٧١] ووافقه الملك الناصر داود على ذلك[١٧٢] وتصادف وجوده خارج القدس عندما تسلمها الفرنج · وبدأ الصليبيون في عمارة طبرية وعسقلان ثم دخلوا القدس في صيف ٦٤١هـ (١٢٤٣م) وتسلموا الصخرة المقدسة والمسجد الاقصى ، وقد شاهد ابن واصل المؤرخ المعاصر دخول الفرنج للقدس وما فعلوه حيث يقول : « ودخلت البيت المقدس ورأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة وعليها قناني الخمر برسم القربان ودخلت الجامع الاقصى وفيه جرس معلق ، وابطل بالحرم الشريف الاذان والاقامة »[١٧٣] ·

كانت الخوارزمية قد انهزمت أمام التتار وتفرقت قواتهم واندفعوا امامهم نحو الغرب ، وكانوا على استعداد لوضع سيوفهم في خدمة من يعرض شروطا افضل او من يدفع اكثر · فما كادت تصل رسل الملك الصالح نجم الدين الى هذه الفرقة صيف سنة ٦٤١هـ (١٢٤٣م) حتى اجتاحت قوة منهم

---

(١٧٠) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٩٣ ــ ابن واصل : مفرج الكروب (نسخة مكتبة مصطفى فاضل) لوحة ٤٦ « مخطوطة » ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٨٠ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٤٣ « مخطوطة » ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٧٣ ــ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤١هـ « مخطوطة » ــ القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٧٨ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣١٥ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٢ ــ الحنبلي : الانس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٦٢ ــ السلامي : مختصر التواريخ لوحة ٣٣٣ « مخطوطة » ــ رانسمان : ج ٣ ، ص ٣٨٩ ــ هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢٢٧ ·
Campbell, The Crusades. P. 415.
Stevenson, op. cit., P. 322.

(١٧١) ابن واصل : مفرج الكروب (نسخة مكتبة مصطفى فاضل) لوحة ٤٦ ــ ٤٨ ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٨٠ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٤٤ « مخطوطة » ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٢ ·
Stevenson, op. cit., P. 322.

(١٧٢) ابن واصل : مفرج الكروب (نسخة مكتبة مصطفى فاضل) لوحة ٤٦ « مخطوطة » ·

(١٧٣) نفس المصدر : لوحة ٤٦ « مخطوطة » ·

تقدر بعشرة الاف فارس[١٧٤] شمالي الشام بعد أن عبروا الفرات كالسيل المدمر تفتك في الناس لا فرق لديها بين المسلم وغيره وكان يقودها خانات اربعة هم : حسام الدين بركة خان ، وزين الدين خان بردى ، وعز الدين صاروخان ، وبهاء الدين كشلوخان ، وانقسموا الى قسمين : قسم اتجه الى بعلبك والاخر الى غوطة دمشق[١٧٥] ولما شعر الصالح اسماعيل بالخطر الداهم أغلق ابواب دمشق ، وتابعت قوات الخوارزمية تقدمها الى فلسطين مدمرة ما قابلها من عمران . وهكذا تعرضت بلاد الشام لتدخل قوات مرتزقة مدمرة ، وانقسم البيت الايوبي ، ولجأ كل فريق الى الاعتماد على قوى خارجية تسانده مقابل اقطاعات يبذلها كل فريق لحليفه . تقدمت قوات الخوارزمية الى القدس ووقعت نقمتهم على نصارى القدس لأن الحامية[١٧٦] الفرنجية غادرت القدس حالما سمعوا باقتراب الخوارزمية وذلك في ربيع اول سنة ٦٤٢هـ (٢٣ اغسطس (آب) ١٢٤٤م) وكان في امكان الناصر داود انجاد الفرنج لولا انه كان يكره التعاون معهم[١٧٧] على الرغم من ارتباطه بالصالح اسماعيل وبقية امراء الايوبيين بالشام . ومع ذلك فقد حاول التدخل بالسماح للصليبيين بمغادرة المدينة المقدسة ان سلموا

---

(١٧٤) ابن واصل : مفرج الكروب (نسخة مكتبة مصطفى فاضل) لوحة ٤٧ « مخطوطة » ـ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٥٣ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣١٦ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٣ .

(١٧٥) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٩١ ـ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٥٢ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤١هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣١٦ .

(١٧٦) Rothelin, Recueil des Historiens, H. occ. vol. 2, P. 561.

(١٧٧) رانسمان : ج ٣ ، ص ٣٩٢ ، ومما يؤكد ذلك انه لم يشترك شخصيا في حرب بجانب الفرنج ، بالاضافة الى ما تمناه لنفسه وغضبه عندما هاجم الفرنج نابلس وكان اذ ذاك في مصر مع الملك الصالح نجم الدين وعاد مسرعا عند سماعه بالنبأ وقال بهذه المناسبة :

أياليت امي أيم طول عمرها ولم يقضها ربي لمولى ولا بعل
وياليتني لما ولدت واصبحت تشد الي الشذقميات بالرحل
لحقت باسلافي الكنت ضجيعهم ولم ارفي الاسلام ما فيه من ثكل

(انظر : أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٩٩ ـ القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٧٥) .

القلعــة الا أنــه عاد وتخلى عنهــم وتركهــم ، فغــادر الصليبيون القــدس تاركينهــا بيد المسلمــين ، فخرجــت نهــائيا من أيديهم . ثم تقــدم الخــوارزمية الى غزة ونزلــوا بهــا[١٧٨] وكاتبوا الملك الصالح نجم الدين ليرسل قواته لمحاربة عمه الملك الصالح اسماعيل وحلفائه[١٧٩] ، كما طلبوا منه ان يسمح لهم بالسير الى القاهرة ولكنه طلب منهم البقاء في غزة وارسل الخلع والتحف لقادتهم « ووعدهم ببلاد الشام»[١٨٠] ثم أرسل قواته بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس الكنجي[١٨١] فانضم اليهم في غزة كما ارسل الامير حسام الدين محمد بن ابي علي الهذباني بطائفة من العسكر[١٨٢] وطلب منه أن يستقر في نابلس ليراقب تحركات الصالح اسماعيل وحلفائه . أما الملك الصالح اسماعيل فقد ارسل الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص رسولا الى الفرنج بعكا وعرض عليهم أن يساعدوه مقابل جزء من ارض مصر ان انتصروا على الملك الصالح نجم الدين . وهكذا بلغت الاحقاد والخلافات حدا اصبح بذل الارض واقطاعها للاجنبي والتضحية بالحصون أمرا سهلا لدى ملوك الايوبيين . ثم ارسل الصالح اسماعيل رسله الى الملك الناصر داود ليحضر بقواته ولكن هذا الاخير اكتفى بتسيير قوة من عسكره[١٨٣] ، اما الفرنج فقد استغلوا الفرصة وحشدوا اكبر جيش عرفه الشرق للصليبيين[١٨٤] ، فانتصارهم يعني اعادة

---

(١٧٨) Eracles, Recueil des Historiens, H. occ. vol. 2, P. 427.

(١٧٩) ابن واصل : مفرج الكروب (نسخة مكتبة مصطفى فاضل) لوحة ٤٧ « مخطوطة » .

(١٨٠) Recueil des Historiens, H. orientaux, vol. 4, P. 194.

المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣١٧ .

(١٨١) هو احد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب واخصهم به ، وكان قد سجن معه في الكرك عندما القى الملك الناصر داود القبض عليه ، وهو ليس ركن الدين بيبرس البندقداري الذي سيتولى حكم مصر فيما بعد .

(١٨٢) ابن واصل : مفرج الكروب (نسخة مكتبة مصطفى فاضل) لوحة ٤٧ « مخطوطة » .

(١٨٣) نفس المصدر : لوحة ٤٨ « مخطوطة » .

(١٨٤) رانسمان : ج ٣ ، ص ٣٩٤ ـ ويقول سبط بن الجوزي كان عدد الصليبيين « ١٥٠٠ فارس وعشرة آلاف راجل » انظر (مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٩٤ ـ والسلامي : مختصر التواريخ ، لوحة ٣٣٥ « مخطوطة ») .

امتلاكهم لفلسطين وجزء من مصر وهذا اقصى ما كانوا يحلمون به • والتقت قوات الطرفين قرب غزة في موضع يقال له اربيا[١٨٥] La Forbie [١٨٦] يقع بين غزة وعسقلان ، واشتدت المعركة واسفرت عن انهزام عسكر مصر وتراجعهم الى العريش في حين ثبت الخوارزمية في مواضعهم[١٨٧] ، وثبات الخوارزمية ادى الى رفع معنويات القوة المصرية ، فلم تلبث أن عادت الى ساحة المعركة فاحتدمت وابلى الخوارزمية فيها بلاء حسنا وانتهت الموقعة بهزيمة قوات الصالح اسماعيل وحلفائه وذلك في يوم الاثنين ١٢ جمادى الاولى ٦٤٢هـ (١٧ اكتوبر (تشرين اول) ١٢٤٤م) • وتعتبر هذه المعركة من أهم المعارك الفاصلة في تاريخ الصليبيين[١٨٨] ، حيث دمر جيشهم تدميرا لم يشهدوه من قبل الا في معركة حطين ، وقد عبر بعض المؤرخين عن هذه المعركة الفاصلة ، فالمؤرخ المعاصر سبط بن الجوزي يسميها « الوقعة العظيمة » ويذكر ان يومها « كان يوما عظيما لم يجر في الاسلام مثله ولا في زمان نور الدين وصلاح الدين »[١٨٩] ، وقد شاهد سبط بن الجوزي ميدان المعركة وذهب اليه في اليوم التالي ورأى الاعداد الكبيرة من القتلى وقدرهم بثلاثين ألفا ، أما النويري فيقول : « وكان يوما عظيما لم ير في الاسلام بالشام مثله »[١٩٠] •

فقد الصليبيون معظم جيشهم ولم يصل الى عكا ويافا منه الا فلول قليلة العدد وفي ظننا ان انتصار قوات مصر والخوارزمية كان لصالح الامة

---

(١٨٥) النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٧ لوحة ٧٩ « مخطوطة » — ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٢هـ « مخطوطة » •

(١٨٦) يقول رانسمان : ان هذا المكان معروف لدى المؤرخين الصليبيين بهذا الاسم La Forbie ، والملاحظ ان التشابه في اللفظ وارد بين الاسمين العربي والاجنبي •

(١٨٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٤٩٤ — النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٧ لوحة ٧٩ « مخطوطة » — ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٢هـ « مخطوطة » — الذهبي : دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ١٤٨ •

(١٨٨) Campbell, The Crusades, P. 417.
Stevenson, op. cit. P. 323.

(١٨٩) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٤٩٤ •

(١٩٠) النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٧ لوحة ٧٩ « مخطوطة » وعن معركة غزة هذه راجع :
Eracles, Recueil des historiens, H. occ. vol. 2. PP. 429 - 430.
Rothelin, Recueil des Hist. H. occ. vol. 2, P. 564.

الاسلامية فانه ان انتصرت قوات الصالح اسماعيل والفرنج لتغير مجرى الاحداث في الشرق الاسلامي ولاستطاع الصليبيون السيطرة على فلسطين وجزء من مصر • أما قوات مصر والخوارزمية فقد تقدمت الى دمشق واحاطت بها احاطة السوار للمعصم بعد أن استولت على معظم فلسطين والاغوار ولم يبق بيد الناصر داود سوى الكرك والبلقاء والصلت وعجلون(١٩١) • أما أسرى الفرنج البالغ عددهم ثمانمائة أسير وفيهم الرئيس الأكبر للاسبتارية فقد اقتيدوا الى القاهرة وكان يوم دخولهم مشهودا •

وتمكنت قوات الصالح نجم الدين اخيرا وبعد حصار محكم من دخول دمشق بقيادة معين الدين ابن شيخ الشيوخ وذلك في يوم الاثنين ١٠ جمادى الاولى ٦٤٣هـ (٤ اكتوبر (تشرين اول) ١٢٤٥م) • وتم الاتفاق بين الصالح نجم الدين وبين الصالح اسماعيل والمنصور صاحب حمص على ان يعوض الصالح عن دمشق ببعلبك وبصرى واعمالها وجميع بلاد السواد(١٩٢) وان يكون للمنصور حمص وتدمر والرحبة • وفي هذه الاثناء قدم سيف الدين علي بن قلج صاحب قلعة عجلون الى دمشق بعد ان خرج عن طاعة الناصر داود ودخل في طاعة الملك الصالح نجم الدين أيوب فسلم القلعة لنوابه مع ما بها من الذخائر والاموال(١٩٣) ، ولم يبق بيد الناصر داود سوى البلقاء والصلت والكرك •

---

(١٩١) ابن واصل : مفرج الكروب (نسخة مكتبة مصطفى فاضل) لوحة ٤٨ — المقريزي . السلوك ، ج ١ ، ص ٣١٨ •

(١٩٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٩٩ — ابن الفوطي : التجارب النافعة ، ص ٢٠١ — أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٨٢ — العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٤٦ « مخطوطة » — النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٨١ « مخطوطة » — ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٧٥ — ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٦٦ — ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٢هـ « مخطوطة » — المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٢١ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٤ •

(١٩٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٩٩ — ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٨٩ — النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٨١ « مخطوطة » — ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٣هـ « مخطوطة » — المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٢١ •

أما الخوارزمية فقد اختلفوا مع معين الدين ابن شيخ الشيوخ قائد الملك الصالح نجم الدين الذي لم يمكنهم من دخول دمشق وكانوا ينتظرون ما وعدهم به الملك الصالح نجم الدين من أن يقاسمهم بلاد الشام بالاضافة الى ما وعدهم به من ان تكون « لهم اخباز عظيمة بالديار المصرية »[194] واتفق الخوارزمية على الخروج على الصالح واستطاعوا استمالة قائده ركن الدين بيبرس ثم كاتبوا الملك الناصر داود وكان يتوقع ان تحل به الضربة التالية من جانب الصالح ولهذا رحب بالتعاون مع الخوارزمية اذ وجد منهم حليفا جديدا يشغل بهم سر ابن عمه نجم الدين ، فاجتمع اليهم وتزوج منهم[195] ، ثم عاد الى قاعدة ملكه بالكرك • اما الخوارزمية فقد اجتاحوا فلسطين يعملون لمصلحة حليفهم الناصر داود ، واستولى الناصر بمساعدتهم على الاغوار ونابلس والقدس والخليل واعادها الى حظيرة مملكة الكرك وولى عليها من قبله[196] • وهكذا عادت مملكته الى سابق عهدها واصبحت تسيطر على كل الاردن الحالية وجميع فلسطين ما عدا الثغور التي بقيت بيد الصليبيين • ثم تشكل تحالف جديد ضم الخوارزمية والناصر داود والصالح اسماعيل ضد الملك الصالح نجم الدين وحاصرت قواتهم دمشق لكن الملك الصالح نجم الدين ايوب استطاع استمالة الملك المنصور ابراهيم ابن شيركوه صاحب حمص[197] وانضم اليهما الحلبيون وأوقعـــوا بالخوارزمية عند حمص في ٨ محرم ٦٤٤هـ (٢٧ مايو (أيار) ١٢٤٦م) وقتلوا مقدمهم حسام الدين بركة خان فتفرقوا منذ ذلك الحين ولم تقم لهم

---

(١٩٤) ابن واصل : مفرج الكروب (نسخة مكتبة مصطفى فاضل) لوحة ٥١ « مخطوطة » •

(١٩٥) ابن واصل : مفرج الكروب (نسخة مصطفى فاضل) لوحة ٥١ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٢٢ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٥ •

(١٩٦) ابن واصل : مفرج الكروب (مصطفى فاضل) لوحة ٥٢ « مخطوطة » ـ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٢٣٥ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٥ •

(١٩٧) عن هذه الموقعة راجع : سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥٠٠ ـ ٥٠٤ ـ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٥٨ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٤٧ « مخطوطة » ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٦٧ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث ٦٤٤هـ « مخطوطة » ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٥٠ ـ بامخرمة : قلادة النحر ، ج ٣ قسم ١ لوحة ٩٠٠ « مخطوطة » •

قائمة ، فقسم منهم اتجه الى الشمال بقيادة كشلوخان فالقى صاحب حلب القبض عليهم(١٩٨) أما فلولهم الاخرى فدخل بعضها في خدمة التتار وبعضها الاخر في خدمة الناصر داود .

نزلت فلول الخوارزمية الهاربة من حمص الى البلقاء في الاردن ، فنزل اليهم الملك الناصر داود واجتمع بهم واستخدمهم وارسل عائلاتهم الى قلعة الصلت(١٩٩) ، وتوجه قسم منهم الى نابلس واستولوا عليها . وفي هذه الاثناء ارسل الملك الصالح نجم الدين جيشا بقيادة فخر الدين يوسف بن الشيخ كي يضع حدا لأفعال الملك الناصر داود الذي ظل يناضل وحده ، فقدمت قوات مصر الى فلسطين ، ولما سمع الخوارزمية بوصوله تركوانابلس وتوجهوا الى الصلت . استعد الملك الناصر داود لمواجهة الموقف وجمع جموعه والتقى بفخر الدين ابن الشيخ عند الصلت في ١٧ ربيع الآخر ٦٤٤هـ (أول سبتمبر (أيلول) ١٢٤٦م) واستطاعت القوات المصرية أن تبدد شملهم وكسرتهم واستولى ابن الشيخ على الصلت بعد أن أحرقها(٢٠٠) ففر الناصر الى الكرك واحتمى خلف اسوارها . أما الخوارزمية فقد لحقوا به وحاولوا دخولها ولكنه لم يمكنهم من دخول المدينة أو القلعة واوصد دونهم الابواب . اما ابن الشيخ فقد تبعه ونزل على وادي الكرك وجرت المراسلة بينهما وعندما عجزت قواته عن اقتحام الكرك لحصانتها قام ابن الشيخ «وقابل النأصر»(٢٠١) وترك له الكرك فقط واستولى على املاكه التي كانت تحت سلطانه وهي القدس ونابلس وبيت جبريل والصلت والبلقاء(٢٠٢)

---

(١٩٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥٠٥ — ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٤هـ « مخطوطة » .

(١٩٩) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥٠٥ — ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٣ ، ص ٣٥٩ — ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٦٨ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٤هـ « مخطوطة » .

(٢٠٠) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥٠٥ — ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٧١ — ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٤هـ « مخطوطة » — المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .

(٢٠١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥٠٥ .

(٢٠٢) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٤٨ « مخطوطة » .

وولى عليها جميعا من قبله ، كما ضم اليه الخوارزمية الذين كانوا في خدمة الناصر وخلع عليهم وأحسن اليهم(٢٠٣) • لقد فقد الناصر داود كل امارته تقريبا ، وتقوقع في قلعته وجرت الاحداث على غير ما يشتهي ، ورحل عنه ابن الشيخ وقد ضعف أمره وقل ما لديه من المال والذخائر •

ثم توجه ابن الشيخ الى بعلبك واستولى عليها بعد أن هرب الصالح اسماعيل الى حلب تاركا أهله وبنيه واولاده بيد اعدائه فقبض عليهم ابن الشيخ وارسلهم الى مصر وتم توحيد بلاد الشام ومصر تحت زعامة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فأرسل اليه الخليفة في بغداد مباركا له زعامته وارسل اليه خلع السلطنة(٢٠٤) وهي عمامة سوداء وفرجية مذهبة وثوبان من ذهب وسيف مسقط بذهب وترس ذهب وطوق ذهب وغلمان وحصان بسرج ولجام وخلع لاصحابه • واتفق ان خرج الملك الصالح نجم الدين في سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م) الى دمشق ، وقبل خروجه من مصر حاول نقل اخيه الملك العادل الى سجن(٢٠٥) الشوبك خوفا من بقائه في مصر اثناء غيابه بالشام ولكن العادل رفض فأرسل اليه من قتله في سجنه ، أما ابنه الملك المغيث عمر بن الصالح فقد بقي عند عماته في القاهرة • وانتهز الناصر داود فرصة وجود نجم الدين بدمشق وأرسل اليه الشيخ شمس الدين الخسرو شاهي وبصحبته الملك الامجد الحسن بن الملك الناصر داود(٢٠٦) يحملان اليه كتابا يعرض عليه فيه ان يسلم اليه الكرك مقابل ان يعوضه بالشوبك واقطاعا في مصر • ووافق الملك الصالح على هذا العرض واستعد لاستلام المدينة والحصن وكلف الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي بهذه المهمة الا انه كره التوجه الى الكرك خوفا من تقلب الملك الناصر وعدم ثباته على امر

---

(٢٠٣) ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٤هـ « مخطوطة » •

(٢٠٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥٠٠ ــ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٤٩ •

(٢٠٥) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٥٤٢ ــ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٤هـ « مخطوطة » والجوهر الثمين لوحة ١٠١ « مخطوطة » ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٢٧ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣١٢ •

(٢٠٦) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٥٥ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٢ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٩ •

واحد وخوفا من ان يقبض عليه(٢٠٧) فأرسل الى السلطان معتذرا طالبا منه ان يعفيه من هذه المهمة ، فاعفاه وعهد بها الى تاج الدين مهاجر فمضى تاج الدين الى الكرك واجتمع بالملك الناصر وطلب منه ما وقع الاتفاق عليه الا أن الناصر عدل عن رأيه لما علم بمرض الملك الصالح نجم الدين وقدوم الفرنج في حملة صليبية جديدة ، فأراد ان يستغل الاحداث لصالحه ويعود الى الظهور في الصورة من جديد(٢٠٨) ٠

كانت جموع الحملة الصليبية السابعة بقيادة فرنسيس « لويس التاسع »قد تحركت نحو الشرق ، ولما علم السلطان الملك الصالح نجم الدين وصولهم الى قبرص عاد مسرعا الى مصر محمولا في محفة بسبب اشتداد العلة عليه كي يقوم بالدفاع عن مصر(٢٠٩) ، علما بأن قواته في الشام كانت قد ابلت بلاء حسنا ضد الفرنج وانتزعت منهم عدة مدن وقلاع منها طبرية وعسقلان(٢١٠) ٠ واخيرا حطت الحملة الصليبية السابعة على دمياط وتمكنت من احتلالها في ٢٢ صفر ٦٤٧هـ (٦ يونيو (حزيران) ١٢٤٩م) ٠

وعمد الملك الناصر الى الافادة من هذه الظروف السيئة التي تعرض لها الملك الصالح نجم الدين فهناك الخطر الصليبي الجاثم على أرض مصر والعلة قد اشتدت على السلطان ٠ لذا غادر الكرك في ربيع الاول سنة ٦٤٧هـ

---

(٢٠٧) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٥٥ « مخطوطة » ٠

(٢٠٨) نفس المصدر : لوحة ٣٨٨ « مخطوطة » ٠

(٢٠٩) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥١١ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٨٦ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٧٥ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٦هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٣ ، ٣٥٣ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٥١ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٣٢ هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢٣٠ ٠
Stevenson, op. cit. P. 325.

(٢١٠) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥٠٨ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٨٤ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٧٣ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٥هـ « مخطوطة » ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٥١ ٠
Stevenson, op. cit., P. 324.
Eracles, Recueil des Historiens, H. occ. vol. 2, P. 431.

(يوليو (تموز) ١٢٤٩م) متوجها الى حلب في محاولة للاتفاق مع صاحبها الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز من اجل تكوين جبهة ضد الصالح نجم الدين وانتزاع بلاد الشام منه ، وقدم للناصر يوسف هدية ثمينة(٢١١) ، فاحتفى به صاحب حلب وبالغ في اكرامه ۰ وفي اثناء مقامه بحلب ارسل وديعة تحتوي على مجوهرات وفصوص الى الخليفة المستعصم ببغــداد (٦٤٠ ـ ٦٥٦هـ / ١٢٤٢ ـ ١٢٥٨م) ، صحبة عز الدين سليمان ، وقد تسلم الخليفة الوديعة وارسل اليه رسالة تتضمن استلامه لها ، وكانت هذه الوديعة تقدر بمبلغ خمسمائة الف دينار(٢١٢) ۰ ويذكر ابن واصل ان الناصر سافر الى حلب لما ضاقت به الدنيا وظهرت عليه أعراض الفقر(٢١٣) ولكن كيف يكون فقيرا ولديه هذا القدر من الجوهر يقدر ثمنه بنصف مليون دينار بالاضافة الى الجواهر التي اهداها الى الناصر يوسف ؟، ولقد ذكر ابن كثير ان الملك الصالح نجم الدين بعد ان تواطأ أبناء داود معه وسلموه مفاتيح الكرك استولى على ما فيها «فكان فيها من الذهب الف الف دينار»(٢١٤) من كل ما تقدم ارى ان رحلته الى حلب لم تكن هروبا ولا بسبب فقره بل لغرض آخر هو تنظيم تحالف جديد ضد الصالح نجم الدين ، الذي انتقم منه سريعا بانتزاع الكرك من بين يديه وهدم داره وقصره في دمشق كما سنرى ۰

وكان الناصر داود قد ترك بالكرك ولده الملك المعظم شرف الدين(٢١٥) عيسى نائبا عنه ، وكان اصغر ابنائه واحبهم الى قلبه ، فامه ام ولد تركية كان يميل اليها الملك الناصر داود ۰ وبانابته للمعظم تخطى ولديه الملك الظاهر شادي والملك الامجد حسن من ابنة عمه الامجد بن العادل وكان الملك الظاهر اكبر ابنائه ولد بقلعة دمشق قبل ان تؤخذ دمشق منه ، أما الملك الامجد فكان نبيها فاضلا مشاركا في شتى العلوم ۰ وبالاضافة الى

(٢١١) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٧٩ « مخطوطة » ۰
(٢١٢) المصدر نفسه : لوحة ٣٨٠ « مخطوطة » ۰
(٢١٣) المصدر نفسه : لوحة ٣٥٨ « مخطوطة » ۰
(٢١٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ١٧٧ ۰
(٢١٥) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٥٨ « مخطوطة » ۰

هؤلاء الابناء الثلاثة كان للناصر ابناء من امهات اولاد ، فلما قدم الملك الناصر ولده الملك المعظم تألم الاخوة الباقون خاصة ولداه الظاهر شادي والأمجد حسن لكبر سنهما وتميزهما في أنفسهما عن الباقين ، وكانت أمهما قد تولت خدمة الملك الصالح نجم الدين ايوب عندما كان مسجونا بالكرك باعتبارها ابنة عمه لان الناصر داود كان قد اوصاها بذلك ، لذلك فقد كان ولداها الملك الظاهر والملك الامجد يلازمان الصالح نجم الدين ويأنسان به . ولما وجدا ان والدهما اصبح غائبا في حلب ، اتفقا مع امهما على القبض على اخيهما الملك المعظم ففعلا ذلك واستوليا على الكرك لذهاب الملك منهما(٢١٦) أما الصالح نجم الدين فعندما بلغته الانباء بتحرك الناصر داود وتحالفه مع صاحب حلب ، قرر الانتقام منه واعتقد انه اتصل سرا بولدي الناصر داود الظاهر شادي والامجد حسن ، لعلمه بحبهما له ، وعرض عليهما عروضا مغرية ان سلماه الكرك ولهذا قاما بهذا الانقلاب ضد أخيهما المعظم واستوليا على عرش امارة الكرك ، ثم عزما على تسليمها الى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وان يأخذا منه عوضا عنها(٢١٧) . ولم يكتف الصالح نجم الدين بذلك بل اراد ان يشفي انتقامه من الناصر داود فارسل ايضا الى جمال الدين ابن يغمور(٢١٨) نائب دمشق يامره بتخريب دار اسامة المنسوبة الى الناصر داود والتي ورثها عن والده الملك المعظم عيسى ، وتخريب بستانه بالقابون وذلك بقطع أشجاره وهدم قصره، كما أمره بنقل رخامه الى مصر ففعل ذلك. جرت الامور بسرعة وتطورت فسافر الملك الامجد الى معسكر الصالح نجم الدين بالمنصورة فوصل اليه في ٩ جمادى الاخرة سنة ٦٤٧هـ (١٩ سبتمبر (ايلول) ١٢٤٩م) ليتمم الصفقة التي اتفقا عليها سرا فقد اتفق مع عمه ان يسلم اليه الكرك مقابل ان يعطيه اقطاعا له ولاخوانه في مصر ، ووافق الملك الصالح نجم الدين على ذلك وقدم اليه خمسين ألف دينار وأقطعه اسيوط وخبز مائتي فارس(٢١٩) ويذكر ابو المحاسن ان الملك الصالح اعطى

---

(٢١٦) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٥٨ « مخطوطة » .

(٢١٧) المصدر نفسه : لوحة ٣٥٨ « مخطوطة » .

(٢١٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٥١٣ — ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٧٩ « مخطوطة » — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٦٢ .

(٢١٩) الذهبي : دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ١٥٢ .

للظاهر بن الناصر داود عوضا عن الكرك خبز مائتي فارس بمصر ، وخمسين الف دينار وثلثمائةقطعة قماش والذخائر التي بالكرك ، وانه اعطى لاخيه الامجد اخميم وخبزمائة وخمسين فارسا بمصر(٢٢٠) ٠

ثم ارسل الصالح نجم الدين الطواشي بدر الدين الصوابي ليتسلم الكرك من اولاد الملك الناصر المتواطئين معه وقرره نائبا عنه فيها ، أما المدينة فقد اسند ولايتها الى رجل اسمه الهمام(٢٢١) ، فتسلم الطواشي الكرك في ١٨ جمادى الاخرة ٦٤٧هـ (٢٨ سبتمبر (ايلول) ١٢٤٩م)(٢٢٢) وهكذا خان الامجد اباه(٢٢٣) فسلم الكرك الى خصوم ابيه ، وخرجت الاردن من حكم الناصر داود بعد ان استمر على عرش امارتها احدى وعشرين عاما وهي الفترة التي بلغت فيها امارة الكرك اقصى اتساع لها فحكمت الاردن الحالي بالاضافة الى معظم فلسطين ٠ وخرج أبناء الملك الناصر ونساؤهم وجواريهم وغلمانهم واتباعهم الى مصر ووصلوا الى المنصورة فأقطعهم الصالح اقطاعات جليلة بمصر(٢٢٤) ورتب لهم الرواتب الكثيرة وانزلهم في الجانب الغربي قبالة المنصورة ٠ وكان لتسليم الكرك دوي كبير في مصر فزينت القاهرة ومصر وضربت بالقلعة البشائر(٢٢٥) وارسل الملك الصالح الى حصن الكرك الف الف دينار عينا(٢٢٦) وقيل الف الف دينار ومائتي الف دينار(٢٢٧) وجواهر وذخائر واسلحة واشياء كثيرة ، وجعلها مخزنا له وملجأ ، ورغم ما اصابه من المرض فقد سعد سعادة لا حد لها

---

(٢٢٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٦٢ ٠

(٢٢١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧٥ ٠

(٢٢٢) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٥٩ « مخطوطة » ٠

(٢٢٣) الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٥٢ ٠

(٢٢٤) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٥٩ « مخطوطة » ٠

(٢٢٥) المصدر نفسه : لوحة ٣٥٩ « مخطوطة » ٠

(٢٢٦) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥١٣ ــ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٨٨ « مخطوطة » ــ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٧هـ « مخطوطة » ٠

(٢٢٧) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧٥ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٨ ٠

اذ وفق فيما لم يوفق فيه ابوه من قبل وهذا يوضح الاهمية الخاصة التي كانت تتمتع بها الكرك ٠

دخلت امارة الكرك تحت حكم الملك الصالح ايوب وكادت ان تختفي من مسرح الاحداث ولكن سرعان ما عاودت دورها النشط بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين ايوب في ١٤ شعبان ٦٤٧هـ(٢٢٨) (٢٢ نوفمبر (تشرين ثاني)١٢٤٩م) عندما اعتلى امارة الكرك احد ابناء البيت الايوبي وهو الملك المغيث عمر بن العادل ٠

أما الملك الناصر يوسف فلم يف بوعوده التي قطعها على نفسه للملك الناصر داود جزاء خدماته الجليلة وعونه له في التغلب على دمشق(٢٢٩) ، بل جازاه جزاء سنمار خوفا من ان يتفق مع اعدائه في مصر ضده ٠ فاعتقله في حمص وبقي فيها فترة ثم اطلق سراحه ، فحاول الناصر داود الرحيل الى بغداد لاسترداد وديعته التي يحتفظ بها الخليفة ، فاذن له الخليفة بدخول العراق بعد ان قاسى كثيرا وتشرد في البادية بين العراق والشام ، وبعد ان ادى فريضة الحج مرتين ٠ وعوضه عن وديعته بتحفة لا تساوي جزءا بسيطا من القيمة الحقيقية لها ، فقبلها الناصر داود مضطرا وعاد الى الشام واستقر في قرية البويضاء جنوب دمشق(٢٣٠) ، وبقي فيها الى ان توفي ليلة السبت ٢٦ جمادى الاولى ٦٥٦هـ(٢٣١) (اول يونيو (حزيران) ١٢٥٨م) فكان عمره ثلاثا وخمسين سنة وعندما علم الناصر يوسف بنبأ وفاته

---

(٢٢٨) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٥٩ « مخطوطة » ـ عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١٠٦٤ ٠

(٢٢٩) فابن واصل يقول : « وكانت قد تقدمت منه وعود جميلة وكان يقول له : سترى ما افعل في حقك » (مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٧٩ « مخطوطة ») ٠

(٢٣٠) البويضاء : قرية قبلي دمشق كانت لعم الملك الناصر داود مجير الدين ابن العادل ، انظر : النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٧ لوحة ٩٨ « مخطوطة » ـ العمري : مسالك الابصار ، جـ ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٧٩ « مخطوطة » ـ ابن دقماق : نزهة الانام لاحداث ٦٥٦هـ « مخطوطة » العيني : عقد الجمان ، جـ ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٠٨ « مخطوطة » ٠

(٢٣١) أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٢٠٤ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ١٩٨ ـ الحنبلي : الانس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٣٦٥ ٠

حرج من دمشق الى البويضاء وأظهر عليه الحزن ، وأمر بدفنه في الصالحية بدمشق ، وبوفاته يسدل الستار عن فترة من ازهى عصور امارة الكرك ٠

وعلى الرغم من سوء حظه في السياسة ، فقد بلغت امارة الكرك في عهده أقصى اتساع لها ، وكان الناصر اديبا عالما أحاط نفسه بجمهور كبير مـــن العلماء والادباء ، وكان بلاطه كعبة يؤمها العلماء ، وهو اول امير اعتلى عرش الامارة زهاء ربع قرن ، وجعل لها كيانا سياسيا مستقلا عن دمشق والقاهرة ٠

الفصل السادس

امارة الكرك بعد الناصر داود

١ ـ الكرك في عهد الملك المغيث عمر بن العادل

أ ـ اعتلاء الملك المغيث عمر عرش امارة الكرك

ب ـ موقف الملك المغيث عمر صاحب الكرك من دولة المماليك في مصر حتى ظهـور الخطر المغولي عـلى الشام ·

جـ ـ دور المغيث عمر صاحب الكرك في معركـة عـين جالوت ونتائجها بالنسبة لمستقبل هذه الامارة ·

٢ ـ موقف الملك الظاهر بيبرس من امارة الكرك

أ ـ استيلاء بيبرس على الشوبك

ب ـ موقف المغيث عمر من الظاهر بيبرس بعد سقوط الشوبك ·

جـ ـ نهاية الملك المغيث عمر

د ـ استيلاء بيبرس على الكرك وأعماله بها

هـ ـ الأسباب الحقيقيـة للقضاء عـلى امارة الكـرك الأيوبيـة ·

(١)

الكرك في عهد الملك المغيث عمر بن العادل

أ ـ اعتلاء الملك المغيث عمر عرش امارة الكرك :

اشتد المرض على الملك الصالح نجم الدين أثناء اقامته بالمنصورة في مواجهة الفرنج ، ولم يلبث ان فاضت روحه في ١٤ شعبان ٦٤٧هـ (٢٢ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٢٤٩م) فتكتمت زوجه شجر الدر على خبر وفاته[١] ولم تفض به الا الى الامير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ ، والطواشى جمال الدين محسن بعد أن أوصتهما بكتمانه خوفاً من أن ينتشر الخبر فيفت في عضد المسلمين • ثم حلفت الأمراء للسلطان ولابنه تورانشاه بولاية العهد الذي كان آنذاك في حصن كيفا ، وارسلت الفارس المملوكي اقطاي الى الشام لاحضاره ليتولى عرش البلاد • وكان الامير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ يسعى الى تنصيب الملك المغيث عمر بن العادل على عرش السلطنة لصغر سنه[٢] ، وعن طريقه يمكن ان يستبد بالحكم[٣] ويدير البلاد باسمه ، وكان الملك المغيث قد خدم عمه الملك الصالح نجم الدين مدة ، ولما لمح فيه مخايل النجابة والفطنة امر باعتقاله في الدار القطبية[٤] عند عمة السلطان الصالح[٥] خوفا من تعلق الناس به وارتفاع شأنه ، وظل مقيما عند عماته

---

(١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٨٨ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ ـ هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢٣٠ ـ أما ابن دقماق فيقول : « وقبل وفاته كتب وصية لولده الملك المعظم تور انشاه وكان مقيما بقلعة حصن كيفا » (نزهة الانام احداث سنة ٦٤٧هـ « مخطوطة ») •

(٢) كان عمره ١٤ سنة •

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥١٤ ـ ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٦٤ « مخطوطة » •

(٤) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٠٤ « مخطوطة » وسميت عماته بالقطبيات وهن بنات الملك العادل ، وعرفن كذلك لانهن اشقاء الملك المفضل قطب الدين ابن الملك العادل • (انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢١٦) •

(٥) هي عمة والد المغيث وابنة السلطان الملك العادل ابي بكر بن أيوب واخت الملك الكامل محمد •

بالقاهرة الى ان توفي الصالح نجم الدين . وعندما شعر الامير حسام الدين محمد بن ابي علي نائب السلطنة بمصر بنية الامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، ارسل الى والي القلعة يأمره بنقل الملك المغيث الى قلعة الجبل[٦] والحفاظ عليه وعدم تسليمه لاي شخص مهما كانت مرتبته واشرف بنفسه على ذلك .

وفي هذه الأثناء وصل الملك المعظم تورانشاه الى دمشق وأرسل في طلب المال من قلعة الكرك[٧] ، وكان ابوه قد خزنه بها ، فانفقه على الامراء وحلفهم بالولاء اليه.ثم خرج في أول ذي القعدة ٦٤٧هـ (فبراير (شباط) ١٢٥٠م) متجها الى مصر ، فانتهز فرصة مروره بالامارة فأرسل الى الكرك هبة الله بن ابي الزهر بن حشيش أحد اتباعه ليحتاط على خزائنها وذخائرها وقد نجح هبة الله في مهمته ولحق بتورانشاه قبل دخوله الديار المصرية . وصل المعظم تورانشاه الى المنصورة في نهاية ذي القعدة وتسلم مقاليد الامور من شجرة الدر واقام بقصر أبيه[٨] ، وتولى مهمة مدافعة الفرنج .

والظاهر ان الامير حسام الدين ابلغ الملك المعظم تورانشاه عن مجمل قضية الملك المغيث ، وطلب منه اقصاءه عن البلاد باعتباره منافسا اليه . فأمر تورانشاه بنفيه الى قلعة الشوبك واعتقاله فيها ، وندب لذلك الامير عز الدين الحلي ، والامير سيف الدين بكهان النجاحي[٩] ، فتوجها به الى الشوبك حيث سلماه الى نائب الكرك الذي اعتقله ، ثم عادا الى مصر ، وبذلك اطمأنت نفس تورانشاه وهدأ باله .

---

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٦٤ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٤٥ .

(٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٥١٤ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٧هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٥٣ .

(٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٥١٤ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٧هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٥٣ ـ وانظر :
Rothelin, Recueil des Historiens, H. occ. vol. 2, P. 609.

(٩) النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٧ لوحة ١٠٤ « مخطوطة » .

وفي هذه الاثناء انهزم الفرنج في المنصورة ووقع الملك افرنسيس « لويس التاسع » أسيرا ، فسجن في دار القاضي فخر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب الانشاء(١٠) • وبدلا من أن يقوم تورانشاه بالاحسان الى المماليك البحرية الذين يرجع اليهم الفضل في انتصاره ، أساء اليهم والى شجرة الدر زوج ابيه واخذ يتهددهم ، واخيرا اتفقوا على قتله(١١) • وفي يوم الاثنين ٢٨ محرم ٦٤٨هـ (٣ مايو (ايار) ١٢٥٠م) تقدم احد البحرية وضربه بسيفه فقطع اصابع يده وهجموا عليه يريدون الاجهاز عليه ، ففر الى برج خشبي فقذفوا البرج بقوارير النفط(١٢) فاشتعلت النار فيه ، ففر من النار يريد النيل فتلقوه بالسيوف والنبال • ويقول جوانفيل مؤرخ الحملة الصليبية السابعة ، «ثم قتلوه وهو في الماء غير بعيد عن المركب الذي كنا فيه»(١٣) ، وقطعوه بالسيوف قطعا ، فمات جريحا حريقا غريقا ، وبمقتله انقرضت الدولة الايوبية بالديار المصرية بعد حكم دام احدى وثمانين سنة من ٥٦٧ الى ٦٤٨هـ •

واتفق الأمراء المماليك على اقامة شجر الدر أم خليل في الحكم(١٤) ،

---

(١٠) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٠ ـ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٨٤ ـ ابن منكلي : الاحكام المملوكية لوحة ٦٢ « مخطوطة » ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٨هـ « مخطوطة » ـ الجوهر الثمين لوحة ١٠٤ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥٧ ـ وانظر أيضا :

Eracles Recueil des Historiens, H. occ. vol. 2, P. 438.

احمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام ، ص ١٠٢ ـ ١١٠ •

(١١) ابن الفوطي : التجارب النافعة ، ص ٢٤٦ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٠ ـ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٨٣ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٨هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥٩ ـ محمد جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس في مصر ، القاهرة ١٩٦٠م ، ص ٢٨ •

(١٢) ابن الفوطي : التجارب النافعة ، ص ٢٤٧ •

(١٣) جوانفيل : مذكراته ، ص ١٦٥ ـ وانظر أيضا :

Eracles, Recueil des Historiens, H. occ. vol. 2, P. 438. - Rothelin, Recueil des Hist. H. occ. vol. 2, P. 618.

(١٤) ابن الفوطي : التجارب النافعة ، ص ٢٤٧ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٠ ـ ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٨٣ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٨هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦١ ـ الذهبي دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٥٤ •

فنقشت اسمها على السكة وخطب لها على منابر مصر والقاهرة ، وكان يعاونها في مهامها عدد من الشخصيات المملوكية البارزة نذكر منهم : مقدم العسكر الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالحي أحد الأمراء البحرية . وقد استطاعت بمهارتها ان تنهي التفاوض مع الفرنج[١٥] فعقدت المعاهدة لمدة عشر سنوات[١٦] ، وبموجبها اطلق سراح الملك افرنسيس بعد ان افتدى نفسه بمبلغ اربعمائة الف دينار[١٧] ، وعلى الاثر سمحت السلطات المملوكية بجلاء الفرنج عن دمياط ، فرحلوا الى عكا ودخلتها القوات المصرية في يوم الجمعة ٣ صفر ٦٤٨هـ (٧ مايو (ايار) ١٢٥٠م) . ثم تزوجت شجرة الدر الامير عز الدين آيبك في ٢٩ ربيع الاخر ٦٤٨هـ[١٨] (٣٠ يوليو (تموز) ١٢٥٠م) ، بعد ان خلعت نفسها ونزلت له عن الملك بعد ثمانين يوما فقط من توليها السلطة ، كما اتفق الامراء على تولية الملك الاشرف مظفر الدين موسى المنعوت بأقسيس وعمره ست سنوات فأجلسوه على كرسي الملك في ٥ جمادى الاولى ٦٤٨هـ[١٩] (٤ اغسطس (اب) ١٢٥٠م) ارضاء لايوبية الشام[٢٠] وجعلوا مدبر دولته الامير عز الدين ايبك زوج شجر الدر ، وبذلك اخذ المماليك يرسون قواعد دولتهم في الديار المصرية .

كان لمقتل الملك المعظم تورانشاه وانهاء الدولة الايوبية في مصر آثار بعيدة المدى لدى ايوبية الشام ، اذ اثار مشاعر السخط والغضب والكراهية

---

(١٥) ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٨٥ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٣ ـ والخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٠ .

(١٦) Stevenson, op. cit., P. 329.

(١٧) الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٥٥ ـ ويذكر ابن منكلي ان المبلغ كان خمسمائة الف دينار ، انظر : الاحكام المملوكية ، لوحة ٦٢ « مخطوطة » ـ وعن اطلاق سراح الملك لويس انظر : Rothelin, Recueil des Historiens, H. occ. vol. 2, P. 618.

(١٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥٢٢ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٧٩ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث ٦٤٨هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٧ .

(١٩) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٢ ـ أبو المحاسن : المنهل الصافي ، تحقيق احمد يوسف نجاتي ، القاهرة ١٩٥٦م ، ص ٧ ـ جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، دار الكتب الجامعية ، اسكندرية ، طبعة ثالثة ، ١٩٧١م ، ص ١٦٦ .

(٢٠) وليم موير : دولة المماليك ، ص ٣٨ .

في نفوس اشياع الايوبية ، فارتفعت اصوات الساخطين والمتذمرين . وكان رد الفعل سريعا عندما بادر الملك الناصر يوسف صاحب حلب بالزحف الى دمشق وتمكن منها بمساعدة الامراء الذين كاتبوه ورغبوه في فتحها(٢١) وبفضل مساعدة الملك الناصر داود الذي افتتح لحساب الناصر يوسف أيضا بعلبك وبصرى وصرخد(٢٢) ، وكان جزاؤه على خدماته للناصر يوسف أن اعتقله وزج به في سجن حمص(٢٣) . وكان دخول الناصر يوسف دمشق يوم السبت ٨ ربيع الآخر ٦٤٨هـ(٢٤) (١٠ يوليو (تموز) ١٢٥٠م) ، وما ان تم له ذلك حتى ارسل قواته الى عجلون فاستعصت عليه ولكنه ثابر على حصارها ، ثم كاتب النائب بها فسلمها اليه وارضاه(٢٥) ، وانعم على قاضي عجلون بألفي دينار(٢٦) فردها القاضي . كذلك أرسل قواته الى الصلت(٢٧) وتمكن من فتحها ، وبقيت في يده كل من عجلون والصلت حتى نهاية عهده .

---

(٢١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩١ — النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٩٧ « مخطوطة » — العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٥٩ « مخطوطة » — ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٨هـ « مخطوطة » .

(٢٢) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٩٧ « مخطوطة » .

(٢٣) وقد أورد النويري أن من اسباب القاء القبض عليه : أولا : ان الناصر داود طلب دستورا للذهاب الى بغداد فأعطاه الناصر يوسف أربعين ألف درهم ، أنفقها في الجند وعزم على قصد الديار المصرية ، ثانيا : انه تسلم كتابا من مصر ولما سئل عنه أنكره ، وثالثا : ان الملك الصالح اسماعيل اشار باعتقاله عندما هموا بالزحف الى مصر ، وكانت المصلحة تقضي بعدم تركه خلفهم ، لكن ما سلف نقم الناصر يوسف على الملك الناصر داود ولم يفه بما وعده في حلب وسجنه في حمص — انظر : النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ٩٧ — ٩٨ « مخطوطة » — وانظر أيضا : سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥١٩ — العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٦١ « مخطوطة » — وابن دقماق : نزهة الانام احداث ٦٤٨هـ « مخطوطة » .

(٢٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩١ .

(٢٥) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٧٥ — ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ص ٣٨٥ — العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٥٩ « مخطوطة » .

(٢٦) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٨٩ .

(٢٧) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٨٤ .

ولم تلبث الكرك ان برزت من جديد في خضم الاحداث ، فما ان بلغت مسامع ابن رسول وشهاب الدين بن عمر بن صعلوك(٢٨) نبأ مقتل المعظم، وكانا متوليا امر الشوبك حتى نهضا الى الملك المغيث عمر بن العادل وكان لديهما في السجن فأخرجاه من الاعتقال ، وملكاه ، وبايعا له بالسلطنة وحلفا له مع من في الشوبك من الأمراء ، ثم حلفاه بالوفاء لهم فأقسم على ذلك • فبلغ ذلك بدر الدين الصوابي الخادم نائب الكرك فأنكر عليهما فعلهما بغير اذن منه الا أنهما أرسلا اليه «بك فعلنا ذلك»(٢٩) ، فما كان منه الا ان ارسل اليهما يطلب ارسال الملك المغيث الى الكرك ليبايعه بنفسه ، فرحل الملك المغيث الى الكرك حيث تعاهدا وتوثقا الايمان فيما بينهما واكداها فسلمه الصوابي ما بالكرك من خزائن واموال كان قد اودعها الملك الصالح نجم الدين ايوب ، وبلغت هذه الاموال – بعد استقطاع ما اخذه المعظم تورانشاه منها – نحو سبعمائة وسبعين الف دينار • واعتلى المغيث عمر عرش امارة الكرك في١٣ ربيع الاول ٦٤٨هـ(٣٠) (١٦ يونيو (حزيران) ١٢٥٠م) ورتب اموره بها ، واعاد لامارة الكرك سابق عهدها ، واصبحت تضم البلقاء والكرك والشوبك ، أما عجلون والصلت فكان قد انتزعهما الناصر يوسف صاحب دمشق كما أسلفنا القول ثم اتخذ المغيث عمر من بدر الدين الصوابي مدبرا لشئون امارته(٣١) • وعادت امارة الكرك لتلعب دورها من جديد في الصراع ، هذه المرة بين الايوبيين والمماليك الذين لم يعترف الايوبيون بشرعية توليهم الحكم في مصر وعقدوا العزم على محاربتهم واستخلاص البلاد منهم •

ب – موقف الملك المغيث عمر صاحب الكرك من دولة المماليك في مصر حتى ظهور الخطر المغولي على الشام :

وكان طبيعيا ان يوثق المغيث عمر صلاته باقربائه من البيت الايوبي لتتوحد صفوفهم امام المماليك في مصر فبدأ يتقرب الى الملك الناصر يوسف

---

(٢٨) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٠٤ « مخطوطة » •

(٢٩) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٠٤ « مخطوطة » •

(٣٠) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧٥ •

(٣١) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٧٥ « مخطوطة » – العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٥٩ « مخطوطة » – ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٨هـ « مخطوطة » •

صاحب دمشق وحلب · وكان الناصر قد ارسل رسولا الى الصوابي يطلب فيه تسليم الكرك اليه[٣٢] ، فقرأه امام الملك المغيث الذي لم يتردد في الرد عليه بكتاب وادع فيه الملك الناصر يوسف وقد ضمنه رغبته في أن يكون نائبه في الكرك ، ووعده بانه لن يتخذ اي امر الا بعد مشورته واخذ رأيه · رحب الناصر يوسف بهذا العرض واقره على الكرك فاستقر امره · ثم ارسل الملك المغيث عمر الى الناصر يوسف رسالة مع ابنه الملك العزيز فخر الدين ابي المظفر عثمان[٣٣] ، فتلقاه الناصر واكرمه وقربه ، وكان يجلسه في مجلسه بالقرب منه كما عين له في كل يوم الف درهم واربعمائة جراية واربعمائة عليقة وغير ذلك من انواع التكريم · وقد تنقل بين مستنزهات دمشق وغوطتها ومكث لديه ثلاثة اشهر ثم اعاده الى ابيه بعدما اركبه بشعار السلطنة ، وبذلك اعترف الملك الناصر يوسف بشرعية تملك الملك المغيث عمر لامارة الكرك تمكينا لوحدة الصف الايوبي ·

ثم تواردت الانباء الى الديار المصرية بنية ايوبي الشام بزعامة الناصر يوسف ملك دمشق التحرك نحوهم ، وكعمل وقائي سير الملك المعز ايبك الامير ركن الدين خاص ترك الكبير[٣٤] على رأس قوة الى غزة تقتصر مهمتها على مراقبة الاحداث والوقوف في وجه الغازين ، ولكن هذه القوة لم تستطع الثبات في مواقعها عندما بلغهم تحرك الملك الناصر يوسف باتجاه مصر ، فقفلوا عائدين الى مصر ووصلوا الى السائح حيث نزلوا بالصالحية[٣٥] · واتفق وجود بعض الامراء الناقمين على المعز هناك ، فاتفقوا جميعا بعد مناقشات طويلة على خلع المعز سلطان مصر والمناداة بالملك المغيث عمر أمير الكرك سلطانا على البلاد · وارسلوا اليه بذلك ، ثم خطبوا له بالصالحية

---

(٣٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧٦ ·

(٣٣) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٠٤ « مخطوطة » ·

(٣٤) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٧٧ « مخطوطة » ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٨ ·

(٣٥) الصالحية : قرية مصرية تقع في آخر معمور الديار المصرية من جهة الشام ، أنشاها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٤هـ ـ (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٧٧ ـ المقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٧) ·

يوم الجمعة ٤ جمادى الآخرة ٦٤٨هـ(٣٦) (أول سبتمبر (أيلول) ١٢٥٠م) ثم كتبوا اليه يعرضون عليه القدوم سريعا الى الصالحية بقواته ليسيروا معا الى مصر ويولونه سلطانا عليها · ولكن الملك المغيث عمر كان رجلا عمليا يتسم بالواقعية ، فقد وجد أنه لم يكن اهلا لهذه المسؤولية الخطيرة اذ كان في البيت الايوبي من هو اكبر منه واقوى كالصالح اسماعيل والملك الناصر يوسف بالاضافة الى انه لم يكن قد أفاق حتى هذه اللحظة من هول ما فعله المماليك بابن عمه المعظم تورانشاه ، ولم يكن قد مكن سلطانه بعد في امارته الجديدة(٣٧) ، ومع ذلك فان هذه الحركة جعلته يتطلع الى الظفر بعرش السلطنة في مصر وان كان ذلك مجرد طموح أو أمل · أما الملك المعز واعوانه من أكابر الامراء فقد خشوا عواقب الامور ، فحدوث انقسام في صفوف الجند والامراء يعني القضاء التام على خطة المماليك في الوصول الى سدة الحكم وهي خطة كانت ما تزال ضعيفة ومعرضة للاخطار في الداخل والخارج ولذلك اسرع في اليوم التالي (٥ جمادى الآخرة) باصدار امره بالنداء في مصر والقاهرة للخليفة العباسي المستعصم بالله(٣٨) وان البلاد بلاده وانما هو نائبه فيها فقط ، كما طالب بتجديد المبايعة للسلطان الملك الاشرف موسى الايوبي ، وتوثيق الايمان له بان يكون اتابكا للملك الصغير · ثم امر بحشد القوات المصرية والسير الى الصالحية للضرب على أيدي المنشقين ، ولحسن حظه حدث انقسام في الصالحية بين صفوف الامراء والجند بعد أن رفض المغيث القدوم اليهم وفر كل من الطواشيين شهاب الدين رشيد الكبير وشهاب الدين رشيد الصغير ، واستطاع غلمان شهاب الدين الصغير ، القبض على زعيم الحركة الامير ركن الدين خاص ترك وحملوه الى المعز في القاهرة حيث اعتقل ، وقد كافأ المعز الغلمان وخلع عليهم · أما من تبقى في

---

(٣٦) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٧٧ « مخطوطة » — أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٢ — ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٨٥ — المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٧٠ ·

(٣٧) Recueil des Historiens des croisades. H. orientaux, vol. 4, P. 201.

(٣٨) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٧٧ « مخطوطة » — ابو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٢ — المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٧٠ ·
Lane Poole, A History of Egypt, P. 257.

الصالحية فقد استدرجهم الملك المعز ايبك واستمالهم وارسل اليهم النفقات(٣٩) ثم عفا عنهم ، فانتظموا في صفوفه ، وقضى بذلك على أول حركة ايوبية هددت دولة المماليك الفتية في مصر · واراد المعز في نفس الوقت أن يكون رده على ايوبية الشام سريعا وحاسما فأرسل الامير فارس الدين اقطاي الصالحي مقدم البحرية بقوة من الفي فارس الى غزة ، وكان بها قوة ايوبية للناصر يوسف فاوقع بها في رجب ٦٤٨هـ(٤٠) (اكتوبر (تشرين أول) ١٢٥٠م) وعاد الايوبيون الى دمشق واقطاي الى القاهرة ·

ومع ذلك فقد استعد الايوبيون بالشام بزعامة الملك الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب للسير الى مصر لانتزاعها من المماليك ، وفي منتصف رمضان خرج الناصر من دمشق باتجاه الديار المصرية بعد أن نصب شمس الدين لؤلؤ ، مدبر دولته قائدا لجيوشه(٤١) · فاستعد الملك المعز آيبك لتلقيه وبرز بقواته الى السائح ، وادرك تحرج موقفه فعمد الى الايقاع بين صفوف الايوبيين ، لكسر شوكتهم وتمزيق وحدتهم فقام باطلاق سراح ابناء الملك الصالح اسماعيل المعتقلين بالقاهرة(٤٢) منذ ايام الملك الصالح نجم الدين ايوب مستهدفا من ذلك بث بذور الشك في نفس الناصر يوسف نحو ابيهما · كذلك أمر في يوم الثلاثاء مستهل ذي القعدة بان ينادى في مصر والقاهرة بانتظام الصلح بين الملك المغيث عمر بن العادل صاحب الكرك وبين الملك المعز ايبك(٤٣) ، بقصد ايهام الملك الناصر يوسف بانحراف المغيث معه ، ويثير خوفه على مؤخرته فيتوقف عن دخول الديار المصرية · ولكن هذه الحيل لم تجد نفعا ، واستمر الناصر في سيره ، واشتبك الجيشان

---

(٣٩) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٧٧ « مخطوطة ·

(٤٠) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٢ — سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٨٨ — جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ١٦٧ ·

(٤١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٣ — أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ٩

(٤٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٣ — ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٨٦ — ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٦٢ ·

(٤٣) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٨٢ « مخطوطة » ·

الشامي والمصري بالقرب من العباسية يوم الخمس ١٠ ذو القعدة ٦٤٨هـ(٤٤) (٢ فبراير (شباط) ١٢٥١م) فحلت الهزيمة بقوات مصر بادىء ذي بدء مما اسعد اهل مصر والقاهرة لتعلقهم بالايوبيين وانفتهم من الخضوع لسلطان مسه الرق ، وكانوا يقولون : « لا نريد الا سلطانا مولودا على الفطرة »(٤٥) • وفي يوم الجمعة ١١ ذي القعدة خطبوا له بقلعة الجبل ومدينة مصر(٤٦) ، بينما تعطلت الخطبة بالقاهرة في تلك الجمعة ولكن معركة اخرى دارت بين الفريقين انتهت بهزيمة الناصر وقواته ، وتحولت كفة النصر لصالح المعز ايبك ، وعادت فلول الشاميين الى دمشق مهزومة ، وبذلك ثبتت اقدام المماليك في مصر وقرر مصيرهم فيها زهاء قرنين ونصف من الزمان •

كان الملك الفرنسي افرنسيس « لويس التاسع » في عكا يرقب تطور الاحداث بين دمشق والقاهرة وقد حاول بعد هزيمته بدمياط أن يستغل ظروف الصراع بين المماليك والايوبيين ويعيد القدس الى الفرنج كما فعل الامبراطور فردريك الثاني • ولقد ورد عليه رسل الملك الناصر يوسف يطلبون منه العون والمؤازرة ضد مماليك مصر(٤٧) مقابل ان يعيد اليه بيت

---

(٤٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٣ – ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٨٦ – ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٨هـ « مخطوطة » وانظر أيضا :
Eracles, Recueil des Historiens. H. occ. vol. 2, P. 440.
Rothelen, Recueil des Histo. H. occ. vol. 2, PP. 625 - 626.
احمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الاولى ، ص ١٢٧ •

(٤٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٣ •

(٤٦) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٣ – ١٩٤ – ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٨٦ – أما الذهبي فيقول : « خطب بالقاهرة وبقلعة الجبل » (انظر : الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٥٥) – وانظر أيضا : ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٤٨هـ « مخطوطة » •

(٤٧) جوانفيل : مذاكراته ، ص ٢٠٠ – ٢٠٨ – هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢٣٣ •
Conder, The Latin Kingdom, P. 359.
Stevenson, op. cit., P. 329.
عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٩ – احمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الاولى ، ص ١٢٥ •

المقدس • لكن موقف افرنسيس كان حرجاً بسبب وجود عدد كبير من اسرى الفرنج في مصر ولانه لم يقدم بعد الاموال التي سبق أن اتفقوا عليها في المنصورة ، واستغل هذه الظروف بان وعد المصريين الذين سبقوا امراء الشام من البيت الايوبي في خطب وده بالمساعدة ، اذا ما اطلقوا سراح أسراه واعفوه من الاموال المستحقة عليه وسلموه البيت المقدس[٤٨] • فوافقوه على ذلك وانتظمت المعاهدة[٤٩] بين الطرفين في ربيع الاول سنة ٦٥٠هـ (اوائل مايو (أيار) ١٢٥٢م) ، واقسم الطرفان عليها « والتزما بمساعدة الامراء ضد سلطان دمشق »[٥٠] •

ازاء هذا التحالف الجديد بين المماليك والفرنج ارسل الملك الناصر يوسف قواته الى غزة ، فأقامت فيها لتمنع اي اتصال بين المصريين الفرنج[٥١] وبذلك لم يستطع المماليك الوفاء لافرنسيس باعطائه القدس لعدم تمكنهم من الخروج الى الشام • وظلت قوات الشام بغزة سنتين وشهورا[٥٢] ، وعساكر مصر بالسائح ، والرسائل تتردد بين القاهرة ودمشق وعندئذ تدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله بالوساطة بين الطرفين [٥٣] وارسل الشيخ نجم الدين البادرائي للتوفيق بين الطرفين •

---

(٤٨) وفي ذلك يقول ابن كثير : « وقد مالا الجيش المصري الفرنج ووعدهم ان يسلموا اليهم بيت المقدس ان نصروهم على الشاميين » (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٨٤) •

(٤٩) Rothelin, Recueil des Historiens, H. occ., vol. 2, P. 628.
احمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك ، ص ١٢٧ • وراجع نصوص المعاهدة في كتاب العدوان الصليبي على بلاد الشام ـ للدكتور جوزيف نسيم ، الصفحات من ١٧٧ ـ ١٧٩ •

(٥٠) جوانفيل : مذكراته ، ص ٢٢٨ ، ٢٠٨ ـ ٢٠٩ •

(٥١) جوانفيل : مذكراته ، ص ٢٢٩ ـ هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢٣٣ •
Stevenson, op. cit., P. 330.

(٥٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥٢٢ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث ٦٤٩هـ « مخطوطة » •

(٥٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥٢٥ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٩٥ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٨٤ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥١هـ « مخطوطة » •
Lane Poole, A History of Egypt. P. 259.

واخيرا انتظم الصلح بينهما في صفر ٦٥١هـ (ابريل (نيسان) ١٢٥٣م) وتضمن الاتفاق ان تكون فلسطين بما فيها القدس حتى الشريعة « نهـر الاردن » للمصريين(٥٤) وما بعدها للملك الناصر يوسف ، وتعتبر هذه المعاهدة أول اعتراف رسمي من قبل الايوبيين بسلطة المماليك على مصر ٠

لكن الانقسام والخلاف سرعان ما دب في صفوف المماليك بالديـار المصرية وادى ذلك الى مصرع الامير فارس الدين اقطاي الصالحي الجمدار على يد اكابر المماليك البحرية في شعبان ٦٥٢هـ (اكتوبر (تشرين اول) ١٢٥٤م) ٠ وعندئذ استقل الملك المعز ايبك التركماني بالسلطنة وعزل الملك الاشرف موسى وارسله الى عماته القطبيات وهو اخر من خطب له من الايوبيين بالديار المصرية ٠ ولما حاول اعوان اقطاي من المماليك البحرية التدخل رمى اليهم برأس صاحبهم فولوا الادبار وخشوا الانتقام وغادر ثلاثمائة مملوك منهم الديار المصرية باتجاه الشام ، وكاتبوا الملك الناصر يوسف(٥٥) فرحب بهم واكرمهم ، واطمعوه في ملك مصر(٥٦) ، وكان مـن اعيانهم بيبرس البندقداري ، وقلاوون الالفي وسنقر الاشقر وغيرهم ٠ كذلك لاذ فريق منهم بحماية الملك المغيث عمر بالكرك(٥٧) ، ومنهم من اقام ببلاد الغور والبلقاء والكرك والشوبك والقدس يقطع الطريق ويأكل بحـد سيفه وقائم ذراعه ٠

وحاول الملك الناصر يوسف الاستيلاء على مصر بعد ما تجدد حماسه بوصول هذه الزمرة المحاربة من مماليك مصر ، ولكنه فشل وانتظم الصلح

---

(٥٤) أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٩٥ ـ ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ، ص ٣٦٣ ـ المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٨٥ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٠ والمنهل الصافي ، جـ ١ ، ص ١٠ ٠
محمد جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس في مصر ، ص ٣١ ٠

(٥٥) النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٧ لوحة ١١٦ « مخطوطة » ٠

(٥٦) أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٩٩ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ١٩٢ ـ ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ، ص ٣٦٣ ـ الذهبي : دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ١٥٧ ٠

(٥٧) المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٩١ ٠

بينه وبين المعز مرة أخرى • ونصت المعاهدة على الا يؤوي عنده احدا من البحرية[٥٨] وعندئذ اضطرت جبهة الرفض المملوكية مغادرة دمشق الى الكرك حيث التحقت بخدمة الملك المغيث عمر في شوال ٦٥٥هـ[٥٩] (اول نوفمبر (تشرين ثاني) ١٢٥٧م) ، وهنا بدأت مطامع المغيث في ملك مصر تتحرك بعد ان خلا له الميدان • وهكذا وضعت دمشق على كاهل امارة الكرك الايوبية مهمة اعادة عرش مصر للايوبيين ، وحمل الملك المغيث عمر هذا العبء ، وقد قام المغيث لتنفيذ مخططه بعدة محاولات نجملها فيما يلي :

المحاولة الاولى :

في ٢٤ ربيع الاول ٦٥٥هـ (١٣ ابريل (نيسان) ١٢٥٧م) ، تآمرت شجر الدر مع غلمانها وجواريها على قتل زوجها عز الدين آيبك سلطان مصر ، وذلك عندما بلغها استعداد المعز الزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل • فأقام الاتراك بعد مقتل استاذهم ابنه نور الدين عليا ولقبوه بالملك المنصور وجعلوا الامير سيف الدين قطز اتابكا له • أما شجر الدر فقد قتلت وقذف بها من اعلى اسوار القلعة ، وبذلك قتل المؤسسان الحقيقيان لدولة المماليك في مصر •

وكان الامير ركن الدين بيبرس البندقداري يتزعم المماليك البحرية بالشام ، وكان الناصر يوسف قد منحه اقطاعا في جنين[٦٠] وزرعين اكراما له • فلما غادرت جماعة المماليك دمشق ، توجهوا الى غزة وفي اثناء سيرهم ارسل الناصر في اثرهم قوة لكن البحرية تمكنوا من التغلب عليها • فأعاد الكرة بقوة اكبر وامكنه هذه المرة الانتصار عليهم فهربوا الى البلقاء[٦١]

---

(٥٨) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٩٨ •
Lane Poole, A History of Egypt, P. 261.

(٥٩) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١١٦ « مخطوطة » •

(٦٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٧ •

(٦١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠١ — العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٧٥ « مخطوطة » — ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٩٤ — ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٥هـ « مخطوطة » — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤٤ •

والى زغر والتجأوا الى الملك المغيث عمر صاحب الكرك ، فلم يتردد المغيث في الترحيب بهم والمبالغة في اكرامهم ، اذ وجد في هذه القوة المملوكية سلاحا يمكن ان يشهره في وجه سلطان مصر ويتمكن بفضله من السيطرة على زمام الحكم فيها • وعندما اقترحوا عليه ان يصحبهم الى مصر ليتولى عرش السلطنة(٦٢) وقالوا له : « هذا ملك ابيك وجدك وعمك »(٦٣) ، كما اوهموه ان الامراء بالديار المصرية قد كاتبوهم ووعدوهم بالمساعدة(٦٤) ، لم يتردد المغيث في قبول هذا العرض واستحسانه اذ كان يتعطش الى حكم مصر • فجمع الملك المغيث عسكره وجهزه واكمل استعداده فكان عدة ذلك ستمائة فارس(٦٥) يقودهم الامير ركن الدين بيبرس البندقداري الذي سار بهم من الكرك الى القدس وكان النائب فيها سيف الدين كبك من جهة الملك الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب ، فطلب منه بيبرس الانضمام اليهم ولكنه رفض فاعتقلوه وخطبوا بالقدس للملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل(٦٦) امير شرق الاردن واستولوا على حواصل الملك الناصر يوسف ثم توجهوا الى غزة والقوا القبض على نائبها ونهبوا ما بها من ذخائر واموال •

انزعج امراء المماليك في الديار المصرية من حركة بيبرس واعوانه المنشقين وكان سلطان مصر اذ ذاك الملك المنصور نور الدين بن الملك عز الدين فخرج اليهم نائبه الامير سيف الدين قطز المعزي بالعساكر المصرية واسرع للقائهم قبل دخولهم مصر وتم ذلك بالصالحية(٦٧) • وقد حاول

---

(٦٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠١ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٧٥ « مخطوطة » ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٩٤ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٧٨ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤٥ •

(٦٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤٥ •

(٦٤) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١١٦ « مخطوطة » •

(٦٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٨ •

(٦٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤٥ •

(٦٧) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١١٦ « مخطوطة » ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٧٨ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث ٦٥٥هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٠٦ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤٥ والمنهل الصافي ، ج ١ لوحة ٣٦١ « مخطوطة » •

بيبرس أن يفاجئهم بالهجوم ولكنه وجدهم متأهبين لاستقباله ، فاشتبك الفريقان فيقتال عنيف يوم السبت ١٥ ذو القعدة ٦٥٥هـ[٦٨] (٢٥ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٢٥٧م) ، انتهى بهزيمة قوات الكرك واعوانها من البحرية بسبب التفوق العددي للقوات المصرية[٦٩] • ووقع في الاسر من المماليك البحرية الاميران سيف الدين بلبان الرشيدي وسيف الدين قلاوون الألفي أما بيبرس فقد فر بنفسه ووصل الى الكرك صحبة بدر الدين الصوابي ، وتشتت البحرية ، فقسم عاد الى الشام ، وقسم اخر دخل في العسكر المصري فقبلهم قطز وعفا عنهم ، وعاد الامير قطز الى القاهرة فزينت له مصر والقاهرة ، وعلى هذا النحو فشلت اول محاولة قامت بها امارة الكرك الايوبية ضد المماليك في مصر لاستعادة عرش الايوبيين هناك •

المحاولة الثانية :

في الوقت الذي استقر فيه جماعة من البحرية في الكرك تدفق عـــلى الملك المغيث عمر سيل من الكتب[٧٠] يعده اصحابها من امراء المماليك في مصر بالتأييد وتطلب منه سرعة المجيء الى الديار المصرية وامتلاكها • كما قدم الى الكرك عدد كبير من جند الملك الناصر يوسف ، واصبح الملك المغيث عمر على هذه الصورة يشكل خطرا لا على القاهرة فحسب بل دمشق أيضا • واصبح كل من المماليك في مصر والناصر يوسف في دمشق يسعون للخلاص من الملك المغيث واتباعه من المماليك البحرية وكان الامل في السيطرة على مصر ما يزال يراود المغيث فما أن اطمأن الى قواته واكمل استعدادها حتى خرج بهم من الكرك باتجاه الديار المصرية ونزل في غزة[٧١]•

---

(٦٨) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٧٥ « مخطوطة » ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤٥ •

(٦٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤٥ •

(٧٠) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٠ « مخطوطة » ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٥هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤١١ = أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٨ •

(٧١) العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٧٩ « مخطوطة » ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٨ •

ولكن الامير سيف الدين قطز خرج بقوات مصر للقاء الملك المغيث ونزل بالصالحية ، وهناك تسلل الى الملك المغيث بعض الامراء الذين كاتبوه ووعدوه بالمساعدة(٧٢) ومن بينهم الامير عز الدين ايبك الرومي والامير سيف الدين بلبان الكافوري ، والامير سنقر شاه العزيزي ، وجمال الدين هارون القيمري وغيرهم ، ووصلوا الى غزة حيث التقوا بالملك المغيث هناك ، فقويت شوكته بهم ۰ ثم تحرك من غزة باتجاه مصر واشتبكت قواته مع قوات قطز في الصالحية في معركة ضارية يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الاخر ٦٥٦هـ(٧٣) (٢٠ مايو (ايار) ١٢٥٨م) ، ابلى فيها الملك المغيث وقواته بلاء حسنا ورجحت كفته فاستبشر بالنصر ، الا أن ثبات قطز قلب الامور لصالح المماليك في مصر فلم تلبث الهزيمة ان حلت على قوات المغيث وانكسر كسرة شنيعة وتشتت قواته ، واستولى المصريون على دهليزه وذخائره واثقاله(٧٤) وقتل العديد من الامراء البحرية اعوانه ، واسر اخرون قتلهم قطز صبرا ۰ أما الملك المغيث فقد عاد الى الكرك بما تبقى من قواته ، وللمرة الثانية تفشل مساعي الملك المغيث عمر في امتلاك عرش مصر واعادتها الى السيطرةالايوبية وادت هذه الهزيمة الى تكريس الوجود المملوكي في الديار المصرية وبذلك تكون هذه المحاولة الثانية اخر محاولة تقوم بها العناصر الايوبية في الشام ضد الحكم المملوكي في مصر ، فقد شغل المسلمون بخطر مدمر من نوع اخر اجتاح العالم الاسلامي واكتسح بغداد وقضى على الخلافة العباسية في ١٤

---

(٧٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٠ « مخطوطة » ــ ابن خلدون : العبر : ج ٥ ، ص ٣٧٨ ــ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٦هـ « مخطوطة » ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤١١ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٨ ۰

(٧٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٩ ۰

(٧٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٠ « مخطوطة » ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٤ ــ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٩٨ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٧٩ « مخطوطة » ــ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٠ ــ انظر النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١١٦ « مخطوطة » ۰

صفر ٦٥٦هـ[٧٥] (٢٠ فبراير (شباط) ١٢٥٨م) ، هو الخطر التتاري الذي زحف الى الشام في طريقه الى مصر ·

أما فلول المنهزمين من المماليك في وقعة الصالحية فقد توجهوا الى غور الاردن[٧٦] حيث التقوا بالشهرزورية[٧٧] ، وهم طائفة من الاكراد فروا من بلادهم خوفا من هولاكو واندفعوا الى الغرب باتجاه الشام وقدموا الى دمشق وكان عدتهم نحو ثلاثة الاف بنسائهم واولادهم ، وقد استقبلهم الملك الناصر يوسف واستخدمهم كي يتقوى بهم ضد اعدائه ، الا انهم اختلفوا معه فغادروه واقاموا بالاغوار حتى مجيء البحرية اليهم ، فاتفقوا معهم وتزوج الامير ركن الدين بيبرس البندقداري منهم[٧٨] ، ودخلوا جميعا في خدمة الملك المغيث عمر واصبحوا مصدر قوة جديدة لديه ·

جـ ـ دور المغيث عمر صاحب الكرك في معركة عين جالوت ونتائجها بالنسبة لمستقبل هذه الامارة :

وكان خطر التتار الداهم يضغط بشدة على الامراء الايوبية بالشام ، ومع ذلك لم يستفد هؤلاء من اخطاء الماضي ولم يحاولوا توحيد الصفوف

---

(٧٥) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥١ · ودام القتل والنهب في بغداد ٣٤ يوما ، ويقول الذهبي : « ان عدد القتلى بلغ ألف ألف وثمانمائة ألف وزيادة » (الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٦٠) ـ وانظر أيضا : ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٦هـ « مخطوطة » ·

(٧٦) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١١٦ « مخطوطة » ـ بيبرس الدوادار : زبدة الفكر ، ج ٩ لوحة ١٢ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤١١ ·

(٧٧) الشهرزورية : سموا بهذا الاسم نسبة الى شهرزور احدى جهات كردستان ، حيث توجد مدينة بهذا الاسم وهي مدينة السليمانية الحالية (الباز الريني : المماليك ، ص ٧٣) ـ أما القلقشندي فيقول : هي بلدة بين الموصل وبين همذان ، وهي مدينة صغيرة خصبة كثيرة المتاجر ، الا أن في أهلها غلظة وجفاء ، وهم طائفتان من الاكراد : اللوسه والباسرية رجال حرب نزحوا عنها بعد واقعة بغداد ووفدوا الى مصر والشام (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٦٦ ، ٣٧٣) ·

(٧٨) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٢ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١١٦ « مخطوطة » ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠١ ·

والوقوف صفا في وجه هذا الخطر المدمر • وبقيت دمشق والكرك تتنازعان الزعامة بسبب طائفة البحرية الذين اشتد عبثهم في البلاد ، ولما حاول الملك الناصر يوسف الوقوف في وجههم اوقعوا به وهزموا قواته في الاغوار • ولكنه أحس بنوع من العار اذ هزم على ايديهم فعزم على اعادة الكرة عليهم فأرسل اليهم جيشا بقيادة الامير مجير الدين ابراهيم بن أبي زكريا(٧٩) ، والامير نور الدين علي بن شجاع الاكتع • فالتقت قوات دمشق بالبحرية على غزة واستطاعت البحرية الانتصار عليهم واسروا مجير الدين ونور الدين وحملوهما الى الكرك حيثاعتقلا ـ وبقيا في الكرك حتى تم الصلح بين الملك المغيث والناصر يوسف فأخرجهما المغيث من السجن ـ بعد هذه الواقعة قويت شوكة البحرية وازداد خطرهم واخذوا يعملون على اقناع الملك المغيث عمر على امتلاك دمشق فتاقت نفسه الى ذلك(٨٠) ، ووجه نشاطه من مصر الى دمشق • ولا شك ان المغيث عمر كان يعتقد ان ضم دمشق الى امارته يدعم قوته ، ويساعده بعد ذلك الى مهاجمة مصر واسترجاع ملك بني ايوب • فتأهب للزحف الى دمشق ثم خرج من الكرك في طريقه اليها ولكن الملك الناصر خرج الى لقائه فالتقيا في اريحا(٨١) احدى مدن غور الاردن ودارت معركة بينهما تمكن الناصر يوسف فيها من ايقاع الهزيمة بالمغيث فكر راجعا الى الكرك ، اما الملك الناصر يوسف فقد سار الى القدس وقضى هناك اياما ثم عاد الى دمشق(٨٢) • ولكن البحرية اخذت تشدد الضغط على دمشق مما اضطر الملك الناصر الى البروز لقتالهم فضرب دهليزه خارج دمشق استعدادا للمسير اليهم ، ولقد بلغت الجرأة بالمماليك ان اقتربوا من دمشق ووصل ركن الدين بيرس في احدى الليالي الى دهليز الناصر يوسف وقطع أطناب خيمته « وكثر الارجاف في دمشق » • عندئذ لم يكن هناك بد من خروج الملك الناصر يوسف في اثرهم فسار بقواته تسانده قوات الملك

---

(٧٩) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٩٠ « مخطوطة » ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤٧ •

(٨٠) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤١١ •

(٨١) المقريزي • السلوك ، ج ١ ، ص ٤١٤ •

(٨٢) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٩١ « مخطوطة » •

المنصور صاحب حماة(٨٣) ، فاندفع المماليك أمامه باتجاه الكرك وتبعهم وحط الرحال على زيزاء(٨٤) حيث خيم على بركتها ، واقام هناك ستة اشهر(٨٥) والرسل تتردد بينه وبين الملك المغيث عمر امير الكرك ٠

وفي أثناء ذلك وقع حادث نفر الملك المغيث عمر من ركن الدين بيبرس البندقداري(٨٦) ذلك ان بيبرس كان في يده « خرزة » (كيس دهني بارز) وبينما كان جالسا في احد الايام بين يدي الملك المغيث وقد احضر لوزا اخضر وعسلا وصار يفرك اللوز على العسل ، استرعى هذا الكيس نظر المغيث فسأله عنه فقال : « هذه خرزة الملك » ٠ فتغير وجه الملك المغيث وعلم جرأته وطموحه وطمعه في الملك ، وعزم على قتله الا انه عاد فتركه ، وطال مقام الملك الناصر يوسف على زيزاء ، وارسل المغيث عمر الى الناصر يوسف يطلب الصلح وارسل اليه من جملة الرسل القطبية(٨٧) ابنة الملك المفضل قطب الدين بن الملك العادل ، تطلب منه الصفح عن المغيث وانتظام الصلح

---

(٨٣) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٩١ « مخطوطة » ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ ــ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٦٤ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٣ ٠

(٨٤) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٩١ « مخطوطة » ــ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، لوحة ١٢ « مخطوطة » ــ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١١٦ « مخطوطة » ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٨٣ « مخطوطة » ــ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤١٤ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٣ ٠

(٨٥) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤١٤ ٠

(٨٦) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١١٦ « مخطوطة » ــ ويقول النويري : اخبرني بذلك المولى شرف الدين أبو الروح عيسى بن الملك المغيث عمن حضر هذه الواقعة وسمع ذلك من لفظها ٠

(٨٧) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٩١ « مخطوطة » ــ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٨٣ « مخطوطة » ــ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٣ ٠

ولكن الناصر اشترط على المغيث ان يسلم اليه المماليك البحرية(88) الذين يتولى حمايتهم ، ولما شعر ركن الدين بيبرس تغير الملك المغيث عليه بسبب ما بدر منه ارسل الامير بهاء الدين(89) امير آخور(90) ليلا الى الملك الناصر يوسف يستأذن منه في حضوره لخدمته ومفارقة الملك المغيث · وطلب منه في حالة اذا ما وافق ان يستحلفه له ولعشرين من اصحابه وان لا يغدر بهم وطلب ركن الدين بيبرس ان يقطعه كذلك خبز مائة فارس وان تكون له قصبة نابلس وجنين وزرعين اقطاعا له · وقد وافق الملك الناصر يوسف على اقطاعه نابلس فقط(91) فقبل الامير ركن الدين بيبرس ذلك وغادر معسكر المغيث هو وصحبته اولئك الذين حلف لهم الناصر وكان ذلك في العشر الاول من شهر رجب ٦٥٧هـ(92) (اغسطس (آب) ١٢٥٩م) · فأكرمهم الملك الناصر وبر بما وعد وخلع عليهم واقطعهم واحسن اليهم · أما بقية المماليك البحرية الذين تبقوا في معسكر الملك المغيث وعددهم خمسون شخصا فقد القى القبض عليهم وسيرهم للناصر مكبلين على الجمال(93) ، فأرسلهم

---

(88) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٩١ « مخطوطة » ـ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٢ « مخطوطة » ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١١٦ « مخطوطة » ـ العمري : مسالك الإبصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٨٣ « مخطوطة » ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٣ ·

(89) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١١٧ « مخطوطة » ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٧هـ « مخطوطة » ·

(90) امير آخور : امرة آخورية وموضوعها التحدث على اصطبل السلطان وخيوله ، ومتوليها يسكن في اصطبل السلطان ـ (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٨) ·

(91) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١١٧ « مخطوطة » ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٧هـ « مخطوطة » ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٩ ·

(92) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١١٧ « مخطوطة » ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٧هـ « مخطوطة » ·

(93) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٩١ « مخطوطة » ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٨٤ « مخطوطة » ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٧هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٠ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٣ ·

الناصر الى قلعة حلب حيث اعتقلوا ، وظلوا هناك الى ان استولى عليهم هولاكو فأخرجهم وجعلهم في جنده ٠ اما الشهرزورية(٩٤) فقد غادروا الملك المغيث وساروا الى الساحل باتجاه مصر ٠

وفي اثناء نزول الناصر يوسف على بركة زيزاء قصد علاء الدين علي أحد شعراء الملك المنصور صاحب حماه الملك المغيث عمر صاحب الكرك وامتدحه هو واستاداره الطواشي نجيب ، ولكنهما قصرا في حقه ولم يقدما له المكافأة التي كان يرجوها ، وعندما عاد الى معسكر الملك الناصر سأله عن المغيث واستاداره نجيب وعن حواصل الكرك وحصنه المسمى حصن الغراب ، فأنشد الناصر مرتجلا(٩٥) :

ان حصن الغراب قد ضاق حتى لم يكن فيه ما يقوت الهزارا
قد وجدت المغيث فيه أواما ورأيت النجيـب فيـه حمـارا

فاعجب الملك الناصر من جوابه ووصله وكافأه ٠ وما أن تم عقد الصلح بين الطرفين حتى عاد الملك الناصر يوسف الى دمشق وصحبته الامير ركن الدين بيبرس والامراء المماليك ، أما الملك المنصور صاحب حماه فقد اذن له بالرحيل فغادر دمشق الى بلده ٠ وبذلك ضعف شأن البحرية وصفت البلاد من اعمالهم ، وقوبل ما انتهى اليه مصيرهم في مصر بالفرحة الشاملة وزينت مصر أياما ، وصفا الجو للامير قطز(٩٦) ٠ واذا كان للصراع بين دمشق والكرك من حسنات منها التخلص من طائفة المماليك المنشقين وما كانوا يسببونه من اضطراب في البلاد فان هذا الصراع أيضا كان له سيئاته ومن بينها انه ادى على الاقل الى استنزاف قوى دمشق وضعفها امام المد التتاري الذي اجتاح الشام فلم تقو ، لا هي ولا غيرها من الامارات المتوزعة في بلاد الشام على وقفة أو حتى على الصمود امامه ٠

---

(٩٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤١٤ ـ محمد جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس في مصر ، ص ٣٥ ٠

(٩٥) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٩١ « مخطوطة » ٠

(٩٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٤ ٠

وكان للاسطورة التي اشيعت عن المغول بأنهم قوة لا يمكن قهرها اعظم الاثر في انتشار حالة من الذعر بين أهالي الشام فمنهم من فر الى القرى ومنهم من لاذ بالبادية ، ومنهم من لجأ الى مصر في حين تسابق الملوك والامراء الايوبيون في الشام وقد شلهم الخوف الى تقديم الولاء واعلان خضوعهم الى هولاكو ، فمنهم من حضر طائعا ومنهم من أرسل رسله معلنا خضوعة وطاعته . اما الملك الناصر يوسف فقد اعتذر عن عدم حضوره الى هولاكو بنفسه وأرسل اليه ولده العزيز محمد وحمله عددا من التحف والهدايا(٩٧) ورافقه اليه زين الدين محمد المعروف بالحافظي ، لكن هولاكو لم يقبل عذره وطلب منه الحضور بشخصه وهدد وتوعد . أما الملك المغيث عمر أمير الكرك فقد ارسل ابنه الملك العزيز فخر الدين أبا المظفر عثمان وبصحبته شهاب الدين بن صعلوك والمجيب جراعه من اعيان اصحابه . فاجتمع الملك العزيز فخر الدين بهولاكو بمدينة توريز(٩٨) « تبريز » وقدم اليه رسالة من والده يلتمس فيها امانا له ولامارته ، وقد نقل النويري هذه الحادثة من العزيز شخصيا فهو يقول : « فأخبرني الملك العزيز أنه اجتمع بهولاكو فأمره بالجلوس مع صغر سنه »(٩٩) ، وقد كانت تجلس الى جوار هولاكو زوجته الخاتون فاعجبت بشجاعة الصبي وفصاحته ، فسألت الترجمان أن يسأله عن أمه وهل هي باقية أم لا ؟ فقال لها : انها باقية عند والده بالكرك ، ثم سألته هل تحب الذهاب

---

(٩٧) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٩٩ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢١٥ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٦هـ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤١٥ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

(٩٨) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٠٤ « مخطوطة » ـ تبريز والجاري على السنة العامة توريز ، وهي قاعدة اذربيجان واشهر بلدة فيها ، بها مدارس حسنة ولها غوطة رائقة وأهلها من اكبر الناس حشمة (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٥٧) .

(٩٩) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٠٤ « مخطوطة » ـ اما العيني فيقول : ان الملك المغيث ارسل ابنه العزيز فخر الدين عثمان الى كتبغانوين مقدم التتار عند وصوله الى دمشق وامتلاكها وبقي مقيما فيها الى ان كسر التتار في عين جالوت وقدم قطز فاعتقله وارسله الى مصر (انظر : العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٧٢ « مخطوطة ») وانظر أيضا : بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٥٢ « مخطوطة » .

لابيك وأمك أم تفضل البقاء عندنا ؟ فاجابها اجابة ذكية قائلا : انه لا أمر لي بهذا وانما أرسلني أبي الى القان أسأله الامان ، وأنا تحت أمره وبين يديه يفعل بي ما شاء . فسرت الخاتون من الصبي الذكي الجريء ونهضت وكلمت هولاكو في شأنه وشفعت فيه ثم عادت الى العزيز فابلغته بأن القان وافق على منح أبيه أمانا وأنه وافق أيضا على السماح له بالعودة عندئذ وجه العزيز لها وللقان الشكر وتجهز للعودة الى الكرك وقد سير معه هولاكو قوة من التتار توصله الى الكرك وتكون بها شحنه(١٠٠) .

حاول الملك الناصر يوسف الوقوف في وجه التتار فحشد قواته وأرسل في طلب العون من الملك المغيث أمير الكرك(١٠١) ، كما أرسل المؤرخ الحلبي الشهير كمال الدين عمر بن أبي جرادة المعروف بابن العديم(١٠٢) الى مصر يستنجد ويطلب العون والمساعدة . ولما وصلت الانباء بدخول التتار شمال الشام ، « وقع الجفل في البلاد الشامية »(١٠٣) وخاف الناس كثيرا في دمشق وهاجروا منها الى مصر وهلك الكثير منهم في الطريق . أما الناصر فقد أرسل حريمه وأولاده الى الكرك للاحتماء بها(١٠٤) ، وذلك بعد اكتشافه مؤامرة لقتله(١٠٥) وتولية أخيه الملك الظاهر علي ، بالاضافة الى تفرق قواته من حوله .

---

(١٠٠) النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٧ لوحة ١٠٥ « مخطوطة » — والشحنة : اي قوة صغيرة من الجند . ويقول ابن شداد : ان المغيث انضوى الى التتار وصيروا معه نائبا في الكرك (الاعلاق الخطيرة ، جـ ٣ ، ص ٧٦) .

(١٠١) ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٧هـ « مخطوطة » — المقريزي : جـ ١ ، ص ٤٢٠ .

(١٠٢) أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٢٠٨ — ابن الوردي : تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٠٢ — ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢١٥ — المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤١٧ .

(١٠٣) العيني : عقد الجمان ، جـ ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٢٣ « مخطوطة » .

(١٠٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٣ ، ص ٢١٥ — المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤١٧ .

(١٠٥) أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٢٠٩ — ابن الوردي : تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢٠٣ — ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢٢٠ — ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٧هـ « مخطوطة » .

وامام هذا الخطر استلزم الامر زعيما قويا يدير دفة الامور في الديار المصرية فقام الامير سيف الدين قطز بعزل الملك المنصور واعتقله هو وأمه ونصب نفسه سلطانا على مصر وذلك في ٢٤ ذو القعدة ٦٥٧هـ(١٠٦) (١٢ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٢٥٩م) وكان هولاكو قد أرسل رسله الى مصر يطلب منهم تسليم البلاد والرضوخ لحكمه فما كان من قطز الا أن اخرج رسل هولاكو الاربع ووسطهم وعلقهم على ابواب القاهرة ونادى بالاستعداد والجهاد(١٠٧) ٠

ولما احس المماليك البحرية اللاجئون في دمشق وعلى رأسهم الامير ركن الدين بيبرس بتحرج موقف الناصر يوسف وعجزه عن مواجهة التتار ، طلبوا الدخول الى مصر(١٠٨) ، فسمح لهم قطز وعفا عنهم واعتضد بهم للوقوف أمام الخطر المشترك ٠ وكان لوصول بيبرس واعوانه من المماليك طالع سعد لمصر اذ وصلوا اليها في وقت عصيب(١٠٩) وكانت الحاجة ماسة اليهم ٠ أما الناصر يوسف فقد غادر دمشق في نذالة وجبن بدون حماية تاركا مصيرها التعس في أيدي أهلها الذين أخذوا على عاتقهم مهمه الدفاع عن مدينتهم ، فاعتلى الاهالي الاسوار وتأهبوا للصمود ، أما الناصر فقد انحدر جنوبا الى غزة بقصد الدخول الى مصر ٠ وكان طبيعيا أن تستسلم دمشق منذ الهجمة الاولى وتم ذلك في ٢٦ ربيع الاول ٦٥٨هـ(١١٠) (١٣ مارس (آذار) ١٢٦٠م) ، وتسلمها نواب هولاكو في صحبة كتبغانوين ، وقرىء على البلد فرمان الامان ٠ ثم اغارت قوات

---

(١٠٦) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤١٧ ٠
Lane Poole, A History of Egypt, P. 261.

(١٠٧) ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٨هـ « مخطوطة » ــ والجوهر الثمين لوحة ١١٢ « مخطوطة » المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٩ ٠

(١٠٨) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ــ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٧هـ « مخطوطة » ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٠ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠١ ــ محمد جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس في مصر ، ص ٣٨ ٠

(١٠٩) وليم موير : دولة المماليك ، ص ٣٨ ٠

(١١٠) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٤ ــ عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٢٦ ٠

التتار على بلاد فلسطين والاردن ودمرت كل ما في طريقها وسلبت وقتلت ووصلت الى اطراف غزة وبيت جبريل ونابلس والخليل وبركة زيزاء(١١١).
ثم قصدوا الصلت وكان بها بدر الدين محمد بن الحاج الناهض أبي بكر الاتابكي(١١٢) ، فقاومهم أياما ولكنه عجز عن الاستمرار في الصمود فسلمها لهم وابقوه فيها • وعندما هاجم المغول قلعة عجلون الحصينة عجزوا عن اقتحامها ، فأقاموا عليها قوة منهم تحاصرها • اما الملك الناصر فقد وصل الى قطية على حدود مصر ثم عدل عن دخولها خوفا من قطز ومماليك مصر ، أما من كان معه من الامراء ومنهم الملك المنصور صاحب حماه وقواته فقد واصلوا المسير للانضمام الى قطز ولقوا منه كل ترحيب وتكريم •

عاد الناصر يوسف الى البلقاء(١١٣) بالاردن وأقام هناك ملتجئا(١١٤) الى اعراب تلك المنطقة حيث استجار بهم فأجاروه • الا أن أحد غلمانه المسمى حسين(١١٥) الكردي الطبردار(١١٦) تواطأ مع التتار وأخبرهم عن مكان وجوده ، فقصدوه في البلقاء وهنا وضعوا سيوفهم في القبيلة العربية البلقاوية وقتلوا منها خلقا وسبوا عددا من نسائها ولم ينس لهم العرب

---

(١١١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١١ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٥ •
(١١٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٨٥ •
(١١٣) ابن الفوطي : التجارب النافعة ، ص ٣٤٢ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٦ •
(١١٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٢٠ •
(١١٥) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١٣ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٩٢ « مخطوطة » ــ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ ــ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٨هـ « مخطوط » ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٧ •
(١١٦) الطبر دار : الطبر هو الفأس باللغة الفارسية ، وهي آلة ذات رأس شبه دائري ، تحلى بزخارف مفرغة أو مموهة بالذهب أو بكليهما وتثبت في قائم • اما من المعدن أو الخشب ويحلى المعدني منها بالزخارف ، وهي آلة للقتال مهمة شديدة الخطورة صممت خصيصا بهدف القتل • والطبر دار هو الذي يحمل الطبر حول السلطان ويسير عن يمينه وشماله في المواكب (انظر : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ١٤١ وج ٤ ، ص ٢٢) وانظر أيضا : ماير : الملابس المملوكية ، ص ٨٥ •
"Dozy, suppliment aux dictionnaires, Vol. 2, P. 20".

ذلك فقدأعادوا الكرة عليهم ونهبوا خيولهم(١١٧) وساقوها الى الصحراء ·
واستعصى على التتار اللحاق بهم ولكنهم أدركوا الناصر فقبضوا عليه عند بركة زيزاء واحضروه الى عجلون(١١٨) وارغموه على أن يطلب من حاميتها التسليم ، فسلمت القلعة للتتار ، فدخلوها واستولوا على جميع حواصلها وذخائرها ، وكان في القلعة جوار للملك الناصر نفسه فانزلوهن من القلعة حفاة عراة · ثم هدموا شراريف القلعة واعملوا يد الخراب فيها ، اما هو فقد سيروه الى هولاكو الذي قتله في اعقاب هزيمتهم في عين جالوت ·
أما حسين الكردي فقد قام السلطان قطز بشنقه(١١٩) بدمشق بعد معركة عين جالوت عقابا له عما فعله بالناصر يوسف وجزاء خيانته ·

أما قطز فقد خرج على رأس قواته الى الشام فلما وصل الى غزة اقام يوما ، ثم رحل عن طريق الساحل واتصل بالفرنج في عكا وطلب منهم الوقوف على الحياد بحيث لا يكونوا لاله ولا عليه(١٢٠) ، وهددهم بمقاتلتهم قبل الاشتباك مع التتار لو أنهم انحازوا اليهم · ويروي ابن دقماق هذه الاتصالات بين قطز وملك الفرنج فيقول : « ولما رحل المظفر من غزة سلك طريق الساحل فاجتاز بمدينة عكا وهي يومئذ بيد الفرنج فلما عاينوه ارسلوا له الهدايا والتحف والتقاه ملكها وعرض عليه أن يأخذ عسكره ويسير في خدمته فلاطفه المسلمون ، وخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه ، وقال لهم والله العظيم متى سار معي فارس منكم أو راجل قتلتكم قبل ملتقاي للتتار ، فعند ذلك كتب الملك الى قبائله بما سمعه من السلطان »(١٢١) · ثم تقدم ركن الدين بيبرس البندقداري في طليعة

---

(١١٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٢٠ ·

(١١٨) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢١٣ — العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٩٢ « مخطوطة » — ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ ·

(١١٩) ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٨هـ « مخطوطة » ·

(١٢٠) ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٨هـ « مخطوطة » — المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٠ ·

(١٢١) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، لوحة ١١٣ « مخطوطة » ويرى الدكتور احمد مختار العبادي أن احوال الصليبيين آنذاك لم تكن تسمح لهم بتقديم اية مساعدة سواء لقطز أو للمغول (احمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك ، ص ١٦٢) ·

العسكر المصري حتى التقى بطلائع التتار وأخذ يناوشهم الى أن وصل قطز والتقوا على عين جالوت في معركة ضارية يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ (٣ سبتمبر (أيلول) ١٢٦٠م) ، واشتد القتال واستبسل المسلمون وتفانوا فيه وانتهت الموقعة بانكسار التتار وقتل مقدمهم كتبغا ، قتله الامير جمال الدين آقوش الشمسي(١٢٢) وانهزم الباقون وكتب الله النصر للمسلمين وهكذا اجتاز المسلمون المحنة ، واوقفوا المد التتاري المدمر ·

ترتب على اجتياح التتار لبلاد الشام أن انقرضت معظم الامارات الايوبية فيها ولم يبق منها سوى حمص وحماه والكرك(١٢٣) ، أما حمص وحماه فقد بقيت تحت حماية المماليك وبرغبة قطز شخصيا حيث أقر كل أمير على امارته لبلائهما في معركة عين جالوت · وأما الكرك فقد أرسل الملك المغيث عمر قواته للمشاركة في شرف الجهاد ضد التتار(١٢٤) وبعد الانتصار أرسل المغيث كتبه الى قطز طالبا منه ابقاءه على ما في يده ، فأجابه بشرط أن يتولى الكرك والشوبك فقط(١٢٥) ، أما الصلت والخليل والبلقاء فقد انتزعها منه(١٢٦) ·

---

(١٢٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٢١ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٧٩ · وقد ورد في بعض المصادر انه اسر ثم قتل انظر (فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ ، دار القلم ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٠٦) ·

(١٢٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٣٠ — ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٦٧ — هاملتون جب : صلاح الدين ، ص ٢٣٥ ·

(١٢٤) رانسمان : ج ٣ ، ص ٥٣٤ ·

(١٢٥) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧٦ ·

(١٢٦) المصدر نفسه : ج ٣ ، ص ٧٧ ·

(٢)

موقف الملك الظاهر بيبرس من امارة الكرك

أ ـ استيلاء بيبرس على الشوبك :

كان السلطان الملك الظاهر بيبرس يدرك القيمة الحقيقية لمنطقة الاردن كمركز استراتيجي هام بحكم موقعها بين الشام ومصر والحجاز والعراق كما أدرك اهميتها الحربية كقاعدة عسكرية رئيسية وخط دفاع أمامي لمصر ضد التتار والفرنج على السواء لما تشتمل عليه من تحصينات منيعة وقلاع لاترام ٠

ومن المعروف انه عاش فترة من الوقت في هذه المنطقة وجاس بين قلاعها وحصونها ، ولذا وجه عناية خاصة لهذه المنطقة بعد أن استقرت له الامور في مصر ، وبدأ يوجه اهتمامه لاصلاح ما دمره المغول في شمال الامارة ، فأعاد بناء قلعة عجلون(١٢٧) وجددها وعمرها وزاد في ابراجها ووسعها ٠ وطهر الخنادق المحيطة بالقلعة مما طمرها من اتربه(١٢٨) ، ونقل اليها الذخائر والاسلحة والآلات الحربية ومن بينها المنجنيقات التي نقلها الى عجلون لتكون قريبة من ميدان صراعه مع الفرنج(١٢٩) كما خزن فيها الغلات والازواد وجعلها مركز مواصلات هام يربط مصر بالشام ، وولى عليها الامير عز الدين آيبك العلائي ٠ ثم أمر أيضا باعادة بناء وترميم ماخربة التتار في قلعة الصلت(١٣٠) فوسع ابراجها وجدد خنادقها ودعم

(١٢٧) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٩١ ـ ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٩هـ « مخطوطة » ـ والجوهر الثمين ، لوحة ١٢١ « مخطوطة » ـ السلامي : مختصر التواريخ ، لوحة ٣٥٣ « مخطوطة » ٠

(١٢٨) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٤٦ ٠

(١٢٩) المصدر نفسه : ج ١ ، ص ٥٣٤ ٠

(١٣٠) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة، ج ٣ ، ص ٨٥ ـ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، لوحة ١٢١ « مخطوطة » ـ ونزهة الانام احداث سنة ٦٥٩هـ « مخطوطة » ـ السلامي : مختصر التواريخ ، لوحة ٣٥٣ « مخطوطة » ٠

تحصيناتها[١٣١] وخزن بها الازواد والغلال والذخائر وأقر فيها نائبها بدر الدين محمد بن الحاج ، ثم شحن كلا من قلعة الربض وقلعة الصلت بالاجناد[١٣٢] والمماليك وجعلها مراكز دفاعية هامة ونقط مراقبة لتحركات اعدائه ومخازن ومستودعات للاسلحة • ومع ذلك فقد ظل يسعى من أجل انتزاع الكرك من يد صاحبها المغيث عمر وضمها الى دفاعاته ، تلك القلعة العملاقة التي خبرها وعرفها وأقام فيها •

كان الظاهر بيبرس يعلم مدى طموح المغيث عمر وتطلعه الى عرش مصر خاصة وقد اشترك بيبرس بنفسه في حملتيه على مصر للاطاحة بعرش المماليك • والتزم بيبرس في خطته لانتزاع الكرك من المغيث عمر سياسة تقوم على الكتمان والحذر ، ففي شهر ذي القعدة من عام ٦٥٩هـ (نوفمبر (تشرين ثاني) ١٢٦١م) ، قام بيبرس بتجهيز قوة بقيادة الامير بدر الدين الايدمري[١٣٣] وأمره بالتحرك في اتجاه الشام دون تحديد الهدف الذي يقصده مبالغة من بيبرس في التكتم ، ولما وصل بدر الدين بقواته الى الصالحية وجد أمامه من سلمه بأمر السلطان احمالا من الدقيق وأموالا وذخائر كانت قد جهزت هناك قبل خروجه[١٣٤] ، ووصل اليه الامر بالتوجه الى الشوبك وانتزاعها من يد الملك المغيث عمر أمير الكرك • سارت القوات المملوكية الى الشوبك ، ولما وصل بدر الدين هناك اجتمع بأهلها وطالبهم بتسليم القلعة والدخول في طاعة السلطان والا تعرضوا لسخطه ومقته وانتقامه ، وبذل لهم الاموال وخلع عليهم وأرهب وأرغب[١٣٥] •

---

(١٣١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٤٦ •

(١٣٢) المصدر نفسه : ج ١ ، ص ٤٤٦ •

(١٣٣) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٣٩٩ « مخطوطة » ـ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٦٠ « مخطوطة » ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٠٥ و ج ٢٨ لوحة ١٢ « مخطوطة » ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٦٠٧ « مخطوطة » ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٧٩ « مخطوطة » •

(١٣٤) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٠٠ « مخطوطة » •

(١٣٥) المصدر نفسه : لوحة ٤٠٠ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ١٢ « مخطوطة » •

لم يستطع أهل الشوبك وحامية القلعة مقاومة اغراء المال ولا حد السيوف فرضخوا للامر وسلم الامير صارم الدين قيماز الناصري نائب الملك المغيث القلعة والمدينة « بباطن كان له معه »(١٣٦) ، وذلك في عصر يوم الاحد سلخ ذي الحجة سنة ٦٥٩هـ(١٣٧) (نوفمبر (تشرين ثاني) ١٢٦١م) ، وسير بدر الدين الرسل الى الملك الظاهر بيبرس يبشره بتسليم الشوبك ، فضربت البشائر في مصر والقاهرة وسر السلطان بهذا الفتح وشرع في تدبير احوال الشوبك ، فسير الخلع والانعام لاهلها واكرمهم غاية الاكرام ، وعين الامير سيف الدين بلبان المختصي نائبا للسلطنة فيها(١٣٨) ، كما رتب فيها الولاة واستخدم بها النقباء والجاندارية(١٣٩) وأرسلهم اليها من القاهرة ، كما أمر بحمل النفقات اليها . ثم استقدم بيبرس زعماء قبائل الشوبك الى مصر فلما قدموا الى قلعة الجبل اكرمهم وشملهم بعطفه وكرمه واقطعهم الاقطاعات الكثيرة ثم عادوا وقد انتظموا في خدمته ودخلوا تحت طاعته ، واهتم بأمر القلعة وقرر لها ما كان متبعا في آخر أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وبذلك استقرت احوال الشوبك ، واستطاع الظاهر بيبرس أن يجرد المغيث من موقع هام من مواقعه ويبتر بذلك احد جناحي امارته ولم يبق له سوى الكرك واعمالها .

(١٣٦) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٨١ .

(١٣٧) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٠٠ « مخطوطة » ، أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٥٥ - ويذكر النويري أنه تسلمها في ٢٦ ذي الحجة (النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٠٥ « مخطوطة ») اما العيني فيقول : استلمها في العشر الاواخر من ذي الحجة (العيني : عقد الجمان ، ج ٢ قسم ٣ لوحة ٤٧٩ « مخطوطة ») وانظر كذلك : بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٦٠ « مخطوطة » - العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٦٠٧ « مخطوطة » .

(١٣٨) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٠٠ « مخطوطة » - بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٦٠ « مخطوطة » - النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ١٢ « مخطوطة » - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٤٨ - العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٧٩ « مخطوطة » .

(١٣٩) الجاندارية : امرة جاندار ، وموضوعها ان صاحبها يستأذن على دخول الامراء للخدمة ويدخل امامهم الى الديوان ، ويقدم البريد مع الدوادار وكاتب السر ، وهو كالمتسلم للباب [illegible] يعهد اليه السلطان بقتل من يريد (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠) .

ب ـ موقف المغيث عمر من الظاهر بيبرس بعد سقوط الشوبك :

استاء الملك المغيث عمر لهذا العمل المفاجيء من قبل السلطان الظاهر بيبرس ، وكان رده سريعا فأرسل رجاله الى الشهرزورية(١٤٠) وكانوا في مصر في خدمة السلطان فمناهم وسير اليهم الاموال في السر ، ونجح في استمالتهم اليه في يسر خاصة وقد سبق ان خدموا في قواته بالكرك ٠ ولم يتردد هؤلاء في قصده بالكرك واصبحوا قوة تسانده ضد غريمه بيبرس ، ثم شرع يوجه ضرباته الى بيبرس ، ولكن بيبرس تمكن من رد قوات الكرك واعوانها الشهرزورية عن بلاده المرة بعد المرة(١٤١) ، ولما كثر عيثهم ومضايقاتهم للشوبك ونواحيها(١٤٢) جرد السلطان الظاهر بيبرس حملة بقيادة الامير جمال الدين المحمدي(١٤٣) فتوجه هذا الى الكرك وضيق عليها الحصار ولكنه لم يستطع أن ينال منها لحصانتها فرحل عنها عائدا الى مصر ٠ ثم شرع السلطان في تجهيز قوة أخرى الى الكرك لاستنزال المغيث عمر ، ولما شعر المغيث بعجزه عن الصمود هذه المرة أرسل رسله الى الخليفة العباسي الامام الحاكم بأمر الله ثاني خلفاء بني العباس في القاهرة وطلب منه التدخل لانهاء الخلاف القائم بينه وبين الظاهر بيبرس ٠ فكتب الخليفة للسلطان بذلك شافعا بالمغيث ومرغبا في حقن الدماء فقبل الظاهر بيبرس وساطته بشرط أن يعيد اليه فرقة الشهرزورية ، وتم الصلح بين الطرفين على ذلك ٠ فابقى بيبرس له الكرك وبلادها(١٤٤) ، وأنعم عليه واقطعه ، ولكي يزيل الملك الظاهر بيبرس كل شك في قلب المغيث عمر من جهته ويجعله يطمئن اليه ، قام الملك الظاهر وحلف للملك المغيث في ٢٣ محرم ٦٦٠هـ (١٩ ديسمبر (كانون أول) ١٢٦١م) يمينا مغلظة باستعداده بابقائه في الكرك وعدم التعرض اليه ، وقد شاهد النويري هذه اليمين ونقلها في تاريخه(١٤٥) ٠ أما الشهرزورية فقد عفا عنهم بعد أن

---

(١٤٠) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٠٠ « مخطوطة » ٠

(١٤١) ابن واصل : المصدر السابق ، لوحة ٤٠٠ ٠

(١٤٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٦٠ « مخطوطة » ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٨٤ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٨٠ « مخطوطة » ٠

(١٤٣) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٠٠ « مخطوطة » ٠

(١٤٤) المصدر نفسه : لوحة ٤٠٠ « مخطوطة » ٠

(١٤٥) انظر نص اليمين في الملاحق ٠

قدموا اليه واحسن اليهم[146] وأمر بعضهم ومنحهم العطايا والاموال واقطع بعضهم الاقطاعات[147] ، وبذلك جرد الظاهر الملك المغيث من سيف بتار كان بيده وقص جناحه الثاني تمهيدا لبتره ثم الاجهاز عليه . ومبالغة من بيبرس في بث الثقة في نفس المغيث بالاضافة الى يمينه أمر باطلاق سراح الملك العزيز فخر الدين عثمان بن المغيث عمر[148] من معتقله بقلعة الجبل وكان الملك المظفر قطز قد ألقى القبض عليه في دمشق أثر عودته من بلاط هولاكو بعد أن حصل على أمان منه لوالده ، فاعتقله ونقله الى الديار المصرية وبقى مسجونا حتى هذا التاريخ . فاطلق سراحه واقطعه ذيبان وهي احدى القرى القريبة من الكرك بمنشور سلطاني[149] ، ثم أرسل للمغيث سنجقا وشعار السلطنة وخلعة ومنشورا ، فلما وصل ذلك الى أمير الكرك سر به ولبس الخلعة وركب بشعار السلطنة في الكرك في حفل بهيج[150] ، وظن الملك المغيث أنه قد انتظم الصلح واستقر بموجب هذه اليمين « فركن الى ذلك »[151] .

هذه الانعامات التي قدمها الملك الظاهر للمغيث عمر لم تكن سوى قناعا وديا زائفا لمجرد تغطية حقيقة نواياه في الكرك ، فقد كان على يقين من أن استعمال القوة يحمله الكثير وربما ادى الى انقسام في صفوف جنده واعوانه من المماليك ، بالاضافة الى أنه حاول بذلك عزله عن بقية الحركات الثورية الاخرى في الشام كحركة سنجر الحلبي نائب السلطنة بدمشق الذي رفض سلطنة الظاهر بيبرس وثار عليه . ولما شعر أن الامور تسير

---

(١٤٦) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٠٠ « مخطوطة » ــ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ ٩ لوحة ٦١ « مخطوطة » ــ ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ، ص ٣٨٤ .

(١٤٧) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ ٩ لوحة ٦١ « مخطوطة » ــ العيني : عقد الجمان ، جـ ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٨٠ « مخطوطة » .

(١٤٨) النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٧ لوحة ١٠٦ وجزء ٢٨ لوحة ١٣ « مخطوطة » ــ العيني : عقد الجمان ، جـ ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٧٢ « مخطوطة » .

(١٤٩) النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٧ لوحة ١٠٦ و جـ ٢٨ لوحة ١٣ « مخطوطة » .

(١٥٠) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٠٠ « مخطوطة » ــ النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٧ لوحة ١٠٦ « مخطوطة » .

(١٥١) النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٧ لوحة ١٠٦ « مخطوطة » .

كما يريد وأن خطته قد نضجت ، توجه بعد نيف وعام من حلفه اليمين الى بلاد الشام وفي نيته القضاء على امارة الكرك الايوبية آخر معقل أيوبي في بلاد الشام فخرج من قلعة الجبل في ١٧ ربيع الاخر سنة ٦٦١هـ (اول مارس (آذار) ١٢٦٣م) وخيم بظاهر القاهرة الى أن تجهزت الحشود التي رافقته واستصحب معه النقابين والبنائين والحجارين والنجارين وجميع الصناع ثم رحل في طريقة الى الاردن وقد أوهم الناس أنه ينوي اعادة بناء قلعة الطور[١٥٢] . ولما وصل الى الطور أرسل في طلب العمال والصناع من جميع بلاد الشام وانفق فيهم الاموال العظيمة وسيرهم الى عين جالوت ليقيموا هناك ، وأشاع الخبر انه ينوي بناء جامع هناك . ولم يكن احد يعلم حقيقة نواياه اذ كان يصطنع الكتمان حتى بالنسبة لاقرب الناس اليه وهي احدى صفات الظاهر بيبرس التي جعلت منه رجل سياسة[١٥٣] من الطراز الاول . وهكذا أخفى بيبرس الاهداف الحقيقية لحملته الكبرى وما رافقها من النقابين والحجارين والنجارين وغيرهم « وكان كل ذلك لاجل الكرك »[١٥٤] . وصل الظاهر بيبرس الى غزة وأقام فيها ونظر في أمورها ثم احضر العربان[١٥٥] وضمن لهم البلاد وعين لهم ديوانا وأنعم عليهم انعاما كثيرا وشرط عليهم اقامة خيل البريد في المراكز المعدة لذلك ، ثم سار الى الساحل متوجها الى الطور ونزل فيه في ١٢ جمادى الاولى .

---

(١٥٢) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٩ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » .

(١٥٣) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٧٩ « مخطوطة » ـ ويقول العيني : انه كان مقتديا بقول الشاعر :

اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي يستودع السر اضيق

واورد العيني حادثة اخرى : فقد عزم الملك الظاهر على اداء فريضة الحج سنة ٦٦٧هـ وادعى انه متوجه الى الكرك بصورة الصيد ، ولم يجسر احد ان يتفوه بأنه متوجه الى الحجاز حتى ان شخصا من الحجاب يسمى جمال الدين ابن الدايه قال : اشتهي التوجه الى الحج صحبة السلطان ، ووصل كلامه السلطان ، فما كان منه الا ان امر بقطع لسانه فقطعت انظر (العيني : عقد الجمان ، ج ٢ قسم ٣ لوحة ٥٥١ « مخطوطة » ـ وانظر بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٦٠ «مخطوطة») .

(١٥٤) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٩ « مخطوطة » ـ وانظر : النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » .

(١٥٥) المصدر نفسه : لوحة ٤١٣ « مخطوطة » .

وكانت الانباء قد وردت الى الملك المغيث بخروج الملك الظاهر بيبرس الى الشام ، فخشي أن تكون الضربة موجهة اليه ، فأرسل والدته الى الظاهر بغزة كي تستوثق منه وتطمئن(١٥٦) ٠ ووصلت الى غزة فاحسن الظاهر استقبالها وانعم عليها وحدثها برغبته في الاجتماع بولدها كي يتأكد الصلح شفاها(١٥٧) وطلب أن يتم ذلك سرا بينهما(١٥٨) ٠ ثم عاد وأجزل لها العطاء والانعام حتى وثقت من كلامه ولم تشك في اخلاصه ، وسير معها من جملة صيده خمسة عشر حملا وتوجهت الى ولدها في الكرك ، وأرسل معها الامير شرف الدين(١٥٩) الجاكي المهمندار(١٦٠) كي يقوم في خدمتها وليجهز الاقامات للملك المغيث عند حضوره الى السلطان « فأغتر الملك المغيث بذلك »(١٦١) وعزم على الخروج للقاء الملك الظاهر ٠ قبل خروجه لم يكن لديه في خزائنه شيئا من المال أو القماش ، فأمر ناظر خزانته شرف الدين بن مزهر بأن يبيع حواصل كانت لوالدته في البلاد

---

(١٥٦) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧٨ ــ ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٣ « مخطوطة » ــ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٦٩ « مخطوطة » ــ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٠٦ و ج ٢٨ لوحة ٢٢ « مخطوطة » ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٦٠٩ « مخطوطة » ــ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢١٦ ــ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٨٤ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٠ ــ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٩١ « مخطوطة » ــ محمد جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس ، ص ٥٠ ٠

(١٥٧) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٠٦ « مخطوطة » ٠

(١٥٨) المصدر نفسه : ج ٢٨ لوحة ٢٢ « مخطوطة » ٠

(١٥٩) ابن واصل : مفرج الكروب « تاريخ الواصلين » لوحة ٤١٣ « مخطوطة » ــ النويري : نهاية الارب ، ج ١٧ لوحة ٦٩ « مخطوطة » ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٦٠٩ « مخطوطة » ــ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢١٦ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨١ ــ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٩١ « مخطوطة » ٠

(١٦٠) المهمندار : والمهمندارية موضوعها تلقي الرسل في الواردين وأمراء العربان وغيرهم ممن يرد من أهل المملكة وغيرها (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٢) ٠

(١٦١) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٠٦ « مخطوطة » ٠

فباعها بمبلغ اربعة وعشرين ألف درهم(١٦٢) اشترى باثني عشر ألف درهم خلعا من دمشق ، أما ما تبقى من الاموال فقد أودعه في صناديق الخزائة • ونزل المغيث من الكرك متوجها الى الطور ، واستخلف(١٦٣) ابنه الملك العزيز فخر الدين بالكرك واستحلف له من تركه بقلعتها • ومكث في الطريق مدة وكانت الرسل تتردد بين الطرفين والسلطان ينعم عليهم ويرسل صحبتهم هدايا كالغزلان وغيرها ، والمغيث يخلع عليهم حتى نفد ما كان لديه في الخزانة من الخلع والاموال ، ومن جملة ما كتبه الظاهر للمغيث وهو في الطريق(١٦٤) :

خليلي هل أبصرتما أو سمعتما بأكرم من مولى تمشى الى عبد

جـ ـ نهاية الملك المغيث عمر :

على الرغم من مظاهر الكرم والسخاء التي أبداها بيبرس نحو المغيث عمر فان هذا الاخير كان يشك في سلامة نية الملك الظاهر بيبرس ، والظاهر أنه افضى بما يعتمل في نفسه من شك وريبة الى ناظر خزانته ابن مزهر ، فأشار عليه بأن يسرع في العودة الى الكرك ويحتمي خلف أسوارها ولا يفكر بأحد(١٦٥) • كذلك كان بعض خواص الملك الظاهر يعلمون حقيقة ما يبطن من نوايا عدوانية نحو الملك المغيث وما يخفيه من أطماع في امتلاك الكرك ومنهم الامير سيف الدين بلبان الرشيدي الصالحي(١٦٦) أحد الامراء المماليك الذي كان يشفق على المغيث أن يقع

---

(١٦٢) أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٢٢٦ ـ العمري : مسالك الابصار ، جـ ١٦ قسم ٣ لوحة ٦١٠ « مخطوطة » ـ العيني : عقد الجمان ، جـ ٢٠ قسم ٣ لوحة ٥٠٠ « مخطوطة » •

(١٦٣) النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٧ لوحة ١٠٦ « مخطوطة » •

(١٦٤) أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٢٢٦ ـ العمري : مسالك الابصار ، جـ ١٦ قسم ٣ لوحة ٦١١ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، جـ ٢ ، ص ٢١٦ ـ العيني عقد الجمان ، جـ ٢٠ قسم ٣ لوحة ٥٠٠ « مخطوطة » •

(١٦٥) أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٢٢٦ ـ العمري : مسالك الابصار ، جـ ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٠٠ « مخطوطة » •

(١٦٦) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢١ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٨ لوحة ٢٤ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٩٥ •

في قبضة بيبرس ، فأرسل اليه رسالة يحذره فيها وينصحه بعدم الحضور . ولكن الامير أسد الدين استادار الملك المغيث وشى بالامير الرشيدي عند الظاهر ، فأرسل اليه الظاهر يطمئنه ويقول : اني قد حلفت للمغيث وليس للرشيدي وليحضر فهو آمن ، ولم يكتف الرشيدي بتحذير المغيث بل أنه كاتب أهل الكرك ينصحهم بالامتناع عن التسليم(١٦٧) ويعرض عليهم الاتفاق معه ليحميها لهم ويقف في وجه الملك الظاهر . وكان على المغيث استغلال هذا الانشقاق في صفوف المماليك فعندئذ يمكنه المحافظة على ملكه ولتغيرت الاحداث لصالحه ، ولكنه وقد خارت عزائمه لم يأخذ بهذه النصائح جميعا ، وأخذ بنصيحة الامجد رسوله الى الظاهر(١٦٨) الذي حسن له الامر وهون عليه وطمأنه من ناحية الملك الظاهر . ونجح الامجد في اقناع المغيث بمواصلة سيره بعد أن استبعد من بيبرس أن ينكث باليمين التي حلفها ونسي أن بيبرس نفسه هو الذي غدر بقطز بعد عين جالوت ثم انه كان ما يزال متأثرا برأي أمه في الذهاب اليه ، فواصل المسير الى حتفه . أما الظاهر بيبرس فلم يتردد في الاحتفال بقدومه « وخدعه أعظم خديعة وأمد له في الامل »(١٦٩) ولما وصل الملك المغيث الى بيسان وعلم الملك الظاهر بقرب وصوله الى الطور ، قام واهتم باستقباله بنفسه ، وركب في يوم السبت ٢٧ جمادى الاولى وركبت العساكر خلفه « وسار في احسن زي واعظم هيبة وامتلأت الدنيا بالخلائق ، فلا تسمع الا صهيل فرس ووقع حافر وامتلأت الروابي والجبال وبطون الأودية »(١٧٠) . وعندما اقترب المغيث من بيبرس وشاهد بيبرس في مقدمة هذه الجموع الغفيرة حاول أن يترجل عن فرسه فمنعه السلطان ، فركب وسار الى جواره في مقدمة الحشد ، وساقت الحلقة خلفهما خمسة آلاف من كل جناح

---

(١٦٧) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٤ « مخطوطة » — المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٥ .

(١٦٨) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ — العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٠٠ « مخطوطة » .

(١٦٩) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٤ « مخطوطة » — وانظر : المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٢ .

(١٧٠) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٤ « مخطوطة » .

يتبعهم الامراء ثم الملوك[١٧١] ، فلما وصلا الى باب الدهليز ترجل الملك المغيث ودخلا سويا وهنا تغير شكل الملك الظاهر وخلع قناعه الزائف فأمر غلمانه بالقاء القبض عليه ووضع في خركاة[١٧٢] خاصة واحتيط عليه وعلى اصحابه « وشفى الملك الظاهر غيظه منه وأخذ ثاره »[١٧٣] .

وكان الملك الظاهر بيبرس قد وجه رسله الى دمشق قبل وصول المغيث فاستدعى قاضي القضاة والعلماء وأئمة الفتوى دون ان يعرفوا سبب استدعائه لهم وان كان قد اشاع بينهم أنه من أجل المبايعة بالملك[١٧٤] فاقاموا بالطور . فلما تم للظاهر بيبرس القبض على المغيث احضر الملوك والامراء والقضاة والشهود والاجناد وجميع الناس واظهر انه انما القى القبض على المغيث من أجل هذه الكتب ، وقرئت الكتب على الناس وكانت عبارة عن مراسلات بين الملك المغيث صاحب الكرك[١٧٥] والتتار ويطلب فيها منهم العون والمساعدة ، وبعضها يشير الى أن التتار سترسل اليه عشرين ألف جندي من أجل احتلال مصر ، وأعلن للقضاة أنه انما احضرهم من أجل ذلك وأجزل لهم العطاء وخلع عليهم[١٧٦] ، فأفتوا بقتله . فاخرج السلطان هذه الفتوى وعرضها على شمس الدين بن

---

(١٧١) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٤ « مخطوطة » .

(١٧٢) خركاه : بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشى بالجوخ ونحوه ، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء وقاية من البرد (القلقشندي . صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ١٣٨) .

(١٧٣) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٤ « مخطوطة » .

(١٧٤) المصدر نفسه : لوحة ٤١٤ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٢ « مخطوطة » .

(١٧٥) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧٧ ـ ٧٨ ـ ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٤ « مخطوطة » ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٢ « مخطوطة » ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٦١١ « مخطوطة » ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢١٦ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٣٨ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٢ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٥٠١ « مخطوطة » ـ أبو الفلاح : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٠٥ .

(١٧٦) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٤ « مخطوطة » .

خلكان(١٧٧) وكان قد استدعاه من دمشق ، ثم قام الملك الظاهر بعد ذلك وأرسل الملك المغيث عمرصحبة الامير شمس الدين اقسنقر الفارقاني الى قلعة الجبل بالقاهرة فأدخل البرج الذي كان به ولده الملك العزيز فخر الدين عثمان مسجونا • وعندما أدخل فيه سأل المغيث الامير سيف الدين بلبان النجاحي متولي القلعة قائلا : « أفي هذا البرج كان ولدي عثمان ؟ قال : نعم »(١٧٨) فأقام في البرج فترة ثم نقل الى داخل قاعة من قاعات الدور السلطانية فقتل من يومه ، قتله الامير عز الدين أيدمر الحلي نائب السلطنة بالغيبة(١٧٩) • واشيع في رواية أخرى انه نقل الى زوجة الملك(١٨٠) الظاهر بيبرس فأمرت جواريها فقتلنه بالقباقيب ، انتقاما منه ، فقد ذكر ان الملك المغيث قد اكرهها في الكرك(١٨١) بعد أن فر زوجها الى الملك الناصر يوسف وسلم المغيث بقية البحرية اليه ، وبقيت هي في الكرك عند المغيث وقد حقد عليه الظاهر لذلك وعمل على استدراجه والفتك به انتقاما لفعلته •

---

(١٧٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٣٨ – المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٢ •

(١٧٨) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٠٧ « مخطوطة » •

(١٧٩) ويقول أبو الفلاح أن الملك الظاهر طلب من ايدمر قتله سرا دون أن يعلم احد ، فطلب أيدمر رجلا شريرا واطلعه على ذلك ودفع اليه الف دينار ، فدخل هذا على الملك المغيث في سجنه وخنقه ، ثم جعل يشرب الخمر في بيته ويخرج من الذهب ، فقال له ندماؤه : من أين لك هذا ؟ فاعترف بقتله للمغيث وشاع ذلك بين الناس وبلغ الامر للملك الظاهر فغضب على أيدمر الذي طلب الرجل واستعاد منه المال وقتله – (انظر : أبو الفلاح : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١٠) – وانظر كذلك : النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٠٧ « مخطوطة » •

(١٨٠) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ – العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٦١١ « مخطوطة » – ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص٢١٦ – العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٥٠١ « مخطوطة » •

(١٨١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ – العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٦١٠ « مخطوطة » – ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢١٦ – العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٥٠٠ « مخطوطة » •

د ـ استيلاء بيبرس على الكرك واعماله بها :

بعد أن أرسل بيبرس الملك المغيث معتقلا الى الديار المصرية كتب الى أهل الكرك يعدهم بالاحسان ويحذرهم عواقب العصيان وسير هذه الكتب مع الاميرين بدر الدين البيسري الشمسي وعز الدين ايدمر الظاهري الاستادار(١٨٢) . وجهز معهما الاموال اللازمة والخلع لينفقانها في أهل الكرك كسبا لقلوبهم . كما نظر في أمر عسكر الملك المغيث الذين كانوا يصاحبونه(١٨٣) فأطلق سراحهم واحسن اليهم وأمر لهم بالخلع والاموال والرواتب .

ثم تأهب الظاهر بيبرس لتسلم الكرك من اصحابها ، ففي يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الاخره من السنة رحل من الطور ترافقه قوة عسكرية في اتجاه القدس(١٨٤) الشريف فوصلها يوم الجمعة فصلى الجمعة في المسجد الاقصى وزار الاماكن الشريفة هناك ، ونظر فيما يحتاجه المسجد وقبة الصخرة من العمارة والانشاء وأمر باتمام ذلك وتجهيزه واحضار الصناع اللازمين لذلك . كما بنى بالقدس فرنا وطاحونا برسم الفقراء والمحتاجين(١٨٥) ووقف عليه وقفا من جملته ثلاثة قراريط بالطرة(١٨٦)

---

(١٨٢) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٤ « مخطوطة » ـ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٦٩ « مخطوطة » ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٦١٢ « مخطوطة » ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢١٦ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٩٢ « مخطوطة » .

(١٨٣) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٤ « مخطوطة » ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٦١١ « مخطوطة » .

(١٨٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٧٠ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٨٥ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٩١ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢ قسم ٣ لوحة ٤٩٣ « مخطوطة » .

(١٨٥) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ .

(١٨٦) الطرة : قرية في شمال الاردن بالقرب من مدينة اربد ، كانت احد مراكز البريد في دولة المماليك وهي ما زالت موجودة للآن ـ القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٩ .

ورتب أمور الاوقاف وحمايتها · ثم سار متوجها الى الكرك مرورا بالاغوار فاجتاز اريحا ثم البلقاء ونزل على بركة زيزاء(١٨٧) قرب عمان بانتظار التوجه الى الكرك · وفي يوم الخميس ٢٣ جمادى الآخره نزل السلطان على الكرك وصحبته العساكر وأمر باحضار السلاليم الخشب من الصلت وعجلون وغيرها بالاضافة الى جموع الحجارين والبنائين والنجارين والصناع الذين استصحبهم معه من مصر وأولئك الذين أرسل في طلبهم من دمشق (١٨٨) وكان في نيته أن يحاصر المدينة ويفتتحها بالقوة ان مانع أهلها أو رفضوا التسليم فأقام في وادي الكرك يراقب المدينة عن كثب ·

أما أهل الكرك فقد اضطروا الى التسليم بالامر الواقع واتفقوا على أن يرسلوا وفدا منهم لمقابلة السلطان لطلب الامان لهم والرأفة بهم ، وعندما وصل بيبرس بجموعه ونزل في وادي الكرك وضرب دهليزه هناك ، توجه أولاد الملك المغيث وعلى رأسهم الملك العزيز فخر الدين الذي استنابه والده على الكرك عند خروجه للطور وقاضي المدينة وخطيبها ومعهم جماعة من أهلها(١٨٩) وقدموا للملك الظاهر بيبرس مفاتيح الحصن والمدينة(١٩٠) وطلبوا الامان والصفح · فاجابهم الظاهر الى كل ما طلبوه منه وأمنهم ثم خلع عليهم وبذل فيهم الاموال الكثيرة فأمنوا واطمأنوا · ثم أوفد السلطان كلا من الاميرين عز الدين أيدمر الاستادار والصاحب فخر الدين محمد بن بهاء الدين(١٩١) ليتسلما المدينة والقلعة ، فصعدا

---

(١٨٧) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٤ « مخطوطة » ·

(١٨٨) المصدر نفسه : ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩١ ·

(١٨٩) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٩ « مخطوطة » ـ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٧٠ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩١ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٩٣ « مخطوطة » ·

(١٩٠) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٩ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩١ ·

(١٩١) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٩ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩١ ·

الى الحصن في مغرب يوم الخميس ٢٣ جمادى الآخرة ٦٦١هـ (٤ مايو (أيار) ١٢٦٣م) وتسلماه · وفي صباح اليوم التالي الجمعة دعي للملك الظاهر بيبرس على اسوارها ونصبت صناجقه على أبراجها[١٩٢] · ثم تحرك الملك الظاهر باتجاه الكرك ودخلها وقد ارتفعت الزينات في كل مكان ، وواصل سيره الى القلعة وجلس في القاعة الناصرية[١٩٣] والفرحة تملأ فؤاده فسجد شكرا لله تعالى الذي من عليه بهذا الفتح العظيم · ثم أخذ في تدبير امور المدينة والقلعة ، فأرسل الى دمشق وعجلون يطلب الرجال[١٩٤] للمشاركة في اصلاح ما يمكن اصلاحه ، كما أرسل يطلب الصناع الحربية من أجل خزائن السلاح · ونادى بألا يؤذى أحد من الاهالي ، واصدر عفوا عاما عن الجميع [١٩٥] ، ثم طلب ديوان الامارة وكتاب الانشاء فيها وأخذ ينظم امور جيشها وكان الجند قد حرموا رواتبهم لعدة اشهر مضت ، فأمر بأن يمنح كل منهم جامكية[١٩٦] « رواتب »

---

(١٩٢) الصناجق : أو السناجق : وهي الاعلام وهي عدة رايات منها راية عظيمة من حرير اصفر مطرزة بالذهب ، عليها القاب السلطان واسمه ، وتسمى العصابة ، وراية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش ورايات صفر صغار تسمى السناجق (انظر : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٨ – وانظر كذلك : ماير : الملابس المملوكية ، ص ٨٣) ·

(١٩٣) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٩ – النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ·

(١٩٤) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٩ « مخطوطة » – نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ·

(١٩٥) ابن واصل : مفرج امكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٩ « مخطوطة » – النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ·

(١٩٦) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » – بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٧١ « مخطوطة » – المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩١ – العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ لوحة ٤٩٣ « مخطوطة » – الجامكية : أي الاجر ، ومن هو يعمل بالجامكية كمن يعمل بالاجر اليومي · والجوامك الشهرية تشمل العليق والحبوب والطعام ، ومن يعملون بالجامكية يعطون الخيل والجمال ، وفي بعض الاحيان يعطون اقطاعات بدل الرواتب (انظر : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٤١ – وانظر أيضا : ماير : الملابس المملوكية ، ص ٦٣ ، ابراهيم علي طرخان : النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى ، ص ١٥٢) ·

ثلاثة اشهر من ماله الخاص كما أمر باعطائهم الجراية من المغل(١٩٧) ، وقام من فوره ودفع الاموال اللازمة لهم في الحال ، ثم أمر فعين لها خاتما خاصا(١٩٨) كذلك اهتم بأمر الكرك وقراها ونواحيها فأطلق جامكيات أهلها(١٩٩) ، ولم يغير على أحد شيئا مما كان له سابقا ، كذلك اسبغ الملك الظاهر ابناء الملك المغيث عمر برعايته(٢٠٠) فاعطاهم جميع ما في الحصن من مال وقماش وأثاث ، كما أكرم علماءهم وخدامهم ولم يتعرض لاحد منهم بضرر ، ثم طلب منهم بعد ذلك الخروج من القلعة بعد أن استردوا ما كان يخصهم ونزلوا الى وادي الكرك وأقاموا هناك ينتظرون اوامره ٠ وعندما حلت ساعة صلاة الجمعة قام الملك الظاهر وأدى صلاة الجمعة في مسجد القلعة(٢٠١) ، وخطب له على منبره ، وبعد الصلاة عاد الى مجلسه في القاعة الناصرية ، واعاد النظر والبحث في مهمات الحصن والمدينة ، وأخذ في تدقيق السؤال عن مصالحهما ، ولم يغادر الموقع الا بعد أن رتب أمرها ودبر أمر جيشها ورجالها وبلادها ٠ وأقام تلك الليلة في القلعة ثم نزل الى المدينة مساء اليوم التالي وسير الى الملك العزيز بن الملك المغيث الذي كان مقيما بوادي الكرك بجانب مخيم السلطان(٢٠٢)

---

(١٩٧) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ـ المغل أو الغلال : كانت توضع في اهراء خاصة ، ومنها تصرف لارباب الرواتب والخدم والصدقات وارباب الجوامع والمساجد وجرايات رجال الاسطول وغير ذلك (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٥) ٠

(١٩٨) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٢ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ ص ٤٩٣ « مخطوطة » ٠

(١٩٩) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ٠

(٢٠٠) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ـ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٧١ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٢ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٩٣ « مخطوطة » ٠

(٢٠١) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٢ ٠

(٢٠٢) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ـ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٧١ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٩٣ « مخطوطة » ٠

الخلع والقماش ، وأجزل عطاياه له ولاخوته ولم ينس بعطاياه الطواشي بهاء الدين صندل والامير شهاب الدين بن صعلوك اتابكه وغيره من رجال الملك المغيث واعوانه(٢٠٣) ثم أرسل الى دمشق وغيرها من بلاد الشام بحمل الغلال والذخائر وغيرها مما يحتاجه الحصن والمدينة(٢٠٤) ، وسرعة أرساله اليهما ثم اصدر كتب البشائر الى جميع الممالك والبلدان يبشرها بفتح الكرك(٢٠٥) .

ولما كان يوم الاثنين صعد السلطان الملك الظاهر بيبرس الى القلعة للمرة الثانية وأحضر الدواوين الخاصة بالامارة وكتب المناشير لعربان امارة الكرك ولكل من كان بها ، وبلغت عدة هذه المناشير اكثر من ثلاثمائة منشور(٢٠٦) كذلك أمر بكتابة تواقيع لاهـل الكرك بمناصب دينيـة وديوانية(٢٠٧) ، وقدمت اليه ، فعلم عليهما معا ، ثم سلمت لاصحابها بعد تحليفهم بين يدي السلطان بالولاء والطاعة تم ذلك كله في بعض يوم(٢٠٨) . وسمح بأن تبقى جراية ارزاق الناس كما كانت عليه ، ثم احضر الامير عز الدين ايدمر الاستادار(٢٠٩) وسلم اليه الكرك وجعله نائبا له فيها ، وحلفه له ولابنه وولي عهده الملك السعيد وكتب تقليدا وتشريفا بذلك .

---

(٢٠٣) النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ــ المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٩٢ ــ العيني : عقد الجمان ، جـ ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٩٣ « مخطوطة » .

(٢٠٤) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ــ النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » .

(٢٠٥) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ــ المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٩٢ .

(٢٠٦) النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ــ المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٩٢ .

(٢٠٧) المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٩٢ .

(٢٠٨) النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » .

(٢٠٩) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، جـ ٣ ، ص ٧٩ ــ ابن واصل : مفرج الكروب « تاريخ الواصلين » لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ــ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ ٩ لوحة ٦٩ « مخطوطة » ــ النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ــ المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٩٣ ــ العيني : عقد الجمان ، جـ ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٩٣ .

كما اضاف اليه الشوبك واعمالها فاصبح يتبع الكرك من البلقاء شمالا الى العقبة جنوبا ، ورتب السلطان معه في القلعة جماعة من المماليك البحرية والظاهريـة(٢١٠) ليساعدوه في ادارة شئون البـلاد ، ويتولوا حمايتها ، وحلف مقدموا المدينة وجميع من في البلد من المسلمين والنصارى. أما النصارى فقد حلفهم على الانجيل(٢١١) ، وخاطب أهل الكرك قائلا : « انكم قد أسأتم الي وعفوت عنكم لكونكم ما خامرتم على صاحبكم وقد ازددتم بذلك محبة عندي »(٢١٢) ، وأوصاهم بألا يقوموا أو يحاولوا القيام بأية فتنة ضده وحذرهم من مغبة ذلك كما دعاهم الى الاخاء والمحبة ، ونبذ الخصومات والدماء بينهم ، واصلح بين الجميع ، فقضى على الثأر ، ونشر التعاون والسلام بينهم . كذلك أمر باحضار الامير سابق الدين عتبة ابن مهدي(٢١٣) وغيره من امراء بني مهدي وبني عقبة وهم من القبائل التي تقطن في امارة الكرك ، وخاطب الامير سابق فأخبره بأنه اي الظاهر أنما كان يغمره باحسانه ويغفر له زلاته من أجل الكرك ، وأنه ما دام

---

(٢١٠) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٢ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٥٠٩ « مخطوطة » .

(٢١١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٧١ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٩٣ « مخطوطة » .

(٢١٢) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ـ وانظر : المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٢ .

(٢١٣) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ـ بنو مهدي : وهم من عذرة من قضاعة من حمير من سبأ من القحطانية ومنازلهم البلقاء الى رأس الصوان جنوب معان ومنهم المشابطة ، والعناترة ، والنترات ، واليعاقبة ، والمطارنة ، والعفير ، والرويم ، والقطاربة ، وأولاد الطائية ، وبنو خالد ، والسلمان ، والمحابرة ، والسماعة ، والعجارمة من بني طريف ، وبنو خالد ، والسلمان ، والمساهرة ، والمعاورة ، وبنو عطا ، وبنو مياد ، وآل شبل ، وآل رويم ، والمحاربة ، وبنو عياض . ومن عرب الكرك أيضا : بنو عقبة : ويسكنون في قرى حولها وهم من جذام وآخر امرائهم شطي بن عتبة ، ومن عرب الكرك أيضا بنو حسن والحمارنة وهم بنو حمران صخر وبنو زهير وهم عرب الشوبك وكذلك آل عجبون والعطويون ، والصونيون وغيرهم . انظر : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢١٣ ـ ٢١٤ ، وجزء ٢ ، ص ٣٣٤ ، ج ١٢ ، ص ١٢٠ ـ ١٣٥ .

الكرك قد اصبح تحت سلطانه ، فان اي تفريط فيه ستكون تبعته على عاتق سابق وأقسم أنه ان فقد خيط من الكرك فهو مطالب به وسوف ينتزعه منه · كذلك أمره بمنع جميع العربان من السقاية من صهاريج المدينة وآبارها خوفا من نضوبها مما يؤدي الى معاناة الناس من العطش وقلة الماء«ومن فعل ذلك شنقته»(٢١٤) · ثم ضمنهم خفر وحراسة الطريق المؤدية الى الحجاز وحمايتها من قطاع الطرق كي تسير قوافل الحجاج والتجار بأمان من الجزيرة العربية الى الشام ومصر(٢١٥) · فأجابوه الى ما طلب ثم أشهد على الامير سابق الدين عتبة وعلى جميع مشايخ بني مهدي وأخذ منهم الرهائن ·

ما ان انتهى الملك الظاهر من تدبير أحوال الكرك الداخلية سواء ما يتعلق بسكانها أو جيشها وعربانها حتى صرف اهتمامه الى النظر في المدينة والقلعة معا « وطاف بالقلعة والمدينة من خارجها وباطنها »(٢١٦) ووقف عند كل برج من أبراج القلعة ، وعند كل بدنة وكل ركن من أركان السور وعاينه شخصيا فما احتاج الى العمارة رسم بعمارته وما احتاج الى الاصلاح أمر باصلاحه ومرمته · وكان قد أحضر معه الحجارين والبنائين والصناع من مصر ودمشق وعجلون فبدأ العمل على الفور بهمة ونشاط وعين لكل ذلك ما يحتاجه من أموال ونفقات · كما أحدث شيئا جديدا في القلعة والمدينة لكي يزيد من حصانتهما ومنعتهما فقد أمر بحفر خنادق جديدة حول مدينة الكرك وحول قلعتها(٢١٧) لم تكن موجودة من قبل(٢١٨) · ثم طلب من جميع الصناع الذين استقدمهم من مصر ومن انحاء دولته بالاقامة في الكرك ، ورتب لهم الرواتب والعطايا وبذلك أدخل عنصرا جديدا الى المدينة وهم فئة الصناع فزادها بذلك أهمية وساعد على

---

(٢١٤) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ·

(٢١٥) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٢ ·

(٢١٦) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ·

(٢١٧) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧٩ = ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ·

(٢١٨) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧٩ ـ وانظر كذلك : المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٢ ·

تطورها وتقدمها • ثم أمر بأن تحمل الى القلعة جميع اسلحة الزردخاناه(٢١٩) التي كانت معه حتى تحفظ فيها ، كما احتفظ فيها بالاموال التي كانت لديه وقدرها سبعون ألف دينار عينا(٢٢٠) ، وماية وخمسون ألف درهم نقرة(٢٢١) بالاضافة الى ما كان لديه من أصناف البضائع والاقمشة والاغنام والشعير وغيره(٢٢٢) ، وكلها جعلها داخل قلعة الكرك • كذلك أمر بتجديد عمارة المزارات في مؤته(٢٢٣) ، وأوقف على الزائرين لهذه الاماكن شيئا معينا • ثم منح نائبه فيها الامير عز الدين ايدمر مبلغ ثلاثين الف دينار(٢٢٤) بالاضافة الى حمل من القماش وخلعة من ملبوسه الخاص وفرسا من خيوله(٢٢٥) • وبعد ان اتم كل هذه الامور نزل الى المخيم في وادي الكرك وعندما اصبح الصباح طلع الى القلعة واوصى الامير عز الدين ايدمر بضرورة الاهتمام باحوال المدينة والقلعة وشئون سكانها ، ثم نزل منها وتوجه في ركبه قاصدا القاهرة فدخلها في السابع عشر من رجب من نفس

---

(٢١٩) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ــ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٧١ « مخطوطة » ــ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٩٣ « مخطوطة » ــ الزرد خاناة : وتقال السلاح خاناه ، ومعناها بيت السلاح ، وتسمى بيت الزرد لما فيها من الدروع والزرد ، وتشتمل على انواع السلاح : من السيوف والقسي العربية ، والنشاب ، والرماح ، والدروع المتخذة من الزرد المانع وغير ذلك من الاطبار وسائر انواع السلاح • وفي هذه السلاح خاناه من الصناع المقيمين بها لاصلاح العدد وتجديد المستعملات جماعة كثيرة ، ويسمى صانع ذلك : الزردكاش ، وهي لفظة عجمية وكان معناها صانع الزرد • (انظر : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١١ ــ ١٢) •

(٢٢٠) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ــ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٧١ « مخطوطة » ــ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٢ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٩٣ « مخطوطة » •

(٢٢١) الدرهم النقرة : وهو الذي يكون ثلثاه من فضة والثلث الاخير من النحاس ويطبع بدور الضرب بالسكة السلطانية (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٣٩) •

(٢٢٢) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » •

(٢٢٣) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٤ لوحة ٦٢٠ « مخطوطة » •

(٢٢٤) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ــ اما النويري فيقول : ان المبلغ هو ثلاثون الف درهم انظر : النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » •

(٢٢٥) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » •

السنة(٢٢٦) . وعند وصوله زينت القاهرة ومدينة مصر وخرج الجميع لاستقباله فخلع على جميع الامراء ومقدمي المماليك البحرية ومقدمي الحلقة وجميع خاشيته وعلمائه ، وعم الناس باحسانه وقد استكمل بيبرس كل هذه الانجازات وحققها في مدة خمسة وتسعين يوما فقط(٢٢٧)

وبعد أيام من وصول الظاهر بيبرس الى الديار المصرية ، قدم الملك العزيز بن الملك المغيث ومعه حريمه واخوته وأهل بيته فاستقبلهم الملك الظاهر بالقاهرة خير استقبال . وأكرم الملك العزيز فأمره على مائة فارس(٢٢٨) وخلع عليه واعطاه طبلخاناة(٢٢٩) . كما اطلق لاخوته ونساء

---

(٢٢٦) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ـ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٧١ « مخطوطة » ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٢٧ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٦١٢ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٣ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٩٣ « مخطوطة » .

(٢٢٧) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٠ « مخطوطة » ـ انظر أيضا : بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٧١ « مخطوطة » ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٩٤ « مخطوطة » .

(٢٢٨) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٢ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩١ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٦٧ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٤٩ « مخطوطة » ـ بامخرمة : قلادة النحر ، ج ٣ قسم ١ لوحة ٩٣٩ « مخطوطة » امرة مائة فارس : وهي من الوظائف والمراتب الحربية الهامة الخاصة بأرباب السيوف وتقرن عادة بلقب مقدم الف . والطبقة الاولى من الامراء هم امراء المئين مقدموا الالوف أي يكون في خدمة حاملها مائة مملوك وله التقدمة في نفس الوقت في الحروب على الف فارس ممن هم دونه من الامراء ، وهذه الطبقة هي أعلى مراتب الامراء على تقارب درجاتهم ، ومنهم يكون اكابر ارباب الوظائف والنواب (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٤) :

(٢٢٩) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٢ « مخطوطة » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٣ ـ الطبلخاناه : كلمة فارسية تعنى الفرقة الموسيقية السلطانية ، وهي أيضا مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف في عهد المماليك . صاحبها يلي أمير مائة مقدم الف في الدرجة ، وسمي أمير طبلخاناه وذلك لاحقيته في دق الطبول على أبواب قصره كما يفعل السلاطين وامراء المئين ، وتحت امرته عادة اربعون مملوكا فهو أمير اربعين وقد يزيد الى سبعين وثمانين ، والطبلخاناه تدق عادة في القلعة بعد صلاة المغرب وتصاحب السلطان في اسفاره وفي الحروب . والطبلخاناه كذلك بيت الطبل اي المكان الذي توضع فيه الآلات الموسيقية (انظر : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٨ ـ ١٢) .

والده الملك المغيث كل ما يحتاجون اليه هم وغلمانهم وخدامهم ورتب لهم الرواتب وأجرى عليهم الجرايات وأنزلهم بدار القطبية بين القصرين في القاهرة(٢٣٠) ، فعاشوا في رغد من العيش وسعه . وبقي الملك العزيز فخر الدين في خدمة الملك الظاهر ولازمة في اسفاره وغزواته ، وكان يلعب معه بالكرة(٢٣١) ، ويحضر معه في اوقات الصيد ، وقد أخلص له في خدمته . وبعد موت الملك الظاهر بيبرس قام الشهرزورية بمؤامرة(٢٣٢) لقتل الملك السعيد بن الظاهر بيبرس واعترف عدد منهم بأنهم كانوا يسعون الى تنصيب الملك العزيز سلطانا دون علمه أو موافقته ، ومع ذلك فقد أمر الملك السعيد باعتقاله وحبسه في ١٤ ربيع الاول ٦٦٩هـ(٢٣٣) (اول نوفمبر (تشرين ثاني) ١٢٧٠م) وبقي في السجن حتى اخرجه الملك الاشرف خليل بن قلاون في المحرم سنة ٦٩٠هـ (يناير (كانون ثاني) ١٢٩١م) ، وكانت مدة اعتقاله عشرين سنة وتسعة اشهر واثنين وعشرين يوما(٢٣٤) ، وقد رتب له السلطان راتبا جيدا ولزم داره واشتغل بالمطالعة والنسخ وانقطع عن الناس فكان لا يخرج الا للجمعة أو الحمام أو لاداء ضرورة له حتى مات في المحرم سنة ٧٣٥هـ(٢٣٥) (سبتمبر (أيلول) ١٣٣٤م) .

بعد ذلك أخذ الملك الظاهر بيبرس ينقل الاموال من جميع الخزائن السلطانية الى حصن الكرك ويخزنها فيه ، وقد بالغ في ذلك « حتى قيل ان برجا من أبراجه تقطع من كثرة ما أودع فيه من الذهب »(٢٣٦) كذلك

---

(٢٣٠) المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٩٣ .
(٢٣١) النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٨ لوحة ٥٣ « مخطوطة » .
(٢٣٢) النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٨ لوحة ٥٤ « مخطوطة » ــ ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ٣ ، ص ٦١ .
(٢٣٣) النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٩ لوحة ٥٢ « مخطوطة » ــ العيني : عقد الجمان ، جـ ٢١ قسم ١ لوحة ٣٢ « مخطوطة » ــ أبو المحاسن : المنهل الصافي ، جـ ١ لوحة ٣٦٣ « مخطوطة » .
(٢٣٤) النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٩ لوحة ٥٢ « مخطوطة » ــ العيني : عقد الجمان ، جـ ٢١ قسم ١ لوحة ٣٢ « مخطوطة » .
(٢٣٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ٣ ، ص ٦١ .
(٢٣٦) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٧ « مخطوطة » .

نقل اليه الذخائر والاسلحة بجميع انواعها واشكالها ومن جملتها المنجنيقات ، وكان هدفه من وراء ذلك أن يجعل من الكرك معقلا له ولاولاده يلجؤون اليه في أوقات الشدة(٢٣٧) ٠

هـ ـ الاسباب الحقيقية للقضاء على امارة الكرك الايوبية :

وقد اختلف المؤرخون في توضيح العوامل التي دفعت الملك الظاهر الى الاستيلاء على امارة الكرك واعتقاله لاميرها الملك المغيث وانهاء حياته ، فذهب بعضهم الى أنه انتقم لشرفه اذ بلغه ان المغيث راود زوجة الظاهر بيبرس عن نفسها عند ما كانت في الكرك ففر زوجها الى الناصر يوسف ٠ وذهب آخرون الى ارجاعها الى اتصالات الملك المغيث المشبوهة مع التتار ، وقد عرض بيبرس على القضاة في الطور بعض هذه الكتب وأفتوا بقتله ٠ في حين لم يستطع بعضهم تفسير تصرف الظاهر بيبرس العدائي فجأة نحو أمير الكرك(٢٣٨) ، على الرغم من أنه اقسم له يمينا بعدم الاساءة اليه أو اعتراض سبيله(٢٣٩) ، بالاضافة الى الايمان المغلظة التي اقسمها لوالدة المغيث في غزة وأنه لا ينوي الاساءة اليه ٠

وباعتقادي أن الملك الظاهر بيبرس وهو في طور وضع الاسس القوية لدولة المماليك في مصر وضع خطة لانشاء دولة مملوكية قوية ومرهوبة ، قوية بالقضاء على أي أثر للتفتت السياسي سواء في مصر أو الشام ٠ مرهوبة الجانب عن طريق زعيم قوي لا يشاركه اي منافس في السلطان ، ولم يكن من يخشى بأسه سوى الملك المغيث عمر أمير الكرك ، وقد خبر هو شخصيا الملك المغيث وعمل معه وتحت سلطته ، وهاجم مصر مرتين لاستعادة عرش الايوبيين فيها ٠ انه يدرك قوة المغيث ومبلغ طموحه ، وهو لا يستطيع المجاهرة بعدائه له لوجود من يؤيده بين صفوف الامراء المماليك بمصر ، وقد اكتشف الظاهر ذلك بنفسه عندما كان يراسله

---

(٢٣٧) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢٧ « مخطوطة » ـ النويري : نهاية الارب ، جـ ٢٩ لوحة ٦ « مخطوطة » ٠

(٢٣٨) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، جـ٣ ، ص ٧٨ ٠

(٢٣٩) راجع نص اليمين في الملاحق ٠

سيف الدين بلبان الرشيدي في الطور وسانده أميران آخران هما الامير عز الدين آيبك الدمياطي ، والامير شمس الدين آقوش بن عبدالله العزيزي المعروف بالبرلي[٢٤٠] • كما كان باستطاعة المغيث تفتيت وحدة المماليك الذين كانوا حوله ، وقد قام فعلا باستمالة الشهرزورية عندما اقدم الظاهر على انتزاع الشوبك منه • لذا اتبع مع المغيث اسلوب الخديعة والغدر حتى أوقع به في النهاية واعتقله ، وكان بيبرس ينوي ذلك حقا قبل خروجه من مصر اذ اصطحب معه البنائين والنجارين والصناع وغيرهم ، كما طلب آخرين من دمشق واشاع انه لبناء قلعة الطور في الغور ومسجد في عين جالوت • والحقيقة انه اعد هؤلاء من أجل الكرك والايقاع بالملك المغيث الذي اطمأن اليه بعد يمينه المشهودة • ولا شك أن الملك الظاهر بيبرس كان يحرص على ضرورة القضاء على كل نفوذ أيوبي في الشام ، وقد نجح في تحقيق ذلك اذ لم يبق بعد عين جالوت سوى امارات أيوبية ثلاث هي حمص التي لم تلبث ان اصبحت نيابة مملوكية بعد وفاة صاحبها ، وحماه التي وضع أميرها نفسه تحت حماية المماليك وكأنه أمير من امرائهم • أما الكرك فقد كان أميرها المغيث أقوى أمير أيوبي في مقدوره أن يدمر دولة المماليك في مصر ان استطاع اثارة الفتنة بين صفوف المماليك انفسهم كما سبق ان فعل ذلك • بالاضافة الى أطماعه الشخصية في السيطرة على الامارة بعد أن أدرك القيمة الاستراتيجية لقلعة الكرك وأهميتها كقاعدة هجومية وخط دفاع امامي ومركز امدادات ضد الوجود الصليبي على الساحل الفلسطيني ، بدليل انه عندما انتزع أرسوف من الفرنج في سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٤م) أسر أهلها « وأرسلهم مصفدين الى الكرك »[٢٤١]، كما اعتبره حصنا يتحصن فيه عند الضرورة • لذلك نعتقد أنه بذل قصارى جهده للسيطرة على الكرك ، وفي هذه الغاية ، نكث العهد واصطنع الغدر سلاحا ضد المغيث فاتهمه بالخيانة ومكاتبة التتار حتى يبرر فعلته الغادرة ، فظفر بالامارة فصفا له الجو وخلت الساحة من المنافسين •

---

(٢٤٠) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤٢١ ــ ٤٢٢ « مخطوطة » ــ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٤ ــ ٢٥ « مخطوطة » ــ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٦٧ ــ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٤٩٤ « مخطوطة » ــ بامخرمة : قلادة النحر ، ج ٣ قسم ١ لوحة ٩٣٩ « مخطوطة » •

(٢٤١) لعيني : عقد الجمان : ج ٢٠ قسم ٣ لوحة ٥١٥ « مخطوطة » •

وهنا تجدر الاشارة الى الاخلاص والتفاني الذي أبداه أهل الكرك نحو أميرهم فلم يخونوه أو يتآمروا عليه ، على الرغم من سوء الاحوال الاقتصادية في الامارة · والحق ان أهالي الكرك المسلمين منهم والمسيحيين وقفوا يدا واحدة يؤيدون اميرهم ، وكان الظاهر بيبرس كريما معهم بعد أن قدر موقفهم النبيل من أميرهم والتفافهم حوله وهو موقف يدل على اخلاصهم لامرائهم لا يجب ان يعاقبهم عليه ·

وباعتقال الملك المغيث عمر وموته انتهت الدولة الايوبية بالفعل في بلاد الشام بعد أن حملت لواء الجهاد والنضال فترة من أحلك فترات العالم العربي والاسلامي ، وضربت اروع الامثلة في التضحية والفداء ، وفيها يقول ابن الاثير : « ولعمري أنهم نعم الملوك ، فيهم الحلم والجهاد والذب عن الاسلام »(٢٤٢) ·

وهكذا دخلت الكرك في فلك الدولة المملوكية ، وزادت اهميتها في هذا العصر فتحولت الى نيابة مملوكية ، وبهذا التحول تبدأ صفحة جديدة من تاريخها الوسيط ·

---

(٢٤٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٥٢ ·

الفصل السابع

طرق التجارة والحياة العلمية

١ ـ أهمية امارة الكرك كمعبر للجيوش وطريق للقوافل التجارية ٠

٢ ـ الحياة العلمية في الامارة



(١)

أهمية امارة الكرك كمعبر للجيوش وطريق للقوافل التجاريـــة

كانت شبكة المواصلات القديمة التي تربط أوروبا بالهند والصين تسلك ثلاث طرق رئيسية : الأولى برية وأطلق عليها طريق الحرير تسير من وسط آسيا حتى بخارى(١) وهناك تتفرع الى شعبتين الأولى تتجه الى بحر قزوين فنهر الفلجا وبلاد البلغار ، أما الثانية فتتجه الى البحر الأسود وموانئه الى أن تصل الى القسطنطينية ومن ثم الى الموانيء الأوروبية ومدنها ويخرج من هذا الطريق فروع تتجه في بعض الأحيان الى بغداد وحلب حيث سواحل البحر المتوسط وفي بعض الأحيان يسلك فرع منه أرمينيه وآسيا الصغرى ليصل الى القسطنطينية • وهذا الخط كان يخضع للظروف السياسية والحربية التي تسود مناطق عبوره ، ولقد انكمش وانقطعت حركة المرور فيه في عصور متأخرة(٢) ، بسبب الصراع الحربي الذي كان يسود هذه المناطق •

أما الطريق الثانية ، فهي طريق الصين والهند عبر الخليج العربي(٣)، وهو من أقدم المسالك المعروفة للاتصال بالهند والصين في العصور الوسطى وينتهي عند رأس الخليج • ثم يسلك الطريق النهري الى بغداد • ومنها يتفرع الى فرعين ، الأول يتجه شمالا الى ديار بكر ، أما الثاني فيتجه غربا

---

(١) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, Leipzig, 1886 vol. 1, PP. 166 - 167.
Lamb The Flam of Islam. P. 224.
نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص ٢١٩ ـ نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها ، ص ١٥٤ •

(٢) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها ، ص ١٥٤ •

(٣) Heyd, Histoire du Commerce, vol. 1. P. 168.
Lamb. The Flame of Islam, P. 224.
نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها ، ص ١١٨ •

الى دمشق وتتفرع منه هناك الى موانيء البحر المتوسط،وفرع يتجه جنوبا سالكا طريق الساحل الى مصر مرورا بغزة ، وفرع آخر يتجه نحو الشمال الغربي الى حلب ثم يواصل مسيره الى آسيا الصغرى حيث يلتقي بالطرق القادمة برا من أواسط آسيا فتنتظم معا لتواصل المسير وتنتهي في القسطنطينية ثم الى أوروبا ٠ وقد ازدهر الخط ازدهارا عظيما في القرنين الثاني والثالث الهجريين(٤) ، الا أن هذا الفرع المتجه الى آسيا الصغرى فقد اتصاله بالخط البري القادم من أواسط آسيا بسبب الهجمة المغولية المدمرة التي اجتاحت العالم الاسلامي منذ الربع الأول من القرن السابع الهجري ٠

أما الطريق الثالثة فهي طريق البحر الأحمر(٥) ويطلق عليه اسم طريق البخور ، وكانت اليمن نقطة الاتصال بين الهند ومصر والشام والعراق منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد(٦) ٠ كما أن البخور كان ضروريا للمعابد القديمة منذ عصور سحيقة في القدم ، وكان ينقل اما عن طريق البحر الأحمر أو عن طريق الحجاز برا الى الشام ومصر والعراق ومن ثم سواحل البحر المتوسط لينقل الى أوروبا ٠ ويهمنا هذه الطريق الثالثة بوجه خاص في هذا البحث ، ونظرا لصعوبة الملاحة في البحر الأحمر بسبب الشعاب المرجانية الكثيرة ، فقد استخدم في الملاحة التجارية فيه مراكب صنعت خصيصا(٧) كي تلائم طبيعة هذا البحر ٠ ومن المعروف أن الأنباط(٨) سيطروا في جنوب الأردن على تجارة البحر الأحمر زهاء أربعة قرون(٩) ونافسوا البطالسة في السيطرة(١٠) على البحر الأحمر ، وكانت

---

(٤) نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص ٢٢٣ ٠

(٥) Heyd, Histoire du Commerce, vol. 2, P. 649.
نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص ٢١٥ — نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها ، ص ١٢٤ ٠

(٦) نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص ٢١٥ ٠

(٧) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٥ ٠

(٨) نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص ٢١٦ ٠

(٩) عبد العزيز سالم : الدولة العربية ، ص ١٠٤ ٠

(١٠) نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص ٢١٦ — ٢١٧ ٠

عاصمتهم البتراء مخزن التجارة القديمة ، اليها تنتهي القوافل المحملة بأطايب الهند وبضائع الساحل الافريقي ومن ثم ينقلونها الى غزة لتأخذ طريقها الى أوروبا · وفي موازاة هذه الطريق البحرية احتكرت قريش العدنانية طريقا برية تشق الجزيرة من الجنوب الى الشمال مرورا بمكة وتيماء والعلا وتنتهي هذه الطريق ببصرى الشام · وقد ساعدت القوافل المكية في ظهور بعض المراكز التجارية الهامة في الأردن نذكر منها عمان[١١] «فيلادلفيا» وجرش وزغر التي كانت تضاهي بأهميتها التجارية مدينة البصرة ميناء بغداد على الخليج العربي[١٢] ، وغيرها من المراكز التجارية الهامة ·

وفي عصر الفتوحات العربية الاسلامية كان الأردن الجسر الذي عبرت منه الجيوش اما الى الشمال أو الى مصر وشمال أفريقيا ، فهو المعبر البري[١٣] الوحيد بين شمال الجزيرة العربية وبين دلتا النيل وشمال أفريقية والأندلس·ولم يفقد الأردن أهميته في عصر دولة الخلفاء الراشدين والدولة الأموية فكان همزة الوصل والربط وطريق المواصلات والتجارة الهام بين الحجاز والشام ومصر · ثم أصبح طريق الحج الوحيد لقوافل المسلمين البرية القادمة من مصر ، فكانت تمر من جنوبه ، أما القادمة من الشام فكانت تسلكه من أقصاه الشمالي الى أقصاه الجنوبي · ولم يفقد الأردن أهميته كحلقة وصل وربط بين أنحاء العالم الاسلامي حتى في العصر العباسي ، فانه ظل يحتفظ بأهميته كهمزة الوصل بين بغداد ومصر وأفريقية والأندلس ، وطريق التجارة البري الذي يربط الأندلس ببغداد والهند والصين · ويذكر ابن خرداذبة مسلك التجار الروس في البر فيقول : «الخارج منهم يخرج من الأندلس أو من فرنجة فيعبر السوس

---

(١١) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٨٠ ·
Le Srange, P. 290.
Ziadeh, Urban Life, in Syria, P. 58.

(١٢) القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ، ص ٩١ ·

(١٣) محمد السيد غلاب : موسوعة سيناء ، ص ٢٩ ·

الأقصى فيسير الى طنجة ثم الى أفريقية ثم الى مصر ثم الى الرملة ثم الى دمشق ثم الى الكوفة ، ثم الى بغداد ثم الى البصرة ثم الى الأهواز ثم الى فارس ثم الى كرمان ، ثم الى السند ثم الى الهند ، ثم الى الصين»(١٤) .

وفي عصر الحروب الصليبية تعرض العالم الاسلامي – بقيام الامارات الصليبية في الشام – الى انقسام واضح المعالم الى شطرين عالم شرقي وعالم غربي ، وتعذر الاتصال بين شطريه الا من خلال طرق ثلاث :

الأول : الطريق الساحلي الممتد على طول الساحل الفلسطيني الى غزة ثم الى مصر(١٥) ، وكان هذا الطريق قد أصبح تحت سيطرة الصليبيين فلا سبيل الى استعماله أو المرور من خلاله .

أما الثاني ، فهو الذي يتبع جانب الأنهار وهو طريق داخلي يسلك الدروب الواقعة على ضفاف العاصي والأردن ثم يجتاز شمال الأردن الى اللجون ثم الرملة ويتصل بالطريق الساحلي عند غزة ليسلكا طريقا واحدا الى مصر(١٦) ، وكان هذا الطريق كذلك موضع نزاع بين المسلمين والصليبيين في أجزائه الشمالية في حين كان يتعذر سلوكه بسبب سيطرة الصليبيين الكاملة عليه(١٧) .

أما الطريق الثالث : فهو الذي يبدأ من دمشق عن طريق العقبة على سيف الصحراء عبر الأجزاء الشرقية للاردن(١٨) ، وقد بقي بيد المسلمين

---

(١٤) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٥٤ – ١٥٥ .

(١٥) Heyde, Histoire du Commerce, vol. i, P. 173.
Belloc. The Crusade, P. 101.
نظير سعداوي : التاريخ الحربي المصري ، ص ٥٧ .

(١٦) Belloc, The Crusade, P. 101.
نظير سعداوي : التاريخ الحربي المصري ، ص ٥٧ .

(١٧) Heyd, Histoire du Commerce, vil. 1, P. 173.

(١٨) Belloc, The Crusade, P. 102.
نظير سعداوي : التاريخ الحربي المصري ، ص ٥٧ .

مفتوحا لحركة الاتصال بين أجزاء لعالم الاسلامي ، ولم يستطع الصليبيون السيطرة عليه ٠

وبذا أصبح الأردن هو خط الاتصال الوحيد بين أنحاء العالم الاسلامي منذ تكونت مملكة بيت المقدس اللاتينية ٤٩٢هـ (١٠٩٩م) حتى معركة حطين سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ٠ وخدم الأردن حركة التجارة الاسلامية طيلة تسعين عاما أو ينوف بشكل متواصـــل ، فكان معبرا للجيوش الاسلامية ، والباب الموصل ما بين دمشق والقاهرة ، ومفتاح مكة والمدينة ٠ فعلى أرضه سارت قوات صلاح الدين متنقلة بين مصر ودمشق حتى قيض الله له النصر ، وعلى أرضه انطلق الى حطين حيث اندفع مـن الكرك الى الشمال ثم عرج الى الغرب ونزل الأقحوانة في شمال الاردن ثم حطم قوة الصليبيين عند حطين ٠ كذلك بقي طيلة عصر الحركة الصليبية الطريق الوحيد للتجارة القادمة من مصر الى الشام والعراق وبالعكس ، والطريق الوحيد لحركة القوافل القادمة من الجزيرة العربية الى السواحل الفلسطينية ودمشق[١٩] ٠

أما الطريق الذي كانت تسلكه الجيوش والقوافل عبر الأردن فكان يختلف بسبب تشعبه من شخص الى آخر ، فالطريق الذي سلكه أسامة ابن منقذ عند فراره من مصر كان عن طريق وادي موسى جنوبي الشوبك ثم الى معان ثم شمالا الى الجفر «وفيه مياه وعشب وشجر»[٢٠] ، ثم الى باير شمالا فالأزرق فبصرى ٠ والطريق الذي سلكه صلاح الدين في سنة ٥٧٢هـ (١١٧٨م) أثناء عودته بقواته الى مصر يمر بعد خروجه من دمشق بغباغب ثم بالفوار ثم بالزرقاء[٢١] ويتجه بعد ذلك الى الجنوب بالقرب من نواحي الكرك الى الحسا ثم القرينين (القرين) ثم عيون موسى فحسمى ثم الى أيلة «العقبة» ومن هناك الى صدر بسيناء فالجسر «مدينة القلزم» ٠

---

(١٩) Heyd, Histoire du commerce, vol. 1, P. 171.

(٢٠) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٨ ٠

(٢١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٧٩ ــ ٦٨٠ ٠

وقد استغرق صلاح الدين في عبوره ١٢ يوما ، ومر بالقرب من القواعد الصليبية بالكرك دون أن يخشى اعتراض الصليبيين له لثقته بقوته .

وفي سنة ٥٧٤هـ (١١٨٠م) خرج تورانشاه الأخ الأكبر لصلاح الدين من الشام الى مصر فسلك الطريق من بصرى الى الأزرق(٢٢) فالجفر ثم الى أيلة «العقبة» واتجه بعدها الى سيناء الى صدر القاهرة ، وكان معه في هذه السفرة عدد كبير من التجار والرجال والنساء والأطفال . ونلاحظ مما سبق أن القوافل التي كانت تسلك الطريق الشرقي فباير والجفر - وهي واحات عامرة بالماء والعشب - ثم أيلة فصدر فالقاهرة كانت معظمها قوافل تجارية ، اذ كان يخشى عليها من خطر اعتراض الفرنج في كل من الكرك والشوبك ولهذا كان يفضل المرور من الطريق البعيد عند حافة الصحراء ، أما القوافل العسكرية فكانت لا تخشى المرور بالقرب من تحصينات الفرنج في جنوب الأردن معتمدة في ذلك على قوتها الذاتية .

ولم يلبث كل من الجانبين الاسلامي والصليبي أن أدرك ضرورة تأمين التجارة بينهما لما يعود عليه ذلك من فائدة لكليهما . وعلى هذا النحو نجد صلاح الدين يمنح تجار المدن الايطالية امتيازات خاصة ويشجع التجارة بين مصر وأوروبا ولم تلبث الاسكندرية أن أصبحت بفضل هذه البادرة أهم ثغر تجاري على البحر المتوسط لنقل التجارة القادمة من الهند والصين الى مصر عن طريق عيذاب(٢٣) ، وقد روى ابن جبير صورة حية لما كان يزخر به هذا الميناء من صنوف البضاعة والخيرات(٢٤) . كذلك شجع الفرنج حركة التجارة بينهم وبين المسلمين(٢٥) ، وكانت دمشق المحطة الرئيسية الأولى لهذه التجارة الوافدة من جنوب الجزيرة العربية برا

---

(٢٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦ .

(٢٣) Heyd, Histoire du Commerce, vol. 1, P. 171.

(٢٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٠ .

(٢٥) Heyd, Histoire du Commerce, vol. 1, P. 171.

رانسمان ، ج ٢ ، ص ٢١ .

ومنها الى عكا وصور وبيروت(٢٦) • وقد فرض فرنج الكرك على هـذه القوافل رسوما باهظة(٢٧) سواء القادمة من اليمن ، أو القادمة من مصر الى الشام ، ومن العراق ودمشق الى مصر ، وأصبحت هذه الرسوم تشكل دخلا هاما اليها • حتى ان بارونية الكرك الصليبية كانت أهم بارونيات مملكة بيت المقدس الأربع لكثرة وارداتها الاقتصادية(٢٨) • وتم مرور أول قفل شامي الى مصر دون أن يدفع هذه الرسوم بعد انتصار المسلمين في حطين وافتتاح القدس في سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) فعبر «بلا حق يدفعه ولا مكسب يؤديه»(٢٩) •

ان حركة الاتصال المدني والتجاري عبر الأردن لم تنقطع حتى في أوج الصراع بين المسلمين والصليبيين فكان «اختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع»(٣٠) ، وكذلك من اليمن الى الشام أو العكس • وكانت مكة أهم مركز لتجمع هذه القوافل ، وقد وصفها ابن جبير بقوله : «مجتمع أهل المشرق والمغرب ، فيباع فيها في يوم واحد

---

(٢٦) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٩٣ •
Heyd, Histoire du Commerce, vol. 1, P. 174.
رانسمان ، ج ٣ ، ص ٦١٠ ــ عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٨٩ ج ٢ ، ص ١٢٦٢ •

(٢٧) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٧٦ •
Heyd, Histoire du Commerce, vol. 1, P. 172.
Schlumberger, Renaud de Chatillon, P. 164.
Belloc, The Crusade, P. 234.
رانسمان ، ج ٢ ، ص ١٩ و ج ٣ ، ص ٦١١ ــ نظير سعداوي : التاريخ الحربي المصري ، ص ١٢٦ ــ راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين . ص ٢٤٣ •

(٢٨) هذه البارونيات هي :
أ ــ بارونية يافا •
ب ــ بارونية الجليل (صفد) •
ج ــ بارونية صيدا •
د ــ بارونية شرق الاردن (الكرك) •

(٢٩) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٩٩ •

(٣٠) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٧٦ •

ـ فضلا عما يتبعه ـ من الذخائر النفيسة ، كالجوهر والياقوت وسائر الأحجار ومن أنواع الطيب ، كالمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية الى غير ذلك من جلب الهند والحبشة الى الأمتعة العراقية واليمانية الى غير ذلك من السلع الخراسانية والبضائع المغربية الى مالا ينحصر ولا ينضبط »(٣١) .

أما دمشق فقد كانت أسواقها زاخرة بكل اصناف السلع(٣٢) وكانت القوافل تخرج منها الى السواحل الفلسطينية عبر طريقين : الأول من دمشق على بانياس حيث تدفع المكوس هناك ، «والضريبة فيها دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس»(٣٣) ، وأما ضريبة البضائع فهي قيراط من الدينار البالغ أربعة وعشرون قيراطا . ومن بانياس تتجه القوافل الى عكا على الساحل وكانت من أهم مراكز التجارة لدى الصليبيين في الشام فهي « ملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق »(٣٤) . وكان هذا الطريق وعرا من الصعب سلوكه أو وروده ، لذلك كانت تقصده قوافل البغال(٣٥) لأنها تتحمل المسير في مثل هذه الشعاب . أما الطريق الثاني الخارج من دمشق الى عكا فكان يسير عبر شمال الأردن ، فيمر في مدينة اربد فالقصير في الأغوار فطبرية وينتهي بعكا . هذا الطريق كانت تسلكه قوافل الجمال التي لا تستطيع أن تسير في الشعاب الضيقة والدروب الصعبة كطريق بانياس ـ عكا ، فيفضل هذا الطريق لسهولته(٣٦) .

ولم يفقد الأردن أهميته كحلقة ربط ووصل بين أنحاء العالم الاسلامي طوال العصر الأيوبي حتى بعد حطين ، فكانت القوافل تسلك طريق

---

(٣١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٨ .
(٣٢) Heyd, Histoire du Commerce, vol. 1, P. 171.
(٣٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٩١ .
(٣٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٩٣ .
(٣٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٩٩ .
(٣٦) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٩٩ .

الساحل من مصر الى غزة ثم الى الرملة فاللجون ثم الى القصير[٣٧] فشمال الأردن حيث أربد ثم الى دمشق ، وأصبح هذا الطريق أهم خط للمواصلات وحركة القوافل في الدولة الأيوبية وحتى في زمن المماليك[٣٨] . أما جنوب الأردن فبقي أهم مسلك لقوافل الحجاج من مصر والمغرب والأندلس ولقوافل الحجاج من الشام ، واهتم الملك المعظم عيسى بهذا الطريق اهتماما خاصا فحفر الآبار والبرك على طول الطريق[٣٩] وأصبح عامرا آمنا يسير فيه الحاج دون دليل . وكان هذا الطريق من دمشق الى الكسوة فالصنمين[٤٠] ، ثم زرعة «أزرع» فبصرى ، وفيها يقيم الحجاج أربعة أيام ثم يستأنفون المسير الى داخل الأردن فينزلون على الزرقاء ويقيمون بها يوما أو يومين ثم الى بركة زيزاء قرب عمان ويقيمون بها ثلاثة أيام وبها أسواق عامرة وماء ومعايش ، ومنها الى اللجون على مرحلتين من الكرك . ومنها الى الكرك فينزلون بالثنية ، وهناك يقيمون أربعة أيام يتجهزون للدخول في الصحراء ، ثم الى الحسا ومنه الى معان ، وفيها أقام الملك المعظم عيسى حمامات للحجاج وهيأ لهم سبل الراحة ، ومنها يسيرون الى عقبة الصوان ويدخلون الى تبوك ومن تبوك الى الديار المقدسة وجميع هذه الأماكن عامرة «ذوات ماء وأسواق ومعايش وجلابة»[٤١] .

---

(٣٧) عن اهمية منطقة غور الاردن الشمالي لحركة المواصلات بين مصر والشام والعراق راجع :
Heyd, Histoire du Commerce, vol. 1, P. 173.

(٣٨) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٩ ـ ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

(٣٩) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٧٣ .

(٤٠) مسالك الابصار ، ج ٢ قسم ١ لوحة ١٧١ « مخطوطة » .

(٤١) العمري : مسالك الابصار ، ج ٢ قسم ١ لوحة ١٧١ « مخطوطة » .

(٢)

الحياة العلمية في الامارة

من المآثر الحميدة التي امتاز بها الأيوبيون انشاؤهم المدارس وبناؤها في كل أنحاء دولتهم في الديار المصرية وبلاد الشام ، وقد شجع ملوكهم وأمراؤهم بناء هذه المدارس[٤٢] . وكانوا يهتمون بها كثيرا ويجهزونها بكل ما تحتاج اليه من نفقات كرواتب للمدرسين الذين بلغوا في بعض الاحيان الثلاثين مدرسا[٤٣] أو نفقات اضاءتها واستهلاك المياه وتأثيثها ، بالاضافة الى وجبات الطعام والأرزاق التي تقدم للطلبة . ونتيجة لهذه النفقات الكثيرة عمدت الدولة على تخصيص وقف كبير لكل مدرسة يقوم بتغطية نفقات هذه المدارس ، ولقد وصل الينا نصوص كثيرة عن وقف أسهم وحصص في قرية الطرة الأردنية (شمال شرقي اربد قرب الحدود السورية) على مدارس في دمشق منها المدرسة الظاهرية الجوانية التـي نقش على مدخلها النص التالي : «بسم الله الرحمن الرحيم الذي وقفه على هذه التربة والمدرستين ودار الحديث النبوي الحصة من قرية الطرة من عمل أذرعات ، ومبلغها أحد عشر سهما وثمن سهم من أصل أربعة وعشرين سهما ....»[٤٤] . كما ورد نص على عتبة باب المدرسة الرشيدية التي أنشأتها خديجة خاتون بنت الملك المعظم عيسى ورد فيه من أن جملة ما أوقفته على هذه المدرسة «وحصة بقرية الطرة ثلثا سهم»[٤٥] .

---

(٤٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥٢٨ .
Ziadeh, Urban Life in Syria, P. 156.

احمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الاولى ، ص ٨١ .

(٤٣) Ziadeh, Urban Life in Syria, P. 155.

(٤٤) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ــ دمشق ١٩٤٨ ، ج ١ ، ص ٣٤٨ ، ص ٣٥٨ ،
ورد نص هذا النقش كاملا تحت رقم ٤٧٤٣ صفحة ٢٢٩ الجزء الثاني عشر من كتاب :
Combe, Sauvaget. Wiet,
Repertoire chronologique d'Epigraphie Arabe,
Le Caire, 1931 - 1944.

(٤٥) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٥٧٦ .

ولقد امتاز كل من الملك المعظم عيسى وابنه الملك الناصر داود بتشجيع العلوم واحاطة شخصيتها بطبقة منهم ، وكان الملك المعظم في أكثر الأوقات يحاضر الفقهاء والعلماء(٤٦) ويباحثهم في دقائق العلوم • وفي أواخر أيام حكمه شجع تدريس العلوم الفلسفية في دمشق ، وبعد وفاته أخذ الملك الناصر داود يشجع هذه الدراسات العقلية ، وبعد أن أخرج من دمشق وانتقل الى الكرك مؤسسا امارة الكرك انتقل هذا النوع من الدراسات الفلسفية الى الكرك في حين أبطلها الملك الأشرف في دمشق(٤٧) • وقد أحاط الناصر داود نفسه بالعلماء والأدباء والمؤرخين الفضلاء ، فقاموا هناك بتدريس علوم الطب والفلسفة والأدب والحديث والفقه وغيرها • وقام بعضهم بتصنيف بعض المصنفات في الكرك وقدموها الى الملك الناصر داود منهم شيخ المالكية جمال الدين أبو عمر بن الحاجب الذي غادر دمشق محتجا على سياسة الصالح اسماعيل وتعاونه مع الفرنج ، فقدم الى الكرك حيث أقام في كنف الناصر داود وتمتع بأفياء كرمه فنظم له مقدمته الكافية في النحو وقدمها اليه(٤٨) • كما نبغ عدد من سكان هذه البلاد في صنوف العلوم المختلفة ، وفيما يلي بعض أسماء لمشاهير علماء اشتغلوا بالعلوم في امارة الكرك :

١ ـ العالم الحكيم عبد الحميد بن عيسى بن يونس بن خليل الخسروشاهي ، ونسب الى خسروشاه وهي ضيعة قريبة من تبريز(٤٩) ، ولد فيها سنة ٥٨٠هـ (١١٨٥م) وقد سمع الحديث على المؤيد الطوسي ، كما أخذ العلوم الطبيعية على الامام فخر الدين الرازي(٥٠) • ثم انتقل الى الشام ودرس فيها واتصل بالملك الناصر

---

(٤٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٤١ •

(٤٧) Recueil des Historiens des Croisades, H. orientaux, vol. 4, 192.

(٤٨) ابن واصل : مفرج الكروب (نسخة مكتبة مصطفى فاضل) لوحة ٣٦ « مخطوطة » ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ قسم ٣ لوحة ٥٣٩ « مخطوطة » •

(٤٩) ابن أبي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ج ٢ ، ص ١٧٣ ـ السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٥ ، ص ٦٠ •

(٥٠) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٥٢٧ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٨٥ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٢ •

داود فأعجب بعلمه وحكمته وصار يلازمه ويأخذ عنه ، وبعد خروجه الى الكرك صحبه معه وأقام بالكرك[٥١] حيث شرع في تدريس العلوم الطبية والفلسفية والفقهية والشرعية ، وقد وصف بأنه كان «فقيها أصوليا متكلما محققا بارعا في المعقولات»[٥٢] . أما ابن أبي اصيبعة فيقول عنه : «قد تميز في العلوم الحكمية وحرر الأصول الطبية وأتقن العلوم الشرعية»[٥٣] . وقد كان للخسروشاهي منزلة خاصة لدى الناصر داود فأنعم عليه من احسانه الشيء الكثير ، ومن مصنفاته ، «مختصر المهذب في الفقه» و «مختصر المقالات لابن سيناء» و «تتمة الآيات البينات»[٥٤] . وتوفي في دمشق سنة ٦٥٢هـ (١٢٥٤م) ودفن بجبل قاسيون ومن تلاميذه في الكرك الحكيم أبو الفرج .

٢ - موفق الدين يعقوب بن اسحق بن القف : من أهل الكرك وعميد أسرة القف ، كان صديقا لابن أبي أصيبعة ، كما كان أديبا جيد الحفظ للأشعار ومتمكنا في علم التاريخ وأخبار الأول ، متميزا في اللغة العربية وفنونها الأدبية وعلى معرفة جيدة بكل أصولها وفروعها وبلغ في ذلك درجة كبيرة . وقد امتاز موفق الدين بالخط الجيد الممتاز «وله الخط المنسوب الذي هو نزهة الأبصار ولا يلحقه كاتب في سائر الأقطار والأمصار»[٥٥] ، وقد عمل كاتبا بصرخد في ديوان البر . هذا العالم الأديب الفنان أنجب طبيبا فذا هو الحكيم أبو الفرج الذي خدم العلوم الطبية بمؤلفاته العديدة وهو من تلاميذ شمس الدين عبد الحميد الخسروشاهي .

---

(٥١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٥٢٧ - ابن أبي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الأطباء ، جـ ٢ ، ص ١٧٣ .

(٥٢) السبكي : طبقات الشافعية ، جـ ٥ ، ص ٦٠ .

(٥٣) ابن أبي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، جـ ٢ ، ص ١٧٣ .

(٥٤) السبكي : طبقات الشافعية ، جـ ٥ ، ص ٦٠ .

(٥٥) ابن أبي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، جـ ٢ ، ص ٢٧٣ .

٣ ـ الحكيم أبو الفرج بن موفق الدين بن يعقوب بن اسحق بن القف ، وهو من نصارى الكرك ولد بها في ١٣ ذي القعدة سنة ٦٣٠هـ (٢٢ أغسطس (آب) ١٢٣٣م) ، وتوفي في جمادى الآخرة سنة ٦٨٥هـ (يونيو (حزيران) ١٢٨٦م) • وكان يتصف بالنجابة والذكاء منذ حداثة سنه وقد رغب والده في تعليمه الطب فلازم ابن أبي أصيبعة حتى حفظ الكتب المتداول حفظها آنذاك في صناعة الطب كمسائل حنين والفصول لابقراط ، وعرف شرح معانيها وفهم قواعدها ، كما درس عليه أيضا كتب أبي بكر محمد بن زكريا الرازي في العلاج والمداواة فعرف أصولها وفهم غوامضها وأسرارها ثم قرأ العلوم الحكمية والفلسفية على الشيخ شمس الدين(٥٦) عبد الحميد الخسروشاهي فبرع فيها وأتقنها •

كذلك أخذ أبو الفرج بن القف العلوم على عدد من شيوخ العصر في دمشق نذكر منهم : الحكيم نجم الدين بن المنفاخ ، وموفق الدين يعقوب السامري ، وقرأ كتاب اقليدس على الشيخ مؤيد الدين العرضي واستوعبه وعرف أسراره وغوامضه ، وأصبح حجة في علوم الطب ، وبعدما أنهى دراساته الطبية وأصبح متمكنا من مهنته أخذ يزاول مهنة الطب في مدينة عجلون وقلعتها ، وأقام بها عدة سنوات، ثم انتقل الى دمشق وأقام بقلعتها يعالج المرضى • وقد كان ابن القف الكركي محمود الأفعال مشكورا في سائر الأحوال عالما فذا قدم الكثير من المؤلفات في الطب منها : «كتاب الشافي في الطب» و «شرح الكليات من كتاب القانون لابن سيناء ست مجلدات و «شرح الفصول كتابين» و «مقالة في حفظ الصحة» و «كتاب العمدة في صناعة الجراح عشرين مقالة»(٥٧) ، وهو علم وعمل يذكر فيه جميع ما يحتاج اليه الجرائحي بحيث لا يحتاج الى غيره و «كتاب جامع الغرض مجلد واحد»(٥٨) • لقد قدم الحكيم أبو الفرج خدمة جليلة للعلم والعلماء بهذه المؤلفات العديدة •

---

(٥٦) ابن أبي اصيبعة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ •

(٥٧) نشر هذا الكتاب وطبع في جزئين وذلك في مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الهند ، سنة ١٣٥٦هـ •

(٥٨) ابن أبي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ •

٤ – الحكيم الأجل العالم سديد الدين أبو منصور بن الحكيم موفق الدين يعقوب ، أخذ العلوم الطبية على والده أبو الفرج الطبيب العالم الذي خدم في عجلون ودمشق · كما أخذ على غيره من الأطباء والعلماء وقرأ بالكرك[٥٩] أيضا على الامام شمس الدين الخسروشاهي الكثير من العلوم الطبية ، وبعد أن أنهى علومه وأصبح مكينا في مهنته خدم في الكرك مدينته ، وأقام صحبة الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى ، وقد «كان مكينا عنده معتمدا عليه في صناعة الطب» ، ثم رحل الى دمشق في أخريات حياته وأقام هناك حيث توفي ·

٥ – علي بن يوسف بن حريز بن معضاد بن محمد بن أحمد المشهور بالشيخ نور الدين الشطنوفي اللخمي الشافعي ، أصله من البلقاء[٦٠] وكان أبوه قد رحل الى القاهرة وفيها أنجب ابنه علي في شوال سنة ٦٤٧هـ (يناير (كانون ثاني) ١٢٥٠م) ، فنشأ علي في القاهرة نشأة علمية ، وأخذ القراءات على تقي الدين الجرائدي وزين الدين ابن الجزائري وغيرهما ، ودرس اللغة العربية على صالح بن ابراهيم ابن أحمد الأسعردي امام جامع الحاكم بالقاهرة ، وسمع الحديث والتفسير بالجامع الطولوني · وقد بلغ درجة كبيرة في العلوم والفقه وكان الناس يكرمونه ويعظمونه وينسبونه الى الصلاح وقد ألف «كتاب البهجة» ، وفي الجملة فقد كان عالما تقيا مشكور السيرة توفي في ذي الحجة سنة ٧١٣هـ (مارس (آذار) ١٣١٤م) ·

٦ – ومن أشهر العلماء الذين ، أقاموا بالكرك صحبة الملك الناصر داود ، سبط بن الجوزي ، مؤلف تاريخ مرآة الزمان ، ويروي هذا المؤرخ قصة اتصاله بالناصر ، فيقول : « ولما فارقت دمشق بسبب ما جرى في حديث القدس طلعت الى الكرك وأقمت عند الملك الناصر وكنت أتردد الى القدس ونابلس »[٦١] ·

(٥٩) ابن أبي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ج ٢ ، ص ٢١٦ ·
(٦٠) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢١٦ ·
(٦١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤٧٢ ·

٧ ـ المؤرخ جمال الدين محمد بن سالم بن واصل مؤلف كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، وأبوه سالم بن واصل الفقيه العالم الذي أقام فترة في الكرك صحبة الملك الناصر داود الذي استدعاه من حماة بالاقامة معه ، فقدم ومعه ابنه المؤرخ جمال الدين محمد ، ويقول ابن واصل : «ورد الى والدي رحمه الله كتاب من الملك الناصر صلاح الدين داود بن المعظم صاحب الكرك يستدعيه ، وذلك بعد قدومي من حلب ، فسافرنا الى خدمته في أواخر هذه السنة أعني سنة ثمان وعشرين وستمائة ووصلنا الى خدمته في أوائل سنة تسع وعشرين وستمائة ، فوجدنا منه احسانا كثيرا وتفضلا زائدا وشاهدنا ملكا ذا فضل باهر وعلم زاخر»(٦٢) .

٨ ـ محي الدين أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الشافعي ويعرف بقاضي عجلون(٦٣) ، كان فقيها عالما كريما . حكم بعجلون مدة ، وله شهرة في السخاء وعلو الهمة ، وقد صارت له مكانـــة كبيرة عند الملك الناصر يوسف صاحب دمشق حيث ولاه وكالة بيت المال بدمشق كما ولي والده رشيد الدين قضاء بعلبك .

وقد أقطعه الملك الناصر يوسف عدة قرى ، كما قدم خدمات جليلة للظاهر بيبرس عندما كان هاربا في دمشق بخدمة الملك الناصر . ولما تسلطن الظاهر بيبرس ترجى محي الدين أن يجازيه على خدمته ولكنه لم ينل طائلا . وفي آخر عمره ولي قضاء دمياط وبقي الى أن توفي فيها سنة ٦٨٠هـ (١٢٨١م) .

٩ ـ الطبيب أبو الفضل بن أبي سليمان «كان طبيبا مشهورا في صناعة الطب عالما بها متميزا في المعالجة والمداواة»(٦٤) . أقام بالكرك زمن الملك المعظم عيسى وتوفي بمصر سنة ٦٤٤هـ (١٢٤٦م) .

---

(٦٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣٣٠ .
(٦٣) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٧ ، ص ٦٦ ـ ٦٧ .
(٦٤) ابن أبي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

١٠- ابراهيم بن أبي المجد بن داود بن داود الكركي[٦٥] ، ولد بالكرك سنة ٦٢٤هـ (١٢٣٧م) ، وكان صالحا ملازما للخير والعبادات ، توفي بدمشق في أوائل سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢م) ·

١١- شهاب الدين أحمد بن محمد بن مكيال الربعي الكركي[٦٦] ، كان أديبا عالما ، له تصانيف ونظم ونثر ويد طولي في العربية ، كما كان من أعيان الجند توفي سنة ٦٧٥هـ (١٢٧٦م) ·

١٢- يوسف بن دانيال بن منكلي بن صرف[٦٧] ، القاضي بدر الدين ابن القاضي ضياء الدين قاضي الشوبك ، تفقه ابن دانيال على الشيخ تاج الدين بن الفركاح ، كما سمع من الشيخ شمس الدين ابن أبي عمرو بن البخاري وحدث بدمشق والكرك والشوبك · توفي في شهر رمضان سنة ٧٣١هـ (١٣٣٠م) ·

١٣- جمال الدين أبو الحسن يوسف بن اسرائيل بن يوسف بن أبي الحسن الناصري الكركي[٦٨] ، ولد سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م) ، وسمع من ابن عبد الدائم ، ومن أبي محمد بن عطاء ، ومن الحفاظ ، البرزالي والذهبي وابن رافع وذكروه في معاجمهم ، ومات سنة ٧٣٤هـ (١٣٣٣م) ·

وقد تطورت الحركة العلمية في الأردن وبلغت درجة كبيرة من التقدم نتج عنها نبوغ الكثير من العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والأطباء الكيميائيين · لقد غرس الأيوبيون بذور العلم والمعرفة في أرجاء الأردن ، ولكن ثمار هذه الغراس أتت أكلها وأينعت في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ، فوجد الكثير من العلماء الذين نسبوا الى المناطق العديدة في

---

(٦٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٥٥ ·
(٦٦) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٨ ، ص ١٣٥ ·
(٦٧) السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٦ ، ص ٢٥١ ·
(٦٨) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٥ ، ص ٢٢٥ ·

البلاد ، فمنهم من نسب الى الشوبك والكرك والى حسبان ، وعجلون ، وباعون ، واربد ، وجمحة ، وملكا ، والرمثا وغيرها من المناطق ٠ ولن أغالي أبدا ان قلت : ان الأردن في تاريخها الاسلامي الوسيط قد ساهمت في اغناء المكتبة العربية بالكثير من مؤلفات هؤلاء العلماء ، وبذا شاركت الأردن بعلمائها ورجالها في تطور العلوم الاسلامية والعربية وقدمت للحضارة الانسانية الكثير من نتاج عقول أبنائها في شتى العلوم والمعارف[٦٩] ٠

(٦٩) عن الحركة العلمية في الاردن في العصر المملوكي وترجمة العديد من علمائها انظر كتابي تاريخ شرقي الاردن في عصر دولة المماليك (القسم الحضاري) ، ص ١٢٩ ــ ١٧١ ٠



ملاحق البحث

١ ــ مقتطفات مما ذكره القاضي الفاضل في وصف الكرك.

٢ ــ نص الرسالة المرسلة من الكرك للناصر داود في بلاد آمد ردا على رسالته سنة ٦٢٩ هـ .

٣ ــ نص الرسالة المرسلة من الناصر داود للخليفة في بغداد سنة ٦٣٧ هـ يبشره فيها بفتحه للقدس وتحريرها من الصليبيين .

٤ ــ نص اليمين التي أقسم بهـا الظاهـر بيبرس للملـك المغيث عمر أمير امارة الكرك .

ملحق رقم (١)

ما ذكره القاضي الفاضل في بعض كتبه عن الكرك نقلا عن كتاب الروضتين لأبي شامة ، الجزء الثاني صفحة ٥٥ ـ ٥٦ :

قال في أحد كتبه : «وأما الكرك فكانت المنجنيقات عليه متظافرة ، وحجارتها على من فيه حاجره ، وقد جذعت أنوف الأبرجة وأسبلت قناع الستائر وجوهها المتبرجة ، وكل جوانبها وعرة المرتقى صعبة المحتظى ، والسلطان يستعذب المشقات التي تتفادى منها الهمم ، ويباشر جمرات الشتاء الكالح بوجهه المبتسم» .

ومن كتاب آخر : «وقد جمعت الحجارة في الاسقاط بين رؤوس الأبراج ورؤوس الاعلاج ، فرمت الشراريف والواقفين عليها لحمايتها ، فما أخرج أحد منهم رأسا الا دخل في عينه نصل ، وما هجر قراب الاسلام سيف الا وله مع رقاب الكفر غمد قطعها وصل ، وما على الاسراف والتبذير حجر ، ولكل ليلة من نقع الحوافر ومن سنا الأسنة فجر ، ولقد أخذنا من العدو بالمخنق وشرعنا في طم الخندق ، والحائط واقع ، والواقعة بهم محيطة ، والدروع بالسيوف مفصلة وبالجروح محيطة» .

ومن كتاب آخر : «عذاب الله بالحصن وأهله واقع ما له من دافع ، فان دليل النصر قد ظهر وما دونه مانع ، وأما المنجنيقات فقد تكأت في الأبراج بالهدم وفي الاعلاج بالهتك ، فلم تبق لها الحجارة الطائرة اليها حجارة قائمة ، وأن لها من أمطارها عليها ليلا ونهارا ديمة دائمة ، وأطفنا عليها بالزرجون حتى وقعت الأسوار من سكرها ، وضربنا دونها الستائر حتى ترنمت لصخرها ، وعاطتها كفة المنجيق عقاز عقرها ، فالسور المقابل للمنجنيقات قد انهدمت أبراجه وأبدانه وانهدت قواعده وأركانه ، ولولا الخندق الذي هو واد من الأودية واسع عميق لما تعذر الى الزحف اليهم والهجم عليهم طريق» .

ومن كتاب آخر : «الحصن الذي نحن حاضروه وحاصروه في حصانة الحصانة ، قد هدت الحجارة منه ما أحكموه بالحجارة ، وعدا عليه بالتخريب ما أعدوه للعمارة ، فعسى المنجنيقات ترمي ولا ترنم سهامها ، ويستديم من أعداء الله ومعقلهم بالقتل والهدم انتقامها،فما قابل المنجنيقات من الأبراج والأبدان قد أتى التخريب على ما فيه من العمران ، فلم يبق الا طم الخندق والأخذ بعد ذلك من العدو وبالمخنق ، والقلوب واثقة بحصول الفتح ، وقد علم كل واحد منا أن متجره قد فاز بالربح ، فما يسمع منا بحمد الله من أحد ملل ولا ضجر ، ولا تسفر هذه النوبة ان شاء الله تعالى الا عن نصر وظفر» .

ملحق رقم (٢)

نص الرسالة التي أرسلها الطواشي عزيز الدولة ريحان الى الملك الناصر داود ردا على رسالته التي أرسلها الى الكرك يبشرهم فيها بفتح آمد ، وكان الناصر صحبة الملك الكامل محمد واشتركت قواته في فتحها وذلك سنة ٦٢٩هـ والرسالة من انشاء فخر القضاة شرف الدين بن جمال الدين بن بصاقة . نقلا عن كتاب مفرج الكروب «تاريخ الواصلين» / لوحة ٢٨٠ + ٢٨١ «مخطوط بدار الكتب المصرية» :

أعز الله أيام المقام العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري الصلاحي، ولا زالت البشائر عنه صادرة واليه واردة ، والأقدار لمعاليه مساعفة ولمساعيه مباعدة ، والألسن لسيرته مادحة ، ولسريرته حامدة ، المملوك يقبل الأرض خدمة لا تزال بنزوله زائدة ، وطاعة بعدها لديناه فائدة وأخراه عائدة . ويواصل الادعية الصالحة ما دامت قائمته قائمة ، ويامته ساجدة وينهي ورود المثال الشريف الذي سر الأنفس وأبهجها ، وشرح الصدور وأبلجها ، وسكن الخواطر بعد أن أقلقها البين وأزعجها ، وفتح أبواب الأفراح فما أغلقها ولا أرتجها ، متضمنا أن مولانا السلطان سار في صحبة السلطان الأعظم مصحوبا بالسلامة في عساكر تضاهي النجوم اشراقا وعددا ، البحور أعراقا ومددا ، وجحافل لم يجتمع مثلها في عصر من الأعصار ، ولها دم ومحارم يكاد سنا برقها يذهب بالأبصار ، وفرسان كالأسود ، الا أن براثنها السلاح ، وخيول كالطيور الا أنها تسبق الرياح بلا جناح . وأنه رتب عليها نوب للمخاتلة لا للمقاتلة ، وقصد حفظ حرمة البلد وقتاله بالمطاولة ، وانتظر من صاحبها أن يخرج اليه تائبا ومتضرعا وأن يقد راجعا عما ارتكبه من قبح السيرة ، ومصلحا لأنه أعز الله أنصاره لم يقصده الا غضبا لله لما انتهكه من محارمه ، وشفقة على خلق الله الذين بسط عليهم مذ وليهم أيدي مظالمه فلما أبى الا التمادي في الطغيان والايغال في مهالك العصيان ، وظن أن الثلوج تنجده ، وأن الشيطان يفي له بوعده ، وطالما أخلف من يعده ، واغتنم بأصحابه الذين هم معه بأجسادهم ، وعليه

بقلوبهم ، واطمأن الى رعاياه الذين كانوا قد وقعوا معه بذنوبهم ٠ أمر السلطان الأعظم أعز الله أنصاره أجناده بالزحف ، فتقدمت وزحفت ، وتقدم الى عساكره بالتحرك فتزلزلت الأرض بحركتهم وأرجفت ، ودنا الجيش المنصور الى السور ، فدنا وتدلى ، ورأى الخصم عين القصم ، فعبس وتولى ، وأطلق الجاليش عقائل التراكيش ، فشقت السور وهتكت حجابه وأماط الزراقون لثامه ، وسفر النقابون نقابه ، وأرسلت عليهم الحنايا رسل المنايا ، وخرجت لهم جنايا البلايا من الرزايا ، وأوردتهم الرماح الشرع مشارع الحتوف ٠ وتفرقت منهم الصفوف لما وصلت عليهم السيوف ، وطلعت على الأسوار المنيفة من الأعلام الشريفة ، كل راية صفرا فاقع لونها تسر الناظرين ، وأيد الله الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين وأنهم لما عاينوا من حشد السلطان وحده مالا قبل لهم بمقابلته ، وتحققوا عجزهم عن مقاومته ، أقبل أمراؤه ومقاتلته ورأوا أعلامه تخفض خفضا ، وأعلام السلطان وأحزابه ترفع رفعا ، وأفكروا في صاحبهم أنه لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، لاذوا بالامان طائعين ، ودخلوا في الطاعة ، فذلت أعناقهم لها خاضعين ٠ وان مولانا السلطان أعز الله أنصاره أمين الرعية وأجازها ، وأمن يكفكف القتال ، فوضعت الحرب أوزارها ، وقد أخذ المملوك بحظه من هذه البشرى ، وان عجز عن كفه مقدارها ، وقابل هذه النعمة بالشكر لله ، وان كان لا يقوم بعشر أعشارها وأمر فضربت بوق البشارة على قلة القلعة وأرجاء المدينة ، وحشر الناس ضحى لأنه كان في الحقيقة يوم الزينة فالله سبحانه وتعالى المسؤول أن نعطي الحظ الأوفى والمحل الأعلى ، وهو القائل تعالى : (ولقد آتينا داود منا فضلا) ، واليه الرغبة أن يجعل هذا الفتح مبشرا بأمثاله ويبقى لمولانا من سلطانه الأعظم ركنا لا تطمع الأيام في زواله بمحمد وآله ٠

ملحق رقم (٣)

نص الكتاب الذي أرسله الملك الناصر داود أمير امارة الكرك الأيوبية الى الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة ٦٣٧هـ يبشره بفتحه للقدس وتطهيره من دنس الصليبيين · والرسالة من انشاء الناصر وبخط يده · نقلا عن كتاب الاعلاق الخطيرة لابن شداد ، الجزء الثالث صفحة ٢٢٦ – ٢٣٣ :

بسم الله الرحمن الرحيم

أدام الله ظل الديوان العزيز النبوي ما دامت الأيام والسنون ، وفتح بعزمه مستغلق الحصون ، وأذاع ببركته سر النصر المصون ، وأطلع البشائر ببابه يانعة الثمار ، ناضرة الغصون ، وقضى لأوليائه بنيل المنى، ولأعدائه بنيل المنون ·

العبد يقبل العتبة الشريفة التي تسير بتقبيلها القلوب ، وتقر بتقريبها العيون ، وتود لو اكتحلت بأثمد ترابها الجفون ويصف شوقه الى الخدمة التي تحقق في نعمها الآمال وتصدق في كرمها الظنون ، ومواظبته على الطاعة التي هو وأسلافه عليها يحيون ، وعليها يموتون وعليها يبعثون ·

وينهي أنه طالع المقام الشريف بأمر الهدنة وانقضاء مدتها ، وانفساخ عقدتها ، وعند ذلك أخلى الفرنج – خذلهم الله – القدس الشريف من سكانه ، وانتقل كل منهم عن وطنه الى ما صيره من أوطانه ، وأقام به كند من كنودهم ، ومقدم من جنودهم ، وهو فارس مشهور من فرسانهم ، وطاغية يذكر من شجعانهم ، كان قد عمر قلعة القدس في مدة الهدنة وحصنها ، وملأها بالعدد والآلات وشحنها ، ووصلها ببرج يقال له : «برج داود» النبي – عليه الصلاة والسلام – ابتناه لنفسه مسجدا ، واتخذه لخلوته معبدا · وهو برج عظيم المقدار والحجم ، مساو في المنعة الجبل وفي الرفعة النجم ، ينقلب البصر عن نظره خاسئا وهو حسير ،

ويتهم الراوي في خبره ولو أنه به خبير ، قد بني بالصناح والعمد ، وتأنق بانوه في احكامه فما طال عليهم الأمد ٠

وهو من أسفله الى ثلثه قد صب فيه الحجر والكلس صبا ، وردم بقوة بحيث لو حضره يأجوج ومأجوج ما استطاعوا أن يظهروه ولا استطاعوا له نقبا ، فكأن الله قد ألان لداود الصخر كما ألان له الحديد في بنيانه ٠ أو كأنه استعان في اتقانه بجن سليمانه ، واستغرى اللعين معه طائفة من شجعان الأبطال وأبطال الشجعان ، ومن المشهورين بالشدة والبأس اذ التقى الجمعان ٠ قد ركبوا في الغي رؤوسهم ، ووطنوا على القتل نفوسهم يتهافتون على نار الحرب تهافت الفراش ، ويردون حياض المنون ورود الأبل العطاش ، لا يلتقون سهام القسي الا بنحورهم ، ولا حجارة المنجنيق الا بصدورهم ، وبايعوه على الموت وحالفوا ، وطاوعوه على الضلال فما عصوا ولا خالفوا ٠ ثم عمدوا الى القلعة والبرج فستروهما بالستائر المخلدة ، والخشب المسندة ، والغمد الممددة ، وأوقدوا للحرب نار الشيطان الموصدة لا بل نار الله الموقدة ٠ فنزل العبد عليهم بطائفة من عسكره ، وراوحهم وغاداهم بالمناوشة في أصائل الحصار وبكره ، ورجا بالمطاولة أن يسلموها من غير اراقة دم ، أو قتل موحد يفتدي من المشركين بأمم ، فتجمعوا على الضلال وتألبوا ، وحادوا عن طريق الرشاد وتنكبوا ، وتوثبوا لنصر الصليب وتصلبوا ٠

فقاتل العبد صليبهم بصليب من الرأي لا يعجم عوده ، وقابـل جأشهم بجيش من المصابرة لا يفل جنوده ، وجرد لهم جماعة من عبيد الديوان ترسل اليهم البوائق من نبالها ، وتشهر عليهم الصواعق من نصالها ٠ ونصب عليها المجانيق التي تزاحم الحصون بمناكبها ، وتحرق شياطينها برجوم حجارتها بدلا من نجوم كواكبها ، ومن شأنها أنها اذا قابلت بلدة أخذت بكظمها وقضت برغمها ، وأنزلتها على حكمها ، فرمتهم بثالثة الأثافي من جبالها ، وسحرت أعينهم الا أن الله ما أبطل سحر عصيها ولا سحر حبالها ٠ وأوجد النقابون في الأسوار نقوبا سفرت نقابها ، ورمى الزراقون في الستائر نيرانا هتكت حجابها ٠

وكان الملاعين قد طمحت الى الممانعة عيونهم ، وغلقت بالمصابرة زهونهم ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وجزاهم بما كسبوا ، ومكن أيدي المؤمنين من نواصيهم ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وطلعت على الأسوار المنيفة، من الأعلام الشريفة ، الراية التي أعادت بسناها آية الليل لكن من آياته النهار أبصارا ، وأعظم من النيرين الشمس والقمر ضياء وأبدارا ٠

وأخذ العبد القلعة وتسلمها ، وافترع ذروتها العليا وتسنمها ، وتبرجت له أبراجها المصونة وتجلت ، ومدت له أرضها فألقت ما فيها وتخلت ولجأت من الملاعين طائفة الى «برج داود» ترجو حقن دمائها ، وتقنع بسلامة دمائها ، وما علموا أنهم دخلوا منه سجنا لا حصنا ، ونزلوا به قبرا عجل لهم ، وهم في قيد الحياة دفنا ٠ وسيروا رسولا يطلب لهم الأمان على نفوسهم وأموالهم ، والخروج بما يقدرون عليه من أسلحتهم وأثقالهم ، فما سمع العبد لرسولهم كلاما ، ولا شفا لغلته أواما ، ولا عرج على مخاطبته حتى يقول لجهالته سلاما ، بل أمر الحجارين أن يجدوا في نقب جداره من جميع أقطاره ، ويجتهدوا في قطع حد ماره بقلع أحجاره ، ويوقد على عدو الله نارا تحرقه في الدنيا قبل أن يحرقه الله في الآخرة بناره ٠ فعادوا بعد ذلك سألوا الأمان على نفوسهم والخروج بمجرد نفوسهم ، فأجابهم العبد الى هذه المسألة الهينة الممكنة ، وخرجوا وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ٠

وصارت الى العبد القلعة ارثا عن أبيه ، والبرج ارثا عن سميه ، وهطل عليهم سحاب بركة الديوان العزيز بوسميه ووليه ، واجتمع شمل المساجد الثلاثة بما منح الله من التأييد ، فافترق شمل تثليث الشرك باجتماع ثلاثة التوحيد ، وعطف الله على حزب الايمان بالنصر ، وعاد على حزب الطغيان بالكسر ، وأضحى الباطل وقد عاوده ذله ، ورد الله الحق الى نصابه واليه يرجع الأمر كله ٠

والعبد يظنُّ أن الله تعالى ما أعاد هذا البيت الى العدو بعد فتوحه ، ولا نقله عن الهداة من أمة محمد الى الغواة من عبدة مسيحه ، الا ليسطر

فتحه في سيرة مولانا أمير المؤمنين ، كما سطره في سيرة أمير المؤمنين جده ، ويجري على يد العبد وذويه فيكون قد جرى على يد عبد الديوان ويد جنده ٠

وكلما يجدد الله للعبد من قصر عزيز ، وظفر وجيز ، فهو بعناية امامه الذي يستخرج له التوفيق من وعائه ، ويمد في القرب بجيوش عساكره وفي البعد بجيوش دعائه ٠ وقد سير العبد عبد الديوان «سرخاب» رسوله ليتلو «سورة الفتح» من حفظه ، ويشرح صورة الأمر من لفظه ، فانه كان للفتوح حاضرا ، ولقتال العدو مباشرا ٠

والعبد متردد بين أن يجعل عين هذه القلعة بالهدم أثرا ، وعيانها بالردم خبرا ، ليخمد سرر شرها ، ويؤمن غائلة أمرها ، وينقطع رجاء الكافر من نزالها وحصرها وبين أن يبقيها معقلا لهذا البيت الشريف ، وموئلا للمجاورين فيه من طائفة الدين الحنيف ٠ وأما برج داود فقد تقدم عزم العبد على أن يغض من طرفه ، ويجدع من أنفه ، ويقلل من ارتفاعه ، ويسهل من امتناعه ، ويجعله مسجدا للركوع والسجود ، لا معقلا للجموع والحشود ، ومعبدا يلتزم بمزاره ، لا حصنا يعتصم بأسواره ٠

وهو يسترشد في ذلك الديوان العزيز الذي عليه معتمده ، واليه مرجعه فيما يصدره ويورده ، والله تعالى يجعل حزب الديوان وعبيده حزب الله الغالب ، وحزب عدوه وعدو دينه حزب الشيطان الهارب ، ويقضي له ولمن اعتلق به ببلوغ المطالب والمآرب ٠

ملحق رقم (٤)

نص اليمين التي حلفها السلطان الملك الظاهر بيبرس للملك المغيث عمر أمير الكرك ، وهي بخط القاضي فخر الدين ابراهيم بن لقمان صاحب ديوان الانشاء • وقد وقعها السلطان بخط يده «ومثاله بيبرس» نقلا عن كتاب نهاية الأرب للنويري ، ج ٢٧ ، لوحة ١٠٥ + ١٠٦ ، «مخطوطة بدار الكتب المصرية» :

بسم الله الرحمن الرحيم

أقول وأنا بيبرس ، والله والله والله ، وتالله وتالله وتالله ، وبالله وبالله وبالله العظيم الرحمن الرحيم ، الطالب الغالب الضار النافع عالم الغيب والشهادة والسر والعلانية ، القائم على كل نفس بما كسبت ، والمجازي لها بما احتسبت ، وجلال الله وعظمة الله وكبرياء الله ، وسائر أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ، انني من وقتي هذا وساعتي هذه ، وما مد الله في عمري قد أخلصت نيتي وأصفيت سريرتي وأحملت طويتي في موافقة المولى الملك المغيث فتح الدين عمر بن السلطان الشهيد الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن أيوب ومصافاته ومودته لا أضمر له سوءا ولا غدرا ولا خديعة ولا مكرا ، لا في نفسه ولا في ماله ولا في أولاده ولا في مملكته ، ولا في قلعته ولا في بلاده ولا في أمرائه ، ولا في أجناده ولا في غلمانه ولا في مماليكه ، ولا في الزامه ولا في عربانه ولا في رعيته ، ولا فيما يتعلق به وينسب اليه من قليل وكثير ، وانني والله لا أعارضه ولا أشاققه ولا آمر من يعارضه في بلاده الجارية في مملكته ، وهي قلعة الكرك المحروسة وربضها وسائر عملها ، والغور المعروف بغور زغر بكماله وحد ذلك من القبلة الحسا ، ومن الشمال حد الموجب نصف القنطرة والمسيل ، ومن الشرق الثنتين ، ومن الغرب الشيخة المعروفة بأبي ضابط ومنتهى حد الغور المذكور من القبلة الكثيب الرمل المعروف بالدبة ، ومن الشمال الماء النازل من الموجب الى البحيرة • وانني والله لا آمر ولا أشير ولا أكتب ولا آذن بصريح ولا بكتابة ولا بقبول لأحد في التعرض

لبلاده المذكورة ولا السعي فيها بفساد ، وانني والله متى حضر المولى الملك المغيث فتح الدين عمر المذكور الى خدمتي عند حلولي بالشام المحروس لمنازلة عدو يطرق بلادي أو لعدو يطرق بلاده ، لا أتعرض اليه بأذية ولا أقصده بسوء في نفسه ولا في ماله ولا في بلاده ولا في أمرائه ، ولا في أجناده، ولا في عربانه ، ولا في مماليكه ، ولا في رعيته ولا فيمن يصل صحبته من أصحابه ، وانني والله لا أطالبه ولا أطالب أحدا من أمرائه وأجناده وأصحابه ومماليكه ولا من غلمانه ولا من رعيته ولا من عربانه ولا أحدا من سائر أصحابه بسبب متقدم الى تاريخ هذه اليمين المباركة ولا أمكن أحدا من أمراء دولتي ولا من جندها ولا من سائر مماليكي وأصحابي من الجماعة البحرية وغيرهم من مطالبته ولا مطالبة أحد من أمرائه وأجناده ومماليكه ورعيته وسائر أصحابه أهل الكرك وغيرهم بسبب متقدم عن تاريخ هذه اليمين المباركة صامت كان أو غير صامت من قماش وأثاث وغير ذلك ، وانني والله لا أستخدم أحدا من أمراء المولى الملك المغيث فتح الدين عمر المذكور ولا من أجناده ولا من أجناد أمرائه ولا من مماليكه ولا من مماليك أمرائه ولا من عربانه ولا من غلمانه الا من انفصل عنه بدستور ومتى تسحب أحد من أمرائه أو أجناده أو أجناد أمرائه أو مماليكه أو مماليك أمرائه أو غلمانه أو عربه أو غير ذلك من اصحابه وفلاحي بلاده وحضر الى بلادي أو الى مملكة من مماليكي وألتمس عوده اليه تقدمت باعادته اليه بجهدي وطاقتي ، وانني والله متى قصد بلاد المولى الملك المغيث فتح الدين عمر المذكور مسلما كان أو كافرا أعنته على دفعه وزجره وردعه جهدي وطاقتي وانني والله متى تعرض أحد من عرب بلادي الى بلاد المولى الملك المغيث فتح الدين عمر المذكور أو الى جهة من جهات مملكته ، أو الى أحد من رعيته ، أو أحد من سائر أصحابه أو سعى بفساد فيما يتعلق بمملكته واطلعت عليه تقدمت بزجره وردعه عن ذلك وفعلت في أمره ما يقتضيه السياسة ، وانني والله أفي للمولى الملك المغيث فتح الدين عمر بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب بهذه اليمين من أولها الى آخرها ما دام وافيا لي باليمين التي يحلفه بها ، فانني لا أنقضها ولا شيئا منها ولا أستثني فيها ولا في شيء منها ، ولا أستفتي فيها ولا في شيء منها طلبا لنقضها أو نقض شيء منها ، ومتى

نقضتها أو نقضت شيئا منها أو استثنيت فيها أو في شيء منها ، أو استفتيت فيها أو في شيء منها طلبا لنقضها أو نقض شيء منها ، فكلما أملكه من صامت وناطق صدقة على الفقراء والمساكين من المسلمين ، وكل مملوك أو أمة في ملكي أو أتملكها فيما بقي من عمري حر من أحرار المسلمين وعلى الحج الى بيت الله الحرام بمكة ثلاثين حجة متواليات كوامل ، حافيا حاسرا ، وعلى أن أفك عشرة آلاف رقبة من أيدي الكفار ان خالفت هذه اليمين أو شيء منها ، وهذه اليمين يميني ، وأنا بيبرس ، والنية فيها بأسرها نية المولى الملك المغيث فتح الدين عمر بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب ، ونية مستحلفي له بها أشهد الله علي بذلك وكفى به شهيدا فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما ٠

وشهد على السلطان الملك الظاهر بهذه اليمين من نذكرهم وهم : الأتابك فارس الدين أقطاي ، وأقوش النجيبي ، وقلاوون الألفي ، وأيدمر الحلي ، وبيسري الشمسي ، وبيليك الخزندار ، وأيبك الأفرم ، وكاتب اليمين ابراهيم بن لقمان بن أحمد ٠

وهي مؤرخة في الثالث والعشرين من المحرم سنة ستين وستمائة وشهد على السلطان اثنان ممن حضر من الكرك وهما : أمجد الكركي وهو كاتب الملك المغيث وكان قد أمره ، وآخر لم أحقق اسمه عند قراءته ، وتأخر رسم خط الشهود خط المستحلف وصورته ٠

أحلفت مولانا السلطان الكبير العالم المجاهد المرابط المؤيد المنصور الملك الظاهر أبي الفتح بيبرس بن عبد الله الصالحي ، أعز الله سلطانه بهذه اليمين المباركة من أولها الى آخرها على الوجه المشروح فيها تاريخ الثالث والعشرين من المحرم سنة ستين وستمائة أحسن الله بقضيها ، وكتبه خزاعة بن عبد الله الرزاق بن علي حامدا الله تعالى ومصليا ٠



المصادر والمراجع العربية والأوروبية

١ ــ المصادر العربية المخطوطة

٢ ــ المصادر العربية المطبوعة

٣ ــ المراجع العربية الحديثة

٤ ــ المصادر والمراجع الأوروبية المترجمة والمعربة

٥ ــ المصادر والمراجع باللغات الأوروبية

أولا : المصادر العربية المخطوطة

١ ـ ابن اياس : محمد بن أحمد الحنفي المصري المتوفي سنة ٩٣٠هـ (١٥٢٤م) « نسق الأزهار في عجيب الأقطار » مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٤٣٩ جغرافيا ٠

٢ ـ ابن آيبك : سيف الدين أبو بكر بن آيبك الدواداري المتوفى سنة ٧٣٦هـ (١٣٣٥م) ، «درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان» مخطوط مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ٨٣٢٨ ج ٠

٣ ـ ابن أبي الدم : شهاب الدين ابراهيم بن أبي الدم الحموي ، المتوفى سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) «التاريخ المظفري» مخطوط مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ١٢٩٢ ب ٠

٤ ـ ابن الجوزي (سبط) : شمس الدين أبو المظفر يوسف بن غزا أوغلي ابن عبدالله يوسف سبط بن الجوزي المتوفي سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» الجـزء الثامـن ، مخطوط مصور بشيكاغو تبدأ من سنة ٤٩٥هـ الى سنة ٦٥٤هـ ، مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ١٨٧٨ ب ٠

٥ ـ ابن الجوزي «سبط» : «شذور العقود في تاريخ العهود» مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٩٩٤ تاريخ ٠

٦ ـ ابن جماعة الحموي : بدر الدين محمد بن جماعة المتوفى سنة ٨١٩هـ (١٤١٦م) «تحرير الأحكام في تدبير أهل الاسلام» مخطوط مكتبـة بلدية الاسكندرية رقم ٣٦٣٨ ج ٠

٧ ـ ابن دقماق : صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي المتوفى سنة ٨٠٩هـ (١٤٠٧م) «الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين» مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٥٢٢ تاريخ ٠

٨ ـ ابن دقماق : «نزهة الأنام في تاريخ الاسلام» الجزء السادس تبدأ من سنة ٦٢٨هـ الى ٦٥٩هـ . مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٧٤٠ تاريخ ٠

٩ ـ ابن سباهي : محمد بن سباهي المتوفى سنة ٩٩٧هـ (١٥٨٩م) «أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك» مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١ م جغرافيا ٠

١٠ـ ابن شاكر الكتبي : محمد بن أحمد بن شاكر ، المتوفى سنة ٧٦٤هـ (١٣٦٣م) «عيون التواريخ» الجزء ١٢ من سنة ٦٤٥ ـ ٦٧٠هـ ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٩٤٩ تاريخ ٠

١١ـ ابن قاضي شهبة : بدر الدين محمد بن أبي بكر بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي ، المتوفي سنة ٨٧٤هـ (١٤٦٩م) «سيرة الملك العادل نور الدين الشهيد» ، مخطوط مكتبة بلدية الاسكندرية . رقم ١٣٣٦ ب ٠

١٢ـ ابن منكلي : محمد بن منكلي الداعي ، المتوفى سنة ٧٧٨هـ (١٣٧٦م) ، «كتاب الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية في فن القتال في البحر» مخطوط مكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية رقم ٩ م ٠

١٣ـ ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم المتوفى سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٨م) «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، «تاريخ الواصلين» مخطوط دار الكتب المصرية ، رقم ٥٣١٩ تاريخ ٠ «ونسخة مكتبة مصطفى فاضل» مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣١ م تاريخ ٠

١٤ـ أبو المحاسن : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي المتوفى سنة ٨٧٤هـ (١٤٦٩م) «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» ٣ أجزاء ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٣٥٥ تاريخ ٠

١٥ـ بيبرس الدوادار : ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار ، المتوفى سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٥م) «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة» الجزء التاسع مخطوط مكتبة جامة القاهرة رقم ٢٤٠٢٨ ٠

١٦ـ با مخرمة : أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بن علي ، المتوفى سنة ٩٤٧هـ (١٥٤٠م) «قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر» ، ٣ أجزاء في ست مجلدات ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٦٧ تاريخ ٠

١٧ـ الجزري : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مجد الدين ابراهيم ابن أبي بكر ، المتوفى سنة ٧٣٩هـ (١٣٣٩م) «كتاب تاريخ جليل دمشق والشام والعراق ومصر والحبشة» ٣ أجزاء ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٩٩٥ تاريخ ٠

١٨ـ الذهبي : أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان قايماز ، المتوفى سنة ٨٤٨هـ (١٤٤٤م) «تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام من الهجرة الى سنة ٧٠٠هـ أو «تاريخ الذهبي» مجلد ٢٦ من سنة ٥٣٢ ـ ٥٥٠هـ ، ومجلد ٣٣ من سنة ٦٩١ ـ ٧٠٠هـ ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٤٢ تاريخ ٠ ومجلد رقم ٤ من سنة ٥٥١ ـ ٥٩٦هـ ، ومجلد آخر من سنة ٦٩١ ـ ٧٠٠هـ مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٣٩٦ تاريخ ٠

١٩ـ السلامي : شهاب الدين أحمد (عاش في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي) «مختصر التواريخ» مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٩٠٥١ ج ٠

٢٠ـ السيوطي : شمس الدين محمد بن أحمد المنهاجي السيوطي المتوفى سنة ٨٧٥هـ (١٤٧٠م) «اتحاف الاخصا في فضائل المسجد الاقصى» مخطوط مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ٣٢١٧ ج ٠

٢١ـ الصفدي : صلاح الدين خليل بن آيبك ، المتوفى سنة ٧٦٤هـ (١٣٦٣م) ، «اعيان العصر واعوان النصر» الموجود الاجزاء ٣،٦،٧ مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٠٩١ تاريخ ٠

٢٢ـ العمري : شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري ، المتوفى سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» ، ٢٠ جزء في ٤٢ مجلد ٠ القسم الأول من الجزء الثاني ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٥٥٩ معارف عامة ٠ والجزء الثاني من المجلد الثالث ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٨ تاريخ والقسم الثاني والثالث من الجزء ١٦ من سنة ٥٦٥ ـ ٧٠٩هـ ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٨ تاريخ ٠

٢٣ـ العيني : بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى ، المتوفى سنة ٨٥٥هـ (١٤٥١م) «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» ٢٣ جزءا في ٦٩ مجلدا ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ ٠

٢٤ـ النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد ، المتوفى سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٣م) ، «نهاية الارب في فنون الأدب» الأجزاء من ٢٧ ـ ٣١ مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة ٠

ثانيا : المصادر العربية المطبوعة

٢٥ـ ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الواحد الشيباني ، المتوفى سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) «الكامــل في التاريخ» ١٢ جزءا دار صادر بيروت ١٩٦٦م ٠

٢٦ـ ابن الأثير : «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية» تحقيق عبد القادر طليمات ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٣م ٠

٢٧ـ ابن آيبك : أبو بكر بن عبدالله بن آيبك الدواداري ، المتوفى سنة ٧٣٦هـ (١٣٣٥م) ، «كنز الدرر وجامع الغرر» الجزء السابع وهو «الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب» حققه سيد عاشور ، مطبعة دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٧٢م ٠

٢٨ـ ابن أبي اصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي الخزرجي ، المتوفى سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩م) ، «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ٢ جزء ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ١٨٨٢م ٠

٢٩ـ ابن اياس : أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي المصري ، المتوفى سنة ٩٣٠هـ (١٥٢٤م) «تاريخ مصر المعروف باسم بدائع الزهور في وقائع الدهور» ٣ أجزاء ، مطبعة بولاق ، القاهرة ١٨٩٤م ٠

٣٠ـ ابن بطوطة : أبو عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي ، المتوفى سنة ٧٧٩هـ (١٣٧٧م) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» المعروف «برحلة ابن بطوطة» ٢ جزء المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٥٨م ٠

٣١ـ ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي ، المتوفى سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م) «تذكرة الأخبار في اتفاقات الأسفار» المشهـور «رحلة ابن جبير» تحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥م ٠

٣٢ـ ابن الجوزي : الامام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد علي المعروف بابن الجوزي ، المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠٠م) ، «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» ٦ مجلدات من الجزء ٥ الى ١٠ ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الهند ، ١٣٥٧ ـ ١٣٥٩هـ ٠

٣٣ـ ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي البغدادي المتوفى سنة ٣٨٠هـ (٩٩٠م) «المسالك والممالك والمفاوز والمهالك» دار الحياة بيروت ٠

٣٤ـ ابن حجر العسقلاني : أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمود الشافعي ، المتوفى سنة ٨٥٢هـ (١٤٤٨م) ، «أنباء الغمر بأنباء العمر» ، ٣ أجزاء ، حققه حسن حبشي ، مؤسسة دار التحريـر للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٩م ٠

٣٥ـ ابن حجر العسقلاني : «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» ٥ أجزاء حققه محمد سعيد جاد الحق ، مطبعة المدني القاهرة ، ١٩٦٦م ٠

٣٦ـ ابن خلدون : عبد الرحمن محمد بن خلدون المغربي المتوفى سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٦م) «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» ، ٧ أجزاء ، مطبعة دار الطباعة العامرية ، بولاق ، القاهرة ١٢٨٤هـ ٠

٣٧ـ ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة ، المتوفى سنة ٣٠٠هـ (٩١٣م) «المسالك والممالك» طبع ليدن ١٣٠٩هـ ٠

٣٨ـ ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم المتوفى سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م) «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» ٦ أجزاء طبع محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨م ٠

٣٩ـ ابن دقماق : ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي ، المتوفى سنة ٨٠٩هـ (١٤٠٧م) «الانتصار لواسطة عقد الأمصار» ، الجزء الرابع والخامس ، المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق ١٨٩٣م ٠

٤٠ـ ابن رستة : أبو علي أحمد بن عمر ، المتوفى سنة ٢٩٠هـ (٩٠٣م) « الاعلاق النفيسة » طبع ليدن ، ١٨٩١م ٠

٤١ـ ابن الراهب : بطرس أبو شاكر بن أبي الكرم ابن المهذب القبطي المتوفى سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م) «تاريخ أبي شاكر» المطبعة اليسوعية بيروت ١٩٠٣م ٠

٤٢ـ ابن سناء الملك : القاضي عز الدين أبو القاسم هبة الله بن جعفر ابن محمد ، المتوفى سنة ٦٠٨هـ (١٢١٢م) ، «ديوان ابن سناء الملك جزءان ، حققه محمد عبد الحق ، مطبعة دائرة المعارف الهند ، ١٩٥٨م ٠

٤٣ـ ابن سعيد : أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك المتوفى سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) «النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة» وهو القسم الخاص بالقاهرة من كتاب «المغرب في حلي المغرب» ، تحقيق حسين نصار ، مطبعة دار الكتب،القاهرة ١٩٧٠م٠

٤٤ـ ابن الساعي : أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين ، المتوفى سنة ٦٧٤هـ (١٢٧٥م) «الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير» ، الجزء التاسع ، حققه مصطفى جواد ، المطبعة السريانية الكاثوليكية ، بغداد ١٩٣٤م ٠

٤٥ـ ابن شاكر الكتبي : محمد بن أحمد بن شاكر الحلبي . المتوفى سنة ٧٦٤هـ (١٣٦٣م) «فوات الوفيات» ٢ جزء حققه محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥١م ٠

٤٦ـ ابن شداد : عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم المتوفى سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) «الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» ٣ أجزاء المطبعة الكاثوليكية . بيروت ١٩٥٣ـ١٩٦٣م ٠ تحقيق دومنيك سورديل وسامي الدهان ٠

٤٧ـ ابن الشحنة : محب الدين أبو الفضل محمد بن الشحنة الحنبي المتوفى سنة ٨٩٠هـ (١٤٨٥م) ، «الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب» ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٠٩م .

٤٨ـ ابن شاهين : غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ، المتوفى سنة ٨٧٣هـ (١٤٦٩م) ، «كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك» صححه بولس راويس ، طبع باريس ١٨٩٤م .

٤٩ـ ابن شداد : القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة ، المتوفى سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٤م) «كتاب سيرة صلاح الدين» ، المسماة «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» مطبعة التمدن القاهرة ١٩٠٣م .

٥٠ـ ابن الصيرفي : علي بن داود بن ابراهيم المعروف بالخطيب الجوهري وبابن الصيرفي ، المتوفى سنة ٩٠٠هـ (١٤٩٤م) «نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان» ٣ أجزاء تحقيق حسن حبشي ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤م .

٥١ـ ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي ، المتوفى سنة ٧٠١هـ (١٣٠١م)،الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية» مطبعة الموسوعات ، القاهرة ١٣١٧هـ .

٥٢ـ ابن طولون الصالحي : شمس الدين محمد بن علي بن محمد بن طولون الصالحي الدمشقي ، المتوفى سنة ٩٥٣هـ (١٥٤٦م) «مفاكهة الخلان في حوادث الزمان تاريخ مصر والشام» ٢ جزء ، تحقيق محمد مصطفى المؤسسة المصرية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٢م .

٥٣ـ ابن ظهيرة : أبو اسحق برهان الدين بن علي بن محمد بن عطية ، المتوفى سنة ٨٩١هـ (١٤٨٦م) «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة» ، حققه مصطفى السقا وكامل المهندس ، مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٦٩م .

٥٤ـ ابن العبري : غريغوريوس أبو الفرج بن هرون الطيب الملطي ، المتوفى سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) «مختصر تاريخ الدول» نشره الأب أنطون صالحاني اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٨٩٠م .

٥٥ـ ابن عساكر : ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله المتوفي سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م) «تاريخ مدينة دمشق» المجلدة الأولى تحقيق صلاح المنجد ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٥١م ٠

٥٦ـ ابن عساكر : «التاريخ الكبير» ٦ أجزاء ، تهذيب عبد القادر أحمد ابن مصطفى بن رائق ، مطبعة الروضة ، دمشق ١٣٢٩ ـ ١٣٣٢هـ٠

٥٧ـ ابن العديم : كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله المتوفى سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م) «زبدة الحلب في تاريخ حلب» ٢ جزء تحقيق سامي الدهان ، المطبعة الكاثوليكية ، دمشق ١٩٥١ ـ ١٩٥٤م ٠

٥٨ـ ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المتوفي سنة ٨٠٧هـ (١٤٠٤م) «تاريخ ابن الفرات» الأجزاء ٩،٨،٧، حققه قسطنطين زريق المطبعة الأميركانية ، بيروت ١٩٣٩م ٠

٥٩ـ ابن الفقيه : أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني ، المتوفى سنة ٢٩٠هـ (٩٠٣م) «مختصر كتاب البلدان» طبع ليدن ، ١٣٠٢هـ ٠

٦٠ـ ابن الفوطي : عبد الرزاق بن أحمد بن محمد بن عباس الملقب بكمال الدين ، المتوفى سنة ٧٢٣هـ (١٣٢٣م) «الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة» حققه مصطفى جواد ، مطبعة الفرات ، بغداد ١٣٥١هـ ٠

٦١ـ ابن القفطي : جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم ، المتوفى سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م) «تاريخ الحكماء» وهو مختصر الزوزني من كتاب «أخبار العلماء بأخبار الحكماء» ليبزج ١٩٠٣م ٠

٦٢ـ ابن القلانسي : أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي بن محمد المتوفى سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) «ذيل تاريخ دمشق» مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨م ٠

٦٣ـ ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي المتوفى سنة ٧٧٤هـ (١٣٧٢م) «البداية والنهاية» ١٤ جزءا ، مطبعة السعادة القاهرة ١٣٥٨هـ ٠

٦٤ـ ابن اللباد البغدادي : موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف ابن محمد بن علي ، المتوفى سنة ٦٢٩هـ (١٢٣٢م) « كتاب الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » مطبعة وادي النيل القاهرة ١٢٨٦هـ ٠

٦٥ـ ابن منقذ : مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن رشد الكناني الشيزري المتوفى سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) «الاعتبار أو حياة أسامة» حققه هو توبغ درنبرغ ليدن ١٨٨٤م ٠

٦٦ـ ابن مماتي : القاضي الوزير شرف الدين أبو المكارم الأسعد بن مليح ، المتوفى سنة ٦٠٦هـ (١٢٠٩م) «كتاب قوانين الدواوين» . نشره عزيز سوريال ، دار الأحياء العربية ، القاهرة ١٩٥٨م ٠

٦٧ـ ابن هشام : محمد بن عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المتوفى سنة ٢١٨هـ (٨٣٢م) «السيرة النبوية» ٤ أجزاء ، حققها : مصطفى السقا ، ابراهيم الابياري ، عبد الحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٣٦م ٠

٦٨ـ ابن الوردي : سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد ، المتوفى سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) «تتمة المختصر في أخبار البشر ويعرف بتاريخ ابن الوردي ٢ جزء ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ١٢٨٥هـ ٠

٦٩ـ ابن الوردي : «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» مطبعة عثمان عبد الرزاق ، القاهرة ١٣٠٣هـ ٠

٧٠ـ ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، المتوفى سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٨م) «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» ٤ أجزاء ٠ الأجزاء الثلاثة الأولى حققها جمال الدين الشيال ، المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٦٠م والجزء الرابع والخامس حققه حسنين ربيع وسعيد عاشور ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٢م ، ١٩٧٧م ٠

٧١ـ أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان المقدسي ، المتوفى سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٧م) «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» ٢ جزء حققه محمد حلمي محمد ، المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢م ٠

٧٢ـ أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف «بالذيل على الروضتين» نشره السيد عزت العطار الحسيني ، القاهرة ١٩٤٧م ٠

٧٣ـ أبو الفلاح : عبد الحي بن العماد الحنبلي ، المتوفى سنة ١٠٨٩هـ (١٦٧٨م) «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» ٨ أجزاء ، مكتبة القدس ، القاهرة ١٣٥٠هـ ـ ١٣٥١هـ ٠

٧٤ـ أبو الفداء : الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين المتوفى سنة ٧٣٢هـ (١٣٣١م) «تقويم البلدان» مطبعة المثنى، بغداد ١٨٥٠م ٠

٧٥ـ أبو الفداء : «المختصر في أخبار البشر» ٤ أجزاء ، المطبعة الشاهانية، القسطنطينية ١٢٨٦هـ ٠

٧٦ـ أبو الفداء : «سيرة السلطان الناصر صلاح الدين» ترجمة البرتوس سكو لتنس ليدن ١٧٣٢م مجموع من سيرة السلطان صلاح الدين من ابن شداد وأبو الفداء والأصفهاني ٠

٧٧ـ أبو المحاسن : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ، المتوفى سنة ٨٧٤هـ (١٤٦٩م) ٠ «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» ١٦ جزءا القاهرة ١٩٣٢ ـ ١٩٧٢ ٠

٧٨ـ أبو المحاسن : «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» الجزء الأول حققه أحمد يوسف نجاتي ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٥٦م ٠

٧٩ـ الاصطخري : أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري (عاش في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي) ٠ «مسالك الممالك» طبع ليدن ، ١٩٢٧م ٠

٨٠ـ البلاذري : «أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩هـ (٨٩٢م) «فتوح البلدان» نشر دي جويه ، بريل ١٨٦٦م ٠

٨١ـ البكري : أبو عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي ، المتوفى سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع» ٤ أجزاء حققه مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٤٥ ـ ١٩٥١م ٠

٨٢ـ البنداري : قوام الدين الفتح علي بن محمد البنداري الأصفهاني ، المتوفى سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) «سنا البرق الشامي» مختصر البرق الشامي لعماد الدين الكاتب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠٠م) حققه رمضان ششن ، مطابع الأمان ، بيروت ١٩٧٠م ·

٨٣ـ البنداوي : «تاريخ دولة آل سلجون» مختصر تاريخ دولة آل سلجون للعماد الكاتب الأصفهاني ، مطبعة الموسوعات ، القاهرة ١٩٠٠م ·

٨٤ـ البيروني : أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي ، المتوفى سنة ٤٤٠هـ (١٠٤٨م) · «الآثار الباقية عن القرون الخالية» ليبزج ، ليدن ١٩٢٣م ·

٨٥ـ الحنبلي : أبو اليمن القاضي مجير الدين الحنبلي المتوفى سنة ٩٢٧هـ (١٥٢١م) «كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» ٢ جزء المطبعة الوهبية ، القاهرة ١٢٨٣هـ ·

٨٦ـ حاجي خليفة : مصطفى المسمى كاتب شلبي ، المتوفى سنة ١٠٦٧هـ (١٦٥٧م) «كشف الظنون على أسامي الكتب والفنون» ٢ جزء ، حققه محمد شرف الدين ورفعت بيلكة ، القاهرة ١٩٤١م ·

٨٧ـ الدمشقي : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري المتوفى سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٧م) «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» طبع بطرسبرج ١٨٦٦م ·

٨٨ـ الذهبي : الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان قايماز ، المتوفى سنة ٨٤٨هـ (١٤٤٤م) «دول الاسلام» ٢ جزء ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، محمد مصطفى ابراهيم ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤م ·

٨٩ـ السيوطي : الحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ (١٥٠٥م) «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» ٢ جزء ، حققه محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٨م ·

٩٠ـ السيوطي : «تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة» حققه محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٢م ·

٩١- السخاوي : الامام عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان السخاوي ، المتوفى سنة ٩٠٢هـ (١٤٩٦م) «الذيل على رفع الاصر ، أو بغية العلماء والرواة» حققه جودة هلال ، محمود محمد صبح ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٦م ٠

٩٢- السبكي : تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي ، المتوفى سنة ٧٧١هـ (١٣٧٠م) ٠ « طبقات الشافعية الكبرى » ٦ اجزاء ، المطبعة الحسينية ، القاهرة ١٣٢٤م ٠

٩٣- الشافعي : أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي ، المتوفى سنة ٢٠٤هـ (٨١٩م) ٠ « كتاب الام » ٧ اجزاء ، كتاب الشعب ، القاهرة ١٩٦٨م ٠

٩٤- الشوكاني : محمد بن علي الشوكاني ، المتوفى سنة ١٢٥٠هـ ١٨٣٤م « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » ٢ جزء ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٤٨هـ ٠

٩٥- صالح بن يحيى : صالح بن يحيى بن صالح بن الحسين ، المتوفى في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ٠ « تاريخ بيروت » حققه الاب لويس شيخو ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٢٧م ٠

٩٦- الصفدي : صلاح الدين خليل بن آيبك بن عبد الله الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤هـ (١٣٦٢م) ٠ « الوافي بالوفيات » تحقيق هـ٠ ريتر ، ٨ اجزاء ، مطبعة صادر بيروت ١٩٦٣ - ١٩٧١م ٠

٩٧- العمري : شهاب الدين احمد بن فضل الله العمري ، المتوفى سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) ٠ « مسالك الابصار في ممالك الامصار » الجزء الاول حققه احمد زكي باشا ، مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٢٤م ٠

٩٨- عمارة اليماني : أبو محمد عمارة بن ابي الحسن علي بن زيدان المتوفى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) « النكت العصرية في اخبار الوزارة المصرية » ٢ جزء ، باريس ١٩٠٢م ٠

٩٩- العماد الاصفهاني : أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبو الفرج محمد بن نفيس ، المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠٠م) ٠ « الفتح القسي في الفتح القدسي » حققه محمد محمود صبح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥م ٠

١٠٠ـ القرماني : أبو العباس احمد بن يوسف بن احمد الدمشقي ، المتوفى سنة ١٠١٩هـ (١٦١٠م) ٠ « اخبار الدول وآثار الاول في التاريخ » بغداد ١٢٨٢هـ ٠

١٠١ـ القلقشندي : أبو العباس احمد بن علي بن احمد بن عبد الله بن ابي اليمن ، المتوفى سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م) ٠ « صبح الاعشى في صناعة الانشا » ١٤ جزءا ، القاهرة ١٩٦٣م ٠

١٠٢ـ القزويني : القاضي زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، المتوفى سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) ٠ « آثار البلاد واخبار العباد » طبع غوتنجن، المانيا ١٨٤٨م ٠

١٠٣ـ المتنبي : أبو الطيب احمد بن الحسين بن مرة الكندي المشهور بالمتنبي ، المتوفى سنة ٣٥٤هـ (٩٦٥م) ٠ « شرح ديوان المتنبي » لعبد الرحمن البرقوقي ، ٤ اجزاء ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٣٨م ٠

١٠٤ـ المقريزي : تقي الدين احمد بن علي المقريزي ، المتوفى سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م) « السلوك لمعرفة دول الملوك ، ٤ اجزاء ، الاول والثاني تحقيق محمد مصطفى زيادة ، ١٩٣٤ ــ ١٩٤٢م والثالث والرابع تحقيق سعيد عاشور ، مطبعة الكتب ، القاهرة ١٩٧٠ ــ ١٩٧٣ ٠

١٠٥ـ المقريزي : « اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا » ٣ اجزاء، حققه محمد حلمي محمد ، مطابع الاهرام التجارية ، القاهرة ١٩٧٣م ٠

١٠٦ـ المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، ٤ اجزاء ، مطبعة النيل ، القاهرة ١٣٢٤هـ ٠

١٠٧ـ المقريزي : شذور العقود في ذكر النقود ، تحقيق محمد صادق آل بحر ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، العراق ١٣٥٦هـ ٠

١٠٨ـ المقريزي : « اغاثة الامة بكشف الغمة » حققه محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، طبعة اولى ١٩٤٠م ، طبعة ثانية ١٩٥٧م ٠

١٠٩ـ المقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد المتوفى سنة ٣٧٥هـ (٩٨٥م) . « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » ٢ جزء ، طبعة ثانية ، ليدن ١٩٠٩م .

١١٠ـ النعيمي : عبد القادر محمد بن عمر بن يوسف النعيمي الدمشقي ، المتوفى سنة ٩٢٧هـ (١٥٢١م) . « الدارس في تاريخ المدارس » ٢ جزء ، حققه جعفر الحسيني ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٤٨ .

١١١ـ ياقوت الحموي : شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي ، المتوفى سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) . « معجم البلدان » ١٠ اجزاء ، مطبعة دار السعادة ، القاهرة ١٩٠٧م .

١١٢ـ ياقوت الحموي : « المشترك وضعا والمفترق صقعا » طبع جوتنجن ، المانيا ١٨٤٦م .

١١٣ـ اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن واضح ، المتوفى سنة ٢٨٤هـ (٨٩٧م) « كتاب البلدان » حققه ديغويه ، مطبعة ليدن ، ١٨٩١م .

ثالثا : المراجع العربية الحديثة

١١٤ـ ابراهيم : نجيب ميخائيل ، « مصر والشرق الادنى القديم » ، مصر ، الجزء الاول ، مطبعة الاسكندرية ، الاسكندرية ١٩٦٤م .

١١٥ـ احمد : دكتور احمد عبد الرزاق ، « دراسات في المصادر المملوكية المبكرة » مطبعة الكيلاني ، القاهرة ١٩٧٤م .

١١٦ـ أبو حديد : محمد فريد ، « صلاح الدين الايوبي وعصره » لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ١٩٢٧م .

١١٧ـ الابياري : ابراهيم ، « البطل الخالد صلاح الدين والدولة الايوبية » دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٢م .

١١٨ـ البابائي : اسماعيل باشا محمد ، « كتاب ايضاح المكنون من الذيل على كشف الظنون على اسامي الكتب والفنون » ٢ جزء ، القاهرة ١٩٤٥م .

١١٩ـ بيومي : علي ، قيام الدولة الايوبية في مصر ، دار الفكر الحديث للنشر ، القاهرة ١٩٥٢م ٠

١٢٠ـ البراوي : دكتور راشد ، « حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين » مطبعة دار السعادة ، القاهرة ١٩٤٨م ٠

١٢١ـ آل تقي الدين : محمد أديب ، « كتاب منتخبات التواريخ لدمشق » ٣ اجزاء ، المطبعة الحديثة ، دمشق ١٩٢٧ ـ ١٩٣٤م ٠

١٢٢ـ توفيق : دكتور عمر كمال ، « مملكة بيت المقدس الصليبية » مطبعة رويال ، اسكندرية ١٩٥٨م ٠

١٢٣ـ توفيق : « وليم الصوري » فصلة من مجلة كلية الآداب ، جامعة اسكندرية ، المجلد الحادي والعشرون سنة ١٩٦٧م ٠

١٢٤ـ الجميلي : رشيد ، « دولة الاتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي » دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٠م ٠

١٢٥ـ حسن : دكتور حسن ابراهيم ، « تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي » ٥ اجزاء ، القاهرة ١٩٦٨م ٠

١٢٦ـ حبشي : دكتور حسن ، « الحرب الصليبية الاولى » مطبعة الاعتماد ، القاهرة ١٩٤٧م ٠

١٢٧ـ حبشي : « نور الدين والصليبيون » القاهرة ١٩٤٨م ٠

١٢٨ـ حمدي : حافظ احمد ، « الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي » مطبعة الاعتماد ، القاهرة ١٩٥٠م ٠

١٢٩ـ حسن : دكتور زكي محمد ، « في مصر الاسلامية » مطبعة المقتطف والمقطم ، القاهرة ١٩٣٧م ٠

١٣٠ـ حسن : « كنوز الفاطميين » مطبوعات دائرة الآثار المصرية ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٣٧م ٠

١٣١ـ حسن : « القصور الاموية في شرق الاردن » مقال بمجلة الكتاب ، عدد ديسمبر سنة ٩٤٥م ، صفحة ١٥٧ ـ ١٦٨ ٠

١٣٢ـ حسن : صبري محمد ، « الجغرافيون العرب » ٢ جزء ، مطبعة القضاء النجف ، العراق ١٩٥٨م .

١٣٣ـ حمزة : عبد اللطيف « صلاح الدين بطل حطين » دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٣٤ـ حسن : دكتور علي ابراهيم « مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي الى الفتح العثماني » دار النهضة المصرية ، طبعة رابعة ، القاهرة ١٩٥٤م .

١٣٥ـ الدبس : المطران يوسف « تاريخ سورية » ٨ اجزاء ، طبع بيروت ، ١٨٩٣ ـ ١٨٩٨م .

١٣٦ـ ربيع : دكتور حسنين محمد « النظم المالية في زمن الايوبيين » مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٤م .

١٣٧ـ رمزي : محمد « القاموس المصري للبلاد المصرية » ٢ جزء ، دار الكتب القاهرة ١٩٥٨م .

١٣٨ـ رفعت : محمد « الاطلس التاريخي » القاهرة ١٩٣٩م .

١٣٩ـ زيادة : دكتور محمد مصطفى « حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة » القاهرة ١٩٦١م .

١٤٠ـ زكي : دكتور عبد الرحمن « الجيش المصري في العصر الاسلامي » ٢ جزء ، مطبعة الكيلاني ، القاهرة ١٩٧٠م .

١٤١ـ زكي : « قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار » المطبعة الثقافية ، القاهرة ١٩٧١م .

١٤٢ـ الزركلي : خير الدين « عامان في عمان » المطبعة العربية ، القاهرة ١٩٢٥م .

١٤٣ـ الزركلي : « الاعلام ـ قاموس تراجم الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين » ١٠ اجزاء ، طبعة ثانية ، القاهرة .

١٤٤ـ زيادة : دكتور نقولا « الجغرافية والرحلات عند العرب » دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٦٢م .

١٤٥ـ زيادة : « لمحات من تاريخ العرب » دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٦١م ٠

١٤٦ـ سليمان : دكتور احمد السعيد « تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة » ٢ جزء ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٢٧م ٠

١٤٧ـ سالم : دكتور السيد عبد العزيز « دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي » مطبعة دار الاحد ، بيروت ١٩٧٠م ٠

١٤٨ـ سالم : « طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي » دار المعارف ، الاسكندرية ١٩٦٧م ٠

١٤٩ـ سالم : « تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي » دار المعارف ، اسكندرية ، طبعة ثانية ١٩٦٩م ٠

١٥٠ـ سالم : « تاريخ الدولة العربية » دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧١م ٠

١٥١ـ سالم : « التاريخ والمؤرخون العرب » اسكندرية ١٩٦٧م ٠

١٥٢ـ سرور : دكتور محمد جمان الدين « مصر في عصر الدولة الفاطمية » مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٠م ٠

١٥٣ـ سرور : « دولة الظاهر بيبرس في مصر » القاهرة ١٩٦٠م ٠

١٥٤ـ سرور : « النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب » القاهرة ١٩٥٦م ٠

١٥٥ـ سرور : « النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق » القاهرة ١٩٥٩م ٠

١٥٦ـ سليم : محمود رزق « عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي » مطبعة التوكل ، القاهرة ١٩٤٧م ٠

١٥٧ـ سعداوي : دكتور نظير حسان « التاريخ الحربي المصري » مطبعة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧م ٠

١٥٨ـ سعداوي : « المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الايوبي » مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٢م ٠

١٥٩ـ سعداوي : « خمسة من معاصري صلاح الدين » مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧م ٠

١٦٠- الشيال : دكتور جمال الدين « تاريخ مصر الاسلامية » ٢ جزء ، مطبعة رويال ، اسكندرية ١٩٦٧م ·

١٦١- الشيال : « مصر والشام بين دولتين » دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٤٧م ·

١٦٢- الشيال : « مجموعة الوثائق الفاطمية » القاهرة ١٩٥٨م ·

١٦٣- الشيال : « مجمل تاريخ دمياط » اسكندرية ١٩٤٩م ·

١٦٤- الشلش : علي حسين « دراسة تحليلية لتركيب السكان الديموغرافي في المملكة الاردنية » مطبعة حداد ، البصره ١٩٦٨م ·

١٦٥- الشيخ : محمد محمد موسى « الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها » ١٠٩٧ - ١١٤٤م ، دار الثغر ، اسكندرية ١٩٧٢م ·

١٦٦- صالح : احمد « الخرائط الجغرافية » مطبعة المعارف ، القاهرة ١٩١٤م ·

١٦٧- الطباخ : محمد راغب محمود « اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » ٧ اجزاء ، المطبعة العلمية ، حلب ١٩٢٣م ·

١٦٨- الصياد : « فؤاد عبد المعطي « المغول في التاريخ » دار القلم ، القاهرة ١٩٦٠م ·

١٦٩- طرخان : دكتور ابراهيم علي « النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى » دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٨م ·

١٧٠- عبد الكريم : دكتور احمد عزت ونخبة من الاساتذة « أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الاعشى » الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣م ·

١٧١- عاشور : دكتور سعيد عبد الفتاح « العصر المماليكي في مصر والشام » دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٥م ·

١٧٢- عاشور « الايوبيون والمماليك في مصر والشام » دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٠م ·

١٧٣ــ عاشور : « تاريخ الحركة الصليبية » ٢ جزء ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦٣م ٠

١٧٤ــ عاشور : « الظاهر بيبرس » المؤسسة العامة للتأليف والنشر » سلسلة اعلام العرب ، القاهرة ١٩٦٣م ٠

١٧٥ــ عاشور : « الناصر صلاح الدين » الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥م ــ سلسلة اعلام العرب العدد ٤١ ٠

١٧٦ــ العبادي : دكتور احمد مختار « قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام » دار النهضة العربية للنشر ، بيروت ١٩٦٩م ٠

١٧٧ــ العبادي وسالم : احمد مختار وعبد العزيز « تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام » دار الاحد ، بيروت ١٩٧٢م ٠

١٧٨ــ عبد العال : محمد « دولة بني أيوب في اليمن » ٥٦٩ ــ ٦٢٦هـ ، ١١٧٤ ــ ١٢٢٩م ، رسالة ماجستير ، باشراف دكتور سعيد زغلول عبد الحميد ، جامعة اسكندرية ، ١٩٦٨م ٠

١٧٩ــ عبد العال : « دراسة حول اقوال المؤرخين عن اسباب الفتح الايوبي لبلاد اليمن » مقالة بمجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الثالث عشر ، الجزء الثاني ، عام ١٩٦٧م صفحة ٣١٩ ــ ٣٣٨ ٠

١٨٠ــ العبادي : دكتور مصطفى « مصر من الاسكندرية الى الفتح العربي » مطبعة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٦م ٠

١٨١ــ العريني : دكتور الباز « المماليك » دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٧م ٠

١٨٢ــ العريني « الايوبيون » دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٧م ٠

١٨٣ــ العريني : « مصر في عصر الايوبيين » سلسلة الالف كتاب ، مطبعة الكيلاني ، القاهرة ١٩٦٠م ٠

١٨٤ــ العريني : « مؤرخوا الحروب الصليبية » دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٢م ٠

١٨٥ـ علي : محمد كرد « خطط الشام » ٦ اجزاء ، المطبعة الحديثة ، دمشق ١٩٢٥م ٠

١٨٦ـ غوانمة : يوسف درويش « تاريخ شرقي الاردن في عصر دولة المماليك الاولى » ٢ جـزء ، منشورات وزارة الثقافـة والشباب الاردنية ، عمان ١٩٧٩م ٠

١٨٧ـ غوانمة : « عمان حضارتها وتاريخها » منشورات دار اللواء ، عمان ١٩٧٩م ٠

١٨٨ـ غوانمة : « الاردن في استراتيجية صلاح الدين » بحث في مجلة أفكار العدد ٤٢ كانون اول ١٩٧٨ ص ٨٢ ـ ٨٨ ٠

١٨٩ـ غوانمة : « دراسة في تاريخ مدينة الصلت (السلط) » بحث في مجلة أفكار الاردنية ، العدد ٤٣ ، كانون ثاني ١٩٧٩م ، ص ٩٠ ـ ٩٩ ٠

١٩٠ـ غوانمة : « القرية الاردنية الفلسطينية في العصر المملوكي في ضوء وقفية أدر » بحث قدم للمؤتمر الدولي الاول لدراسة تاريخ آثاره ، اكسفورد ٢٥ ـ ٣١ آذار ١٩٨٠م ٠

١٩١ـ غوانمة : « بيت المقدس في الحملة الصليبية الاولى والسادسة » بحث القي في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) ، عمان ١٩ ـ ٢٤ نيسان ١٩٨٠م ٠

١٩٢ـ فريحة : انيس « معجم اسماء المدن والقرى اللبنانية » منشورات الجامعة الامريكية ، بيروت ١٩٧٢م ٠

١٩٣ـ فكري : دكتور احمد « المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها » دار المعارف ، الاسكندرية ١٩٦١م ٠

١٩٤ـ فهمي : دكتور عبد الرحمن « النقود العربية ماضيها وحاضرها » مطبعة مصر ، سلسلة المكتبة الثقافية ، القاهرة ١٩٦٤م ٠

١٩٥ـ فهمي : دكتور نعيم زكي « طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب » الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ١٩٧٣م ٠

١٩٦ـ قسطالي : نعمان افندي « الروضة الغناء في دمشق الفيحاء » طبع دمشق ١٨٧٩م ٠

١٩٧ـ كحالة : عمر رضا « معجم المؤلفين » تراجم مصنفي الكتب العربية ، ٧ اجزاء ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٥٧م ٠

١٩٨ـ الكرملي : انستاس ماري « النقود العربية وعلم النميات » المطبعة العصرية ، القاهرة ١٩٣٩م ٠

١٩٩ـ ماهر : دكتور سعاد « البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية » دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧م ٠

٢٠٠ـ ماجد : دكتور عبد المنعم « نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر » مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٤م ٠

٢٠١ـ ماجد : « تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى » مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٣م ٠

٢٠٢ـ ماجد : « الناصر صلاح الدين » القاهرة ١٩٥٨م ٠

٢٠٣ـ ماجد : « الاطلس التاريخي للعالم الاسلامي في العصور الوسطى » دار الفكر العربي ، القاهرة طبعة ثانية ٠

٢٠٤ـ المجلس الاعلى : « المجلس الاعلى للعلوم في الجمهورية المتحدة » موسوعة سيناء ، القاهرة ١٩٦٠م ٠

٢٠٥ـ محمود : محمود رزق « العلاقات بين ارناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الايوبي حتى واقعة حطين » رسالة ماجستير باشراف دكتور حسن حبشي ، جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٣م ٠

٢٠٦ـ المناوي : دكتور محمد حمدي « الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي . دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٠م ٠

٢٠٧ـ النخيلي : درويش « السفن الاسلامية على حروف المعجم » مطبعة الاهرام ، اسكندرية ١٩٧٤م ٠

٢٠٨ـ النقاش : دكتور زكي « العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية » مطابع دار الكشاف ، بيروت ١٩٥٨م ٠

٢٠٩ـ يوسف : دكتور جوزيف نسيم « العدوان الصليبي على مصر هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور » دار الكتب الجامعية ، اسكندرية ١٩٦٩م ٠

٢١٠ـ يوسف : « الوحدة وحركة اليقظة العربية ابان العدوان الصليبي » دار المعارف ، اسكندرية ١٩٦٧م ٠

٢١١ـ يوسف : « العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى » دار المعارف ، اسكندرية ١٩٦٧م ٠

٢١٢ـ يوسف : « العدوان الصليبي على بلاد الشام هزيمة لويس التاسع في الاراضي المقدسة » دار الكتب الجامعية ، اسكندرية ، طبعة ثالثة ١٩٧١م ٠

٢١٣ـ يوسف : « الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية » مجلة كلية الاداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد السادس عشر (١٩٦٢ ـ ١٩٦٣) صفحة ١٨٣ ـ ٢١١ ٠

رابعا : المصادر والمراجع الأوروبية المعربة

٢١٤ـ جوانفيل : جوانفيل « مذكرات جوانفيل أو القديس لويس » ترجمة حسن حبشي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٨م ٠

٢١٥ـ ارنست باركر : « الحروب الصليبية » ترجمة الباز العريني ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦٠م ٠

٢١٦ـ آدم متز : « الحضارة الاسلامية » أو عصر النهضة في الاسلام ، ٢ جزء ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ، طبعة ثالثة ، مطبعة التأليف والنشر ، القاهرة ١٩٥٧م ٠

٢١٧ـ برستد « جيمس هنري » : تاريخ مصر من أقدم العصور الى الفتح الفارسي ، ترجمة حسن كمال ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٩٢٩م ٠

٢١٨ـ بروكلمان « كارل » : « تاريخ الشعوب الاسلامية » ٥ اجزاء ، ترجمة نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩م ٠

٢١٩ـ بارتولد : « تاريخ الحضارة الاسلامية » ترجمة حمزة طاهر ، القاهرة ١٩٥٨م ٠

٢٢٠ـ جان سوفاجييه : « دمشق الشام » ترجمة فؤاد افرام البستاني ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٦م ٠

٢٢١ـ رانسمان استيفن : « تاريخ الحروب الصليبية » ترجمة الباز العريني ، ٣ اجزاء ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨م ٠

٢٢٢ـ زامباور « ادوارد فون » : « معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي » ٢ جزء ، اخرجه زكي محمد حسن ، حسن احمد محمود ، سيده اسماعيل كاشف ، مطبعة جامعة فؤاد الاول ، القاهرة ١٩٥١م ٠

٢٢٣ـ غوستاف لوبون : « حضارة العرب » ترجمة عادل زعيتر ، طبعة ثالثة ، القاهرة ١٩٥٦م ٠

٢٢٤ـ فيليب حتي : « تاريخ العرب » ٢ جزء ، ترجمة محمد مبروك نافع ، دار العالم ، القاهرة ١٩٥٢م ٠

٢٢٥ـ فيليب حتي : « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » ٢ جزء ، ترجمة جورج حداد وكمال اليازجي ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ .

٢٢٦ـ فيليب حتي : « العرب ، تاريخ موجز » دار العلم للملايين ، بيروت طبعة ثالثة ١٩٦٥م .

٢٢٧ـ فشر : « تاريخ اوروبا والعصور الوسطى » ٢ جزء ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والباز العريني ، دار المعارف ، القاهرة ، طبعة خامسة ١٩٦٩م .

٢٢٨ـ فردريك بيك : « تاريخ شرقي الاردن وقبائلها » ترجمة بها الدين طوقان ، مطبعة دار الايتام ، القدس ١٩٣٥م .

٢٢٩ـ كازانوفا « بول » : « تاريخ ووصف قلعة القاهرة » ترجمة احمد دراج الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤م .

٢٣٠ـ كريزويل : « وصف قلعة الجبل » ترجمة جمال محرز ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤م .

٢٣١ـ لانكستر هاردنج : « آثار الاردن » ترجمة سليمان موسى ، منشورات وزارة السياحة والآثار الاردنية ، المطبعة الوطنية ، عمان ــ الاردن ١٩٧١م .

٢٣٢ـ ماير : « الملابس المملوكية » ترجمة صالح الشيني ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٢م .

٢٣٣ـ مكسيموس مونرود : « تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة بحرب الصليب » ترجمة مكسيموس مظلوم ، ٢ جزء ، طبع القدس ١٨٦٥م .

٢٣٤ـ هاملتون جب : « صلاح الدين الايوبي » ترجمة يوسف أبيش ، مؤسسة خليفة للطباعة ، بيروت ١٩٧٣م .

٢٣٥ـ وليم موير : « تاريخ دولة المماليك في مصر » ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ، مطبعة المعارف ، القاهرة ١٩٢٤م .

خامسا : المصادر والمراجع باللغات الأوروبية

236. Recueil des Historiens des Croisades.

    1. Historiens occidentux 5 vols.
    2. Historiens orientaux 5 vols.

237. Fulcher of Chartres, A History of the expedition to Jerusalem, 1095 - 1127 Translated by Frances Rita Ryan, New York, 1973.

238. THOMAS, "Wright" : Early Travels in Palestine, London, 1848.

239. ATIYA, "Aziz" : Grusade, Commerce and Culture. New York, 1962.

240. ATIYA, The Crusade, Historiography and Bibliography, Indiana University Press, U.S.A. 1962.

241. BELLOC, "H." : The Grusade, The World's debate, Londan 1937.

242. CAMPELL, "G.A." : The Crusades, London, 1935.

243. CONDER, "G.R." : The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1897.

244. CONDER, The Monumental History of Palestine, London, 1886.

245. COMBE, SAUVAGET, WIET, : Repertoire chronologique d'Epigraphie Arabe, 14 Vols. Le Caire, 1931 - 1944.

246. CRESWELL, : Early Muslim Architecture, 2 vols. Oxford, London.

247. DOZEY, "R.P.A." : Dictionnaire detaille des noms de vetements chez Les Arabs. Amsterdam, 1845.

248. DOZEY, : Supplement aux dictionaires Arabes, 2 vols Leyde, 1851.

249. FEDDEN, "Robin" : Crusader Castles, London, 1950.

250. GAUDEFROY, "Demombynes" · La Syrie A l'epoque des Mamelouks, Paris 1923.

251. HARRIS, "George" : Jordan, Its people, Its society, Its culture, New Haven Harf Press, 1958.

252. HEYD, "W." : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, 2 vols. Leipzig, 1886.

253. KING, "E." : The Knights Hospitallers in the Holy Land London 1931.

254. LAMB, " Harold" : The Crusades, The Flame of Islam, London, 1943.

255. LANE POOLE, "Stanly" : A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936.

256. LANE POOLE, "Etanly" : Saladin and the Fall of the kingdom of Jerusalem, Beirut, 1964.

157. LAMMENS, : La Syrie Precis Historique. 2 vols., Beyrouth, 1921.

258. LE STRANGE, "Gey" : Palestine under the Moslems, Beirut, 1965.

259. Luke and Keith - Roach, The Handbook of Plaestine and Trans Jordan, London, 1934.

260. LOPEZ AND RAYMOND, : Medieval Trade in the Mediterranean, London, 1955.

261. MARGOLIOUTH, "D.S." : Cairo, Jerusalem, and Damascus, London, 1907.

262. MICHAUD, "Par" : Histoire des Croisades, 5 vols. Paris, 1817.

263. MORRISSON, "Cecile", : Les Croisades, Paris, 1969.

264. MURRY, "John" : Handbook for Travellers in Syria and Palestine, London 1868.

265. MULLER, (Wiener), Castles of the Crusaders London, 1966.

266. : NEWTON, "O.P." : Trade and Travellers of Middle Ages, London, 1930.

267. MIEBUHR, "M." : Travels Through Arabia and other countries in the East, 2 vols. Translated into English by : Robert Heron, London, 1792.

268. Prawer, (J.) : The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1872.

269. RAPHAEL, "Patai" : The Kingdom of Jordan, Princeton University Press, 1958.

270. ROSEBAULT, : Saladin Prince of Chivalry, London, 1930.

271. RUNCIMAN, "Steven" : A History of the Crusades, 3 vols. Cambridge, 1957.

272. SMITH, "G.A." : The Historical Geography of the Holy Land, London, 1896.

273. SPARROW, "J.G." : Modern Jordan, London, 1960.

274. STEPHENS, "George" : Incidents of Travel in Egypt, Arabia, Petra, and the Holy Land Edinburgh, 1839.

275. SETTON, "K.M." : A History of the crusades, 2 vols. Pensaylvania, 1958.

276. STANLEY, "Arthur P." : Sinai and Palestine, London, 1866.

277. SCHLUMBERGER, "G." : Renaud de Chatillon, Paris, 1898.

278. STEVNSON, "W.D." : The Crusaders in the East-Beirut, 1968.

279. TRAPIER, "Blanche" : Les Voyageurs Rrabes au Moyen Age, Gallimard, 1937.

280. TRISTRAM, : The Land of Israel, Journal of Travels in Palestine, New York 1876.

281. WITSON, "Sir Charles" : Picturesque Palestine, Sinai, and Egypt, 5 vols. London, 1882.

282. ZIADEH. "Nicola" : Urban Life in Syria, Beirut, 1953.

283. ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM : vol. 2 Article, Kerak, London, 1927.

284. ENCYCLOPAEDIA BRITANSICA, vol.13, Article, Karak U.S.A. 1968.

285. The Jewish Encyclopedia, vol. 7 and vol. 8, Articles, Moab, and Kir.

الخرائط والجداول وملخص الكتاب

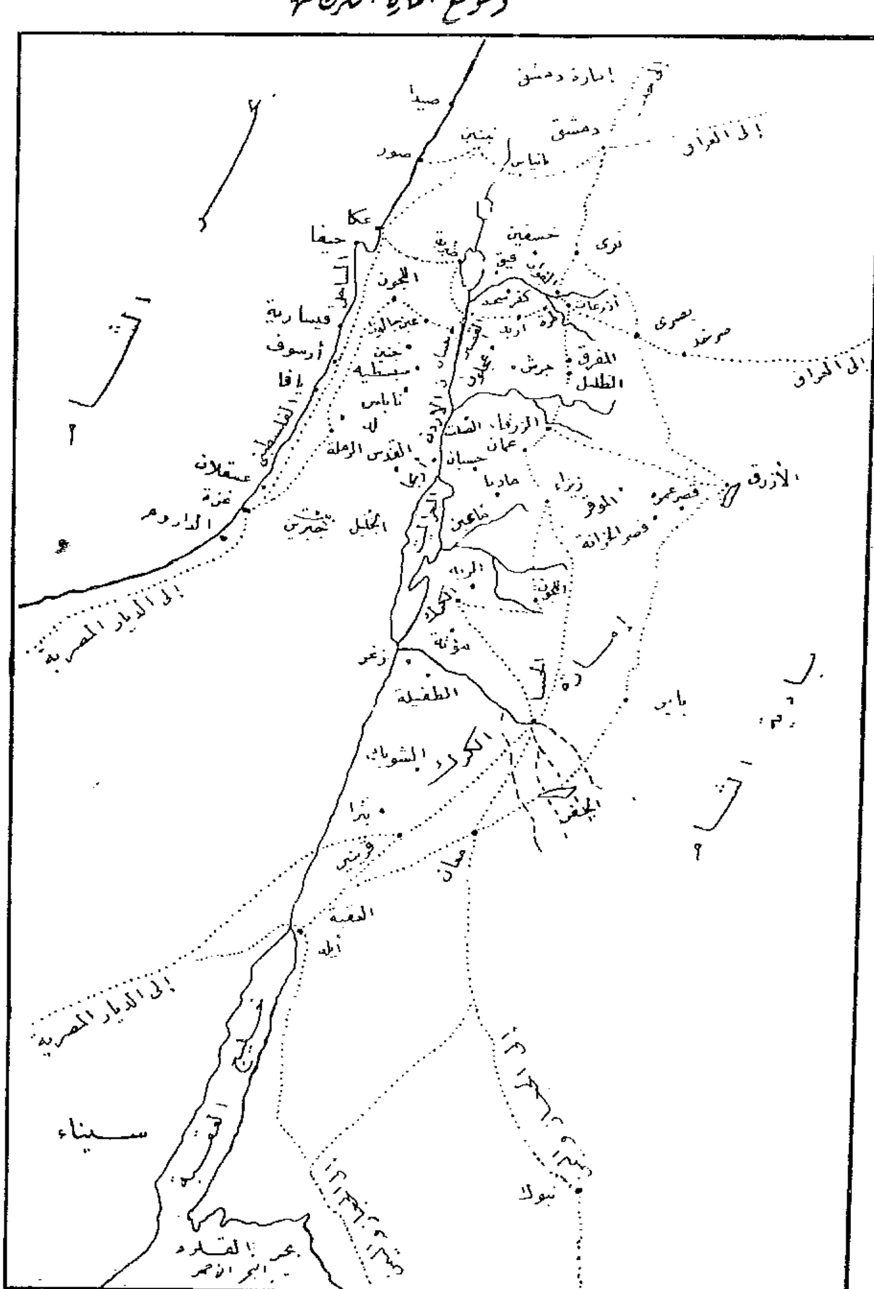
باللغــة الانجليزيــة

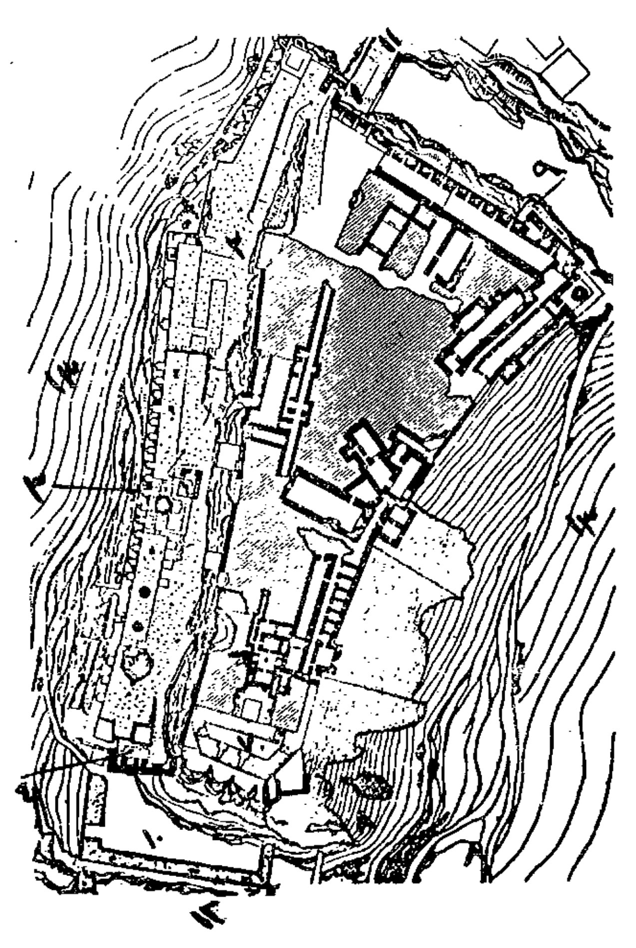


إمارة الكرك الأيوبية

بلاد الشام
دمشق
إمارة دمشق
صيدا
شقيف أرنون
بانياس
هونين
صور
تبنين
صفد
عكا
حيفا
حطين
طبرية
بصرى
صرخد
أذرعات
عتليت
قيسارية
أرسوف
يافا
الرملة
عسقلان
غزة
الداروم
نابلس
سبسطية
جنين
عين جالوت
بيسان
كوكب
عجلون
جرش
اربد
الزرقاء
عمان
حسبان
أريحا
القدس
الخليل
بيت جبرين
مادبا
زيزاء
الموقر
الأزرق
قصر الموانه
ذيبان
نهر الموجب
الكرك
مؤتة
زغر
الطفيلة
الحسا
باير
الشوبك
وادي موسى
بترا
معان
العقبة
أيله
سيناء
بلاد العرب
تبوك
بحر القلزم
البحر الأحمر

شبكة المواصلات وطرق التجارة في القرنين السادس والسابع الهجريين وموقع امارة الكرك منها





رسم تخطيطي لقلعة الكرك

ـ البوابـة الرئيسيـة للقلعـــة وجسرها الخشبي

٢ ـ الاجزاء السفلى من القلعة

٣ ـ البوابة المؤدية للاجزاء السفلى

٤ ـ الجـدران الخارجيـة للقلعـة السفلى

٥ ـ البرج الشمالي الشرقي

٦ ـ القصر والقاعات المعدة للسكنى

٧ ـ القلعة (برج الظاهر بيبرس)

٨ ـ احـد المنحـدرات المـرصوف بالحجارة الملساء لعرقلة عملية ارتقاء الاسوار

٩ ـ احد الابواب السرية للقلعة

١٠ـ البركة وبجانبها باب النصر

١١ـ الخندق الامامي

١٢ ـ الخندق الخلفي

١٣ـ اجـراف سحيقة مـن الشرق والغرب

١ ـ جدول بأسماء ملوك امارة الكرك في العصر الايوبي :

٥٨٤ ـ ٥٩٢هـ العادل سيف الدين أبو بكر .
١١٨٩ ـ ١١٩٦م

٥٩٢ ـ ٥٩٤هـ الملك المعظم عيسى بن العادل (على الكرك وحدها) .
١١٩٦ ـ ١١٩٨م

٥٩٤ ـ ٦٢٤هـ الملك المعظم عيسى على دمشق والكرك معا .
١١٩٨ ـ ١٢٢٧م

٦٢٤ ـ ٦٢٦هـ الملك الناصر داود بن عيسى على دمشق والكرك معا .
١٢٢٧ ـ ١٢٢٩م

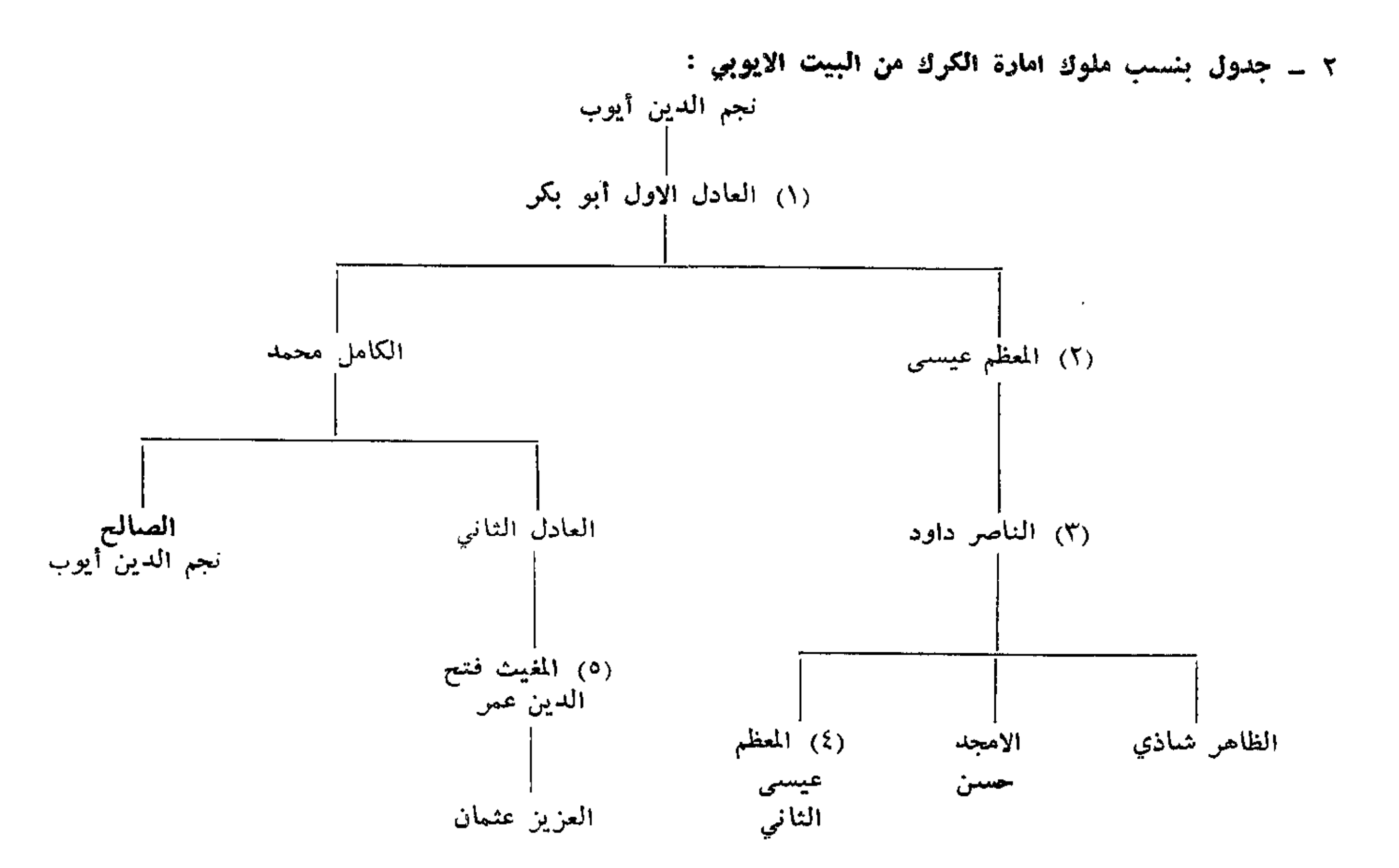
٦٢٦ ـ ٦٤٧هـ الملك الناصر داود على الكرك وحدها تقلا .
١٢٢٩ ـ ١٢٤٩م

٦٤٧ ـ الملك المعظم عيسى بن الناصر داود .
١٢٤٩م

٦٤٧ ـ ٦٤٨هـ الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر وابنه المعظم
١٢٤٩ ـ ١٢٥٠م تورانشاه . ونائبهما فيها بدر الدين الصوابي .

٦٤٨ ـ ٦٦١هـ الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل .
١٢٥٠ ـ ١٢٦٣م

٢ ـ جدول بنسب ملوك امارة الكرك من البيت الايوبي :



5 th. Chapter :

I talked about El-Karak's Emirate in the age of Al-Malik el-Nasser Daoud whom : Considered in fact the exact Founder to El-Karak's Emirate which represented indeed the present Jordan's entity. Therefore all Jordan's entity has been set really since Seven and half Centuries approximately. I talked about El-Karak Emirate and its role for liberating Jerusalem by its own forces from El-Karak in 1239 A.C.

The 6 the Crapter :

It was Specialized for talking about El-Karak's Emirate in the age of Al-malik El- Moghith Omar, and his attitude from the Mamluks state in Egypt and how Al-Malik El-Zaher Baybars was interested in Jordan.

Chapter 7 :

I studied aspects of Civilization in El-Karak Emirate. In the Islamic Commerce field I emphasized the special Location that El-Karak and Jordan enjoyed as the only roads for Moslem Commercial Caravans.

Dr. Yousef Ghawanmeh

his son Nur - ad - Din, then saladin who liberated a large part from the latin Kingdom of Jerusalem.

I divided this study into Seventh Chapters, 1 st. Chapter.

I interpreted of El-Karak, and its meaning throughout the historical texts; then I discussed the historical importance of the Jordan region since the most ancient ages till the Crusading Conquest. I Concluded the chapter with a study of El-Karak Emirate Location which agrees with Jordan's Limits as a whole and a background of its geogrphical and strategical location.

8 nd chapter :

I tackled the history of the eastern Jordan at the end of the fatimites age, and clarified the initial movements of the islamic awakining in the sixth Century and the efforts of Zinki, Nur - ad Din, and Saladin a ccording to this Feild. Furthermore, I discussed the Policy of both Damascus and Cairo towards this region as it represents a Connecting Link between them.

3 rd Chapter :

I tackled the military activity of saladin against El-Karak Emirate. His first activity began from Cairo and during that, these efforts were as a turning point in El-Karak's political and economical role. I clarified all the battles and how they Succeeded.

4 th. Chapter :

I discussed El-Karak's Emirate after Saladin and how it was affected by the Islamic Character. I also Clarified the special attention that was given to it by Al-Adil and Al-Malik ISSa, and how Al-Malik ISSa Could erect the Castles and achieved he peace and Security in all Jordan's places from he north till the South. In particulary I tackled the Conflict that had arisen around the region of El-Karak and El-Shaubak among the Moslems and the Franks in the 5th. expedition.

SUMMARY

IMARAT EL-KARAK EL-AYYUBIYYAH

El-Karak Emirate played an important role in the history of the Islamic Near East paricularly, and in the international general history as a whole. This Emirate was the main centre of the conflict between Ayyubids Force in Syria and Egypt and the crusading force in Jerusalem and the Palestinian Coast, since the Islamic world had been exposed to the crusading attack which was a mere economic imprialistic conquest that had been hidden behind a false religious front.

From the beginning the Crusades comprehended in Jerusalem the inportance of Eastern Jordan region for the strategic and economical reasons, so they controlled it and founded in it in 509 (1115 A.C.) the castles of El-shaubak, then El-Akaba. Thus, tht Crusades were able to see the Red sea which was considered the chief road for the international commerce since the most ancient ages. They also had to control totally any Islamic movement between Damascus, Cairo, Peninsula and Iraq upon the region of Jordan river. So, they renewed El-Karak Castle in 537 (1142A.C.) and in doing so, all the Moslem Caravans and their commerce became under the Crusades mercy who did not hesitate to attack these Caravans when they cross near towards their way.

The continuing crusades attacks made the moslems realize the strategic importance of the region since it represented the only outlet between Syria and Egypt Firstly, and between El-Hijaz and Syria seçondly. The Seljuks in Damascus, and the Fatimites in Cairo attempt to regian it; but all these attempts did not get any promising result, and led to a great Failure. The Seljuks and the Fatimites were compelled to pay the dues of their Caravans to the Franks. It was not till the Eslamic enormous revolution which was led by Imad - ad - Din - zinki, and

كشاف بأسماء الاماكن

أ —

ب —

ت ــ

ث ــ

ج ــ

ح ــ

خ ـ

د ـ

ذ —

ر —

ز —

س —

ش —

ص —

ض —

ط —

ظ —

ع —

ك —

ل –

م –

فهرس موضوعات الكتاب

الفصل الثالث

نشاط صلاح الدين الحربي ضد امارة الكرك الصليبية

الفصل الرابع

الكرك بعد صلاح الدين

الفصل الخامس

امارة الكرك زمن الناصر داود

الفصل السادس

امارة الكرك بعد الناصر داود

المصادر والمراجع العربية والاوروبية

IMĀRAT AL - KARAK AL - AYYUBIYYAH

by

Dr . YOUṢEF H - D .
GHAWANMEH

DAR AL - FIKR - AMMAN

IMĀRAT AL - KARAK
AL - AYYUBIYYAH

الدكتور يوسف حسن درويش غوانمة

إمارة الكرك الأيوبية

دار الفكر



الناشر

دار الفكر - عمان